ماتي فيشنيك

بائع الجُمل الأولى

مكتبة

ترجمة: عبد المجيد سباطة

مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

بائع الجُمل الأولى

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: ماتي فيشنيك

عنوان الكتاب: بائع الجُمل الأولى

ترجمة: عبد المجيد سباطة

العنوان باللغة الأصلية: Negustorul de începuturi de roman

الكاتب: Matei Vişniec

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-38-4

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

© 2013, 2014 by Editeura POLIROM

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

ماتي فيشنيك

مكتبة
t.me/soramnqraa

بائع الجُمل الأولى

رواية

ترجمة

عبد المجيد سباطة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

مقدمة المترجم

يقول مؤلف رواية «بائع الجُمل الأولى» «إن الأدب ما بعد الحداثي هو الأدب الذي يفكر أولا في ذاته ومعناه والحاجة إلى وجوده، وبالتالي، يمكن لكل من (وما) أحببناه أن يتحول إلى شخصية أو اقتباس، وإلى تعبير عن العشق اللامتناهي للأدب».

فلنبدأ بالكاتب، ماتي فيشنيك، وهو روائي ومؤلف مسرحي وشاعر وصحفي روماني، من مواليد «رادوتي» شمال شرق رومانيا، عام ١٩٥٦. غادر بلده في السنوات الأخيرة من حكم نيكولاي تشاوتشيسكو، ليستقر في فرنسا منذ أزيد من ثلاثة عقود، ويعيش حياة مزدوجة، عمادها التمزق بين الحرية بمفهومها الغربي، والتقاليد الشيوعية الراسخة لما عرفه في موطنه، الذي دفعت به مخرجات الحرب العالمية الثانية إلى أحضان المعسكر الشرقي، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك، الكتابة باللغتين الرومانية والفرنسية بالتوازي، مخصصا لغته الأم للرواية والشعر وأدب الطفل، والفرنسية للمسرح، ما جعل منه اسما بارزا في أبي الفنون، هناك في عاصمة الأنوار: باريس، إذ ترجمت نصوصه إلى لغات عديدة،

وتحولت إلى عروض جابت دول أوروبا وخارجها، فيما لم تنل رواياته الحظ نفسه من الانتشار، رغم فرادة مواضيعها وخروجها الفعلي عن الأنماط السردية السائدة.

بالعودة إلى التعريف الذي صاغه لأدب ما بعد الحداثة، فهو على اتساع معانيه، الأقدر على اختزال مضمون رواية «بائع الجمل الأولى» العصية على التلخيص. الإطار العام للعمل، قصة رجل ينتظر الجملة الأولى التي ستقوده إلى الفوز بجائزة نوبل، لكنها لا تأتي أبدا، فيواصل الكتابة رغم كل شيء، لكن الرواية تتجاوز ذلك لتتأمل في جدوى الأدب والكتابة والقراءة، عبر حكايات متقاطعة لعدة شخصيات، تتلاقى في نهاية المطاف، كما لو أن الأمر يتعلق بكرة من الصوف، يبدأ خيطها الأول بلقاء بين كاتب مغمور ورجل غامض يدعي أنه مدير وكالة لبيع الجمل الأولى، ليتنقل القارئ بعدها بين مجموعة من النصوص، بينها بدايات روايات وأشعار ورسائل وقصص قصيرة وعوالم غرائبية وأحلام وخيال علمي، في بناء محير ومراوغ، لكن سلاسة السرد تضمن للقارئ عدم الوقوع في فخ الضياع.

يبدو أن التشظي الذي اختاره الكاتب في هندسة هذه «الرواية - العالم» كان مقصودا، ومعبرا بكل وضوح عن سيولة الحياة المعاصرة، وإشكالات العيش في زمن اللايقين، حيث يتجلى هذا التشظي في طبيعة المشاعر والعلاقات الإنسانية والحياة المهنية، مع تنقل مستمر بين المعلومات والأحداث، وسعي محموم لتجربة كل «البدايات»، دون أدنى اهتمام بالوصول إلى النهايات، وإن كان فيشنيك أكثر حذرا

في هذا الشأن، مفضلا الحفاظ على خيط ناظم، تجتمع من خلاله كل الشخصيات والأحداث في نهاية المطاف.

وما دامت هذه الرواية تأملا في جدوى الأدب والكتابة كما أسلفنا، فإنها كانت سباقة (بصدورها باللغة الرومانية أول مرة عام ٢٠١٣) إلى مناقشة تأثير الذكاء الصناعي على مستقبل الأدب، موضوع أسال مدادا كثيرا مؤخرا، فيما دمجه الكاتب في هذه الرواية بطريقة أقرب للساخرة، بتخيله برنامج حاسوب يتولى الكتابة نيابة عن مشغله، الذي يكتفي فقط بإدخال معطيات حول عدد الصفحات ونوعية الرواية المرجوة وجنس بطلها وهويته، مضيفا إلى الحبكة بعدا آخر عنوانه مراوغة القارئ وتحديه بسؤال جوهري: «من يكتب ماذا»؟

«بائع الجمل الأولى» مغامرة قراءة فريدة من نوعها، استمتعت بـ«لعبة» ترجمتها، وتقديمها للقارئ العربي (وهي الفرصة التي انتظرتها لسنوات)، لإيماني بجودتها وبالرسالة التي دسها المؤلف بين سطورها:

أن البشر لن يتمكنوا من فهم ذواتهم حقيقة إلا عن طريق الأدب...

(١)

مكتبة
t.me/soramnqraa

- الجملة الأولى في رواية ما هي تلك الصرخة الطائشة التي تسبق الانهيار... والشرارة التي تطلق سلسلة من ردود الأفعال... لا يمكن للجملة الأولى أن تكون بريئة أبدًا. إنها تحمل بذرة القصة والحبكة بأكملها. الجملة الأولى أشبه بكل الممكنات في شكلها الجنيني، أو اعتبرها حيوانًا منويًّا محظوظًا، لو سمحت لي بهذه المقارنة... ها ها! ...

استمعت إلى هذه الكلمات من باب المجاملة لا أكثر، إذ كنت منغمسًا في عوالم أخرى. راودني حلم غريب طوال الليل، بل إنه كان أقرب إلى الكابوس: رأيت نفسي أضع قائمة بالمشاكل الكبرى للإنسانية (أزمات، حروب، أوبئة، كوارث) ولكن دون أن أفلح في إنشاء تسلسل هرمي مناسب بينها، مكتفيًا فقط بنقلها من موقع إلى آخر. فانتقلت المشكلة الأولى إلى المرتبة الرابعة، وانتقلت المشكلة الخامسة إلى المرتبة الثانية، وهكذا دواليك. ثم، وخلال الصباح التالي، تلقيت مكالمة من أحد الزملاء الكتاب في بوخارست، يطلب مني التوقيع على ملتمس لإنقاذ

كاسا مونتيورو. أغرقني كل هذا في حالة غريبة من التردد واللايقين. وبعد هذه المشاكل الصغيرة، انزعجت من هطل الأمطار الغزيرة في منتصف النهار، مخلفة معها موكبًا من الأشجار المائلة والمشوهة في الشانزليزيه، أمطار بدا واضحًا أن قدرًا معاكسًا قد أرسلها بهدف وحيد، هو إفساد كل شيء في اليوم الذي سأتسلم فيه جائزة أدبية قيمة.

- الكلمات الأولى في الرواية هي صرخة البحَّار الذي يطل على البحر من أعلى قمة السفينة، معلنًا ظهور اليابسة في الأفق... أعلم أن كلامي هذا قد يبدو مثيرًا للشفقة أو حتى أخرق بالنسبة إليك. ولكن امنحه، رغم ذلك، بعض الاهتمام، وسترى مدى صدقه... البداية الجيدة تعطي للرواية زخمًا، وإلا فإنها تقودها إلى العدم.

من ذا الذي امتلك القدرة على تقديمي إلى هذا الرجل؟ كيف التصق بي في تلك الحديقة البعيدة عن الأضواء، حيث جرت مراسم حفل توزيع جوائز غير ذات أهمية تحت أشعة شمس سخية، ظهرت بين السحب في اللحظة الأخيرة؟ كانت المروج وشجيرات الورد ومسارات الحصى بعدُ مبللة بالمطر، وما كان أحد من الحاضرين ليخشى هذه الأجواء الرطبة والباردة. يبدو أن كل هؤلاء الكتاب والنقاد والمحررين والوكلاء الأدبيين قد خرجوا من الكتب الحائزة على الجوائز في ذلك اليوم، وبدا لي أنهم يشبهون شخصيات مختلقة أكثر من كونهم أشخاصًا حقيقيين. تابعتهم بذهول، وهم يحققون أقصى استفادة ممكنة من حفلة الحديقة هذه، وهم يتراكضون من طاولة إلى أخرى في هياج محموم،

منتقلين من الأطباق اليابانية إلى نظيرتها المغاربية، ومن أهرامات الفواكه إلى أطباق الحلويات. وإن كانت استفادتهم الأكبر من الشامبانيا المتوفرة بلا حساب أو قيود، منشغلين بتبادل كلمات وعبارات مشفرة، ترافقها حركات ونظرات محملة بالمعاني والرسائل الخبيثة.

كنت أحمل كأسًا في يدي، مجبِرًا نفسي على الابتسام، كلما اقترب أحدهم مني ليؤكد استحقاقي لفت انتباه لجنة تحكيم الجائزة أخيرًا. أوه، لم يكن الأمر يتعلق بجائزة مهمة، ولم يكن اسمي حاضرًا بين الأسماء الأولى في القائمة، ولكنني حققت خطوة كبيرة نحو مزيد من *الظهور*.

- الإصبع الذي يضغط على الزناد، هذه هي حقيقة الجملة الأولى الناجحة، الجملة الأولى القوية. البداية /*الحقيقية* للرواية، تعني اندلاع حريق في القلب... ولكن لا تنسَ وجود جمل أولى انتحارية... لك أن تتخيل بداية رواية بحمولة قوية، لكنها تتخذ مسار الخذوف. ما الذي سيجري عندئذ؟ عودة إلى المرسِل، في منتصف جبهته. ولكنك تدرك أيضًا أن أي مؤلف أو كاتب أصلي من هذه الطينة، لا بد وأن يخوض بعض المجازفات أثناء الكتابة... كأن ينتهي به المطاف تحت أنقاض البناء الذي شيده هو...

خيل إليَّ أن صاحب هذا الكلام بلا وجه محدد، فلم أتمكن من تحديد طبيعة ملامحه المرتعشة أمام عيني. كان صوتًا، أكثر من أي شيء آخر. ولكن، هل كان هذا الصوت موجهًا إليَّ فقط، أم إنه تردد في أسماع كل المجتمعين هنا، وهم مئتا شخص من المصابين بفيروس لا شفاء منه،

اسمه الأدب؟ كنت مهتمًا بالحاضرين، ومركزًا في مئتي خصوصية تجمع بينهم في الآن نفسه، هم جزء من زبدة المجتمع الفني الباريسي، كانوا وبكل تأكيد أكثر *خبرة* مني («خبراء في ماذا؟» «في كل شيء») وكانوا حريصين على *الاستعراض* في هذا العالم بتلقائية أكبر مقارنة بي.

لو كان في إمكاني تجميع أفكاري، لقلت للصوت الملتصق بطبلة أذني ما يلي: ألم تلاحظ إذن أن شغلي الشاغل في هذه اللحظة تحديدًا هو يدي اليمنى؟ مسألة يدي اليسرى محلولة، لأنها تحمل كأس الشمبانيا، أما اليمنى فقد ظلت عاطلة عن العمل، لا معنى لها ولا تنفع في شيء، ولم أتمكن من منحها وضعية طبيعية.

- يمكن أن أفصِّل أكثر فيما قلته، لو قدِّر لنا الحصول على وقت أطول.

- صحيح. لا مشكلة بشأن الوقت.

- على أية حال، لا بد للجملة الأولى في الرواية أن تكون قاطرة قادرة على جر قطار الكلمات والجمل والصفحات والفصول وكل هذا التسلسل من الأحداث والتعابير المجازية خلفها. («آه، *مرحبًا*، هنيئًا لك، من الصدف الجميلة أنني مشغول حاليًا بقراءة عملك») الواقع أن الجملة الأولى أقرب إلى الانفجار... («برافو. بالمناسبة، من هو ناشرك؟») وإن كان في الإمكان تأخيره في بعض الأحيان. لكنه سيعلن، عاجلًا أو آجلًا، عن ولادة عالم جديد. قلة قليلة من المؤلفين، واعية بالطبيعة الخاصة جدًّا لهذه الجملة الأولى، ودور انفجار *البيغ بانغ* الذي تلعبه...

انشغل كل أبطال هذا العرض الاجتماعي والأدبي بالتحرك في جميع الاتجاهات، راضين عن أنفسهم، ومتلهفين لفكرة كونهم محط أنظار الآخرين. تشكلت مجموعات من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أشخاص بسرعة براونية، قبل أن تتفكك بالسرعة نفسها، لأن كل واحد منهم كان تواقًا إلى خوض التجربة مع أكبر عدد ممكن من التشكيلات المتنوعة.

كنت ملاحظًا جيدًا لتفاصيل هذا العالم، ملاحظًا صبورًا وشديد الانتباه. لو قدر لي تسلم جائزة ما في آخر عمري، لكانت مكافأة على نظرتي المتقنة *إلى كل شيء* عامة وإلى الأشخاص خاصة. أجل، لطالما اعتبرت أن الناس جديرون بأن تتم متابعتهم بنوع من *التلذذ*، سواء كانوا من معارفي أو مجرد عابرين أو مارة، من المشاهير أو المنتمين إلى الطبقات الدنيا. البشر عامة، بتناقضاتهم الداخلية، مرئية كانت أو لا مرئية، واعية أو لا واعية، هم شغف حياتي الأكبر. دائمًا ما بدا لي الباليه البشري في الشوارع والمحطات والمحلات التجارية والأسواق، وفي جميع الأماكن التي من المحتمل أن تجتذب أكثر من شخص، أشبه بعرض قوي جدًّا، فكاهي في صعوبة توقعه، مأساوي في لا جدواه، شاعري في فوضاه.

- لكن فئة قليلة من الكتاب تدرك أن الحصول على الجمل الأولى المحورية أمر ممكن، ختم الرجل ذو الملامح الضبابية. هذا ما أردت قوله في حقيقة. توفر وكالتنا جملًا أولى منذ أكثر من ثلاث مئة سنة. سأترك لك بطاقتي، من يدري، قد نتقابل قريبًا... وأهنئك مجددًا لحصولك على الجائزة...

اختفى بائع الجمل الأولى، فشعرت بنوع من الراحة، استفاد توازني النفسي من رحيله: ها قد استعادت يدي اليمنى وظيفتها، ما دامت ممسكة بكارت شخص مجهول.

(٢)

من بين كل سكان العمارة، وحده السيد بوسبيب يعلم أنني كاتب. كيف أدرك ذلك، يبقى هذا لغزًا بالنسبة إليَّ، لكنني معجب بحدسه. وفي جميع الأحوال، يبدو واضحًا أنه يعرف عني أكثر مما أعرفه عنه.

يوجد في باريس جيش حقيقي، قوامه حراس بنايات برتغاليو الأصل. يتكلم السيد بوسبيب أيضًا مع لكنة أجنبية خفيفة، ولكنني لم أجرؤ يومًا على سؤاله، إن كان برتغاليًّا فعلًا أم لا. كما لم يطرح هو أبدًا أسئلة تتعلق بأصولي. ولكنني تساءلت دومًا عن كيفية معرفته بمهنتي. الأغلب أن للأمر علاقة ببرنامجي الفوضوي. عندما لا يمتلك شخص ما مواقيت ثابتة يتوجب عليه احترامها، سواء للذهاب إلى العمل أو التسوق، أو حتى للتنزه أو القيام بأنشطة أخرى معتادة، وعندما لا يتوافق هذا الشخص مع الطبيعة البشرية لساكني بناية أو حتى حي، وعندما يخاطب هذا الشخص نفسه على الخصوص، في كل المقاهي القريبة، فلا شك حينئذ في أنه كاتب. بطبيعة الحال، هناك أيضًا كومة الرسائل التي يوزعها السيد بوسبيب على جميع سكان العمارة. وبالنظر إلى مسألة رفض العديد من دور النشر لمخطوطاتي، وحرص بعضٍ من

هذه الدور على إعادتها، فلا شك أن السيد بوسبيب قدَ خرج من كل هذا ببعض الاستنتاجات.

لن أمضي إلى الاعتقاد بأن حارس البناية يتجسس عليَّ، لكنني لا أشعر براحة تامة في حضوره. هل أبدو *مشتبَهًا فيه* في نظر هذا الرجل الطيب والخدوم؟ أم إن الأمر ربما يتعلق بي أنا؟ هل يوجد في أسلوب حياتي وطريقة تعبيري ما يدفعه إلى البقاء متيقظًا وعلى أهبة الاستعداد؟

- هل أنت في حاجة إلى مساعدة ما؟ يسألني السيد بوسبيب من وقت إلى آخر.

أبتسم وأجيبه: «كلا، *شكرًا*»، لكن سؤاله يبدو لي غامضًا وملتبسًا *كليًّا*. فيم سيساعدني؟ يبدو السؤال بريئًا جدًّا، لكن، عندما يتعلق الأمر بالسيد بوسبيب، فإنه يتضمن تحديًا صغيرًا، وفق سيناريو مكتمل الأركان. كما لو أن الحارس يتمنى *بشدة* كسر الحواجز التي أحيط بها تفاصيل حياتي. لكنه لا يدرك أن آخرين قد سبقوه إلى ذلك منذ زمن طويل.

مضى وقتٌ ما عدت خلاله أتوقف أمام الأسئلة الغريبة التي يطرحها الحارس. هذا السؤال على سبيل المثال: «أرى أن النافذة الصغيرة في العُلية مفتوحة دائمًا. هل هي نافذة الحمام؟ هل *تنوي* تركها مفتوحة؟» أي استنتاج ذاك الذي يمكن استخلاصه من هذه العبارة؟ أن حراس البنايات، برتغاليي الأصل، فضوليون إلى هذه الدرجة؟ لا أرد على سؤاله لكيلا أساهم بذلك في فتح *نوافذ* حياتي أمامه.

ما جلست أمام الحاسوب وشرعت في الكتابة، إلا وراودني إحساس بأنني أمتلك وجودي كليًّا، ولا أشاركه إلا مع لوحة المفاتيح

التي تنزلق فوقها أصابعي، والشاشة التي تحولت إلى ما يشبه المرآة الكبرى لحياتي. منذ أن تعلمت كيفية الضرب على لوحة المفاتيح دون النظر إلى الأزرار، تحول وجودي إلى ما يشبه القمع: أندس داخله، من الدماغ إلى الشاشة مباشرة. منذ سنوات، ما عدت أكتب للآخرين، بل لنفسي، لذلك الشعور بالدهشة أمام هذا العرض: يثير إعجابي ما يغادر جمجمتي، إلى درجة تجبرني على مواصلة الكتابة بلا توقف تقريبًا.

ولكن، توجد أيضًا لحظات أنفصل خلالها عن الشاشة، للذهاب إلى المطبخ وتحضير شاي أخضر، أو إلى الشرفة لإطعام الحمام، أو النزول نحو واحة الخضرة الصغيرة وسط المربع السكني، حيث أعتني بمساحة صغيرة أزرع فيها بعض الخضر. وخلال لحظات الراحة والتوقف هذه، تبرز ظاهرة أخرى إلى العلن: إذ أفقد امتلاكي لتفاصيل حياتي، فتتفسخ وتتحول إلى فتات عبر حركاتي وكل الأشياء التي ألمسها أو أراها. يراودني إحساس غريب بتحولي إلى غبار وانتشاري في كل الأجواء حولي، وترك فتات مني في كل ما ألاحظه، وكل ما قد أنقله من موضع إلى آخر.

- رأيتك أمسِ حاملًا معزقة. ماذا ستزرع هذه السنة؟

حسنًا، فلتعلم يا سيد بوسبيب، أنني لن أخبرك بما أنوي زراعته ربيعًا في مساحتي الصغيرة، التي لا تتجاوز أربعة أمتار مربعة. عندما يتعلق الأمر بالخضار فإن اختياراتي نوعية وسرية. أزرع في كل سنة ثلاثة أصناف تكمل بعضها بعضًا وتتوافق وتتشارك ثروات الطبيعة بلا مشاكل باطنية تذكر. في العام الماضي، زرعت الخس والفجل والطماطم، وقد أختار البصل والقُنبيط والمقدونس للحصاد القادم. لا أستهدف

تطوير نظرية حول قواعد التعايش المثالي بين أصناف الخضار، لكن وجبت الإشارة إلى أن البصل والقنبيط والمقدونس تجمعهم أخوية جديرة بالشعار المفضل للثورة الفرنسية، ومع حقيقة وجود حديقة نباتية محاطة بالورد في قلب باريس، وسط مجموعة من المباني المتواضعة، وعلى مرمى حجر من الحديقة الملكية في شارع غوبلنز أو حديقة النباتات جاردان دو بلانت، فقد تكون هذه علامات بداية ثورة بيئية، أو ربما علامة على يقظة مدنية في سعينا للتخلص من هذيان العولمة. لم يذكر أي دليل سياحي هذه الواحة حيث يزرع حوالي ثلاثين باريسيًّا تخيلاتهم الخضراء، ساعين عبر قِطع أرض صغيرة وضيقة، إلى إحياء الكومونات[١]، التي تذكرنا بالرؤى الطوباوية الحالمة لسان سيمون[٢] أو شارل فورييه[٣].

أجل، أمام حاسوبي وحديقتي الباريسية الصغيرة، أشعر بأنني في أمان. ولكن، عندما أذهب للتسوق، أو أدخل إلى مكتبة، أو أجلس في مقهى لشرب فنجان من القهوة، يتعاظم إحساس عميق *بالتشتت* في دواخلي حد الاكتساح التام. وها أنا ذا: أتقدم ماشيًا في الحي، وقد سيطر عليَّ قلق هائل، لأن قطعًا من حياتي ماضية في انفصالها عني. بعض هذه القطع صغير جدًّا، بل متناهي الصغر، أو أقرب إلى الفتات...

---

(١) كومونة باريس: هي حكومة بلدية ثورية أدارت باريس لفترة قصيرة بين مارس ومايو ١٨٧١، ويعتبرها بعض المؤرخين أول ثورة اشتراكية في العصر الحديث. (المترجم)

(٢) هنري دو سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥): فيلسوف فرنسي نادى بتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، واعتبر أتباعه أن مذهبه كان اشتراكيا. (المترجم)

(٣) شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧): فيلسوف ورجل اقتصاد وعالم اجتماع فرنسي ينسبه البعض إلأى تيار الاشتراكية الخيالية أو الطوباوية. (المترجم)

منذ اللحظة التي أفتح فيها الباب، أو أتوجه نحو الدرج، يخيل إلي أنني مشطور *إلى نصفين*، لأن جزءًا كبيرًا مني قد ظل هناك، في ذاكرة الحاسوب، على شكل مجموعة من الكلمات. أنتظر المصعد وأنا أتحاشى النظر إلى المرآة: لا أفهم لماذا أنا مجبر على ترك جزء من مخيلتي في هذا الصندوق الذي لا يملك إطلالة على البحر. ولكن المأساة الحقيقية تبدأ هناك في الأسفل، في بهو البناية، عندما أقابل الحارس أو مختلف سكان البناية مجبرًا، أو عندما أفتح صندوق بريدي. فتتطاير مئات، أو ربما آلاف القطع مني، تحملها الكلمات التي أتفوه بها أو الحركات التي أقوم بها. أترك آثارًا مني في نظرات الآخرين، على الدرابزين والدرج ومقابض الأبواب، لكن وعلى الخصوص في كل تلك العبارات المتكررة... «مرحبًا»، «هل مرَّ ساعي البريد؟ «الطقس بارد اليوم»، «هل زارك المكلفون بإبادة القوارض اليوم؟»، «إلى اللقاء»...

لا أدري إن راودتكم هنا صورة المذنبات التي تتقدم أثناء تفككها... تواصل النواة المركزية، شديدة اللمعان، مسارها المتلألئ، تبدو سليمة ظاهريًا، لكنها تتفتت على مدى ملايين الكيلومترات، وما نراه نحن هو بلايين الجسيمات المنفصلة عن قلبها وكينونتها... يظل أثر هائل خلف الجسم الكوني الإعجازي، انفجار يخلف غبارًا من كل الأحجام. من الواضح أن أيًّا من إيماءاتنا الجسدية لا تمر هكذا بلا عقاب. فعندما تخرج في الصباح وتركب الحافلة أو المترو للذهاب إلى العمل، يبقى جزء منك في الطريق، منتشرًا على أكتاف وحدقات مئات الأشخاص ممن قابلتهم في مسارك. تحدث عملية تلقيح اجتماعي لا مثيل لها خلال تنقلاتك،

حيث تتمسك ذرات وجودك بمخلوقات أو أشياء أخرى متحركة، فتبدأ بدورها في الانتقال والانتشار في الفضاء. وفي ظل هذه الظروف، لا تتفاجأ من وصولك منهكًا أحيانًا، أو عودتك إلى المنزل مساءً وقد سيطر عليك شعور بأنك توشك على الموت من التعب. إن أي قرار منك بمغادرة الشرنقة الواقية للسرير أو غرفة المعيشة، يتيح للعالم الخارجي أن يسلط مناقيره عليك بإصرار، بل ويلتهمك بشراسة، وينقلك ويشحنك على شكل قطع وقطرات وشظايا ومشاهد وأصوات وروائح، عبر آلاف ومئات الآلاف من الاتجاهات.

لهذا السبب أقول: كن حذرًا مع كل حركة تقوم بها. والأهم، لا تمنح ثقتك إلا لأشخاص ثانويين.

(٣)

سيدي العزيز،

علمت أنك قد سعيت إلى الاتصال بي. للأسف، فأنا غير متواجد في فرنسا حاليًا، ولن أعود قبل شهر يناير من العام المقبل. ولكن، يمكن لحوارنا أن يبدأ من الآن.

كما يبدو أنك قد لاحظت، فإن هاتفي الثابت غير مزود بعلبة صوتية أو مجيب آلي كما يحلو للبعض تسميته، ولربما انتبهت أيضًا، على الأغلب، عند تفحصك لبطاقتي بتركيز أكبر، إلى عدم تضمنها أي رقم هاتف محمول أو عنوان بريد إلكتروني. آه نعم، أنا أتجنب الانجراف وراء حتمية العجلة التي اخترعتها الحداثة. ببساطة شديدة، أنا لا أميل إلى الوقوع في فخ إزعاج الهاتف في أية ساعة من الليل أو النهار، ولا تلقي رسائل إلكترونية جافة وبلا معنى. في الواقع، لا يمكن اعتبار أي شيء مما تعيشه مخلوقات الكوكب الأزرق المسمى أرضًا، أمرًا يستحق العجلة، ذلك هو مبدئي. لقد أدى اختراع الهاتف المحمول، والرسائل الإلكترونية، وأنظمة أخرى للاتصال فائق السرعة، إلى اختفاء جنس أدبي لطالما أحببته بشكل كبير - وأقصد أدب المراسلات. وهكذا جرى

استبعاد عدة قرون، صدرت خلالها روائع في أدب المراسلات، من المساهمة في تشكيل وعي الصغار والجيل المعاصر لنا. لذا أقف معارضًا لهذا الجُرم، مفضلًا كتابة رسائل تقليدية، ولا أرد إلا إذا تلقيت رسائل مكتوبة بالطريقة نفسها، على أوراق بيضاء من حجم A4، مكتوبة بخط اليد، وباستخدام قلم حبر. أنا أعتبر قلم بيك سُبة في حقي.

لنعد إلى السبب الذي دفعك إلى مراسلتي. لا شك في أن ما ألقيته على مسامعك خلال أمسية توزيع الجوائز الأدبية الخريفية قبل أسبوعين، قد أثار إعجابك. سأستغل هذه الفرصة الجديدة لتهنئتك على التكريم الذي حظيت به: جائزة القصة القصيرة، الممنوحة من قبل الكتبيين المستقلين في منطقة إيل دو فرانس. يبقى هذا، في كل الأحوال، دليلًا على الاعتراف بك، من لدن المتخصصين في المهنة. لا تحزن، ولا تكرر لازمة اعتبارها جائزة عادية مثل عشرات الجوائز المماثلة، وأنك لم تكن سوى أحد المكرمين، ضمن قائمة تضم ثلاثين آخرين، في أمسية ممطرة، وأنك لم تحظَ حتى بالوقت الكافي لتلاوة كلمة شكرك. قد يكون هذا هو السبب الحقيقي للقائي إياك هناك، في تلك الزاوية البعيدة من الحديقة، حيث بدا أنك تهرب من سخافة المشهد. لا بد لي من الإقرار أيضًا بأن الحفل في عمومه كان سخيفًا جدًّا. حيث جلستم جميعكم أعلى الخشبة التي أعدوها في عمق الحديقة، ثلاثون شخصًا في عجلة من أمرهم، بطريقة أو أخرى، لإنهاء هذا العبث بأسرع ما يمكن. منحت لكل واحد منكم ثلاث دقائق من الكلام بعد تسلم الجائزة، لكن، وبسبب هطل الأمطار، اضطر رئيس جمعية الأدباء إلى تسريع العملية. فحظي ثلاثة أو

أربعة فائزين بفرصة قول كل شيء، بينما وجد اللاحقون أنفسهم مجبرين على إلقاء كلمات مبتورة. دقيقتان للخامس والسادس، دقيقة ونصف للثامن والتاسع، دقيقة للعاشر والحادي عشر... ثم تابعنا تسريعًا للمشهد، كما يحصل في أفلام شارلي شابلن، ثلاثون ثانية لكل فائز بل وربما أقل، وصولًا إلى جملة واحدة لآخر ثلاثة أو أربعة ممن نالوا حظ بلوغ المجد... وعندما حان دورك للتقدم خطوة إلى الأمام، طلب منك رئيس لجنة التحكيم، على الأرجح، الاقتصار فقط على كلمة «شكرًا». وقد أعجبني كثيرًا قرارك بالاكتفاء فعليًّا بهزة من رأسك، تعبيرًا عن امتنانك، ما مكَّن جموع الحاضرين المحتمين بمظلاتهم من الهجوم على طاولات البوفيه المتفرقة في أنحاء محددة من الحديقة. وهو الوقت الذي اختارته الأمطار أيضًا للتوقف.

أرجو أن تعذر استحضاري الخبيث نوعًا ما لهذا المشهد، إذ يمكنك اعتباري أيضًا، وعلى طريقتي، مراقبًا لسير أحداث العالم، لكنني، وقبل كل شيء، بائع جمل أولى، يختار زبائنه بعناية.

مع فائق تقديري،

غي كورتوا

(٤)

مكتبة
t.me/soramnqraa

ليس من السهل أن يكون لك أخ أكبر، يرى فيه الجميع أمارات العبقرية. في إمكانكم تخيل الموقف: فبمجرد أن تفتح عينيك، ستتضمن الجملة الأولى التي يسجلها دماغك بالفعل اسم فيكتور. «سترى، سيكون شبيهًا بفيكتور».

ثم كانت أول كلمة تتفوه بها هي فيكتور. يستهدف أول انبعاث صوتي متماسك، عند معظم الأطفال، جوهر العلاقة العاطفية مع الأم أو الأب. لكن، في حالتي أنا، كانت الكلمة الأولى والأساسية هي فيكتور. عندما ولدت، كان فيكتور في السادسة من عمره، وكان متألقًا بالفعل وقد بدأ في تلقي الدروس الإعدادية. علَّم نفسه القراءة وبدأ يتلقى دروسًا في اللغة الإنجليزية. اجتاز مرحلة الحضانة بتفوق، تاركًا وراءه ذكرى طفل موهوب. أما الجيران فكانوا يثنون على أدبه ونضجه.

أؤكد لكم أنه ليس من السهل، وقد غادرت فورًا بطن أمك، أن تتلقى كمعمودية لوجودك، مقارنة مستمرة مع شقيقك. «آه، لم يبكِ فيكتور للحظة عندما كان طفلًا». «بدأ فيكتور في الذهاب إلى الحمام

بمفرده في وقت سابق». «تعلم فيكتور الكلام عندما كان في سن أصغر». «تعلم فيكتور المشي بشكل أسرع». «أتقن فيكتور القراءة قبله».

لم يكن الجزء الأول من حياتي سوى انعكاس مستمر لوجود فيكتور، أخي الأكبر، أخي الأقوى، أخي الأقل تعرضًا للأمراض، أخي الأكثر سعادة، أخي الأكثر ذكاءً، أخي الأكثر مرحًا، أخي الأكثر كرمًا... لكن لا داعي إلى الظن بأن هذا القصف المتواصل من المقارنات قد دفع عقلي اللاواعي إلى تشكيل أي نوع من النفور تجاه فيكتور. مستحيل. لا توجد نظرية فرويدية قادرة على الصمود في حالتي. ولم يتولد في أعماق قلبي، ولو لثانية واحدة، أدنى رد فعل رافض، أو لا سمح الله، أي نوع من الكراهية لأخي الأكبر. بل بالعكس، لطالما كنت معجبًا، بصدق، بشقيقي فيكتور. شعرت بالدعم والحماية لوجوده معي. كان بالنسبة إليَّ أشبه بمظلة هائلة. لم يكن عمري يتجاوز بضعة أشهر فقط، لكنني كنت متأكدًا من إمكانية الاعتماد على فيكتور. علاوة على ذلك، تعامل فيكتور معي دومًا بصفته *أخًا بحس أبوي*. منذ اللحظة التي ولدت فيها، أخذ فيكتور مهمته الجديدة على محمل الجد: أن يعتني بي.

لاحقًا، وعندما أدركت أن كل الملابس التي أرتديها كانت لفيكتور، كما هو الشأن بالنسبة إلى ألعابي، مررت بأوقات أكثر صعوبة. ولأن فيكتور كان طفلًا مثاليًا، فهو لم يخدش حذاءه قط ولم يلطخ أو يمزق ثيابه أبدًا. كل ما تسلمته لارتدائه مع الملابس، من السراويل الداخلية الصغيرة إلى المعاطف الصغيرة، من القميص الصغير إلى القبعة الشتوية، كلها ارتداها فيكتور بـ *مسؤولية*، بدا معها أن كل شيء ما زال جديدًا.

لذلك يستحيل الامتناع عن تقدير فيكتور نظير المدخرات الهائلة التي مكن منها المنزل، خاصة وأن أبي، وهو موظف حكومي في مكتب البريد، لم يكن يتلقى راتبًا مرتفعًا جدًّا، وأمي كانت مجرد ربة بيت، وإن كانت تكسب بعض المال بفضل ماكينة الخياطة خاصتها.

عندما بلغ فيكتور السادسة عشرة أو السابعة عشرة، بدأت الأسرة بأكملها تحوم حول هذا الأخ الأكبر، الذي تمتع بسلطة طبيعية لا جدال فيها. فمذ كان في الرابعة عشرة من عمره، وهو قادر بالفعل على مناقشة أي موضوع مع البالغين. قرأ فيكتور الصحف، وتابع الأخبار التلفزيونية، وكانت له آراء سياسية. كان فيكتور قادرًا على صياغة تحليلات نقدية للأفلام، والدفاع عن وجهة نظره، ومعارضة البالغين دون إزعاجهم، والمحافظة على هدوئه حتى عندما يتفوه بكلمات لاذعة... حتى أمام البالغين الأوسع ثقافة والأفضل استعدادًا منه، برز فيكتور عبر طرحه أسئلة *شديدة* الذكاء. جرت الإشادة دومًا بفيكتور، لقدرته الهائلة على أن يكون اجتماعيًّا ولامعًا عند الاستماع إلى ما يقوله الآخرون.

عندما دخلت المدرسة الابتدائية، كانت صورته معروضة بالفعل في اللوحات المخصصة للطلاب الأكثر تميزًا في تاريخ المؤسسة. منذ اليوم الأول، سألني المعلم ذلك السؤال الذي سيتكرر لسنوات وسنوات فيما بعد: «أنت شقيق فيكتور الأصغر؟» طوال المرحلة الثانوية، لن ينسى أي أستاذ طرح هذا السؤال. بشكل عام، كانوا يتفحصونني باهتمام، ويقيمونني بنوع من الشك. كما لو أن المعلمين يسعون إلى تركيب صورتي على الصورة القديمة التي خلَّفها فيكتور وراءه. ثم اتضح أن

ذلك لم يكن أبدًا في صالحي. شعرت، وعلى الفور، أن صورتي في أذهان كل هؤلاء البالغين، لم تكن نفاذة ومذهلة ورائعة مثل الصورة التي تركها أخي فيكتور. علاوة على ذلك، بمجرد أن شعرت أنهم بدأوا في عمليات المقارنة والبحث عن النقاط المشتركة بيني وبين فيكتور، كنت أحدق غريزيًّا إلى أطراف حذائي، ثم أميل رأسي بل وأقوس ظهري قليلًا، واعيًا بأنني لن أكون في مستوى تطلعاتهم.

لم أكن تلميذًا سيئًا، لكني ما كنت لأرتقي أبدًا إلى مستوى فيكتور. وإذا ما فاجأت الأساتذة أحيانًا بإعداد واجبات ممتازة، أو تقديم إجابات صحيحة، كانت التهنئة مقرونة أيضا باسم فيكتور، ومعها هذه الجملة أحيانًا: «يبدو أن *شقيقك* قد ساعدك قليلًا في إعداد هذا الواجب، أليس كذلك؟». عادة، ما كنت لأجرؤ على قول: «لا، هذا غير صحيح»، عندما كان هذا التوبيخ المبطن موجهًا إليَّ، فعائلتنا بأكملها كانت مدينة له. لا أعرف كيف تم بناء هذا اليقين ولا كيف انتشر بيننا، لكننا رأينا جميعنا في وجوده هبة سماوية، شكلًا من أشكال كرم الطبيعة، هدية من القدر. عائلتنا بأكملها، وبعبارة أخرى، الأجداد والأعمام الثلاثة والعمات الأربع، وما لا يحصى من أبناء العمومة، شاركونا الشعور نفسه: لقد جاء فيكتور إلى العالم لأداء مهمة معينة. ولهذا السبب فإن وجود عشيرتنا بأكملها اتخذ معنى أعلى: لقد خلقنا جميعًا لمساعدته، ودعمه، ودفعه.

عندما نشر فيكتور قصائده الأولى في مجلة المدرسة، كنا جميعًا مقتنعين بأنه سيصبح كاتبًا كبيرًا. وعندما بدأ يفوز بالجوائز الأولى في مسابقات الرياضيات، صار من الواضح أن فيكتور سيكون عالمًا عظيمًا.

ثم ظهرت مشكلة عندما أصبح جيدًا جدًّا في الألعاب الرياضية أيضًا، وخاصة كرة اليد، حيث كانت أناقة حركاته عامل الجذب الأسبوعي الرئيسي لكل الفتيات في فصله. «يكدن يلتهمنه بأعينهن»، هكذا علقت أمي في أحيان كثيرة، وحرصت على إدخال قطعة من الخيط الأحمر في جيب فيكتور حتى لا يفكر أحد في ضرب ابنها المفضل بعين شريرة...

سيطرت لحظة من التوتر الشديد على قلوبنا، نحن الذين لعبنا دور الأقمار المحيطة بفيكتور، عندما اضطر أخي الأكبر أخيرًا إلى اتخاذ قرار بشأن الكلية التي سيذهب إليها. لم يتمكن فيكتور من اختيار *أي شيء*، وكان على تعليمه العالي أن يتناسب مع قدراته وهالته. كان ممتازًا جدًّا في كل شيء، إلى درجة إمكانية اختيار أي مجال من مجالات المعرفة والنجاح في أية مهنة... الهندسة المعمارية، والقانون، والطب... كم مرة جرى نطق هذه الكلمات السحرية على الطاولة، في حضوره بل وفي غيابه أيضًا! كان للأجداد والأعمام والعمات وأبناء العم وحتى الجيران الحق في التعبير عن رأيهم في دراسات فيكتور المستقبلية. *الأبحاث*... دلفت هذه الكلمة إلى ذهني في سن الثانية عشرة. خلق أخي الأكبر ليصبح *باحثًا*، أو على الأقل هذا ما ادعته الشقيقة الكبرى لأمي. عندما كنت أسمع هذه الكلمة، أرى فيكتور بالفعل مرتديًا زي شيرلوك هولمز، حاملًا عدسة مكبرة في يد وعصًا في الأخرى لعبور المدن والقرى، والتضاريس وحتى المساحات بين النجوم، بحثًا عن المطلق.

في نهاية المطاف، اختار فيكتور المجال الذي يناسب قدراته، لكنه كان قادرًا، قبل كل شيء، على مفاجأتنا. «لقد تقرر الأمر، سأدرس

العلوم السبرانية»، قال فيكتور ذات يوم، دون تأكيد إجباري، لكن بوجود نوع من الرضا، لإدراكه أن العائلة بأكملها ستتفاجأ بشدة. عندما سمع أفراد عشيرتنا بهذه الكلمة: *العلوم السبرانية*، أسقطتهم المفاجأة أرضًا.

بوف.

(٥)

وقفت في الطابور ثلاثة أيام
أمام مكتب الأحداث
لأتأكد مما إذا كان لقائي بالآنسة ري
مقدرًا أم لا

لا، لقد سقط الحكم
كل الموظفين الألف تقريبًا، من المكلفين
بإدارة أحداث حياتي
قالوا: **لا**

واحد منهم اختار أن يقول: **لا**، رغم أن
بينما فضل آخر أن يقول: **لا**، ولكن

هم ليسوا سوى مجموعة من الموظفين الأغبياء واللامبالين، تلك
هي الحقيقة
يمضون أيامهم في شرب القهوة، والتدخين، وإمعان النظر
شكليًّا
في مسارات الوجود الكامنة في أعماقي
في رحلاتي إلى الكون، ومخاوفي وحركاتي
المباغتة
تدفع الدولة رواتبكم، لكن من أجل لا شيء
هذا ما قلته لهم
وما دامت الآنسة ري غير مقدرة
في حياتي
فما الذي أتى بها إلى قصيدتي؟

(٦)

سيدي العزيز،

أكتب إليك ومشاعر حزن كبيرة تعتري قلبي، لأنني فقدت فورًا أحد أصدقائي، رجل لطالما ارتبطت ذاكرتي بلحظات شديدة الروعة، بل ومفعمة بكل أشكال السعادة، قضيتها معه في أحد مقاهي فيينا. لقد توفي ليوبولد هاويلكا فورًا، وقد يذكرك اسمه بشيء ما، باعتبار هاويلكا مقهى شهيرًا في فيينا. لا يقل شهرة عن مقهى «لي دو ماغو» في باريس، و«كافي غريكو» في روما، و«أوديون» في زيورخ أو «لو لوفر» في براغ. خلال هذه الدقائق التي أكتب لك فيها، أتواجد بالضبط في مقهى هاويلكا، أمامي فنجان إسبريسو صغير، أو كلينرشوارزر كما يسمونه هنا، وفي الحلق غصة. حظيت في هذا المقهى، خلال الثلاثين عامًا الماضية، بعدد كبير من اللقاءات مع أحد أفضل كتاب أوروبا، خاصة مع أولئك الذين قبلوا الحصول على خدماتنا. أعلم أنك سافرت كثيرًا، وتجولت في أنحاء كثيرة من هذا العالم، وقضيت سنة في لندن، وأكثر من سنتين في اليابان. أعلم أيضًا أنك قد جربت حظك في هوليوود وعشت في كاليفورنيا لبعض الوقت، أعرف حبك للبحر

المتوسط والبلقان، وقرأت الصفحات التي كتبتها بعد عودتك من طهران، ولكنني لا أدري إن كنت قد حظيت بالوقت الكافي لتذوق خصوصية وفرادة العالم الجرماني. هل سبق لك تعلم هذه اللغة؟ «خلق الخلود لكي يمنحني الوقت لتعلم اللغة الألمانية» كما قال مارك توين. صحيح أنه لولا هذه اللغة لكان الموروث الفلسفي فقيرًا جدًّا! أما شارل الخامس فكان أكثر خبثًا، في القول المأثور المنسوب إليه: «أكلم الرب بالإسبانية، والنساء بالإيطالية، والرجال بالفرنسية، أما حصاني، فأحدثه بالألمانية».

لا أدري لماذا أحدثك عن كل هذا. غالبًا لأنني أريد إعادة حاجبيَّ المنعقدين إلى طبيعتهما، ونسيان وفاة صديقي ليوبولد هاويلكا. إذا ما قدر لك الدخول الآن إلى المقهى، فسوف تجدني جالسًا وحدي إلى الطاولة الأخيرة على يسار البار، في موقع جانبي إستراتيجي، على مقعد مخطط وفوق رأسي قرص ضخم لساعة حائط تقف على حامل خشبي سداسي الشكل. الواقع أن هذا ما أثار إعجابي دومًا في هذا المقهى، الخشب: كل شيء تقريبًا مصنوع من الخشب. الجدران مغطاة بالألواح الخشبية، الأرضية باركيه، والكراسي خشبية بالطبع... تعطي هذه المادة نوعًا من البساطة والصدق للمكان، حيث لا شيء متطور أو فاخر، بما يشعرك رغم ذلك بأن هذا التفرد قد صار ترفًا. هاويلكا هو المقهى الذي يولِّد لديك انطباعًا بأنه لا شيء تغير منذ أربعة أو خمسة عقود على الأقل، وإن قدم السقف إيحاء بوجود علامات ضعف، ويخيل إليك أحيانًا أن بعض أجزائه ستسقط مهشمة رأسك في أية لحظة.

ولكنني، أكرر ذلك، لا أدري سبب إصراري على وصف هذا المقهى لك. لقد تبددت غصة حلقي (أو ربما قلبي؟) بعض الشيء، لأنني طلبت قبل قليل كأسًا من النبيذ الدافئ. في الحقيقة، كنت أود أن أخبرك بأنه هنا، وقبل سنوات طويلة، جرى الهمس بإحدى الجمل في أذن إلياس كانيتي[1]. أتعلم أية جملة يفتتح بها كتابه الشهير «الجماهير والسلطة»؟ أنت تعرفها بلا شك، لكنني سأعيد تذكيرك بها: «لا شيء يخيف الإنسان أكثر من اتصاله بالمجهول».

أتمنى لك كل الإلهام إن كنتَ منهمكًا الآن في الكتابة.

غ. ك.

---

(١) إلياس كانيتي (١٩٠٥-١٩٩٤): كاتب وروائي ومؤلف مسرحي بلغاري بريطاني، أصدر مؤلفاته باللغة الألمانية، أشهرها «الجماهير والسلطة» ورواية «نار الله»، حاز جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨١. (المترجم)

(٧)

أثارت بطاقة الرجل الذي اقترب مني في حديقة جمعية الأدباء اهتمامي.

الاسم عادي إلى حد ما، لكنه حمل إشارات *مجاملة*، وبدا أقرب إلى الوعد. لكن ما أثار فيَّ نوعًا من الحيرة هو المعلومات أسفله: *الجمل الأولى للروايات*. تخصص هذه المساحة في معظم البطاقات للإشارة إلى معلومات واضحة: *كاتب، مدير عام، قنصل فخري، اختصاصي أشعة أو اختصاصي تصوير طبي، تدليك بالموعد*، إلخ. بطبيعة الحال، من حق أيٍّ كان أن يكتب ما يشاء على بطاقته، كما يمكن لأيٍّ كان اختيار وضع الوظيفة أو التخصص أو *الهواية*. كم عدد البطاقات التي قرأت وضمت عبارات مثل *تصوير وفيديو*، أو منسق *مشاريع* أو ببساطة هكذا *رئيس*.

يبدو أن لغي كورتوا رغبة في تقديم نفسه بوصفه شخصًا مرتبطًا بعالم الرواية، أو بجملها الأولى إذا تحرينا الدقة، وهذا غامض إلى حد كبير. هل كان خبيرًا في *الجمل الأولى*؟ ولكن بأي معنى؟ هل كان يدرسها من وجهة نظر أدبية أم نفسية أم تجارية؟

العنوان بدوره بدا غامضًا تمامًا: ممر فيردو، ٧٥٠٠٩ باريس. وبطبيعة الحال، فإن العارف الجيد بخبايا مدينة باريس سيرى على الفور موقع الدائرة التاسعة، منطقة جراند بوليفارد الممتدة بين أوبرا غارنييهو ولاريبوبليك. في العصور الوسطى، كان هذا جزءًا من تحصينات باريس. وبعد أن تحررت المدينة من أسوارها في نهاية القرن السابع عشر، صارت مدينة الأنوار قادرة على التنفس بسهولة أكبر، وقدمت إلى نفسها مساحة جديدة للمشي والهذيان الجماعي. وعندما تكاثرت هناك مسارح المسلاة وقصص الرعب الدموية، أصبح أحد شرايينها المسمى *بوليفارد دو تمبل* (جادة المعبد) يلقب بـ بوليفارد دو كرايم (جادة الجريمة). ليس لأن جريمة قد ارتكبت على أرصفتها، أو في مقاهيها أو مطاعمها، بل لأن الناس كانوا يموتون تباعًا وسط بقع كبيرة من *الدماء*، على خشبة إحدى مسارح الجادة. لم يبقَ من صفحة الجنون هذه، ومن تقاليد الكرنفال والمعارك، وكل هذه الصناعة الشعبية للمتعة اليوم سوى آثار قليلة، من بينها *الممرات*. ضيقة، متعرجة في بعض الأحيان، ومغطاة بدانتيلا من الزجاج الملون، ومخفية عن أعين السائح الغافل، أحيانًا أخرى، تذكرنا تلك الممرات *بالزمن الجميل*، ويمكن اعتبارها رحلات حقيقية عبر الزمن. قد يكون ممر فيردو هو الأكثر أصالة على الإطلاق، حيث يضم بشكل سري أو ربما محتشم كل أنواع المعارض الفنية والمكتبات والمطاعم الصغيرة والمكتبات المتربة. يبدو جليًّا أن كل هذه التفاصيل، من ألواح الرخام التي أنهكتها ملايين الخطوات، واللافتات التي تعرض حروفًا بأحرف قديمة الطراز، والمصابيح وواجهات العرض الزجاجية المليئة بكل ما يثير فضول المرء،

بالإضافة إلى تفاصيل أخرى لا نهائية، هي رسائل قرن منهك، وشظايا ذاكرة ممزقة.

لكن، عندما وصلت أمام مكتبة فيردو، لم أجد اسم غي كورتوا في أي مكان. وإلى جوار المكتبة، لم يكن هناك أي شيء، أو بمعنى آخر، لم يكن المتجر مجاورًا لأي باب، أو مدخل يفترض أن يحمل نقش Guy Courtois. كلا، كانت المكتبة محشورة بين مكتب لجمع الطوابع من عصور ما قبل التاريخ وإستوديو للتصوير الفوتوغرافي ينتمي بدوره إلى عصر آخر. لم يكن لديَّ من خيار سوى الدخول والسؤال عمّا إذا كان هناك رجل يدعى غي كورتوا يقع منزله أو مكتبه في مكان قريب.

- يتوصل السيد غي كورتوا برسائله هنا، أوضح لي عجوز ودود جدًّا، له عينان صغيرتان وفضوليتان. انسجم رأسه الأصلع بشكل مثالي مع الظل الكروي للمصباح الموضوع على الطاولة حيث كان يقرأ.

بعد صمتي، استأنف العجوز الضئيل نشاطه، ولم ينزعج من وجودي مطلقًا. ويبدو أنه كان معتادًا على هذه الطقوس: عندما يتحدث إليه شخص ما، يرفع نظره عن كتابه، وعندما يصمت محاوره، لا يضيع الوقت ويعود إلى متعة القراءة.

عندما بدت له دهشتي، وعجزي عن استعادة تماسكي، قرر العجوز اللطيف منحي عشر ثوانٍ أخرى من وقته الثمين.

- إذا كنت ترغب في مراسلته، فيمكنك الجلوس هنا.

أشارت يده المرتجفة إلى طاولة صغيرة على طراز حقبة لويس

الخامس عشر، فوقها: كومة أوراق بيضاء، محبرة، نشافة، حاملات أقلام وريشة لم أستخدم مثلها منذ حصص الخط المدرسية.

لِمَ لا، في نهاية المطاف، قلت لنفسي، سأكتب بضع كلمات لهذا المدعو غي كورتوا، الذي اختفى في الطبيعة هكذا، وبطريقة تفتقر تمامًا إلى التهذيب.

- أتريد قهوة؟ سأل العجوز شديد اللطف، مضحيًا بخمس دقائق أخرى من حياته من أجلي، ومقاطعًا انغماسه العاطفي في القراءة مرة أخرى. ودون انتظار رد مني، أشار إلى أحد الرفوف القريبة من الطاولة، حيث يوجد إبريق قهوة فضي قديم محاط بستة فناجين قهوة من خزف سيفر. لا أعرف لماذا ولَّدت هذه الخدمة في ذهني ما يشبه اجتماعًا أدبيًّا سريًّا وحميميًّا جدًّا: صار الإبريق معلمًا، والأكواب مجموعة من المستمعين الفضوليين، الجالسين على مقاعد صغيرة، متحلقين حول السلطة السردية المركزية.
- كن حذرًا، فالقهوة ساخنة جدًّا، أضاف العجوز مرة أخرى، دون أن يرفع نظره عن كتابه هذه المرة.

لو لم يكن الكتاب التي يقرؤه مثيرًا إلى هذا الحد، لكان من المحتمل أن يشرح لي، بهدوء وبابتسامة تفوُّق، فائدة أواني القهوة الفضية. هي وحدها تتمتع بهذه القدرة المذهلة على إبقاء القهوة ساخنة لساعات وساعات، وعند درجة حرارة ثابتة عمليًّا. ما لا يمكن لأي أباريق أخرى أن تفعله، باستثناء الأجهزة الكهربائية الحديثة، وهذا هو عيبها الأساسي، فلا بد للقهوة الجيدة من أن تعد دائمًا على النار.

وبما إن ذهني بدأ يستوعب أخيرًا ما أراد العجوز قوله، فقد فضل هو التزام الصمت ومواصلة القراءة. لم يخطر ببالي سؤاله عمّا كان يقرأ، فمن الممكن أن يكون ذلك تصرفًا فظًّا. مع ذلك، وأثناء النظر إلى كتابه المفتوح، قرأت اسم الشخصية: إكس. لكن ذهني كان عاجزًا عن تحليل تلك المعلومة وقتئذ. فقط، وبعد فترة طويلة، أدركت أن هذا الرجل، في اللحظة نفسها وبحضوري، ما كان قادرًا سوى على قراءة كتاب واحد، هو كتابي أنا، أو بالأحرى مجموعة القصص القصيرة التي فازت قبل ثلاثة أيام بتلك الجائزة الغبية، جائزة الكتبيين المستقلين في منطقة إيل دو فرانس.

(٨)

كيف أمنع نفسي من احتضانها بين ذراعيَّ
عندما أراها مارة أمامي في هذا الكون؟

أعد قائمة:

امتلاك رصيف في جيبي بشكل دائم، وكلما رأيتها
تقترب مني، أخرج رصيفي منتقلًا إلى الجهة المقابلة

أتظاهر بعدم رؤيتها، مديرًا رأسي نحو الجدار، ثم ألتصق
بهذا الجدار
وأمر عبره

أو:

أهرب بأقصى سرعة، سيفهم الجميع ذلك

(يبدو أنني قد نسيت أمرًا ما، جرت أطواره قبل عشرين أو ثلاثين
سنة، وهو أمر شديد الأهمية، أركض نحو طفولتي بشكل عكسي)

أو ربما، وهذا أفضل، كلما رأيتها تقترب
أرفع ذراعيَّ، وأحولهما إلى جناحين، لأكتشف فجأة
قدرتي على الطيران، وداعًا آنستي
لست مجبرًا على الموت إذا لم أقم باحتضانك بين ذراعيَّ

أو ربما، وهذا أفضل أيضًا، لا حاجة لي بالقدوم إلى هذا العالم، ولا
الكتابة مرة أخرى
هذه القصيدة نفسها، لن يكون لها أي وجود

كلا، لا يمكنني أن أفعل بها ذلك، إنها تحيا بقصيدة كل يوم
سأبذل كل ما في وسعي لأتحول إلى قصيدة
سأكون لها بمثابة عطر، ستلتصق بي عند وجبة الإفطار
وقد تقرؤني مرات عديدة...

(٩)

لا، لا أذكر أنني لعبت مع أخي الأكبر. لم يسمح فارق السن بيننا بذلك. كما أن الأمر لم يتعلق بالفارق العمري بقدر ما ارتبط بالمزاج. بحلول الوقت الذي أصبحت فيه كبيرًا بما يكفي للعب، لم يكن لدى فيكتور وقت لهذا *الهراء*.

بطبيعة الحال، ما زلت محتفظًا بذكريات المشي معه أو برفقة كل أفراد الأسرة، والإجازات التي قضيناها في الجبال أو شاطئ البحر، لكن فيكتور لم يكن ليتبنى أسلوبًا مرحًا معي. فما أراد أن ينقله لي كان مختلفًا تمامًا. لقد شرح لي العالم، وأخبرني بما يتوجب عليَّ فهمه حول هذا الحدث أو ذاك.

«استمع إلى ما أقوله لك وتعلم منه. لأنك بذلك ستوفر وقتًا ثمينًا».

تذكرت دومًا هذه الطريقة الخاصة في التصرف، وتلك العبارات التي منحني بها فيكتور جزءًا كبيرًا من وقته. لا أدري لماذا كان مهووسًا بهذه المشكلة منذ سن مبكرة. بالنسبة إليَّ، عندما كنت في السادسة أو السابعة أو الثامنة من عمري، كان يقيني أنني خالد، ولم يبدُ لي أن رصيدي من الوقت مهدد بأي شكل من الأشكال، أو أنه في خطر التناقص. أراد

فيكتور مضاعفة احتياطي وقتي عبر تقديم حلوله الخاصة إليَّ. ويمكن تلخيص مبدأ منهجه فيما يلي: انظر يا أخي، بدلًا من أن تتعب نفسك في اكتشاف ماهية العالم، منذ لحظة ولادتك، وما هي حقيقة الحياة؟ وكيف يجب أن تختار أصدقاءك؟ وما الهدف الذي سوف تختاره؟ وكيف ستعيش كل يوم؟ بدلًا من أن تطرح على نفسك هذه الأسئلة، اقبل حلولي وأجوبتي أنا، وبهذه الطريقة ستوفر أيامًا وأيامًا من الأسئلة، وربما حتى شهورًا وسنوات من عدم اليقين؛ استفد من وجودي هنا، واسألني عن كل المواضيع التي تزعجك، وبهذه الطريقة ستصل مباشرة إلى صلب الموضوع، دون منعطفات كثيرة، ودون المخاطرة بأن تضل الطريق...

أجل، كان لفيكتور في حياتي، منذ أن كنت في السادسة أو السابعة من عمري، دور متزايد الأهمية ككشاف. لقد سلط الضوء لي على كل شيء، وكان قادرًا على إرشادي إلى أي طريق، حتى الأكثر ظلمة، لقدرته على التلويح أمامه بمصباح مضاء دومًا.

ما زلت مدهوشًا من فكرة أن فيكتور، باعتباره مرشدًا، قد فرض نفسه في حياتي بما يفوق والدي أو أساتذتي. عندما تكون صغيرًا، يرشدك الجميع ويقدمون إليك الدروس بكل تأكيد، لكن فيكتور امتلك طريقته الشخصية في القيام بذلك، بابتسامة خاصة على شفتيه، كما لو أن عملية توجيه الطفل الصغير قد منحته تسلية مستمرة. لم يكن هناك أي سؤال تقريبًا عجز فيكتور عن الإجابة عليه فورًا وبوضوح. ولمساعدتي في توفير المزيد من الوقت، شرع فيكتور في تزويدي بالأسئلة التي صاغها لي، وليس فقط الأجوبة.

يسألني على سبيل المثال: «هل فكرت يومًا كيف ستبدو عندما تكبر؟» ثم يشرح لي فائدة ممارسة «الرياضة بطريقة منضبطة». وأن هذا الانضباط يجب أن يبدأ بتمارين التنفس، لأنني لم أكن أتنفس بشكل صحيح. علاوة على ذلك، فمن وجهة نظره، لم أكن أمشي بشكل صحيح أيضًا، إذ كنت أميل إلى المشي على أصابع قدمي بدلًا من «تكريم الأرض» بطول قدمي بالكامل...

تفاقمت مشكلة الوقت عندما بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمري وحذرني فيكتور من أنني سأبقى *وحيدًا*. علاوة على ذلك، كانت الأسرة بأكملها قد شرعت في الاستعداد لتبعات هذه الصدمة، والمقصود هنا بالتحديد صدمة ذهابه إلى الجامعة. فبطبيعة الحال، كان فيكتور سيواصل دراسته في العاصمة، أي على بعد خمس مئة كيلومتر من بلدتنا الصغيرة والمجهولة والمتربة والمتواضعة. في الأشهر التي سبقت رحيل فيكتور، تولَّد في أعماقي انطباع بأن المدينة بأكملها معلقة على هذا الرحيل، منزعجة وقلقة. تقاطر العشرات على منزلنا، متمنين كل النجاح لفيكتور، ولرؤيته لآخر مرة قبل رحيله، لتقديم هدية صغيرة إليه، أو أي شيء رمزي أو حتى تميمة...

«إياك أن تجرؤ على البكاء»، يقول لي فيكتور من وقت إلى آخر، ما كان يوقعني في حالة من القلق، لأنه لم يكن ليخطر على بالي، كما أن التحذير جعلني أفكر في طبيعة الأمر. على أية حال، كانت أمي تمسح دمعتها سرًّا، وهي التي سترسل فيكتور «إلى الغرباء». منحني هذا الجو الانطباع بأن فيكتور سيكون المراهق الوحيد في مدينتنا الذي ستوافق العاصمة على

فتح أبوابها له. صباح اليوم الذي وصلنا فيه بالسيارة إلى المحطة، شعرت بخيبة أمل شديدة عندما وجدت على الرصيف حشدًا كاملًا من الأولاد والبنات المستعدين جميعهم للمغادرة، محملين بحقائب السفر وحقائب الظهر والطرود، وكلهم في حالة معنوية ممتازة ومتحمسون جدًّا، يعمهم السرور جراء مفارقة آبائهم ومدينتهم.

كم كانت صادمة، تلك اللحظات التي قضيناها على رصيف المحطة، فقد ابتلعت الحشود فيكتور دون ضجة تذكر، ودون أن يعيره أحد أي اهتمام خاص. لم تنقسم مجموعة الشباب إلى قسمين عندما ظهر فيكتور (ونحن جميعًا خلفه)، ولم يحضر أي ممثل للسكك الحديدية لأخذ حقائب فيكتور، وعندما ركب العربة لم يعطِه أحد الأولوية. في مواجهة هذا الظلم، ورؤية فيكتور لأول مرة في حالة مطلقة من الإجبار على عدم كشف هويته، ثار عقلي، وسيطرت الرعشة على كياني، وأفرزت عيناي قصيرتا النظر دمعتين كبيرتين اصطدمتا بالرصيف بقوة (بوم! بوم!) إلى درجة أن كل العائلات والمراهقين هناك لزموا الصمت لمدة ثانيتين قبل أن يحولوا أنظارهم عني.

«لقد طالبتك بعدم البكاء»، همس فيكتور في أذني محرجًا من الموقف بشكل واضح، وقد كبله أيضًا ذلك *الثقل* الذي أمثله بالنسبة إليه.

(١٠)

«اليوم، ماتت أمي».

أتعتقد حقًّا أن مثل هذه الجملة البسيطة يمكن أن تولد من أعماق كاتب؟ أؤكد لك: لا. الكُتاب عمومًا أشخاص شديدو التعقيد، منسلخون أحياء، ملتوون، مفعمون بالتناقضات، تستهلكهم الطموحات، لا يتمتعون بأدنى درجات الكرم كمواطنين، بينما تلهب فكرة الإنسانية أرواحهم.

كلا، أؤكد لك أن ألبير كامو ما كان ليبدأ روايته «الغريب» بهذه الجملة لو لم نقدمها إليه. علاوة على ذلك، لم يكن ليكتب هذه الرواية بأكملها، بهذا الأسلوب البسيط، الخطي والحميمي بمعنى بلوغ أعظم درجات الصدق، لو لم نعرض عليه نقطة البداية هذه، لو لم نفتح له هذا الباب الإعجازي الصغير.

«اليوم، ماتت أمي».

يا لها من جملة أولى، واعدة ومقنعة! رواية قصيرة كما نتذكرها جميعًا. من منَّا لم يقرأ كامو عندما كان في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره؟ ألم يقولوا، علاوة على ذلك، عن كامو (ولم يخلُ ذلك من بعض

الخبث) إنه كان، أولًا وقبل كل شيء، كاتبًا لطلاب المدارس الثانوية، وحتى فيلسوفًا لطلاب المدارس الثانوية؟ من في رأيك وضع هذه التسمية على جبين كامو؟ مجموعة من الكتاب الفاقدين للموهبة، ممن يدورون في فلك سارتر، هؤلاء المهووسون بالكلام المقعر، وغير القادرين على نطق جملة متماسكة دون أن تصاحبها نزوات إيمائية وتوكيد داخلي. أيمكنك أن تتخيل ما عاناه أنصاف الكتاب هؤلاء، من ذوي الميول اليسارية، عندما حصل ألبير كامو على جائزة نوبل وهو في الرابعة والأربعين من عمره فقط؟ ما زلت أذكر المشهد: كنت معه في الطابق الأول من أحد المطاعم في مونبارناس، عندما دخل فجأة كتبي شاب، وكان رجلًا نحيلًا بشكل ملحوظ، يرتدي ملابس غريبة، ويبدو وكأنه صياد. تقدم نحونا، ولا أدري لماذا فضل التحدث معي بدلًا من التوجه إلى كامو. ربما خلط بيننا. «سيد كامو، لقد حصلت على جائزة نوبل!» همس بها الرجل قبل أن يولي الأدبار ويختفي، وقد بدا عليه الإنهاك، وكأنه رسول ماراثون الذي أعلن انتصار اليونانيين على الفرس قبل أن ينهار ميتًا.

ابيضَّ وجه كامو تمامًا، وعضَّ على شفتيه قائلًا دون أن يرفع ناظريه نحوي: «مالرو هو من كان يستحقها».

أجل، في تلك السنة أي ١٩٥٧، كان أندريه مالرو بلا شك أكثر شهرة من كامو، لكنه لم يكن كاتبًا جيدًا مثله، ولم يكن حادًّا ومزعجًا وبسيطًا. بالنسبة إلى مالرو، كنت أنزعج دائمًا من فكرة النصوص الفرعية والسطور التي تحمل نفسًا تعليميًّا، والحال لم يكن كذلك مع كامو أبدًا. يكتب كامو وكأنه يخلع قميصه لإظهار ندوبه.

في عام ١٩٥٧، فاز كامو في السباق الذي شارك فيه صامويل بيكيت وبوريس باسترناك وسانت جون بيرس. ومع ذلك، لن يعرف أحد ماذا كانت الجملة الثانية التي قالها كامو بعد «مالرو هو من كان يستحقها». لكنك تستحق أن تعرف ما قاله لي كامو بعد ذلك. التفت إليَّ وقال: «شكرًا» هكذا ببساطة. وقد أدركنا معًا مغزى ما تشير إليه كلمة «شكرًا». لولا عبارة «اليوم، ماتت أمي» لَمَا كان كامو هو كامو، ولما صار عمله الإبداعي ذا شأن، ولما ذهبت إليه جائزة نوبل للآداب في تلك السنة العظيمة ١٩٥٧. واليوم، صارت رواية «الغريب» الكتاب الأكثر مبيعًا في تاريخ فرنسا المعاصر.

لماذا أخبرك بكل هذا بينما أطلب منك إبقاء الأمر سريًّا تمامًا؟ لأوضح لك أنه في الإمكان بناء مسار أدبي بأكمله، وليس مجرد رواية واحدة، على جملة واحدة. من كان كامو عام ١٩٤٢ عندما نُشرت رواية «الغريب»؟ حسنًا، لقد كان مجرد إمكانات بسيطة، أي شكلًا من أشكال الطاقة التي تتحرك في الفراغ. الجملة التي همسنا بها له ذات يوم في مقهى بالجزائر العاصمة هي التي بنت كامو بالكامل. ولا بد لي من الاعتراف بأن ألبير كان رائعًا: بمجرد تلقيه لهذه الدفعة، حدث كل شيء بعدها بشكل طبيعي، بل سأقول إن كل شيء قد كتب نفسه. هذه الجملة الأولى أملت كل شيء آخر على كامو، وأملت كل أعماله الأدبية، من خلال آلية يصعب علينا بدورنا شرحها. دعنا نتوقف للحظة عند الجملة الثانية من الرواية، التي لم نزوده نحن بها، والتي تراءت لكامو هكذا. أتذكر كيف يتابع «الغريب» بعد هذه البداية الدرامية «اليوم،

ماتت أمي»؟ إذا كنت قد نسيت، فسوف أذكرك. بعد «اليوم ماتت أمي»، هناك «أو ربما أمسِ».

يا له من بناء مذهل، ويا له من تواطؤ عظيم بين قوتين!

نحن: «اليوم ماتت أمي».

هو: «أو ربما أمسِ».

من الصعب تخيل جملة ثانية محملة بالذنب والغموض أكثر من «أو ربما أمسِ». هنا يتم ضبط النغمة على البناء بأكمله، مع مؤشر متعاظم من الشك...

حسنًا، لهذا كان من الضروري التطرق إلى كامو. لقد علمت فورًا أن ميشيل أونفراي قد ألف كتابًا يوضح فيه أن كامو (وليس سارتر أو مالرو)، هو رجل القرن العشرين. كان القرن بأكمله يتيمًا، لو فكرت في الأمر. قرن يتيم القيم، يتيم الحضارة، يتيم الإنسانية. النازية، الشيوعية، الحروب الاستعمارية الأخيرة، البهيمية في أقبح صورها، لم يكن لكل هذا أن يحصل لولا افتقار هذا القرن إلى أم. من لاحظ ذلك تحديدًا وعبَّر عنه مجازًا؟ كامو... بأي وحي؟ بالذي قدمناه نحن...

سأتركك الآن. أنا الآن في مقهى هاويلكا، لكنني سأغادر براغ غدًا.

أتمنى لك المزيد من الإلهام، إذا كنت مشغولًا الآن بالكتابة.

غ.ك

ملحوظة: إلى حين مراسلتنا القادمة، أدعوك إلى التفكير في هذه الجمل الأربع.

«أنا الرجل اللامرئي».

«لا بد لذلك أن يكون مجرد افتراء، ففي صباح يوم ما، ودون أن يرتكب أي جرم، تم القبض على جوزيف ك».

«لفترة طويلة، حرصت على الذهاب إلى الفراش مبكرًا».

«بالنسبة إلى رجل يحب السفر بالقطار، يكون النزول منه أسهل إذا ما اختار المحطة النهائية وجهة له».

(١١)

استيقظ إكس مصدومًا في أعماقه بانفجار الصمت. ولد صوت جديد داخل جمجمته. سمعه يضحك.

لم يمتلك إكس القوة بعدُ لفتح عينيه. انتظر. قام بعَدِّ الثواني في رأسه. خمسة. تسعة. ثلاثة عشر. «ثمانية عشر». ثلاثة وعشرون.

من قال *ثمانية* عشر؟ «أنا». من قال، *أنا*؟

عادةً ما يعتمد إكس على موسيقى المنبه. الواقع أنه يستيقظ دائمًا قبل دقيقتين أو ثلاث من رنته.. وبذلك، يكون الاستيقاظ نوعًا من الانتقال اللطيف من حلم إلى آخر.

«كفى»، قال الصوت في رأسه.

فتح إكس عينيه. شعر بأن الساعة قد تجاوزت السابعة. كان من المفترض أن ينطلق المنبه عند الساعة السابعة إلا ربع. غير معقول! يشير المنبه إلى الساعة ٦:٣٧.

نهض إكس وأزاح الستائر. لا، لا يمكن أن تكون الساعة ٦:٣٧ صباحًا فحسب، فالشمس بلغت عنان السماء فعلًا. يا إلهي، كم الساعة

الآن؟ وساعته، التي يتركها دائمًا في الحمام، تشير أيضًا إلى ٦:٣٧. لدى إكس ساعة أخرى في المطبخ. وكما كان متوقعًا، أشارت بدورها إلى ٦:٣٧. ضحك الصوت في رأسه، فضحك إكس أيضًا.

استلقى إكس على سريره، وانتظر إلى حين بلوغه اليقظة التامة. لم يفكر في أي شيء آخر. انتظر فقط، مستمعًا للصمت.

هل تجاوزت الساعة السابعة؟ عند الساعة السابعة إلا خمس دقائق، تتوقف شاحنة التبريد أمام محل الجزارة. وفي تمام الساعة السابعة صباحًا، يفترض أن تخرج مالكة المكان للنزهة برفقة كلبها. ومن المنتظر أن يسمع جامعي القمامة في الساعة ٧:٠٣ صباحًا.

«قلت إنك لم تفكر في أي شيء».

لم أفهم شيئًا.

«لا يمكن فهم أي شيء أصلًا».

ماذا تقصد بأنه لا يمكن *فهم أي شيء*؟

«الموضوع شديد البساطة».

هل بدأ إكس يحدِّث نفسه؟ هل هو مستيقظ أم على وشك الدخول في حلم؟ نهض إكس فجأة، ودخل الحمام، واغتسل. استيقظ إكس كليًّا. نظر إلى نفسه في المرآة. وبمجرد رؤيته لوجهه، أدرك فجأة أن الصمت هو الذي أيقظه فعلًا.

لم يسبق لإكس أن استحم في جوٍّ بمثل هذا الصمت. إنه الصمت الذي يصم الآذان. صمت ينبعث من الأشياء، من الجدران، يأتي من

الخارج، من الكون بأكمله. إنه صمت الشوارع، والمدينة، والصباح، والفضاء. صمت يغلفه بمجرد مغادرته لعقله. صمت شبه مادي لا لون له سوى: الأسود.

قام إكس بتشغيل الراديو. هذا غريب. يبدو أنه لا بث هذا الصباح. غير إكس التردد. بلا فائدة. استجاب له صوت صفير متواصل، يكاد يشبه السقوط في الفراغ. قام بإيقاف الراديو متحولًا إلى آلة التسجيل. شغل موسيقى فيفالدي وبدأ بالضحك. من المفترض أن يكون في المكتب بحلول الساعة ٨:٣٠.

أعد إكس لنفسه القهوة. فتح الثلاجة. أخرج الزبدة وشريحتين من لحم الخنزير. أغلق الثلاجة. قام بتقطيع شريحة من الخبز. انطلق صفير آلة صنع القهوة مثل صوت قاطرة قديمة. يصدر كوب السائل الأسود رنينًا بمجرد وضعه على الصحن. أشعرته هذه الأصوات المألوفة بسعادة غامرة.

تناول إكس شطيرته. شرب إكس قهوته. فكر إكس في الصوت الذي في رأسه. إنه صوت يسمعه لأول مرة. صوت يخاطبه هامسًا من أعماق كيانه. هذا ليس صوته، لكنه ينتمي إليه أيضًا. إنه صوت جديد، استقر في داخله منذ الساعة ٦:٣٧ لهذا الصباح.

- مهلًا، أما زلت هنا؟

«نعم»، رد الصوت.

- كيف يبدو العالم حيث أنت؟

«يبدو كل شيء مختلفًا عن المعتاد».

لقمة أخيرة من الخبز ولحم الخنزير. رشفة أخيرة من القهوة. بدا إكس في حالة ممتازة. شعر بنظافته ورائحته الطيبة. لا يخشى إكس شيئًا. أخذ حقيبته وغادر منزله. بشكل مستعجل: لا يمكنه التأخر عن العمل. لم يتأخر أبدًا، طوال السنوات السبع التي مضت، أي منذ أن بدأ العمل في هذه الشركة. بالنسبة إليه، فوظيفته هي أهم شيء في حياته. إكس متخصص في شبكات الاتصالات المعقدة.

غادر إكس المنزل، وأغلق الباب، ثم استدعى المصعد.

«وماذا عن الأسماك؟» سأله الصوت.

- الأسماك؟ لم أفهم.

«الأسماك ليست في مكانها».

كيف ذلك؟ لا وقت لإكس لكي يفكر في الأمر. لكن الصوت يعرف أن إكس غادر دون أن ينتبه إلى تفصيل أساسي. لقد اختفت الأسماك الحمراء، التي أهدته إياها ماتيلد في عيد ميلاده، من حوضها المعتاد.

يبدو أن المصعد معطل في الطابق الأرضي. لا بأس، اضطر إكس إلى نزول الطوابق الثلاثة على قدميه. اقترب إكس من الدرج بتردد، ثم توقف.

هناك شيء ما ليس على ما يرام. أكد الصوت ذلك. «شيء ما ليس على ما يرام». لكن ما هو؟

بداية، ليس من الطبيعي أن يكون باب شقة السيدة بورداز مواربًا. لا يمكن للسيدة بورداز أن تتركه مفتوحًا أبدًا. ومن الغريب حقًّا أن

تفعل شيئًا كهذا. لم تظهر على السيدة بورداز علامات الشيخوخة أبدًا. وهي ليست معتادة على التجسس على المستأجرين أيضًا.

إذن؟

اقترب إكس وضغط على جرس الباب. لم يتلقَّ جوابًا. طرق الباب. لا جواب. ضغط على الجرس من جديد رغم إدراكه أنه لن يحصل على أي رد فعل مغاير للمرة الأولى. لو كانت السيدة بورداز في الداخل، لكان كلبه الأثير، بيكسي، قد أظهر بالفعل طرف خطمه الصغير، ولربما قفز بين ذراعيه.

أأدخل أم لا؟ تساءل إكس. هل أصيبت السيدة بورداز بوعكة؟ «ما هذا، حتى الكلب؟» ربما تشاهد التلفاز... «هذا مستبعد». ماذا لو، ماذا لو، ماذا لو...

دفع إكس الباب بلطف.

- سيدة بورداز...

ثم أكثر قليلًا.

- سيدة بورداز، هل أنتِ هنا؟

دخل إكس بحذر، خطوة واحدة، ثم خطوتين... لا أحد في مدخل الشقة. لا أحد في غرفة المعيشة. لا أحد في المطبخ. تردد إكس في دخول غرفة النوم. هذا مما لا ينبغي القيام به. السيدة بورداز امرأة محتشمة. لن تحبذ السيدة بورداز أن يفاجئها أحد في غرفتها، هذا ما يعتقده على الأقل. من الأفضل أن أغادر، خاطب إكس في نفسه. خاصة مع شعوره بنوع غريب من عدم الارتياح. لم يشعر إكس بالراحة في هذه الشقة،

مع كل هذه الأشياء القديمة التي تعرضت للرطوبة. وقد خيل إليه أنها تراقبه أو حتى تحكم عليه.

بالعودة إلى المدخل، اكتشف إكس قفازًا من الدانتيل الأبيض أمام الباب. إنه قفاز السيدة بورداز الأيمن. وأمام الدرج مباشرة، مقود بيكسي. لماذا لم يرَ ذلك عندما دخل قبل دقائق قليلة؟

«وماذا عن الببغاء؟» الببغاء؟ «نعم، الببغاء». لم يفهم إكس المغزى مرة أخرى. لكن الصوت ظل مصرًّا: «وماذا عن الببغاء؟»

لم يعد لدى إكس الوقت اللازم للرد. اندفع نحو أسفل الدرج لأنه شعر بتأخره كثيرًا. عندما يكون الحال هكذا، فإن جسده كله يعمل كالساعة. تومض الأرقام، وتدور العجلات الصغيرة بشكل أسرع. تصبح العجلات المسننة أكثر إصرارًا لأن أسنانها أكثر حدة. يدرك الصوت أن إكس لم يدقق في أية تفاصيل إضافية. لقد اختفى ببغاء السيدة بورداز من قفصه.

من ناحية أخرى، لاحظ إكس شيئًا آخر، متمنيًا في أعماق نفسه ألا يعرفه الصوت. ما لاحظه فورًا مزروع في دماغه مثل شظية مؤلمة: لقد توقفت كل الساعات في شقة السيدة بورداز عند الساعة ٦:٣٧.

على الدرج، بين الطابقين الثالث والثاني، بدت بعض الأشياء مهجورة أكثر منها مفقودة: علبة النظارات (هل هي للسيد كونتز، عازف الساكسفون؟)، وقبعة سوداء (إنها للسيد براغوفسكي في الطابق الخامس بلا شك.) وفرشاة أسنان لم يستطِع إكس التعرف على مالكها.

بينما حثه الصوت على مواصلة النزول، لم يستطِع إكس إلا أن يتوقف عند الطابق الثاني. باب شقة عائلة بروشنر مفتوح على مصراعيه. ورائحة القهوة القوية التي سالت على النار تنبعث من شقة عائلة توليباك.

وبين الطابقين الثاني والأول، تناثرت أشياء أخرى: ولاعة بلاستيكية شفافة، وسوار ساعة بسلسلة (من حسن الحظ أنها لم تنكسر!)، وملعقة فضية (كاد إكس يقسم إن صاحبتها غادرت المنزل ومعها كوب من القهوة في يد وملعقة في الأخرى قبل أن تسقطها)، منديل أنثوي مطرز (هل هو للآنسة ماتيلد؟)...

«أتسمع؟» سأله الصوت.

صحيح، هناك صوت ما. صوت قادم من الأسفل، من الطابق الأرضي. صفير متكرر، إشارة مزعجة لحاسة السمع («والدماغ» يضيف الصوت). اقترب إكس، متجنبًا تخطي الحليب من الزجاجة المكسورة على إحدى الدرجات المؤدية إلى الطابق الأرضي. لم يدرك إكس مصدر الضوضاء بعد. كما لم يدرك بعدُ ما إذا كان قد بدأ يشعر بالقلق أو بالصدمة. لقد سجل دماغه بالفعل وجود خمسة أبواب مفتوحة أو مواربة.

قال الصوت: «شيء ما يحدث في الشارع». لا، أجاب. تابع قائلًا: «عليك أن تحافظ على هدوئك». أجاب إكس أنا هادئ. فحذره الصوت: «لا تنسَ أنه لا يمكنك التأخر عن المكتب». لا. «هناك حريق ربما»، اقترح الصوت. حريق؟ «نعم، حريق صامت».

ما يهم إكس حاليًّا هو تحديد مصدر هذا الضجيج المزعج. طرق باب الحارس.

- سيد بوسبيب...

قال الصوت: «أعتقد أنه في إمكانك الدخول». وذلك ما فعله. دفع باب الغرفة ودخل بهدوء. على طاولة المطبخ الضيقة، ترك السيد بوسبيب وجبة إفطار لم يتناول منها لقمة واحدة: شريحة من الزبدة وياغورت ونصف كوب من القهوة مع بعض الحليب. انبعث الضجيج المزعج من مشغل أسطوانات قديم تلامس إبرته أخدود أسطوانة مخدوشة بلا نهاية. مثل حشرة هشة الأرجل، غير قادرة على عبور فجوة مفتوحة في الفراغ. فساعدها إكس على العبور بدفعها بأطراف أصابعه. فيفالدي. لم يخطر بباله أن السيد بوسبيب يستمع أيضًا إلى فيفالدي عند تناوله وجبة الفطور.

لاحظ إكس أيضًا أن السيد بوسبيب قد ترك الصنبور مفتوحًا في الحمام. ظلت فرشاة الأسنان المليئة بالمعجون على حافة الحوض. يبدو أن السيد بوسبيب لم يكن لديه الوقت الكافي لتنظيف أسنانه هذا الصباح. أغلق إكس الصنبور وغادر الشقة الصغيرة.

«ما رأيك في العودة إلى المنزل؟» قال الصوت. لا، رد إكس. فأضاف: «ربما سيكون من الأفضل العودة ونسيان كل شيء». لا، كرر إكس.. فأصر الصوت قائلا: «فكر جيدًا». لن أفكر في أي شيء، رد إكس متذمرًا. «ليس من الطبيعي أن يستمع السيد بوسبيب أيضًا إلى فيفالدي عند تناوله وجبة الإفطار». انفجر إكس ضاحكًا. شعر أن الصوت قد ابتسم.

- لماذا تبتسم؟ سأله إكس.

لم يستجِب الصوت. انجرف إكس إلى ذكرى خطواته. صادف حقيبة ساعي البريد المليئة بالرسائل في مدخل المبنى. من الواضح أنه بدأ بتسليم البريد عندما...

«عندما ماذا؟» سأله الصوت.

لم يعرف إكس بماذا سيجيب. كل ما رآه هو أن الموظف قد ترك حقيبته، وأن بعض الرسائل ملقاة على الأرض. مال إكس لينظر بعناية. ويبدو أن بعض الرسائل (المغلقة بالطبع) تحمل آثار أقدام.

«من تركها؟»

لا يملك إكس إجابة. وجد صعوبة في تصديق أن مستأجري المبنى قد يتخطون الرسائل بأقدامهم. بحث إكس في الرسائل التي سقطت من الحقيبة الجلدية البنية واكتشف ظرفين يحملان اسمه. ثم نظر في صندوقه. كان أمام الرجل الوقت الكافي لدس رسالة ثالثة.

قال الصوت: «أعتقد أن ما حدث هو العكس تمامًا».

ماذا تقصد بالعكس؟ «الرسالة الموجودة في الصندوق هي الأولى. ثم ترك الرجل كل شيء هناك».

الرسائل الثلاث هي من شركة الغاز والكهرباء، من الشركة الدولية لأبحاث الاتصالات... أما الرسالة الثالثة فلا وجود لمرسل معروف.

أخذها إكس معه، سيقرؤها لاحقًا في الحافلة. يحب قراءة مراسلاته ثم تصفح الجريدة أثناء رحلته بالحافلة. وضع الظروف الثلاثة في حقيبته واستعد للخروج إلى الشارع. وبصرف النظر عن كومة الرسائل المتروكة، وجد في قاعة مدخل المبنى: ساكسفون السيد كونتز، وحقيبة

ظهر الآنسة ماتيلد، والقفاز الثاني للسيدة بورداز، وعلبة بودرة نسائية، وعلبة كوكا كولا، وحذاء رجل.

(١٢)

لم يكلف العجوز اللطيف نفسه عناء القيام بواجب التعارف إلا بعد أربع أو خمس من زياراتي المتواترة إلى المكتبة الصغيرة في ممر فيردو:

- برنارد.

إذن فقد اجتزت ما يشبه اختبار تحمل أو مثابرة، فبعد هذا التعارف القصير، تحول السيد برنارد إلى التعامل معي بصفتي صديقًا للمكتبة.

- كما ترى، قال، فإن الكتب معروضة بشكل عشوائي. الواقع أن كلمة «معروضة» نفسها غير دقيقة، فنحن نترك الكتب مكدسة هكذا، كيفما اتفق، وبلا أدنى تنظيم.

أنا شخصيًّا أكره المكتبات الكبرى المرتبة كتبها وفق الموضوع أو الترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين. ما الداعي إلى ترتيبها أو تضييع الوقت بحثًا عن صيغ جديدة للترتيب؟ *رواية، دراسة، قصص، سير ذاتية... كُتاب أجانب، كُتاب محليون...* هذه لا تعدو كونها محاولات رنانة لإدخال صفحات تحمل هويات متعددة في خانات محددة سلفًا. أحيانًا، تكون بعض السير الذاتية روايات مغامرات رائعة، وقد تكون بعض الروايات في جوهرها دراسات متنكرة...

اعترفت عندئذ بالمتعة العظيمة التي تجتاحني أثناء البحث والتنقيب بين أكوام الكتب. قدمت إليَّ فوضى المكتبة (مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال كونها فوضى منظمة) مفاجآت مدهشة. تتحول هذه الفوضى إلى سفر، عند العثور على دراسة حول المسرح الروسي بين عامي ١٩٠٥ و١٩٣٥، تحت كتاب عن أنطولوجيا الأدب الإباحي، قبل الوصول إلى مؤلف ضخم (الجزء الثاني) عن حياة جان دارك، بقلم أناتول فرانس[(١)]. الحياة نفسها مصممة على هذا الشكل، من لدن الخالق الأعظم للفوضى. لا نرى في الشوارع أبدًا مجموعات من البشر تتنقل وفق انتمائها إلى جنس أو دين أو فئة عمرية أو أية قناعات فلسفية أو سياسية مشتركة. كلا، ففي الشوارع يتحرك الناس بنفس العشوائية التي تتوزع بها الكتب في مكتبة السيد برنارد. لهذا أشعر بتلك المتعة كلما تجولت بلا هدف في شوارع المدينة، متأملًا الناس في فوضاهم، ثم وجدتها الآن في مكتبة فيردو، التي لا تفرض عليَّ أي شيء، باستثناء حرية مطلقة.

- أنا أيضًا أحب التنقيب بين أكوام الكتب، أقر العجوز ضئيل الحجم بأدب. فعندما أبدأ البحث، أكون أشبه بمن يفتش عن جوهرة نادرة وسط كومة من العقول. ألم تراودك أبدًا فكرة أن يكون هذا هو التعريف الأمثل للكتاب؟ أجزاء من عقل متقد، قطعة صغيرة من دماغ ما وضعت قيد التشغيل... ينقل الأشخاص الذين يكتبون بكثرة كل مادتهم الرمادية تقريبًا إلى كتبهم. يخيل إليَّ أحيانًا أن بلزاك قد بدد في آخر حياته كل المادة

(١) أناتول فرانس (١٨٤٤-١٩٢٤): روائي وناقد فرنسي. (المترجم)

الرمادية المتوفرة داخل جمجمته، رصيد كامل تحول إلى سيل من الكلمات...

لم أجرؤ، خلال الأسابيع الأولى من علاقتي بالسيد برنارد، على سؤاله حول عمله هو الآخر مع الوكالة، أو لعبه أي دور في بيع (أو توفير) الجمل الأولى للروايات. هل كان جزءًا من العائلة التي أسستها الوكالة؟ هل توجد رابطة أبوة بينه وبين السيد غي كورتوا؟

لم أشأ استباق الأمور، مفضلًا بناء علاقتنا على قواعد متينة من الالتباس والغموض.

(١٣)

لم أكن لأصدق إمكانية لقائي ذات يوم
بالآنسة ري

سبق وأن مررت بحالة من النشوة، واجتزت حممًا من اللهب
ولم أكن لأنتظر شيئًا آخر
أو حتى أجواء التكرار العامة في غار دي نور (محطة الشمال)
عندما طلبت مني الآنسة ري، فجأة،
السماح لي بالتصوير، مستخدمة يديها وعينها

كانت تمتلك آلة ضخمة تسير على عجلات
آلة بأسنان وفك سفلي
وأجنحة صغيرة أمام العدسة
لا تتحرك، قالت (وإن كنت راغبًا في الركض نحوها)

انتظرت النقرة

ساعة، ثم يومًا،

وبعد مرور أسبوع قامت الآنسة ري

بالضغط أخيرًا على زر التشغيل

فسحقتني عينها فجأة

لأتحول إلى صور وشظايا

وتتخذ حياتي شكل جزيئات

بما في ذلك مستقبلي القريب

وتتبدد لتصبح مزيجًا من مسحوق وغبار

يدور حول آلة تصوير الآنسة ري

التي صارت ثقبًا أسود هائلا

مثل الثقوب الكونية السوداء

التي تبتلع كل شيء

(١٤)

سيدي العزيز،

أكتب إليك من براغ، حيث ذهبت للقاء كافكا. لا أدري إن كنتَ قد زرت براغ من قبل، أما إذا لم تفعل ذلك، فاتبع نصيحتي، واذهب خلال شهر فبراير. يجب أن ترى براغ عبر الضباب. قليلة هي المدن الأوروبية التي تتمتع بهذه الجودة المتمثلة في قدرتها الكبيرة على إثارة الإعجاب بالضباب. أجراس الأبراج وأسطح المدينة، جسر تشارلز بتماثيل القديسين، الساحات والبوابات، الكنائس والممرات، كل هذا يستحق أن تراه، ولو لمرة واحدة على الأقل، وسط الضباب. علاوة على ذلك، فإن كافكا لا يخرج للتنزه إلا في وجود الضباب. وأحيانًا يأتي إلى مقهى اللوفر حيث أشغل طاولة الآن.

من الغريب أن باريس، مدينة المقاهي الصغيرة، لم تتمتع أبدًا بثقافة المقاهي الفسيحة التي نجدها في أوروبا الوسطى. من الواضح أن الباريسيين يفضلون الازدحام، ولهذا السبب فإن الطاولات والكراسي صغيرة دائمًا في كل المؤسسات الفرنسية. في الإمبراطورية النمساوية المجرية القديمة، كان المقهى أقرب إلى النادي، حيث يأتي البرجوازيون

والفنانون للجلوس بشكل مريح والتأمل في الحياة، وربما التحدث عن الفن ومناقشة موضوعاته، وليس لإشعال ثورة، كما هو الحال في باريس. وأنا أكتب هذه الكلمات، أقول لنفسي إنه لم يعد في باريس أي مقهى كبير مثل مقهى اللوفر هذا، بغرفة البلياردو وقاعة الموسيقى الخاصة به... في وقت سابق كانت هناك «قاعات لعبة الشطرنج» بينما كانت قاعات أخرى عبارة عن «غرف خاصة» بها طاولات للكتابة وهواتف: كان الصحفيون أو الكتاب يحجزونها ليقضوا فيها ساعات طويلة.

لذلك، وبطبيعة الحال، فإن مقهى اللوفر اليوم مشوه قليلًا بسبب السياح، ما يدفع كافكا إلى تجنب القدوم إليه، إلا نادرًا...

هل تمعنت في جملة «لا بد لذلك أن يكون مجرد افتراء، ففي صباح يوم ما، ودون أن يرتكب أي جرم، تم القبض على جوزيف ك»؟ أعرف مدى إعجابك بكافكا، وكم ألهمك برواياته وعالمه. يجب أن تأتي إلى براغ يومًا ما، وتنظر من جسر تشارلز، في اتجاه القصر الملكي السابق، حيث تتواجد بالقرب منه قلعة كبيرة، بل وضخمة، تسيطر على المدينة بأكملها، من أعلى تلة على الضفة اليسرى لنهر فيلتافا. هذا القصر، أو هذه القلعة إن صح التعبير، من بين أكبر قلاع أوروبا الوسطى، وهي متاهة حقيقية من الممرات والبنايات، نصب تذكاري للتقشف، بما يتناقض تمامًا مع وفرة الآثار الباروكية[1] في أنحاء أخرى من المدينة.

---

(١) الباروكية: فترة تاريخية في الثقافة الغربية نشأت عن طريق أسلوب جديد في فهم الفنون البصرية، مما ساهم (انطلاقا من سياقات تاريخية وثقافية مختلفة) في إنتاج أعمال متنوعة في عدة حقول فنية مثل الأدب والعمارة والنحت والرسم والموسيقى والمسرح وغيرها. (المترجم)

هناك شيء ما، يمزج بين الثقل والجمود، الشدة واستحالة الاختراق، ينبثق من هذه «القلعة»، باعتبارها رمز سلطة مجردة وغير شخصية، باردة وساخرة. عندما تنظر إلى هذه الظلال، خاصة في طقس ضبابي، ستفهم لماذا كتب كافكا روايته التي تحمل عنوان «القلعة».

ومن ناحية أخرى، فالفضل يعود لنا، لأننا همسنا له بهذه الجملة الأولى الرائعة ذات يوم: «لا بد لذلك أن يكون مجرد افتراء، ففي صباح يوم ما، ودون أن يرتكب أي جرم، تم القبض على جوزيف ك». لم يذكر أي مؤرخ أدبي أو كاتب سيرة أو كتاب شهادات هذا التفصيل. قد تسألني لماذا أبوح لك بذلك اليوم. سأسمح لك بالوصول إلى الإجابة على السؤال بنفسك. لكن الأمر يستحق أن نعرض لك هذا المشهد الأول.

ذات يوم غائم، أحد أيام فبراير من تلك السنة الشريرة ١٩١٤ التي ستفتح الباب فيما بعد أمام مسلسل كوارث القرن العشرين، كان فرانز كافكا يتمشى عبر جسر تشارلز. رجل تجاوز سنوات الشباب الأولى، في الحادية والثلاثين من عمره، متخصص في قصص الحب الأفلاطونية، رجل مقتلع الجذور بطبيعته، يحترق في دواخله بشغف الأدب. لست أنا من همس في أذن فرانز كافكا، في ذلك اليوم من شهر فبراير، بالجملة الأولى في الرواية. فقد التقى يومها، على جسر تشارلز، مع ماكس برود، وهو عاشق آخر للأدب، كان يعرفه منذ أكثر من عشر سنوات، فصار أعز أصدقائه. لم يكن أحد يعلم، ولن يعرف أحد أبدًا أن ماكس برود هذا كان يعمل لحساب وكالة كورتوا الأدبية.

لكن كافكا لم يكن كاتبًا منضبطًا. مهووس، نعم، لا مع، نعم، لكنه

ممزق جدًا بسبب علاقاته المعقدة مع عائلته أولًا، ومع النساء خاصة. بالنسبة إلينا، كان كافكا جائزة نوبل ضائعة، لكن ما الفائدة من التفكير في الأمر مرة أخرى؟ المهم أننا استطعنا أن نهمس في أذنه بجملة أساسية، في وقت من حياته كان يمتلك فيه كل إمكانياته بشكل كامل. أيمكنك تخيل تاريخ الأدب الحديث بدون كافكا؟ بدون «المحاكمة»؟ بدون جملة «لا بد لذلك أن يكون مجرد افتراء، ففي صباح يوم ما، ودون أن يرتكب أي جرم، تم القبض على جوزيف ك».؟ كان عام ١٩١٤ هو العام الذي أدى إلى اعتقال القرن العشرين بأكمله. قرن لم يغادر السجن إلا في عام ١٩٩٠، عندما سقطت الأنظمة الشيوعية في أوروبا. خيم ظل كافكا على هذا السجن بأكمله الذي كانت عليه أوروبا طوال تلك الفترة. كما خيم ظله أيضًا على «قلعة» براغ.

لن آخذ من وقتك أكثر من ذلك. خاصة مع شعوري بأنك غير صبور. أعلم، أعلم حجم توقعاتك منا، لكن لا يمكنني أن أعدك بأي شيء الآن. لا أعرفك بما فيه الكفاية حتى الآن. ليست لبرنارد أيضًا فكرة واضحة عن المخطوطات التي عهدت بها إليه. لم تقابلك الآنسة ري بعد. ناشدتني في رسالتك الأخيرة، أن أرسل إليك، أن أمنحك، أو على الأقل أقترح عليك مشروع جملة أولى لرواية. يا لها من فكرة مضحكة! لم يطلب منا أحد هذا من قبل. ولكن إذا كانت لديك روح مرحة، وكنت ترغب في خوض غمار بعض التمارين الأولية، فأرجو أن تبدأ مغامرة جديدة مع هذه البداية: «ليس من السهل أن يكون لك أخ أكبر، يرى فيه الجميع أمارات العبقرية».

أتمنى لك المزيد من الإلهام، وخصوصًا القدرة الفائقة على الاستماع إلى ما تقوله لك الكلمات عند كتابتها على الورق.

مع فائق تقديري،

غي كورتوا

ملاحظة: أود أن أتحدث معك مرة أخرى عن جسر تشارلز الذي يعد «مركز» هذه المدينة الرائعة المسماة براغ. قليلة هي المدن التي لها جسر في قلبها. إنه رمز يستحق التأمل. كما يؤدي جسر بونتي فيكيو، في فلورنسا، هذا الدور باعتباره المركز المادي والروحي للمدينة، وعقدة الطاقة التي تشع منها ذاكرة الفضاء الحضري بأكمله. تمامًا مثل جسر الريالتو في البندقية، وإن بدرجة أقل. إذا تبادر إلى ذهنك مثال آخر، فيرجى إبلاغي به في رسالة قادمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١٥)

ظل تفوق فيكتور واضحًا، خاصة فيما يتعلق بالتفاصيل. عندما نذهب في نزهة ويكون علينا اختيار مكان جيد، يفرض اختيار فيكتور نفسه بين كل الاقتراحات التي يقدمها الآخرون. كانت لديه رؤية، وقدرة على استشعار المكان، وتقديم أكثر الحجج حكمة، التي تربط أسباب الراحة بأسباب أخرى جمالية ومنطقية. عندما يتعلق الأمر بإشعال النار، فإن فيكتور هو من يعرف أفضل كيفية لترتيب الأغصان، والأنواع الأكثر ملاءمة، وكيفية تشكيل كومة من الفروع والأغصان التي يحتمل أن تسمح بتدوير الهواء بشكل أفضل، لأن النار تتغذى، كما هو معلوم، على الأكسجين. عندما يتعلق الأمر بشواء اللحوم، ما كان أحد ليجرؤ على تحدي مستوى مهاراته. حتى أنه يعرف كيفية تزييت الشواية، وإعداد الفحم، ومدة طهي لحم الخنزير، ومدة طهي الدجاج أفضل من أمي وأبي، بل إنه، وقبل كل شيء، يعرف كيفية تحضير لحم الخاصرة أو الفخذين، أي طهوها قليلًا أو تزيينها بالثوم أو نقعها في صلصات مختلفة تعتمد على الزيت والخل وعصير الليمون والتوابل المختلفة.

فرض فيكتور تفوقه في كل شيء تقريبًا. فإذا كان من الضروري اختيار مطعم، فلديه هو ذلك الحدس الأكثر دقة، وعندما يتعلق الأمر بطلب النبيذ، فلديه الذائقة المناسبة لتحديد الزجاجة الأفضل جودة وسعرًا. في خضم المناقشات المحتدمة (أو حتى العادية) وكيفما كان موضوعها، فإن فيكتور حريص دومًا على عدم المقاطعة منذ البداية، أو ربما الاكتفاء بتوجيه المحادثة نحو نتيجة احتفظ بها لنفسه. إذا تعلق الموضوع بالمنازل، ووصف كل من المتحدثين الثلاثة أجمل بناء على الإطلاق، فإن المبنى الذي يرسمه فيكتور يكون الأشد إثارة والأكثر نجاحًا من وجهة نظر جمالية. باختصار، يجري الحوار مع فيكتور على النحو التالي. تقول إنك رأيت سيارة رائعة. فيطلب منك فيكتور بعض التفاصيل الإضافية، ويتركك مستسلمًا لحماسك تجاهها، قبل أن يصف لك بدوره سيارة أكثر روعة وتطورًا وإبهارًا. إذا قلت إنك قد عاينت حادثة سير مروعة، فسيستمد فيكتور من خزان ذاكرته صورًا لحادثة أكثر فظاعة. وإذا قلت إنك بدأت بتعلم لغة إفريقية تتحدثها قبيلة غير معروفة في أوروبا، فسيرد فيكتور على الفور بالحديث عن دراسته للغة أمازونية لم يعد يتحدث بها سوى شخص واحد.

لا يعني ما أقوله إن فيكتور يريد دائمًا الاحتفاظ بالكلمة الأخيرة لنفسه. لا، على الإطلاق... غالبًا ما كان فيكتور يستمع إلى قصص الآخرين دون أن يعلق عليها بشيء، ودون استخلاص استنتاجات، دون إضافة نكهته الخاصة. اعتاد فيكتور على إغلاق النقاش دومًا باستعراض تحليل أو استنتاج أو قصة أفضل من قصص الجميع، وفي كل

مرة يمتنع فيها عن ذلك، تعتبر المجموعة ذلك هدية منه. عندما يصمت فيكتور في نهاية المطاف، يغمر نوع من الدفء الداخلي أعماق الشخص الذي قاد المناقشة إلى حين صمت فيكتور. من خلال ذلك، يقدم فيكتور ثمنًا وديًا، وكان قادرًا على فعل ذلك بمهارة معينة. من خلال الامتناع عن مناقضة أي شخص أو التقليل من شأن رأيه، خاصة عندما يكون من الجلي أنه قادر على فعل ذلك بسهولة شديدة. الواقع أنه كان كريمًا جدًّا، وبطريقته الخاصة، فأصبح تفوقه أكثر وضوحًا. ومع شعور لا مثيل له بضرورة تطبيق العدالة، يرتب فيكتور الأمور بحيث تتم مكافأة كل عضو في المجموعة التي يهيمن عليها بحضوره، ولم ينشأ هكذا أي نوع من الغيرة بين المرؤوسين، وسمح لكل واحد منهم بالانتصار من حين إلى آخر. ولكن المفهوم أن فيكتور، وليس أي شخص آخر، هو من سيتولى توزيع المكافآت وأكاليل الغار.

سافر فيكتور كثيرًا خلال سنوات دراسته. ولمساعدتنا على رؤية العالم عبر عينيه هو، أرسل إلينا بطاقات بريدية ثقافية. لا أدري كيف كان يتدبر أمره، لا بد أنه يحمل معه مخزونًا كافيًا من الطوابع البريدية، لكنه أرسل بطاقة من كل مدينة يزورها، وعندما يمكث في إحداها لفترة أطول، يرسل إلينا صورتين أو ثلاث صور للآثار الرئيسية فيها. كان لدى فيكتور أسلوب تلغرافي وشعري في الآن نفسه، ينقل من خلاله مشاعره إلينا. من مدينة روان مثلًا أرسل إلينا خريطة بها تمثال جان دارك وعبارة: *الحج إلى منابع الأسطورة*. أتذكر صورة أخرى لمدينة حصينة، مبنية على البحر، مذيلة بهذا النص: *على خطى سوركوف في سان مالو*.

صارت لدينا مجموعتنا الهائلة من البطاقات البريدية، التي استحوذت على مساحة المطبخ بأكمله، وكل الأثاث، وشيئًا فشيئًا كل مساحة قابلة للعرض في المنزل. لأن أمي لم تكن لتتخيل إمكانية إخفائها أو الإغلاق عليها بإحكام في صندوق. المفروض أن تحتل هذه البطاقات صدارة المكان، وأن تكون على مرأى من الجميع، حتى تتمكن أعيننا في أي وقت من التركيز على مراحل رحلة فيكتور، التي شاركها معنا بكرم كبير.

لحظة تأمل على شواطئ الإنزال في النورماندي.. طريق النهضة في وادي اللوار.. زيارة إلى باعة الكتب المستعملة على ضفاف نهر السين...

المدهش هنا أن فيكتور لم يكرر نفسه؛ لقد صاغ سطوره دون توكيد، ولكن بطريقة منهجية، الرسالة الرئيسية هي رغبته في أن نكون معه دائمًا، لكي نسافر إلى جانبه، ولكن قبل كل شيء لمشاركتنا المفيدة في سياق رحلاته. بطريقة ما، وبغيابه هذا، ساعدني فيكتور (بل وساعدنا) على توفير الوقت. كانت الصور الرئيسية التي يرسلها إلينا بالإضافة إلى تعليقاته الموجزة بمثابة مقدمة لنا لفهم الجغرافيا الثقافية لفرنسا وأوروبا عمومًا. ما الفائدة في هذه الظروف، من أن تسافر أنت، ما دام فيكتور قادرًا على إرسال مشاعر صاغها هو بعناية؟ شطب فيكتور كل الوجهات، الواحدة تلو الأخرى، ما جعل حياتنا أسهل، فوفرنا بذلك مالًا وجهدا بدنيًّا...

- أتدرك كم أنت *محظوظ*؟ تقول أمي، من حين إلى آخر، بينما أتفحص سلسلة، لا نهاية لها، من البطاقات البريدية التي أرسلها فيكتور وتغطي كل الجدران تقريبًا.

لم أجرؤ، وأنا في ذروة سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، أن أسأل عن طبيعة هذا الحظ. كنت سأتلقى نظرة استنكار من والدتي لو أشرت إلى أنني لم أفهم في البداية ما تعنيه هذه الجملة... ظهرت كلمة *الحظ* كثيرًا في محادثاتنا، وشيئًا فشيئًا أدركت أن فيكتور، هو حظي الأكبر. ولا يزال عليَّ أن أتقدم في السن أكثر لكي أتمكن من قطف هذه الثمار البديهية...

حتى في المدرسة، كانوا يكررون على مسامعي، من حين إلى آخر، أشياء من هذا القبيل: «إذن، هكذا تتولى أنت المسؤولية؟» أو «كن حذرًا، سيتعين عليك أن تكون في المستوى».

كلما زاد عدد البطاقات البريدية التي يرسلها إلينا فيكتور، تضاعف الذعر في داخلي. متى وكيف وبأية طريقة يمكنني بلوغ مرتبة فيكتور نفسها؟ لقد بدا واضحًا بالنسبة إليَّ أن المعركة خاسرة منذ البداية، ولا فرصة لي في بلوغ مستوى بطاقات فيكتور البريدية... وحتى لو بدأت في يوم من الأيام بإرسال البطاقات إلى المنزل، فلن يكون لها نفس التأثير العاطفي.

مع انطباعيي مونمارتر.. تحية من مقر الفوضية الأوروبية في بروكسل.. أرسل إليكم طبق نكهات من منطقة بروفانس...

لا، بدا واضحًا أن فرصي في بلوغ مستواه تتضاءل يومًا بعد يوم، مع تلقي كل بطاقة بريدية، وكل معلومة عبر قنوات أخرى. لأن فيكتور، الذي سافر لدراسة العلوم السيبرانية، استمر في توسيع آفاقه المهنية. ومن خلال ما كان والداي يتهامسان به في خشوع، فهمت أن فيكتور

يتجه الآن نحو عبور *التخصصات*. لقد أصبح الآن مهتمًا بالعلوم *العابرة للحدود* أو بالأبحاث *العابرة للحدود* باعتبارها علمًا.

ثم تسربت إلينا فكرة أو معلومة أخرى، لنناقشها نحن وأفراد العائلة، بخشوع أكبر: لا يمكن لمستقبل فيكتور أن يكون في أوروبا بأي حال من الأحوال، لقد خُلِق فيكتور للذهاب إلى أمريكا.

(١٦)

ضرب الصمت الحضري جسده بقوة، وكأنه تلقى لكمة في صدره. الشارع مهجور. يبدو صفاء السماء غريبًا بعض الشيء. وتبدو الأشياء جامدة كما لو كانت في حوض بلا أسماك. لا اهتزازات في الهواء، كل دوارات الطقس ساكنة، وتشير إلى الاتجاه نفسه: الشمال. «هل أفهم من ذلك أن آخر مرة هبت فيها الرياح كانت في اتجاه الشمال؟» تساءل إكس.

تقدم إكس على الرصيف كما لو كان يمشي على قشور البيض. يا إلهي، أين اختفى الجميع؟ لا صرخة ولا سيارة. يبدو الأفق متجمدًا، والسماء فارغة، ولا وجود لأي اهتزازات في الأنحاء، لا أحد يغادر المباني، لا أحد يفتح أية نافذة، كما أن فتحة المنفاخ فارغة. معظم الأبواب مفتوحة على مصراعيها، وحتى نوافذ المباني (خاصة في الطابقين الأرضي والأول، وكأن سكانها قفزوا فجأة من النافذة). لا كلب ينبح، ولا طائر يعبر الأفق. تبدو الأشجار مشلولة، متجمدة، وكأنها مصنوعة من زجاج، الأوراق نفسها لم تكن تتحرك.

يا إلهي، أين اختفى الجميع؟ ما الذي جرى؟ أين اندلعت النيران؟ تساءل إكس من جديد.

لم يجبه الصوت، لكنه شعر بلهاثه.

لا يزال الناس حاضرين، باعتبار الأشياء التي تركوها. فقد تخلوا عن كل شيء، السيارات والدراجات الهوائية وعربات الأطفال والدراجات البخارية وحقائب السفر وحقائب الظهر والقبعات والعصي والمظلات... كما ترك بعضهم معاطفهم وستراتهم والسجائر التي كانوا يدخنونها (خيل إلى إكس أن بعض السجائر ما زالت مشتعلة). توجد حقائب يد في كل مكان، بالإضافة إلى صحف مطوية، وأرغفة خبز غادرت المخابز فورًا، ولم يتناولها أحد بعد.

مهلًا، تبدو هذه مثل الكرية الحمراء التي يلعب بها بيكسي، كلب السيدة بورداز، وعلى بعد مسافة قصيرة، تعرف إكس على أحذية تزلج (إنها لبول، حفيد السيد بوسبيب) وجهاز الاستماع الجوال الخاص بالآنسة ماتيلدا.

لا أحد في مخبز السيد ماسيك، ولا أحد في محل جزارة السيد برونو، ولا أحد في محل بيع الزهور، ولا أحد في السوبر ماركت الصغير، ولا أحد أمام كشك بيع الصحف (وهو ما لم يمنع إكس من أخذ الصحيفة التي تهمه من كومة كبيرة وترك ثلاثة قطع عملة متطابقة فوقها). لا أحد في المقهى المركزي، فقط أربعة أو خمسة فناجين من القهوة الساخنة على المنضدة، وفناجين أخرى مكسورة بالقرب من المدخل. أمام محل بيع الزهور، شاحنة تسليم نصف فارغة. في زاوية الشارع شاحنة تبريد، تلك التي يفترض بإكس سماعها وهي تمر عند الساعة السابعة إلا ربع.

أوحت كل السيارات وسيارات الأجرة والحافلات بأنها تُركت

فجأة في مكانها. وكأن كل أصحابها وسائقيها قد فرملوا في ثانية واحدة، ثم غادروا مذعورين وهربوا تاركين الأبواب مفتوحة. يبدو أن معظمهم تركوا المفاتيح في مكانها. فاجأ إكس أنهم جميعهم تقريبًا امتلكوا الوقت الكافي لإيقاف المحركات، حتى لو كانت بعض السيارات تخرخر مع رفع فرامل اليد.

كلما اقترب من الشريان الرئيسي للحي، زاد عدد السيارات المهجورة. تشبه الأشياء الموجودة في الشارع وعلى الأرصفة الطمي الذي خلفه مرور السيل.

توقف إكس باحثًا عن رأي الصوت. أمام المبنى الذي يفترض أن يصادف أمامه السيدة بورداز: عادةً، تعود من نزهتها مع بيكسي في الوقت الذي يغادر فيه إكس للذهاب إلى المكتب. تخرج الآنسة ماتيلد أيضًا في الوقت نفسه تقريبًا، وتبادله الابتسامة. يفترض به أيضًا مقابلة ميميل، متسول الحي أمام الكنيسة العالية. أين ذهب كل هؤلاء؟ والآخرون الذين تركوا سياراتهم هكذا بشكل عشوائي؟ والعملاء، والمارة، وربات البيوت اللاتي يقمن بمهامهن المعتادة، والشيوخ الذين يستيقظون باكرًا، والسعاة، والأطفال الذين ينبغي أن يكونوا في طريقهم الآن إلى المدرسة، و...

- أتعتقد أنني مطالب بالاتصال بالشرطة؟

انفجر الصوت ضاحكًا. لم يفهم إكس ما إذا كانت ضحكة موافقة أم احتجاج. لكنه واصل طرح الأسئلة. قد يكون كل هؤلاء المختفين في حاجة إلى المساعدة؟ هل هذا إخلاء عام؟ لقد حدث هذا بالفعل، في

برازيليا على ما يبدو، عندما تسلل غاز الميثان إلى كل مجاري المدينة، فكان إخلاء الجميع ضروريًّا.

ضحك الصوت مرة أخرى. (مخالفة في الرأي أم رفض للتواصل؟)

غريب، خاطب إكس في نفسه، كل إخلاء لا بد وأن يسبقه إنذار. ينبغي أن يسمع صوت صفارات الإنذار. وربما أصوات صرخات أيضًا. يجب أن يسمع صرير الإطارات على الأسفلت. وأن يسمع صوت خطوات وركض الحشود أثناء فرارها...

«وهل أنت متأكد من فرارهم؟»

- كلا.

«إذن؟»

الواقع أن إكس لم يكن متأكدًا من أي شيء. «ما هي أولويتك العاجلة؟» الأولوية... نعم، هذا صحيح، في نهاية المطاف، لا أحد يطلب المساعدة، وأنا أعمل اليوم، لذلك سأذهب إلى المكتب...

لا يحب إكس التأخر، ويصرح بذلك كثيرًا. لم يسبق له الوصول متأخرًا أبدًا. بالنسبة إليه، فالأكثر أهمية، بغض النظر عن علاقته بماتيلد... ماتيلد، ربما كان ينبغي عليه الاتصال بها! سوف يفعل فور وصوله إلى المكتب، أجل.

يلتقط إكس ساعة ملقاة على الرصيف ونظر إلى الوقت: ٦:٣٧. لا يدري لماذا، لكن ما يجري بدأ يشعره بالتعب.

أحس إكس أن الوضع سيكون سخيفًا: عليه انتظار الحافلة في مدينة مهجورة. («كيف عرفت أنها مهجورة؟») لكنه انتظر على أية حال. ردة

الفعل تبدو أقوى من المنطق. وبما إنه يذهب إلى المكتب كل يوم بواسطة الحافلة، فمن الطبيعي أن ينتظرها اليوم أيضًا. لأن إكس رجل منضبط، ولأن إكس رجل دقيق. لأن إكس يرفض أية حالة شاذة أو قاسية. («لم يعد هذا أمرًا شاذًّا، بل صار واقعًا جديدًا»).

لم تأتِ الحافلة بطبيعة الحال. إكس هو الراكب الوحيد المنتظر. في الصباح، خلال ساعة الذروة، تأتي حافلة كل خمس دقائق. («أين العجوزان الضئيلان اللذان تقابلهما كل صباح في المحطة؟») انتظر إكس عشر دقائق. ربع ساعة. عشرين دقيقة. («أين الرجل الذي يرتدي نظارة شمسية ويحمل عصًا؟») بدا له أن الهدوء الذي يخيم على المدينة هو نوع من المؤامرة الجماعية الموجهة ضده. («كلهم مجانين. كلهم!») ماذا فعل بكل هؤلاء الناس حتى يتصرفوا بهذه الطريقة؟

مع طرحه لهذه الأسئلة على نفسه، شعر إكس للمرة الأولى بالخوف. فتح الصحيفة على أمل العثور على إجابة لكل اضطرابات اليوم. ربما جرى الإعلان عن إضراب عام وشامل؟ إضراب يتجلى في غياب كل الناس، في الوقت نفسه وفي كل مكان؟

بدت المقالات الصحفية بالنسبة إليه أكثر تفاهة من أي وقت مضى: خطة حكومية جديدة لمواجهة البطالة، اجتماع جديد للمعارضة للتحضير للانتخابات الحاسمة في المستقبل، هجوم جديد في مكان ما حيث تقع الهجمات كل يوم؛ طائرة لم تتمكن من الهبوط على جزيرة حيث المدرج أصغر من اللازم، وعشرات القتلى جراء القتال خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية في بلد لا تنتهي فيه الحرب الأهلية أبدًا...

صار من الواضح الآن أن الحافلة لن تأتي في ذلك الصباح. قرر إكس المغادرة سيرًا على الأقدام. أجل، هذا أفضل. لم ينظر إلى اليسار أو اليمين قبل عبور الطريق. سار عبر المدينة بخطوات واثقة. لم يفكر سوى فيما يتوجب عليه فعله اليوم في المكتب. في الساعة ١١ صباحًا، على سبيل المثال، هناك اجتماع مع كل قادة المجموعات البحثية. وقد يأتي أيضًا المدير العام إلى المؤسسة. تخيفه إمكانية تأخره عن الموعد.

تجاوز إكس مئات السيارات المهجورة بلا مبالاة، وحاول تجنب تخطي الحقائب والمظلات والقبعات، ورفض النظر إلى النوافذ، وحاول تجنب كل الساعات العامة التي تشير إلى ٦:٣٧، ولم يتفاجأ بكل البضائع المتبقية في أكشاك قاعة المدينة المركزية؛ لم ينتبه إلى عدم وجود طيور أو حيوانات في متاجر الحيوانات الأليفة. على الموقد الكهربائي لبائع الفطائر في الشارع، كانت الفطيرة متفحمة، وتدفقت قطرات الماء من الطابق الخامس في أحد المباني. توقفت شاحنة وسيارتان بعد اصطدام عند تقاطع للطرق، وتصاعد الدخان من محرك السيارة، ويمكن ملاحظة بقع من الدم على الأرض، ولكن لم يكن هناك أي أثر لقتلى أو جرحى.

عند عبوره الحديقة البلدية، شعر إكس فجأة بالارتياح، بل وبالأمان أيضًا. التقط عدة أنفاس عميقة. اقترب من شجرة وتحسسها بكلتا يديه. ترك شخص ما راديو ترانزستور وعلبة سجائر وولاعة على المقعد. لم يكن إكس مدخنًا، لكنه شعر فجأة بالحاجة إلى القيام بذلك. قال الصوت: «هيا، إذا كنت ترغب في التدخين، فافعل ذلك».

أشعل إكس سيجارة. نظر إلى السماء. واستمع إلى نبض قلبه.

انطلقت صفارات الإنذار في أحد الأحياء. شعر إكس بفرحة هائلة تغمره. بدأ بالركض في اتجاه الصوت. عندما اقترب من الزاوية، أصبح الرنين أعلى فأعلى. اقترب من متجر القرطاسية الذي اشتعلت فيه النيران. لكن إكس لم يستطع فعل شيء سوى مشاهدة النيران وهي تبتلع آلاف الدفاتر ومئات من أقلام الرصاص وجبالًا من الظروف وحزمًا من الأوراق البيضاء ودفاتر الرسم وحافظات الأقلام الخشبية. لم يبقَ سوى الرماد فقط، فتوقف عويل الإنذار. «مثل حيوان متعب». وبالفعل دمر الحريق نظام الإنذار. لا أحد، على الإطلاق، أتى لإطفاء الحريق.

عاد إكس راكضًا إلى الحديقة. توقف قليلًا في الممرات. فك ربطة عنقه.

- قل شيئًا، لماذا تصمت هكذا؟

«احرص على عدم الإصابة بنزلة برد».

هذا صحيح، قميصه ملتصق بجلد ظهره. شعر إكس بالعرق البارد الذي يسيل على رقبته. ولحسن الحظ، فهو يحتفظ دائمًا بقميص احتياطي في خزانة المكتب.

(١٧)

عزيزي غي،

أفضل الاعتراف بذلك الآن، لم يعجبني الرجل الذي أرسلته إليَّ، فهو ينظف ويقضم أظافره طوال الوقت. وأنت تعرف مدى حساسيتي تجاه هذه الأفعال اللاإرادية. السيد إم بطل لا يشق له غبار في هذا المضمار. لم أرَ في حياتي حتى الآن شخصًا مهووسًا مثله بالقذارة التي تحملها أظافره. ما يفعله غير قابل للتصديق، فكل دقيقتين أو ثلاث ينظف (انتبه!) أظافر يده اليمنى بأظافر اليد اليسرى. تقنيته هذه شديدة السوقية والتخلف. لست في حاجة إلى رؤية ذلك بعينيك، إذ يكفيك سماع صوت تمرير ظفر سبابته اليمنى تحت ظفر سبابته اليسرى. أتحدث عن الصوت لأن عملية تنظيف «القذارة» هذه، اللامرئية عمومًا، تحدث صوتًا خافتًا مزعجًا جدًّا، كما لو أن أحدهم يرغب في تقشير بيضة نيئة. أقسم لك إنني أوشكت أكثر من مرة على طرده من المكتبة، ولكنني تمالكت نفسي حتى الآن، مفضلًا الصعود إلى الطابق العلوي أو المغادرة بحجة الذهاب إلى مكتب البريد كلما كان هدفي الحقيقي اللجوء إلى مقهى السيدة بورداز.

من الواضح أن للسيد إم انطباعًا ما حول أظافره، يعتقد بموجبه أنها تولد بعض الإفرازات التي يجب عليه التخلص منها بشكل فوري، كل دقيقتين أو ثلاث على الأقل. من المحتمل شعوره بأن القذارة تحت أظافره أقرب إلى الزوائد الفطرية، أو نوع من السيلان. ولكن منطقيًا، ما حجم الأوساخ التي يمكن لإنسان لا يمارس أي عمل بدني إنتاجها؟ في الوضع الطبيعي، يمكننا الحديث عن أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من اللامبالاة لكي تتحشد الأوساخ تحت الأظافر. المفارقة هنا أنني بدأت أتحسس أظافري أيضًا، وأراقبها بتمعن أكبر، لأرى إن كان هناك بعض السواد الذي يتخللها. عندما كنت طفلًا، كانوا يدققون في أيادينا وأظافرنا في المدرسة. «والآن، فليضع الجميع أياديهم على الطاولة!» تهتف المعلمة، بما يذكرنا فجأة بشيء واحد فقط، مع العلم أننا لم نكن نولي نظافة أيادينا أهمية كبيرة.

لا أدري إن كان السيد إم قد تعرض لصدمة معينة في طفولته، قد تكون مرتبطة بمراقبة مماثلة لما ذكرته، ولكنني لاحظت مدى حرصه الشديد على ضبط نفسه. كما لو أن صوت المعلمة يتردد في ذهنه حتى الآن، صوت متكرر يصرخ كل دقيقتين أو ثلاث «والآن، أرني يديك!». والواقع أنه ينظر إلى يديه، ويتفحصهما بجدية كبيرة، مع تعبير دائم عن السخط، يرتسم على محياه.

حتى عندما يتخذ مكانه على الطاولة، للرد على رسائلك، فإنه لا يكتب جملة إلا وقضم أظافره قليلًا أو سعى لنزع تلك الجلود الصغيرة. يمكن القول إن هذه العملية الأخيرة هي تخصصه الثاني. هو يعتقد غالبًا

أن أظافره تنتج ملمسًا متقشرًا يتقدم بصورة مثيرة للريبة ويستعد لتغطية ظفره بالكامل، لذلك فهو في حاجة في المقابل إلى التحرر من هذا الخطر، بقطع الجلود الصغيرة بأسنانه أو أصابعه.

أسبوع مضى، يأتي خلاله إلى المكتبة كل يوم. لو ترى نظرته عندما انتبه إلى وجود الآنسة ري على طاولة الكتابة. كان معتادًا على البقاء هنا وحيدًا، معتبرًا نفسه زائر المكتبة الوحيد، أو بالأحرى ساكنها الأوحد. لقد أفقده وجود الآنسة ري اتزانه، وكان أول رد فعل يقوم به هو التراجع ناحية الباب، استعدادًا للمغادرة، لكن الآنسة ري رفعت عينيها عن الرسالة التي تقرؤها في اللحظة نفسها، وخاطبته قائلة «مرحبًا». هذه الـ«مرحبًا»، بالإضافة إلى النبرة الدافئة للآنسة ري، كانتا كافيتين لكي يستعيد هدوءه، فهز رأسه عدة مرات، وحرك يديه بطريقة توحي برغبته في قول: «لا تشغلي نفسك بي»، وبحث عني بعينيه، راجيًا مني تقديم شرح ما... لم أقل شيئًا، لكنني وضعت طاولة ثانية مرتجلة (المعدنية الدائرية، القابلة للطي، التي نضعها في الشرفة من حين إلى آخر).

كانت مراقبتهما (كل في طاولته، يسيطر عليه الارتباك من وجود الآخر، وقد فصل بينهما جبل من الكتب التي تمنعهما من رؤية بعضهما بعضًا) عرضًا جديرًا بالمشاهدة. وقد تصاعد ارتباكهما أكثر عندما ذهبت لتناول الغداء وتركتهما وحدهما طوال ساعة كاملة. عند عودتي، كانت البنية الطاقية للغرفة قد تغيرت تمامًا، بما يشعرك بحركية الجمل والعبارات التي تبادلها السيد إم والآنسة ري خلال تلك المدة. تمكنت من قراءة هذه الجمل دون أدنى صعوبة، فقد ظلت ملتصقة بالهواء، من

شدة ما حملته من فضول وقوة مغناطيسية. أوه، لا داعي إلى الاعتقاد بأنهما قالا أشياء فريدة من نوعها، بل فقط بضع جمل عادية، أعلنت بداية القصة التي ستكتب بينهما.

عدت الآن إلى طاولتي، حيث أراقبهما. أتساءل عمَّا ينتظرانه، المفروض أن يذهبا لشرب القهوة معًا، لكن لم يجرؤ أي منهما على التقدم بالخطوة الأولى. عند العودة إلى المكتبة، قمت بقلب اللوحة المعلقة على الباب. مغلق، هكذا لن يشكل أي دخيل خطرًا على المشهد. لا نية لي أيضًا في إنارة المكان، أتشوق إلى متابعة ردة فعلهما مع حلول المساء وتراجع الإضاءة الطبيعية.

مع التقدير،

برنارد

(١٨)

إنها توقظني في جوف الليل
لتقول لي: أنا أمنعك من أن تحلم بي وأنا عارية
دون الحصول على موافقتي

ما زلت نائمًا، ولا أدري كيف دخلت الآنسة ري
إلى غرفتي، ولا كيف تسللت
الآنسة ري إلى عقلي
لكنني أعترف بذلك: كنت على وشك أن أحلم بها وهي عارية

الحلم نفسه صار صغيرًا، بل وتضاءل حجمه شيئًا فشيئًا
خداه حمراوان، ويشعر بالحرج
أنا والحلم أشبه بتلميذين جرى ضبطهما بتهمة الغش في امتحان ما
لن يتكرر ذلك، قلت للآنسة ري

لن يتكرر ذلك، همس الحلم أيضًا
وقد تحول إلى تلميذ نموذجي

حسنًا، قالت الآنسة ري، سأعفو عنكما اليوم
ثم اختفت بطريقة ما، حولتها إلى سراب
ما تركنا في حالة من خيبة الأمل
صفقت كل محتويات الغرفة، بل وصفقت الغرفة نفسها
التصفيق نفسه صفق، والسراب أيضًا
صفق

من المستحيل العودة إلى النوم في مثل هذه الظروف
فأنا أخاطر بإمكانية الاستيقاظ من جديد، وفي أية لحظة
بواسطة الحلم الذي انتقل إلى صفها، ويخبرها الآن بكل ما أقوم به
ويبعث إليها، بشكل مباشر، رسائل سرية بشأني
هذه القصيدة نفسها، وفور إتمامها
حلقت نحوها

(١٩)

لا تستسلم للأوهام. يجبرني تعبير الرضا الظاهر على محياك على الابتسام. فما كان الدافع الذي جعلني أوافق على ممارسة الحب معك إلا أدبيًّا بحتًا. لأنني أكره هذا التوقع الغبي الذي يبديه القراء تجاه الشخصيات... *متى ستتخذ الأمور بينهما اتجاهًا مباشرًا؟ ومتى ستكون القبلة الأولى؟ ما الذي تنتظره قبل الاستسلام له؟* يبدو تاريخ الأدب بأكمله مشوهًا جراء التوقعات الإيروتيكية للقراء. وأيضًا بسبب التقنيات، المتطورة أحيانًا، التي يستخدمها الكتاب لـلتحكم في «جرعة» التشويق الإيروتيكي. ولهذا السبب، اقترحت عليك يا سيد إم أن نمارس الحب مباشرة بعد لقائنا الأول. وبما إنه يتعين علينا كتابة قصتنا معًا، فلنحاول إعطاءها معنى أكبر من المرور التقليدي إلى *الممارسة الجنسية*. أكن كرهًا شديدًا حقًّا لتلك الروايات التي لا يمارس فيها أبطالها الحب إلا في الفصل الأخير، بعد ثلاث مئة وخمسين صفحة من المداعبات. علاوة على ذلك، وعندما كنت مراهقة، لم أكن أجد غضاضة في الذهاب مباشرة إلى الفصول والصفحات التي بدأت فيها علاقة حقيقية

وملموسة، قد تكون أول قبلة، أو أول ليلة حب، أو حتى أول فشل إيروتيكي. لقد كان لديَّ ما يكفي من الحدس لأعرف، ابتداء بالفصل الأول من الرواية، في أية صفحة تقريبًا ستصل الأمور إلى الإثارة الجنسية الفعلية الأولى. وأقسم لك أنني نادرًا ما كنت أخطئ... وبفضل الدقة التي أتقنتها على مر السنين، ومنذ الصفحة الأولى، تمكنت من الانتقال تلقائيا تقريبا بين المقتطفات التي تثير اهتمامي حقًا.

يقع المشهد الأول، حيث يقوم هو بمعانقة هي مستشعرًا صدرها الملتصق بصدره، في مكان ما في الصفحات من ٣٠ إلى ٣٢. أما أول قبلة حقيقية، ففي مكان ما في الصفحات من ٨٠ إلى ٨٢. يقع المشهد الأول في السرير، مع وصف مفصل للأجساد العارية، ما بين الصفحتين ١٦٠ و١٦٢... كان هذا البناء الذكي أحيانًا، وإن كان في عمقه شديد السذاجة، يسليني دائمًا، بل ويثيرني بشدة أيضًا، ما جعلني أسيرة حساسية حقيقية تجاهه. مع بلوغي الثامنة عشرة من عمري، وجدتني أميل بالفعل إلى روايات مغامرات سان أنطونيو[1]، لأن معظمها تبدأ بمشاهد غرامية، قد تكون مغرقة في الإباحية أحيانًا. أدى هذا إلى تهدئة الوحش الإيروتيكي الكامن في أعماقي منذ البداية (كما فعل مع ملايين القراء الآخرين)، بما يسمح لي بعد ذلك بتذوق المزايا الأخرى للكتاب: الإيقاع، والأسلوب، وجمال اللغة العامية، ومتانة الحبكة، ومفاجآت الاتجاه الدرامي للأحداث، وأصالة الشخصيات. أدرك سان أنطونيو

(١) سلسلة سان أنطونيو: سلسلة روايات بوليسية تواصل صدورها بين عامي ١٩٤٩ و٢٠٠١، من تأليف الكاتب الفرنسي فريدريك دارد، الذي وقعها باسم المحقق سان أنطونيو بطل السلسلة. (المترجم)

مدى أهمية البدء بمشهد جنسي، بغية استئصال الشر من جذوره، وعدم السماح للقارئ بالانخراط في قراءة زائفة للرواية. وهكذا، بمجرد تعاطي المخدر الإيروتيكي، يتحول القارئ على يد المؤلف إلى كائن حر، منفتحة حواسه على آفاق أخرى...

بطبيعة الحال، لا يتعين علينا استبعاد التشويق الإيروتيكي من الحياة الواقعية، ولن أقول إنني لا أحب المداعبات في العلاقة مع الرجل. لكن ما يزعجني حقًّا هو فكرة أن الفعل الإيروتيكي مطبوع في المخيال الجمعي وفي الكوريغرافيا العامة للسلوك البشري بوصفه هدفًا نهائيًّا عوض أن يكون نقطة انطلاق. عندما يصبح التزاوج هدفًا (لحظة الذروة في رواية ما، على سبيل المثال)، لن يكون هناك أي شيء في مرحلة ما بعد الهدف. يسيطر على الأجواء فراغ رهيب، بعد ممارسة هو وهي للحب، وهذا الفراغ بالضبط هو ما أرغب في تجنبه في علاقتنا، يا عزيزي السيد إم.

أخبرك بكل هذا أثناء نومك، لكي يكون كل شيء بيننا واضحا قدر الإمكان.

(٢٠)

- انظر إلى هدوئهم وصمتهم. ما عادوا يكافحون، ولم تعد لديهم أية طموحات، كما توقفوا عن إهانة بعضهم بعضًا...

يبدو أنني قد تعرفت على فلسفة الحياة أثناء تجوالي في المقبرة، برفقة الخالة ماسيك. هي الأخت الكبرى لأمي، والشخص الوحيد في العائلة الذي كان يبدي بعض التحفظات بشأن فيكتور. وجدته حيويًا جدًّا، أو ربما أكثر من اللازم. الواقع أن السيدة ماسيك لم تكن تحب الأحياء، بل تفضل الكائنات الميتة.

- لا فرق بين البشر والصلبان على شواهد قبورهم.

كنا نتوقف من وقت إلى آخر أمام قبر أو مدفن، حيث تعجز الخالة ماسيك عن مقاومة متعة تشويه سمعة الراقد في سرير الخلود ذاك. ألا ترى ذلك الصليب الرنان؟ لا فرق بين البشر والصلبان، ألم أقل لك. ما الفائدة من هذه البهرجة وكل هذا الرخام؟ كما قاموا بإلصاق زهور بلاستيكية... لكي *تدوم طويلا*، وليتجنبوا العودة أكثر من مرة محملين بزهور جديدة.

كانت الخالة ماسيك تعرف تقريبًا كل من مات في مقبرة مدينتنا. إذ تشد الرحال إلى المقبرة حوالي مرتين أسبوعيًّا، وهو ما كان مبالغًا فيه في نظر والديَّ. كانت تأخذني معها مرة أو مرتين فقط في الشهر، ما بدا لهما أيضًا مبالغًا فيه. لكنهما سمحا لي بمرافقة الخالة ماسيك «المسكينة» في زيارات المجاملة التذكارية هذه، لأنها «بذلك لن تحدث نفسها بعد الآن». كما قال أبي.

ما كنت أرغب فيه، هو أن أكون لامرئيًّا، فقط لأتتبع خطى هذه الخالة التي تحب الموتى، ولكي أسمع كل المحادثات التي تجريها معهم. فالخالة ماسيك كانت تحدث الموتى فعلًا، أو بالأحرى، تناديهم دون مواربة.

- مرحبًا غوتا. كيف حالك يا عزيزي؟ هيا، سأزيل عنك بعض العشب. هكذا أفضل، أليس كذلك؟ أوه، لم يبخلوا عليك بكل هذا الأسمنت...

كانت الخالة ماسيك تعاني من حساسية تجاه الأعشاب الضارة، خاصة تلك التي تنمو على القبور. من المحتمل أنها اعتبرتها نباتات متطفلة، لم يكن ذنبها أنها قبيحة أو كريهة الرائحة، بقدر ما كانت *غريبة* جدًّا. فكانت تنحني وتتخلص منها لمجرد شعورها بالانزعاج من وجودها. كنت أرغب في مساعدتها، كما حاولت عرض خدماتي أحيانًا، لكن الخالة ماسيك كانت تقول: «لا يا غوتا، سأتخلص أنا من هذه الأعشاب الضارة».

لكنها *تخلصت أيضا من الأعشاب الضارة* في قبور أشخاص آخرين جمعتها بهم معرفة سابقة. وجهاء سابقون أو زملاء عمل قدامى أو معارف بعيدة. معرفة الخالة ماسيك بهذا العدد الكبير من الموتى كان

لغزًا بالنسبة إليَّ. فباستثناء الأيام التي تذهب فيها إلى المقبرة، لم تكن الخالة ماسيك ترى أحدًا إلا نادرًا، فتشاهد التلفاز أو تعيد قراءة الكتب في مكتبتها. في كل مرة ترسلني أمي لألقي التحية على خالتي المفضلة وأجدها تقرأ، تحرص هي على التوضيح، «أعيد قراءة *الفرسان الثلاثة*، ماذا سأفعل غير ذلك؟» ما يمكن استنتاجه من هذه الجملة هو أن الخالة ماسيك قرأت كل شيء، وما تفعله الآن هو إعادة قراءة مئات الكتب التي جمعتها على مر السنين.

- لماذا يموت البشر يا خالتي؟

لا أتذكر في أي عمر طرحت عليها هذا السؤال، لكنني أعلم أنها أثنت لاحقًا على «ذكائي» أمام والدي.

- يحب الناس تقليد بعضهم بعضًا، أجابت الشقيقة الكبرى لأمي.

ظلت العبارة عالقة في ذهني، ولم تظهر كل إمكاناتها إلا بعد سنوات عديدة. حملت الجملة بين طياتها تفسيرًا جوهريًّا للعالم، وكانت واحدة من تلك الجمل التي يتخفى وراءها نظام فكري متكامل. كان هذا أيضًا أول لقاء لي مع جملة مؤسسة، تحتوي في داخلها على خوارزمية تطوير قوية جدًّا.

يموت *الناس لأنهم يحبون تقليد بعضهم بعضًا*. ما يعني أن الموت لم يكن في البداية واجبًا، ولم يكن ضرورة، ولم يكن جزءًا من منطق الوجود، ومنطق تقدم الحياة. فقط، وبسبب هذه اللعنة الوجودية، وغريزة التقليد الأقوى من أي منطق، أصبح الموت واسع الانتشار. يمكننا أن نتخيل السيناريو التالي: كان هناك وقت لم يمت فيه البشر،

ولكن ذات يوم، قام رجل، وبنوع من التذاكي، وسعيًا إلى إثارة إعجاب الآخرين، بارتكاب هذا الفعل المخالف للطبيعة: لقد انتقل من الحياة إلى *الموت*. ربما نجهل حتى الآن كيف تمكن هذا الشخص من الموت، وكيف تمكن من قتل الحياة في داخله... لكن ما هو مؤكد، هو أن هذا *الاكتشاف* العظيم، وهذا الفعل المذهل المطبوع بالغرابة والتمرد، قد ترك أثرًا عميقًا في معاصريه، فبدءوا بتقليده.

لقد نطقت الخالة ماسيك، دون قصد، بإحدى تلك الجمل التي أصبحت أساسًا لنظرية يمكن البناء عليها. لا فرق بين عبارة ديكارت الشهيرة: «أنا أفكر إذن أنا موجود» وجملة خالتي. كلتا الجملتين وضعت أساس بناء توضيحي.

ألا يقلد الناس بعضهم بعضًا؟ ألا يقلد الطفل الكبار عندما يتعلم الكلام؟ وعندما يبدأ في فهم قواعد السلوك، ألا يقلد أفراد المجتمع الآخرين؟ ألا تقلد الثقافات الهامشية نظيراتها من الثقافات السائدة؟ لماذا لا يجد الموت تفسيره في مبدأ التقليد الواضح جدًّا؟

هذه هي الأسئلة التي عذبتني لسنوات بعد تلك الزيارة إلى المقبرة مع الخالة ماسيك.

هل عرف السيد غي كورتوا بالصدفة، بعد مرور أربعين عامًا، أن الأرضية كانت جاهزة، في أعماقي، لاستقبال *الجمل المؤسسة*؟ هل كان يعلم أنني، مثل الأشخاص المستنيرين الذين ينتظرون وصول مسيح جديد، واثق تمامًا بقوة *الجملة الأولى الأساسية* وقدرتها على الدفع بي إلى عالم مبدعي الروايات العظماء؟

(٢١)

سيدي العزيز،

سيتوجب عليك مساعدتي في وضعك بالتدريج في خانة المفعمين بالنشاط. تتحفز الطاقة الإبداعية لبعض الكتاب عبر مسلمات الهوية. خذ عندك ملفيل مثلًا. أتدري كيف بدأ تحفته الفنية المعاصرة «موبي ديك»؟ إذا استخدمت تعبيرًا شديد البساطة فسأقول إنها بداية محبطة: «يمكنكم مناداتي بإسماعيل». عندما قدمنا إليه هذه الجملة، كنا ندرك أن ملفيل في حاجة إلى أن يقدم نفسه إلى القارئ بهذه الطريقة، جملة بسيطة لكن تأثيرها يطابق تأثير المشرط في قطع الحبل السري. وكأنه يقول للقارئ: «لقد انقطع فورًا الحبل الذي كان يربطني بالعدم، بالصمت، بالتزام تجنب البوح بأي شيء لأيٍّ كان. لم يعد هناك حاجز بيني وبينك، عزيزي القارئ، نادني إسماعيل وسأحكي لك هذه القصة».

وبالقدر نفسه من المباشرة، لكن بطريقة أكثر تعقيدًا، كانت العبارة التي قدمناها إلى إتش جي ويلز. «أنا الرجل اللامرئي». فهكذا تبدأ، كما أحسبك تذكر، روايته الأسطورية، «الرجل اللامرئي». من الصعب العثور على تأثير زائد أكثر فعالية من هذا. ومع ذلك، فإن هذا التأكيد،

الذي يفسره البعض على أنه جملة خيال علمي، يلخص حياة ويلز بأكملها. لأنه كان يحمل روحًا ورؤية مهتمة بتحولات المجتمع وبالتالي سبل خلق المدينة الفاضلة... ألم يحلم بخلق دولة عالمية؟ ألم يعلن نفسه اشتراكيًّا؟ ومع ذلك، فإن فكرة أن الرجال يمكن أن يصبحوا غير مرئيين في يوم من الأيام هي نقطة البداية للمدينة الفاضلة. وهذا ما حفز ويلز في هذه الجملة: الشكل الطوباوي لما يمكنه بناؤه بعد ذلك...

لكن معظم الكتاب يحتاجون، منذ البداية، إلى تموضع في المكان والزمان، بل وحتى إلى محيط جغرافي دقيق ومحدد قبل التمكن من الشروع في الكتابة...

ينتمي توماس مان وإرنستو ساباتو وحتى همنغواي إلى هذه الفئة من الساردين العاجزين عن الانطلاق دون إطار مادي دقيق. تبدأ رواية «الجبل السحري»، كما تعلم، بهذه الجملة التي تكشف، لوهلة أولى، عن وصف جغرافي أكثر منه تقديمًا مشوقًا وغامضًا: «سافر شاب، في عز الصيف، من هامبورغ، مدينته الأصلية، إلى دافوس بلاتز، في غريزون». حاول إعادة قراءة هذه الجملة عدة مرات... استمع إلى لحنها بتمعن... هل ترى مدى قوتها الإنذارية؟ طيب، كان توماس مان، باعتباره ربما أعظم كاتب في وصف انحطاط النصف الأول من القرن، في حاجة إلى جملة أولى توحي بمأساة بطيئة. عندما نقرأ أن هذا الشاب العادي يغادر مدينته في عز الصيف إلى سويسرا، أول ما يخطر على بالنا هو: «مسكين، إنه راحل، ولا يعرف ما الذي ينتظره..». كما يمكنك ملاحظة أن هذه الجملة الأولى، التي تبدو مبتذلة ظاهريًا، تضم في أعماقها حزنًا رهيبًا،

وصدى شؤم قادم... تشعر الأمهات بالحزن عند ولادتهن للأطفال، لأنهن يدركن ذلك السر المزعج: عندما نمنح الحياة، فإننا نمنح معها الموت أيضًا. عندما اقترحنا هذه الجملة على توماس مان، كنا ندرك أنه في حاجة إلى ما يشبه التنهيدة الطويلة ليبدأ بها روايته...

أما بالنسبة إلى إرنستو ساباتو وروايته «أبطال وقبور»، فقد وجدنا جملة أولى أكثر استفزازًا من الناحية الأسلوبية. «ذات سبت من شهر مايو عام ١٩٥٣، قبل عامين من أحداث باراكاس، كان شاب منحنٍ وطويل القامة، يتمشى بلا مبالاة في أحد ممرات حديقة ليزانا». تمعن في هذه العبارة الغامضة: «قبل عامين من أحداث باراكاس..». إنها تؤدي إلى بناء الرواية من خلال نوع من الالتقاط الدقيق جدًّا لتواطؤ القارئ مع النص. يحدثنا إرنستو ساباتو كما لو كنا نعرف شيئًا ما بالفعل، كما لو أننا مطالبون بالضرورة بمعرفة شيء عن «أحداث باراكاس». وعندما نقول اليوم «القائي بـ فلان كان قبل أحداث ١١ سبتمبر بعامين». فإن الجميع يدركون معنى «١١ سبتمبر» - فهو التاريخ الذي يصادف الهجوم الإرهابي الذي ضرب أمريكا في عام ٢٠٠١ وخلَّف تدمير برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك. عندما يضع إرنستو ساباتو بداية روايته «قبل عامين من أحداث باراكاس»، فإنه يجبر قارئه تقريبًا على الشعور بالذنب لأنه لم يسمع عن هذه «الأحداث» التي يفترض أنها مشهورة...

ربما من الأفضل أن أتوقف عند هذا الحد.

قد تسألني لماذا كانت الجملة الأولى للمفيل اسمية، وأقرب إلى الوصف الجغرافي عند توماس مان، ولساباتو جملة بطبقات (بل

ويمكنني القول إنه طابق تحت أرضي). إليك الجواب: لأننا تمكنا من التعرف إليهم بعمق، وفهمنا كيمياءهم الوجودية والسردية، وكذلك شهيتهم لأنواع مختلفة من البناء السردي. سأحدثك في رسالتي القادمة عن كُتاب لا يمكنهم تشييد بناء متين إلا على أرضية غامضة أو أفكار لا تقل غموضًا... الغموض هو أحد الأسس الصلبة للخيال!

مع فائق تقديري،

غي كورتوا

ملاحظة: أكتب إليك من مقهى أوديون في زيوريخ. هل تعرفه؟ أفترض ذلك، لأن أحد مواطنيك اللامعين، تريستان تزارا[1]، جاءته هنا، في هذا المقهى، الفكرة المعجزة المتمثلة في اختراع مفهوم الدادائية، عبر الجمع بين كلمتي دا مرتين. أجد نفسي على الطاولة مع تزارا وهانس آرب[2]. أرى، على يميني، أينشتاين جالسًا وحده على طاولة أخرى. لا بد لي من القول إن المكان شديد الاكتظاظ، فاليوم، ١ يوليو ٢٠١١، تحتفل المؤسسة بمرور مئة عام على تأسيسها، ولهذا السبب اجتمعت كل أشباحها هنا مرة أخرى. لن تصدقني، لكنني أرى تروتسكي وموسوليني يلعبان الشطرنج أمامي مباشرة. والآن،

(١) تريستان تزارا (١٨٩٦-١٩٦٣): واسمه الحقيقي صامويل روزنستوك، شاعر وكاتب مقالات وناقد فني ومسرحي فرنسي من أصول رومانية، يعتبر من أبرز مؤسسي الحركة الدادائية. (المترجم)

(٢) هانس آرب (١٨٨٦-١٩٦٦): رسام ونحات وشاعر ألماني فرنسي، من أبرز مؤسسي الحركة الدادائية. (المترجم)

أتى جيمس جويس، وخلع نظارته التي غطاها الضباب، ومسحها، ثم أعادها إلى مكانها مرة أخرى... نادرًا ما أرى شاربًا بلا عيوب مثل شارب جويس. حتى وجهه الممدود وأنفه الطويل خلقا لاستيعاب الشارب. ذهب جويس للجلوس على طاولة إلى جوار ستيفان زفايغ. لكنه حياني وهو يمر بجانبي، من الواضح أنه لم ينسَ كيف قدمنا إليه الجملة الأولى في عوليس. مدخل المقهى مزين بما لا يعد ولا يحصى من الأشرطة الحمراء، تبدو كما لو أنها هدية عيد ميلاد. فتح ماكس فريش زجاجة شمبانيا. لسوء الحظ، فإن المئة عام التي مرت على هذه المؤسسة الموقرة لم تترك بصماتها على الديكور الداخلي. لا أعرف السبب، لكن الرخام والمرايا الموجودة على الجدران على وجه التحديد تضايقني لأنها لم تتقدم في السن. أفتقد هنا الكراسي القديمة والأرائك البالية الموجودة في هاويلكا. لكن لا داعي إلى إصابتك بالملل من كل هذه التفاصيل. سأدعك الآن، وأشرب نخب الشمبانيا مع هذا الحشد من الأشباح في المقهى، بينما يستمر توافد آخرين. لن يعرف الأدب الأوروبي أبدًا كم هو مدين للحياد التقليدي لسويسرا.

غ.ك.

ملاحظة ثانية: هل تجرأت يومًا على الدخول إلى مقهى دي تيميد (الخجولين)؟

(٢٢)

خلال فترة معينة من حياتي، لم أكن أجد ذاتي إلا في مقهى دي تيميد.

عندما وصلت إلى العاصمة لدراسة الفلسفة، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، اكتشفت أن الحرية الجديدة التي قدمت إليَّ على طبق من ذهب لم تعالج خجلي على الإطلاق. فضلت الكتابة على الكلام. أروع السطور التي كتبتها هي التي نطقت بها خلال تفكيري. بمجرد أن أجد نفسي على طاولة مع أكثر من شخص، كنت أنا من يلتزم الصمت. وعندما أسمع الآخرين يتحدثون، أعرف متى يمكنني أن أكون أكثر ذكاءً منهم، أو ببساطة، أكثر *إثارة للاهتمام*. لم أجرؤ أبدًا على إلقاء النكات، خشية ألا تكون في محلها المناسب. وعندما كنت أجرؤ على إبداء رأي ما في سياق المحادثة، كنت أحرص على استخدام الجمل القصيرة فقط، خوفًا من مقاطعتي.

كنت أحسد زملائي دائمًا على أصواتهم التي تتراوح بين صوت الباريتون[١] والصوت الجهوري الأكثر عمقًا. عندما يكون لديك صوت

---

(١) الباريتون: طبقة صوتية رجالية، معناها «عميق» باللغة الإغريقية. (المترجم)

قوي وثاقب، يبدو الأمر كما لو كنت مزودًا بساطور للتقدم في الغابة، وقطع الكروم والأغصان بلا خوف. وسرعان ما لاحظت، في الفضاءات وبين المجموعات التي كنت أخالطها، أن قادة المجموعة أصحاب أصوات تتراوح بين الجهوري والعميق جدًّا. مثل هذا الصوت يمنح سلطة طبيعية لا يمكن إنكارها. عندما ينتظر الجميع دورهم لأخذ الكلمة، يكونون في حاجة إلى تذكرة لفتح أفواههم، يتدخل صوت الباريتون عندما يريد، يقاطع من يريد ولا يأخذ في الاعتبار أية قاعدة، لأنه هو من يفرض القواعد.

تدين صداقتي مع بول بالكثير لهذه الحاجة إلى أن أشعر بنفسي محميًّا، حرفيًّا، بصوت قوي. كان بول قصيرًا، أقصر مني بخمسة سنتيمترات. منحني وجهه الشاحب المنمش أحيانًا انطباعًا بأن بشرته ناعمة جدًّا مقارنة ببشرة يديه أو رقبته. لم تكن الطبيعة قد وهبت بول صفات جسدية عظيمة، وعظامه هشة بأكملها، وكانت ساقاه معوجتين، ودل ذكاؤه على روح دعابة قوية أكثر مما يدل على سرعة البديهة. ربما لكل هذه الأسباب، ولأن بول بدا أعزل في غابة الحياة، فقد منحته الطبيعة أحبالًا صوتية ذات قدرة غير عادية. وفي ملعب مزدحم تدوي فيه أصوات مئتين أو ثلاث مئة من المؤيدين في قمة الإثارة، يمكن لبول، بدخوله وإلقائه كلمة «مرحبًا» عادية، أن يقطع صفيرا عابرا، مانحًا الكون ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ من الهدوء المطلق، يصمت خلالها الجميع فجأة، مذهولين تمامًا. تسافر الأصوات التي يصدرها بول بطول الفضاء وعرضه عدة مرات، ثم ترتد مثل كرات بينغ بونغ ألقيت بقوة خارقة.

كان بول قرويًا مثلي. عندما التقينا في قاعة محاضرات ممتلئة عن آخرها في أول درس في تاريخ الفلسفة، مر بيننا تيار من التعاطف على الفور. بالنسبة إلينا معًا، بدت العاصمة ساحقة، وإن كانت مبهرة. شعر كلانا بنوع من الاختلاف مع أغلب الطلاب، وهو ما يمكن رؤيته في بعض تفاصيل الملابس وبعض لحظات التأمل العابرة. لم نجرؤ على الاقتراب من فتيات فصلنا، أو تقديم مداخلات في الندوات، أو طلب توضيحات إضافية من الأساتذة... وخلال الأسابيع الأولى من الدراسة، كنا نسير عبر أروقة الجامعة باحترام عميق للأسوار الموقرة، وللذاكرة المخزنة في حجارتها القديمة. وهنا استخدم بول صوته كاسحًا للجليد على سطح بحر معادٍ، وتمسكت أنا بأعقابه.

عندما قال بول: «من يقدم إليَّ سيجارة؟» عند الاقتراب من مجموعة من زملائنا، استحوذت قوة صوته الموسيقي، الخالي من الحدة، على انتباههم فورًا. وأصبح تقديم سيجارة إليه على الفور، أكثر أهمية بكثير من مواصلة النقاش حول السفسطائيين أو أناكساغوراس(١) الذي لم يماثله أحد في إثباته أن العقل هو مفتاح الكون.

إذا طلب بول سيجارة، بصوته الفريد والمميز والذي يكون سماعه ممتعًا جدًّا رغم خلفيته الآمرة، فلا بد من تقديمها إليه على الفور، لأن القيام بهذه البادرة تكريم لمعجزة الطبيعة. وبما إنني أصبحت لا أنفصل عنه، فمن الواضح أنني استفدت من الاهتمام الذي أثاره.

---

(١) أناكساغوراس (٥٠٠ ق.م – ٤٢٨ ق.م): فيلسوف يوناني، مثل مذهبه في الاحتكام للعقل نقطة تحول بارزة في الفلسفة اليونانية. (المترجم)

كان بول فعالًا جدًا في المطاعم والمقاهي. لا وجود لنادل مشغول لم يفتتن بكلمة «من فضلك!» التي يقولها بول فيتخلى النادل عن كل شيء ليتوجه إلى طاولتنا ويأخذ طلبنا. أما أنا، فكان في إمكاني أن أصرخ «من فضلك!» عشر مرات دون أن يعيرني أحد أدنى اهتمام. كنت أدخل مقهى، وفي كثير من الأحيان، أجد نفسي الزبون الوحيد، ومع ذلك أبدو شفافًا فينظر صاحب المقهى. في إمكاني الجلوس إلى منضدة، وجهًا لوجه معه، وأطلب القهوة: إما أنه لا يشعر بأنه مضطر إلى إزعاج نفسه على الإطلاق، وإما أنه يفضل مواصلة قراءة جريدته، وإنهاء مقال ما، قبل التنازل وتلبية طلبي. الواقع أن الطريقة التي أعبر بها عن رغبتي في شرب القهوة لم تكن أمرًا، بل كانت أشبه بمناشدة. عندما أقول: «قهوة من فضلك!»، كان صوتي ينقل ما هو أكثر من تلك المعلومة، فبالنبرة التي أستخدمها وبأسلوبي المتردد، كنت أقول في الواقع: «من فضلك، أتوسل إليك، أريد قهوة، فقط إذا كان ذلك ممكنًا، وإذا لم يكن عندك أي مانع».

أجل، لقد كنت خجولًا مهانًا في العديد من المطاعم والحانات الصغيرة في العاصمة، وتبلغ الإهانة ذروتها عندما يطالبني المالك بمستحقاته بعد تقديم الطلبية. بالنسبة إلى شخص شديد الخجل مثلي، غالبًا ما يتحول طلب الفاتورة إلى كابوس. تحدث الأمور على النحو التالي: فبعد إعداد قهوة الإسبريسو ببطء غير عادي، يدفعها جلادي بإهمال على المنضدة، فيسكب بضع قطرات على مكعب السكر الموجود في الصحن، ثم يذهب للجلوس في الطرف الآخر من البار للقراءة أو

مواصلة الدردشة مع أحد معارفه. كان هذا الموقف بالنسبة إليَّ علامة على ضرورة معاقبتي على وقاحتي لأنني تجرأت على عبور عتبة هذا المقهى وتخريب الطقوس المثالية التي اعتاد عليها الجميع هنا، وربما أيضًا لتسببي في كل تلك *الطاقة السلبية* الناجمة عن خجلي.

- الحساب من فضلك؟

لم يكن أي منهم يتفاعل مع هذا السؤال أبدًا، وإن استخدمت الحركة الدالة على إخراج حافظة نقودي، والبحث عن القطع النقدية الصغيرة، أو التلويح بورقة نقدية.

- من فضلك، أريد أن أدفع الحساب...

لم تكن هذه الصيغة جيدة أيضًا، هناك ما يزعجه فيها بشكل واضح، ربما الطبيعة المهذبة لجملتي، أو ربما ما يظهر من شعوري بالقلق، وانعدام الثقة، والنقص.

- من فضلك، يجب أن أغادر...

يا لها من كارثة. تثير هذه النوعية من العبارات غضب النادل أكثر، كما لو كنت أتهمه بإبقائي بالقوة، أو بطريقة غير مباشرة في الحانة الصغيرة. علاوة على ذلك، كنت أسمع صوت إجابته في ذهني:

«اذهب إذن! ما شأني أنا برغبتك في المغادرة؟».

شكلت كل هذه التجارب نوعًا من الصدمة مع بدء حياتي الطلابية، لكنني انتقمت لاحقًا بالعودة مع بول إلى المطاعم والمقاهي والحانات الصغيرة نفسها.

ليست هذه التفاصيل المتعلقة بالأشهر الأولى من المواجهة المباشرة مع العاصمة ما كنت أنوي التحدث عنه، بل مقهى دي تيميد الذي اكتشفته بالصدفة خلال إحدى رحلاتي المنفردة التي كانت تهدف إلى استكشاف كل ركن في المدينة. ذات يوم، وبعد بضع ساعات من المشي، ألفيت نفسي في حي من المباني القديمة بالتأكيد لكن بحضور لافت ووازن. مكان يصعب تحديد طبقته، فلا هو بالبرجوازي ولا هو بالشعبي، أناس قليلون في الشارع، عجائز يتمشون مع كلابهم ومارة مسرعون يتوقون إلى الاختفاء خلف أبواب صامتة. فليعذرني القارئ، لا أريد تقديم تفاصيل معينة من شأنها أن تسمح بتحديد موقع هذه المنطقة، لأن مقهى دي تيميد مكان هش لا يستطيع مقاومة غزو السياح أو الفضوليين...

سأستأنف سردي. كنت متعبًا جدًّا عندما دخلت، حتى أنني لم أنظر عن كثب إلى اللافتة ولم أهتم بالزبائن هناك. كنت عطشانًا، ومنهكًا، وأردت الجلوس قليلًا لأستجمع أفكاري وأطلب كوبًا من الماء الفوار والقهوة. وهو ما فعلته. توجهت مباشرة إلى البار، وجلست على أحد المقاعد العالية المصطفة، وبحثت عن النادل بعيني وقلت: «مرحبًا، قهوة وماء فوارًا، من فضلك». ولكنني لم أنظر إلى عينيه، بل إلى الفراغ خلفه.

طارت جملتي في أرجاء الغرفة مثل سحابة من فقاعات الصابون، ورأيت كل كلمة ترتفع في الهواء قبل أن تنفجر على الزنك، تاركة أثرًا سائلًا. ولكن يبدو أن صوت الكلمات المنبعثة من أحبالي الصوتية قد أصاب النادل بالذعر، وهو رجل في ريعان الشباب، بعينين خائفتين وعظام وجه بارزة.

قام ببعض الحركات الفوضوية، التي كان من الممكن أن تثير ضحكي لو لم أكن أنا بدوري مضطربًا. وبما إنني سألته فورًا شيئين في الآن نفسه، فقد شعر الرجل أمامي بقصور ما، ولم يتمكن من تحديد الأولويات. ما هو الأكثر إلحاحًا، القهوة أم الماء الفوار؟ في حالة أقرب إلى الذعر، سارع صاحب الوجه العظمي إلى ماكينة الإسبريسو، وأخرج كوبًا من تحت المنضدة ووضعه تحت أحد المرشحات. ثم غير رأيه فجأة، وفتح باب الثلاجة وأخرج زجاجة من الماء الفوار. لكن المهمتين أصابتاه بالشلل، ولسبب يصعب علي فهمه. تسبب تصادم المهمتين في ذهنه، بما يشبه اصطدام سيارتي سباق، في انسداد كامل لقدراته على اتخاذ القرار. بدأت اليد التي تمسك بزجاجة الماء ترتعش، وامتلأت عيناه بالدموع وكأنه على وشك البكاء.

عندما نظرت إلى هذا الرجل العالق بين الفنجان الموضوع في ماكينة القهوة وزجاجة الماء التي لا تزال مغلقة، اكتشفت فجأة أنني وجهًا لوجه مع شخص أكثر خجلًا مني.

لم يسمع حتى صوت ذبابة. باقي الزبائن، خمسة أو ستة، كل منهم منهمك أمام دفتر، أو كتاب، وقد حافظوا، بتواطئهم، على هذا الصمت الهش. كلهم شباب تقريبًا، ثلاث نساء ورجلان، كل منهم يجلس إلى طاولته الخاصة، ولا يجرؤون على النظر بعضهم إلى بعض أو رفع رؤوسهم لمتابعة المشهد الذي تتكشف تفاصيله.

أجل، شعرت فورًا لحظتها، بأنني على سطح كوكب مألوف. أخيرًا، كنت محاطًا بأشخاص يعانون من المشاكل غير القابلة للحل نفسها التي كنت أواجه...

أعتقد أن النادل قد ظل متسمرًا في مكانه لأكثر من خمس دقائق. كان ذلك كافيًا لكي تتمكن خلاياه العصبية من حل مشكلة الانسداد الناجم عن صياغتي المعقدة: «مرحبًا، قهوة وماء فوارًا، من فضلك». تراخت ملامح وجه النادل شيئًا فشيئًا، واستعاد جفناه حركتهما، ورمشت بسرعة محمومة.

- مرحبًا، قال هامسًا وهو يرمش بعينيه بسرعة كبيرة، وكأنه حل فورًا معادلة في غاية الصعوبة.

تنهد شخص ما في زاوية الغرفة بارتياح، في إشارة إلى أنه مع ظهوري هناك، تم نزع فتيل شيء ما.

كان دخولي إلى المقهى والسرعة التي طلبت بها تقديم الخدمة إليَّ بمثابة عنصر تخريبي بطريقة مختلفة، حيث استعادت النساء الثلاث والرجلان ألوانهم، مثل تماثيل شمع توشك على العودة إلى الحياة. حتى أن امرأة شابة ترتدي قبعة صفراء تجرأت على النظر إليَّ للحظة. نظر رجل يرتدي ربطة عنق إلى أعلى من كتابه وابتسم للنادل. وبينما كان الأخير يدير ظهره لنا لإعداد قهوتي، رفعت شابة أخرى ترتدي ثوبًا أبيض باهتًا مع شرائط حمراء، إصبعها في اتجاه الحانة، وكأنها تريد تلبية طلب ما.

أدركت فجأة طبيعة الأمل الذي جلبه دخولي المفاجئ إلى هذا المكان. نعم، لقد تلقيت هذا وأعترف أنه ترك غصة في حلقي. بدأت ساقاي ترتجفان، وتحول قلبي إلى طائر طنان، أتحدث عن هذا الطائر الصغير جدًّا، ربما الأصغر على وجه الأرض، والذي يرفرف بجناحيه بسرعة جنونية. ثم فهمت مصدر هذا الشعور بالجمود الذي ساد الغرفة:

لم يجرؤ أي من العملاء الخمسة على التواصل مع النادل، ولم يجرؤ الأخير على الخروج من خلف المنضدة ليلبي طلباتهم. خشية إزعاجهم.

أما الشابة التي ترتدي الثوب الأبيض، فقد أثبتت أنها أشجع من في المجموعة، لأنها كانت ترفع إصبعها بين الحين والآخر، وإن اختارت القيام بذلك عندما يدير ظهره.

أدى تواصلي المباشر مع النادل إلى حل هذا الموقف المحرج. أخيرًا، أعد النادل قهوتي، ووضعها على المنضدة، ولكن على مسافة معينة مني، ربما لعدم رغبته في الذهاب بعيدًا بهذه الألفة المستجدة. كان عليَّ أن أقف، وأنحني، وأمد يدي، وأسحب القهوة في اتجاهي، لكنني أيضًا لم أجرؤ على وضعها أمامي مباشرة: لقد تركتها في منتصف الطريق. وقد حرصت على القيام بهذه الحركة في الوقت الذي كان فيه النادل مشغولًا بفتح قنينة الماء الفوار، وهي عملية لم تكن بتلك البساطة حقًّا لأن أصابعه كانت ترتجف من شدة الانفعال، وكانت الزجاجة باردة جدًّا، بل متجمدة تقريبًا.

مستغلًّا هذه الضجة، خلع الرجل الثاني في الغرفة، وهو شاب في الثلاثين من عمره، قبعته ومعطفه وعلقهما على حاملة المعاطف في سلسلة من الحركات غير المحسوسة تقريبًا. لم تكن لديَّ أية وسيلة لمعرفة كم من الوقت كان ينتظر هذه اللحظة ليشعر بالراحة، ولكن كان من الواضح أنه لم يمتلك الشجاعة الكافية للقيام بذلك من قبل.

وأخيرًا تمكن الصبي من فتح زجاجة الماء ووضعها في مكان غير بعيد عن فنجان القهوة. كان وجهه يشع بالارتياح، ولكن أيضًا بنوع

من الإرهاق العصبي. لقد فهم الجميع حاجته إلى الراحة قليلًا لالتقاط أنفاسه بعد سيل الإجراءات التي أجبرته عليها. ظل خمس دقائق مغمض العينين ليستجمع قواه، سمح ذلك للزبائن الخمسة الذين كانوا غير قادرين على الحركة حتى ذلك الحين على القيام بحركات صغيرة. حتى أن إحدى النسوة غامرت بقلب صفحة من الكتاب الذي كانت تقرؤه، فأخرج الرجل ذو ربطة العنق علبة سجائره ووضعها على الطاولة.

أما المرأة الثالثة، وهي سيدة ممتلئة ذات عينين لوزيتين، ففتحت حقيبة يدها، وبحثت عن أحمر الشفاه، وأخرجت أيضًا مرآة صغيرة، ولكن عندما كان عليها أن تتصرف، أصيبت بالذعر، وأسقطت ترسانة مستحضرات التجميل الخاصة بها في قاع حقيبتها. احمرّت وجنتاها فجأة كما لو أنها ألقي عليها القبض وهي تنظف أسنانها وتبصق الماء الرغوي في الحوض.

(٢٣)

مرت ليلة الغرام الأولى مع الآنسة ري
في كوكب صغير ينتمي إلى المجموعة ري
كوكب لم يعد له أي وجود اليوم
بل وذاب في الليلة نفسها
لأسباب يستطيع أي قارئ حقيقي فهمها

ورغم ذلك، أطلق علماء الفلك على هذا الكوكب الغائب، فيما بعد
اسم كوكب الآنسة ري
هي رمز هيروغليفي غريب في خريطة الكون
أطلق عليه الصينيون اسم الهيروغليف ري

لم يستبعد العلماء احتمال
وقوع لقاءات حسية أخرى بيني وبين الآنسة ري

حتى ذوبان الأجرام السماوية، ولأسباب شهوانية بحتة
أطلق عليه اسم الظاهرة ري

أخيرًا، شعرت الإنسانية بالقلق لاختفاء كميات كبيرة
من المادة
في مختلف المجرات القريبة جدًّا منا
لا يستبعد أن تكون بعض الخيالات الجنسية للآنسة ري
سببًا في هذه الأحداث المؤسفة
عندما تفكر فيَّ الآنسة ري
فإن المذنبات، والنيازك، بل وحتى بعض جزيئات غبار النجوم
تنفجر فجأة
(لقد فهمتم ذلك، يتعلق الأمر بالتأثير المسمى ري)

(٢٤)

- أمنعك من أن تحلم بي عارية.

لا أدري إن كانت الرقة التي هزتني بها أم عبارتها الهامسة، ما أيقظني من النوم فعلًا. اعتقدت بداية أن هذا امتداد للحلم. ألم يكن من المعقول أن تستدير الآنسة ري نحوي وتقول: «أمنعك من أن تحلم بي عارية»؟ لقد حلمت بها فورًا وهي عارية، وكنت بشخصيتي أنا في حلمي أنا... كان هذا النوع من الجمل جزءًا طبيعيًّا من أسلوبها الراقي. ألم تطلب مني التوقف عن النظر إليها كثيرًا؟ ألم تُشِر إلى الجرعة الصحيحة بحد أقصى «عشر مرات في الساعة»؟ خلال لحظات انتظارنا الطويلة في مكتبة السيد برنارد، والجلوس وجهًا لوجه إلى طاولتينا، لم يُسمح لي بالنظر إليها إلا عشر مرات في الساعة. في كل مرة أنظر فيها عبر دفتر ملاحظاتي (أو أوراقي أو اللابتوب الصغير الذي بدأت أحمله معي في كل مكان)، كانت الآنسة ري تشعر بأنني أقبلها سرًّا من بعيد، مع شعور عارم بالذنب. ودون أن ترفع عينيها ولو لثانية واحدة عن أوراقها أو دفاترها أو حاسوبها، أحصت الآنسة ري غارات نظراتي على وجهها، ورقبتها، وكتفها.

- هذه واحدة، قالت الآنسة ري في غارتي الأولى - وكانت ضرورية جدًّا. ثم واصلت تعداد محاولاتي للتواصل البصري بدقة آلية نووية (توجد في مكان ما ساعة من هذا النوع ويبدو أن هامش خطئها هو ميكرو ثانية واحدة كل مليون سنة).
- الآن خمسة، قالت الآنسة ري خلال وقفتي التأملية الخامسة، التي استهدفت كتفيها الجميلتين اللتين تكشف عنهما بالدور: الكتف الأيسر في الأيام الزوجية، والأيمن في الأيام الفردية.
- عشرة، قالت الآنسة ري في هجومي البصري العاشر. فهرعت إلى ساعتي لأرى كم تبقى من الدقائق حتى يحين الوقت المحدد، وهذه الفترة الزمنية تتناغم مع المنع النهائي من تأمل جلادتي...

صارت هذه اللعبة دقيقة جدًّا، بل ومثيرة للاهتمام وقيمة بالنسبة إليَّ، إلى درجة حاولت معها أن أكون منضبطًا قدر الإمكان. عندما أحترم إطار الإبقاء على الجرعة الموصوفة، وهي عشر *لمحات خاطفة* في الساعة، تقف الآنسة ري وتقبل رقبتي وأذني اليسرى، ثم تدس يديها الطويلتين تحت قميصي لتداعبني بعمق، وفي كل الاتجاهات، قبل أن تقدم إليَّ مكافأة نظير سلوكي الحسن: «بما إنك كنت منضبطًا بشكل جيد، فسيكون من حقك أن تنظر إليَّ إحدى عشرة مرة في الساعة القادمة..».

لكن الإثارة الشهوانية تتصاعد أحيانًا إلى درجة أتجاوز معها الجرعة بكثير، فيتخذ صوت الآنسة ري نبرة التمرد ويتحول إلى تهديد صريح.

– اثنا عشر، تهمس الآنسة ري باستنكار شديد... ثلاثة عشر، ما تفعله ليس جيدًا يا سيد إم. أربعة عشر، من فضلك تحكَّم في زمام نفسك يا سيد إم، لقد أصبحت عنيفًا وشبقًا.

لم يكن لإهانات الآنسة ري من دور سوى تعميق إدماني. لم يسبق لي أن التقيت امرأة لديها شهية كهذه للعب، علاقتنا كلها موسومة بصفة الألعاب، أو بالأحرى اختراعها. لا شيء مجاني في ملامساتنا أو مداعباتنا الحسية. مقابل كل ملليمتر أجتازه للوصول إلى حميميتها، كان عليَّ دفع ثمن بارتجال شيء ما، أو ابتكار خوارزمية ما للتقدم.

أحيانًا، كانت الآنسة ري على استعداد لخلع ملابسها أمامي، ولكن فقط إذا ظللت معصوب العينين طوال المساء. وعندما يتعلق الأمر بالمداعبات، فهي تخصص لي دائمًا جزءًا محددًا من جسدها.

– هذه الليلة، قالت الآنسة ري، لن تنزل أبدًا إلى مستوى أدنى من نهدي. ولم يكن لقيودها أي تأثير سوى تجميع الطاقة في داخلي للأيام التي ستكون فيها كل تضاريس جسدها متاحة لي. فالآنسة ري تتقن أيضًا هذه النوعية الدقيقة من الانحراف: فهي لم تعتبرني عاشقًا، ولا عشيقًا أو شريكًا جنسيًّا، لقد عاملتني باعتباري شخصًا مجهولًا -رجلًا- منحته الحق، لمدة ساعة، للاستفادة من هذا النوع من المعرفة المسمى حبًّا.

– يمكن للجمهور الدخول الآن، تقول الآنسة ري عندما تصل طقوس المداعبة إلى الحرارة اللازمة للمضي قدمًا نحو شيء آخر.

كانت اللغة الشهوانية للآنسة ري تحيرني أحيانًا، لكنها لم تصبني بالشلل أبدًا. بل على العكس، عرفت الآنسة ري كيف تستخرج مني

رغبات لم أكن أعلم أنني أمتلكها. عندما أطلقت عليَّ اسم «الجمهور»، وخاصة عند سماع عبارة يمكن *للجمهور الدخول الآن*، كنت أشعر فجأة بفقدان تفردي. فأتحول بذلك إلى *جمهور من الذكور*، ما يعني أن الآنسة ري تمتلك طاقة عشرة، أو مئة، أو ربما ألف رجل في أعماقها. عالج عقلي، هذه الآلة المتطورة، الأوهام الشهوانية التي تسللت إليه عمق كلمات الآنسة ري وجملها بمتعة جنونية. لقد ولّدت قوى لم يكن الجسد لينتجها بمفرده، وقد مارست الآنسة ري الحب من خلالي مع عشرة أو مئة أو ألف رجل، وبعبارة أخرى مع الرجل النموذجي، بل مع الرجولة نفسها.

أجل، لقد استطاعت الآنسة ري تحويلي إلى بطل جنسي خارق، فقط بإثارتها للخلايا العصبية في مخيلتي. أنا الذي كنت، في حياتي كرجل، كالأخرق الرديء، خجولًا ومليئًا بالعقد، حذرًا ومتربصًا. عندما تدفع بي ألعاب الآنسة ري إلى درجات قصوى، أصبح مصدرًا لعاطفة طبيعية، ونافذة تتسلل عبرها قوى قادمة من عوالم تتجاوز شخصي أنا.

ولهذا لم أتفاجأ عندما سمعت جملة «أمنعك من أن تحلم بي عارية»: سواء عندما استوعبها عقلي أثناء الحلم، وأنا نائم، أو بعد دقائق، وأنا بالكاد مستيقظ.

نعم، كانت الآنسة ري هناك إلى جانبي، مائلة بجذعها فوقي. لقد دخلت شقتي بطريقة ما في الساعة الثالثة صباحًا لتذكرني بهذا الشيء، أي أن خيالاتي الشهوانية، التي كانت هي موضوعها، ملك لها ويجب على أي استخدام لها أن يكون خاضعًا لاتفاق مسبق مع مصدرها الرئيسي،

أي معها هي. أردت أن أسألها بداية: «ولكن كيف دخلتِ إلى هنا يا آنسة ري؟» ثم امتنعت لغباء السؤال وميله المفرط إلى التفسير المادي والطبيعي المحض. لقد كانت الآنسة ري ساحرة، ومبدعة ألعاب، لأنها تعاملت في الواقع مع الطاقات المتخفية في دواخلنا معًا، وكانت قادرة على تسليط الضوء على هذه القوى المجهولة والغامضة، وإثارتها (بمعنى إيقاظها)، وتنشيطها وخلق مواقف مناسبة لها. لذلك لم يكن من المستبعد أن تكون الآنسة ري قد غادرت عقلي، وأنها تجسيد لنوع من الطاقة العقلية المجهولة التي حررتها من قيودها الآن، بعد تحفيز استمر شهرين أو ثلاثة أشهر، عبر الإستراتيجية المثيرة التي وضعتها الآنسة ري.

لذلك أحجمت عن طرح سؤالي التافه وتلعثمت: «أرجوك سامحيني».

أجل، هذا ما قلته بالضبط:

- أرجوكِ سامحيني، لن أكرر ذلك بعد الآن.

في لحظة نطقي هذه الكلمات، اكتشفت الإمكانات الهائلة لتلك اللعبة الجديدة، لذلك أردت أن أمنح الجملة بعدًا أكثر رسمية:

- أرجوكِ سامحيني يا آنسة ري. لن يتكرر هذا بعد الآن.

- وإذا ما حدث ذلك، يا سيدي، فاعلم أنك ستعاقب. ردت الآنسة ري بصوت دافئ، وإن حمل في الآن نفسه تحذيرًا شديد اللهجة.

(٢٥)

لا أحد في بهو المؤسسة. وعاء من الزبادي المفتوح ومِبرد أظافر على طاولة موظفة الاستقبال. المصاعد الأربعة مستقرة في الطابق الأرضي. ملفات وأوراق متناثرة على الأرض.

لم يركب إكس المصعد، بل فضل الصعود سيرًا على الأقدام. («لماذا؟ أتخشى أن تبقى عالقًا هناك؟») يقع مكتبه في الطابق السادس، في نهاية ممر بطول شارع. العديد من الأبواب المفتوحة على جانبي الممر، على الشاشات المهجورة، تهتز الصورة قليلًا، فتبدو كما لو أنها تغمز بعينها على الإيقاع نفسه.

تقدم إكس مثل شبح في حوض أسماك ضخم. حاول تجنب الدوس على المستندات التي سقطت على الأرض، ولاحظ وجود أوراق كربون قديمة جدًّا بدا وجودها الآن إعجازيًّا. اكتشف إكس وجود أوراق مطبوعة تعد جزءًا من الملفات المصنفة **شديدة الأهمية**.

عند وصوله إلى مكتبه، توقف للحظات، كما لو كان يخشى وجوده فيه. لم يكن يعرف السبب، لكنه أراد طرق الباب بأدب. تعالت نبرة الصوت باستياء. دخل إكس وأغلق الباب خلفه. خلع معطفه وقبعته،

وعلقهما على حاملة المعاطف. مسح العرق عن جبهته، وغير قميصه. تردد في الاقتراب من النافذة المطلة من الطابق السادس، حيث يمكن رؤية جزء كبير من المدينة.

فضل إكس الجلوس إلى مكتبه. منحته الأفعال التلقائية التي اعتاد دومًا على القيام بها بعض الطمأنينة. اختار قلمًا أحمر اللون من حامل أقلام الرصاص، قلم مثالي لوضع الأسطر. قام ببريه. كان مكلفًا بكتابة تقرير عاجل مقتضب، بالإضافة إلى آخر شديد التفصيل. انغمس إكس في قراءة محتويات ملف ضخم، ووضع خطًّا تحت فقرات معينة. ومن حين إلى آخر، دوَّن تعليقات مختصرة في ملف منفصل مفتوح في حاسوبه. أخيرًا هناك شيء ما ما زال يعمل. كتب إكس تقريره في انتظار استدعائه إلى اجتماع الساعة ١١ صباحًا. لكن لم يستدعِه أحد إلى أي مكان. انتظر إكس أن يرن الهاتف، ولو مرة واحدة فقط، لكنه حافظ على صمته. علاوة على ذلك، لم يسمع أي رنين في كل أنحاء المبنى. الفاكس بدوره هادئ تمامًا.

في تمام الساعة ١١:٠٢، قرر إكس تفقد مكتب رئيسه. لا أحد في مكتب السكرتيرة. (شعر إكس بارتياح غريب، هذا نوع من الانتقام: فهو لم يحب السيدة جوبيرت أبدًا.) قرع إكس باب مكتب المدير. لا جواب. فتح الباب. لا أحد هناك. على مكتب رئيسه (السيد كارياتيد، ويلقبونه في المعهد بالسيد موتامو، ضحية عدم كفاءته)، حبة إجاص ومجلة الكلمات المتقاطعة المعتادة. ألقى إكس نظرة على الصفحة المفتوحة التي كان يعمل عليها رئيسه في ذلك الصباح بلا أدنى شك. الشبكة شبه

مكتملة. الواقع أن ما ينقصها هو كلمة عمودية مكونة من خمسة أحرف. بحث إكس عن التعريف: هما حرفان، يشكلان كلمة بالتناظر بينهما!

«كاياك». «ماذا؟» التجديف. «كيف عرفتها؟» بدا ذلك واضحًا ومنطقيا بالنسبة لي.

غادر إكس مكتب رئيسه. من الواضح أن اجتماع الساعة ١١ صباحًا لن يُعقد. عاد إلى مكتبه واستأنف العمل على التقرير.

قرأ إكس ثلاثين صفحة أخرى، ووضع خطوطًا تحت فقرات معينة، لكن شعورًا عارمًا باللاجدوى غمره. قام برسم حلزون على إحدى صفحات التقرير، لكنه ضغط بشدة فانكسر قلم الرصاص.

أخذ سماعة الهاتف واتصل بماتيلد. فأجابه جهاز الرد الآلي. ما الرسالة؟ «أخبرها أنك قادم لرؤيتها هذا المساء».

- أنا قادم هذا المساء. ممكن؟ قبلاتي...

شعر إكس بالخوف من صوته. وجد النبرة مخيفة. بالكاد تعرف عليها. هي حالة رجل غريق. بدا أن أحباله الصوتية قد تفحمت بمرور الوقت.

غير قلم الرصاص ورسم عدة دوائر على صفحات أخرى من الملف. ثم قرر تشغيل التلفاز. جهاز التحكم عن بعد يعمل، لكن الشاشة لا تظهر سوى سلسلة من الخطوط الأفقية والنقاط المتفرقة. ضغط إكس على الأزرار: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... لا يوجد بث على أية قناة.

غادر إكس للقيام بجولة في المكاتب. يبدو أن أحدًا من زملائه لم يتمكن من الوصول إلى المؤسسة. أما الآخرون، الذين وصلوا مبكرًا

جدًّا، فيبدو أنهم غادروا في تمام الساعة ٦:٣٧ صباحًا. فكل الساعات في المعهد متوقفة أيضًا عند الساعة ٦:٣٧ صباحًا.

عاد إكس إلى مكتبه وبدأ يتصل بكل الأرقام الموجودة في تقويمه المهني، الواحد تلو الآخر. عادة ما يصادف أجهزة الرد الآلي ولكن الخط يعلق أحيانًا.

شغل إكس الراديو، وبحث طويلًا عن محطة، وشعر فجأة بومضة أمل. هذه محطة للبث الموسيقي.

- إنها الموسيقى، هل تسمعها؟

« نعم». ما رأيك؟ «لا رأي لي». شعر إكس بالغضب من الصوت.

- الموسيقى! ألا تفهم؟ الموسيقى!

شعر إكس بأن وقت الغداء قد حان. أشعرته ساعته البيولوجية بالجوع. غادر ليتناول الطعام.

دخل إكس إلى أحد المطاعم الصغيرة أمام المؤسسة مباشرةً. أخذ مقعدًا إلى إحدى الطاولات وانتظر. هو ينوي التصرف وكأن شيئًا لم يكن.

قال الصوت: «قد تكون محقًّا» بالتأكيد هو محق. لا يحب إكس أن يُنظر إليه على أنه أحمق. «ربما لم يحدث شيء على الإطلاق، هذا صحيح». لم يحدث شيء بالطبع. ما الذي حدث؟ «قد تكون مجرد مزحة؟» واصل الصوت. كل هذه *القصة* مجرد مهزلة. «ربما كانوا مختبئين في مكان ما. سيضحكون وهم يراقبون ردود أفعالك، ليروا مدى خوفك وذعرك». حسنًا، لا يريد إكس أن يبدو بمظهر الخائف أبدًا. «سيخرجون من

مخابئهم في المساء». سنراهم في الشوارع هذا المساء بطبيعة الحال. إلى متى قد تستمر هذه المزحة؟ «على أي حال، إذا لم يكن ذلك الليلة، فغدًا على أبعد تقدير». آه، كلا، إكس مقتنع بأن الأمور كلها ستتضح بحلول المساء.

- فكر في الأطفال، لا يمكن للأطفال أن يصبروا كل هذا الوقت مختبئين.

ازداد إكس جوعًا. نهض، وذهب إلى مطبخ المطعم، ثم صنع لنفسه شطيرة من لحم خنزير وذهب إلى الحانة وصب لنفسه كأسًا من البيرة. لا يحب سوى البيرة المضغوطة.

جلس إكس وأكل، وهو ينظر إلى شارع لا حياة فيه.

عندما انتهى، ترك ورقة نقدية من فئة عشرة، ومعها بعض العملات المعدنية على طبق بالقرب من ماكينة تسجيل المدفوعات.

عاد إكس إلى المكتب وواصل العمل حتى الساعة الخامسة مساءً. ثم نهض واقترب من النافذة لينظر إلى المدينة من أعلى. وحدها الشمس التي يبدو أنها تحركت طوال هذا الوقت. ظلت السماء كما هي، ساكنة وصافية. وبتمعن أكبر، أدرك إكس أن الحرائق في المدينة لم تنطفئ بعد. وفي مكانين أو ثلاثة يتصاعد دخان أسود على شكل دوائر كسولة.

أنهى إكس التقرير. وضعه على مكتب الرئيس إلى جوار مجلة الكلمات المتقاطعة. عندما وقع نظره مرة أخرى على الشبكة غير المكتملة، سيطرت عليه رغبة شيطانية: فهو يرغب في ملء الخانات الأخيرة، وكتابة كلمة «كاياك». لكنه تمالك نفسه في نهاية المطاف، وغادر المكتب بابتسامة انتصار.

وعد إكس ماتيلد بأنه سيزورها في شقتها، لكنه أدرك أن خططه قد تغيرت. عاد إلى منزله مباشرة وحبس نفسه، خفض الستائر، وفصل الهاتف. قام بتشغيل ساعة المطبخ والمنبه. تأمل لبعض الوقت عقارب الساعة التي استأنفت مسيرها. ملأ حوض الاستحمام بالماء الساخن، وخلع ملابسه، ثم دخل إليه واسترخى محاولًا تجنب التفكير في أي شيء آخر. لكنه وجد صعوبة في تصفية ذهنه.

لماذا هو بالذات؟

«لا تفكر في أي شيء آخر بعد الآن».

هذه ليست مزحة، بل هراء.

«لا تفكر في أي شيء آخر بعد الآن».

في جميع الأحوال، لا رغبة له في التفاعل مع *لعبتهم*.

«ممتاز».

ظل إكس منعزلًا طوال المساء في المنزل. تذكر كتابًا اشتراه منذ فترة طويلة ولم يكن لديه الوقت الكافي لقراءته: *«مدخل إلى فلسفة الكذب»*، بقلم جان فرانسوا كان[1]. هل حان الوقت *ليمنحه اهتمامه*؟ أم إنه من الأفضل إعادة مشاهدة أحد أفلام مجموعته الرائعة من أشرطة الكاسيت؟

اختار الكتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) جان فرانسوا كان (١٩٣٨-): كاتب وصحفي فرنسي. (المترجم)

على الساعة ١١ مساء إلا دقيقة، ابتلع إكس حبتين منومتين وذهب إلى السرير. وقبل أن ينام ابتسم لنفسه قائلًا: ماذا سأفعل، هناك أيام مثل هذه أيضًا في حياتنا. «أنت على حق». وافقه الصوت.

حلم إكس بأنه يركض على هضبة بيضاء شديدة الاتساع، وسط بحر متجمد. شكل الأفق دائرة كاملة لا يخترقها أي ضوء، أو أية تضاريس، أو أي شاطئ. استحوذت الغيوم على السماء دون تناسق واضح. سقط إكس على ركبتيه وبدأ في الحفر بيديه عبر طبقة الجليد. يحفر، يحفر، يحفر. نزفت أصابعه، والثلج ملون بما يشبه عروقًا حمراء صغيرة. وأخيرًا رأى شيئًا. اكتشف إكس عبر الحفرة حشدًا من الناس ينظرون إليه، كما لو أنه اخترق سقف السماء.

استيقظ إكس غاضبًا.

ذهب للبحث عنهم.

بدأ إكس بتفتيش كل الشقق في المبنى، الواحدة تلو الأخرى. ثم نزل إلى الطابق السفلي وفتح كل الأقبية. كما تفحص موقف السيارات في الطابق التحت أرضي. أغلق الباب الحديدي في غرفة التدفئة. صعد إلى الطابق العلوي وتفحص العلية. وصل إلى السطح. لا وجود لأحد في أي مكان.

خرج إلى الشارع. بحث في كل أنحاء جانبي الشارع، لا وجود لأحد.

- اللعنة، هل ستغادرون مخابئكم أم لا؟

هل سمع أحد صراخه؟ هل صرخ حقًّا؟

- هل صرخت؟

«كلا».

لديه فكرة: هو في حاجة إلى التحقق من الفضاءات. التقط واحدة من مئات الدراجات المهجورة في الشوارع وقادها بكل قوته بقوة نحو الملعب البلدي. لا أحد هناك.

قام بجولة في أماكن عامة أخرى من المحتمل أن تستوعب مئات أو آلاف الأشخاص: مضمار السباق وحلبة التزلج على الجليد وقاعة المؤتمرات الكبرى ومحطة القطار ومحطة الحافلات. دخل الكاتدرائية في وسط المدينة ثم كنائس الحي. كما دخل إلى القاعة الكبرى التابعة لمبنى البلدية والمسبح البلدي والأوبرا والمسرح الوطني ومتحف العلوم الطبيعية والمسارح الأخرى ودور السينما. لا وجود لأحد، في أي مكان. تحقق إكس أيضًا في حديقة النباتات والدفيئات الزراعية في الضواحي والقاعدة العسكرية ومركز السجون. لا أحد في أي مكان. السيرك، البورصة، المكتبة الوطنية، جناح المعارض... لا أحد.

المترو! يا رباه، كيف لم يفكر في ذلك؟ دخل إكس إلى متجر لأجهزة الحاسوب وتجهز بخوذة وعدة مصابيح يدوية. نزل إلى المحطة الأولى وتجول في بعض المساحات تحت الأرض. وعندما خرج كانت الشمس في طريقها إلى الشروق.

عاد إكس إلى المنزل عازمًا على تحصين نفسه. خفض الستائر وأغلق المصاريع المعدنية. أضاء كل المصابيح. جلس على كرسي أمام الباب.

- أيها الكلاب!

حاول الصوت تهدئته: «ما رأيك في أن تأكل شيئًا؟»

- كلاب ! كلاب! كلاب!

انتظر إكس على كرسيه أمام باب منزله حيث لم يأتِ أحد ليطرق.

«حاول أن تشرب أو تأكل أي شيء».

الشرب، نعم، إنها فكرة جيدة. التقط زجاجة من الويسكي نسيها منذ العام الماضي، عندما قدموها إليه خلال حفل ترقيته الأول.

صب إكس لنفسه كأسًا وشرب. شعر بتحسن. فتح علبة السردين وأكل. شعر بمغص وتقيأ.

- كلاب! يا لهم من كلاب! كلاب!

نام إكس على كرسيه. واستسلم لنوم عميق فرت منه الأحلام.

(٢٦)

أيها الروائي المبشر جدًّا،

«ذات يوم، أواسط شهر غشت، اختفى رجل ما، دون أن يترك أثرا».

أتذكر أية رواية بدأت بهذه الجملة التي تتجنب إحداث أي أثر حسي، تاركة في الوقت نفسه شعورًا عارمًا باللاطمأنينة؟ يتعلق الأمر طبعًا بـ«سيدة الرمال» لكوبو آبي. يا لها من جملة مصقولة بعناية! يتسبب القارئ الذي يجتاز عتبتها في إحداث انفجارين بقوتين مختلفتين... الأول أكثر تكتمًا، وأوسع انتشارًا، ونحن ندرك صداه البعيد، من خلال ما يثيره حضور شهر أغسطس في مخيلتنا. في كل مكان تقريبًا، شهر أغسطس هذا يوحي بفكرة وصول الصيف إلى ذروته وارتفاع درجة الحرارة وتتالي موجات الحر، مع ما يحمله ذلك من تخفف أو حتى شلل تام... تصير بعض المدن فارغة تمامًا خلال شهر غشت، أما في مدن أخرى، فإن الحياة تستمر بوتيرة أبطأ. في هذه الجملة الأولى الدقيقة، كانت الإشارة إلى شهر غشت، والمفعمة بصور عديدة ومتنوعة، مثار قلق لا يقل بأي حال من الأحوال عن ذكر اختفاء رجل «دون تركه أثرا».

في هذه النوعية من الافتتاحيات المفخخة، نجد أيضًا تلك التي اختارها همنغواي لرواية «الشيخ والبحر». هل تتذكرها؟

«كان شيخا يصيد السمك وحده بمركب شراعي صغير في «مجرى الخليج»، وقد أمضى حتى الآن أربعة وثمانين يومًا دون الحصول على سمكة واحدة». عندما تقرؤها لا تدرك حقًّا أين تكمن خطورة الموقف... هل في عزلة الشخص؟ في شيخوخته؟ في حقيقة أنه يصطاد في المنطقة التي يمر عبرها مجرى الخليج الشهير والمعروف بدواماته؟ أو في حقيقة أنه لم يصطَد سمكة واحدة منذ ثلاثة أشهر تقريبًا؟ الواقع أن القارئ يخطو أربع خطوات، أربعًا، في حقل ألغام هذه الجملة، ومع كل خطوة منها يحدث انفجار أقوى من السابق.

أعلم أنك تحلم بمثل هذه الجملة أيضًا. لقد لاحظت أن جملنا قد ذهبت إلى كُتاب حصلوا لاحقًا على جائزة نوبل. أم إنهم حصلوا على جائزة نوبل لأنهم تفاعلوا مع الإلهام الذي مكناهم منه؟ لن أجيب على هذا السؤال، سأترك الحكم لك.

لقد وجدنا أنفسنا أحيانًا أمام معضلة أخلاقية كبيرة. وإذا أردت المزيد من الدقة سأقول إن ذلك قد حصل عندما قدمنا جملًا شديدة الروعة لأشخاص لا يستحقونها على المستوى الأخلاقي. ولنأخذ على سبيل المثال حالة لويس فرديناند سيلين، الذي يعتبره كثير من الناس «هدرًا أخلاقيًّا». هل كان يستحق الجوهرة النفيسة التي تبدأ بها رواية «رحلة إلى أقاصي الليل»؟ أما زلت تذكرها؟ «بدأ الأمر هكذا». بسيطة وسريعة ومباشرة وفعالة. عتبة. هذا هو نموذج الجملة العتبة. إذ يمكن

لبداية الرواية أن تكون ذات وظيفة طقسية بحتة. يحتاج بعض الكتاب إلى لفتة طقسية لبدء الموضوع أكثر من تحديد موضع السرد في الزمان أو المكان أو ما يهم تقديم الشخصية. إن تاريخ الهندسة المعمارية مليء بالمباني المصممة بحيث يفرض مدخلها موقفًا معينًا. تجبرك العتبة العالية على ما يشبه تصميم رقصة جديدة عند تجاوزها. وفي بعض الأحيان تتطلب منك العتبة رفع ساقك، بينما يجبرك الباب المنخفض على الانحناء... كان سيلين في حاجة إلى جملة أولى من نوعية الجملة العتبة فقدمناها إليه...

قريبًا ستصبح الأمور أكثر وضوحًا بالنسبة إليك. سنعرف إذا كنت في حاجة، إلى تحقيق حلم الأبدية بروايتك، إلى جملة أولى على طراز العتبة، أم جملة أخرى من تلك النوعية المفخخة بالألغام.

وحتى ذلك الحين، أود أن أعترف لك بشيء. أنت عميلنا الأخير. أتمنى ألا أصدمك بهذا الاعتراف. أجل، ستنسحب أخويتنا من السوق الأدبي. قرنان من الخدمات السرية والأساسية التي جرت التضحية بها على مذبح الرواية... هذا يكفي! علاوة على ذلك، فقد تغير العالم، واليوم يكتبون كثيرًا، بالإضافة إلى ظهور تطبيقات السوفتوير اللعينة هذه (من يدري كيف وجدوا لها هذا الاسم) التي تكتب روايات توافقية اندماجية. لقد بدأ عصر الرواية الصناعية، وحان الوقت بالنسبة إلينا، نحن حرفيي الرواية اليدوية التقليدية، للانسحاب من المشهد. لا بد لي من القول إن العقود الماضية كانت متعبة جدًّا بالنسبة إلينا. لقد تقدم في السن آخر صائدي اللؤلؤ العاملين معنا، ووقع آخر كشافتنا الموهوبين في الشَّرك. ها قد حانت ساعة الإغلاق. في اللحظة التي يهمس فيها

شخص ما، في أحد المقاهي الأخيرة التي تستحق هذا الاسم في أوروبا، بما يشبه التعويذة السحرية في أذنك، فاعلم أن أبواب النادي ستغلق بعدك.

مع المودة،

غي كورتوا

(٢٧)

أعتقد أنني كنت في السادسة عشرة من عمري تقريبًا عندما سافر فيكتور إلى أمريكا.

أحدث رحيله اضطرابات كبيرة في حياة عائلتنا. بالنسبة إلى أغلب أفراد عشيرتنا، كانت هذه الرحلة جزءًا من المسار الطبيعي لفيكتور. لقد خلق للذهاب إلى مركز العالم. وكانت أمريكا هي الخطوة التالية التي من شأنها تعزيز مهاراته.

قال فيكتور: «أنا في حاجة إلى هذه الخبرة، لست مهتمًّا بالحلم الأمريكي، بل بالجامعات».

وبما إنني لم أكن ناضجًا بما يكفي لإبداء رأيي في مسار فيكتور واختياراته، فلم يسألني أحد. لكن كان في إمكاني إخبارهم بتفصيل واضح عن اللغة التي يستخدمها أخي عندما يتحدث عن علاقته بأمريكا. لأن بعض التفاصيل الدقيقة غابت عن البالغين (باستثناء العمة ماسيك التي قالت: «لقد شاهد كثيرًا من الأفلام»).

على سبيل المثال، لم يفهم البالغون كتلة النوايا المخبأة تحت صيغة الجمع التي يستخدمها فيكتور في جمله. لم يقل أخي: «أنا مهتم بالجامعة

الأمريكية..».. لم يذكر أيًّا منها، ولم يقل: «أريد أن أذهب إلى كولومبيا» أو «هارفارد». لا، قال: «أنا مهتم *بالجامعات* الأمريكية»، أي إنه كان ينوي، بطريقة أو بأخرى، تكوين رأيه الخاص في كل واحدة منها، إن لم يكن تعميق معرفته بكل واحدة منها. وكانت الصورة واضحة لكل من استطاع أن يفسر صيغة الجمع التي وظفها فيكتور. أما بالنسبة إليَّ، فقد تصورت الأمر على شاكلة رقعة شطرنج: واجه فيكتور وحده كل الجامعات الأمريكية، حسب ترتيب المعركة.

اليوم، قال فيكتور، إذا لم تكن تفكر كأمريكي، فلن تستطيع بلوغ القمة. كان هذا، مرة أخرى، مثالًا على الصياغة التي أغفل باقي أفراد العائلة دقتها. عبر هذه الجملة، كان فيكتور يلمِّح لنا بمعلومة دقيقة جدًّا: فهو لن يذهب إلى أمريكا للالتحاق بجامعة بعينها، أو لمتابعة دورة تخصصية ما، بل لدراسة *طريقة التفكير* الأمريكية. وكان منطقه واضحًا: أمريكا هي *الرقم واحد* في كل شيء، ولكي تنجح اليوم، في أي مجال على الإطلاق، فمن الضروري أولًا فهم آليات النجاح الأمريكي من الداخل...

وكان لدى فيكتور تعبير آخر مرَّ هكذا فوق رؤوسهم: «أنا لا أنجذب إلا إلى وطني الذهني».

نعم، أصبحت أمريكا «الوطن الذهني» لفيكتور، وذلك نتيجة للأفلام الكثيرة التي شاهدها منذ أن كان في الثالثة من عمره. وببلوغه الثالثة والعشرين، كانت عشرون سنة من القصف الهوليوودي قد حولت فيكتور إلى معجب عميق بأمريكا. كل ما يأتي منها يبدو له مألوفًا

وطبيعيًّا ومعقولًا. أما كل ما يأتي من أوروبا فبالنسبة إليه غير مكتمل، ومعلق، و*في طور التقدم*، أي إنه يتطور نحو شيء ما، سيصبح أمريكا عاجلًا أم آجلًا.

لم يتمكن أحد من فك لغز فيكتور، باعتبار تصرفه الدائم كما لو كان شخصية في فيلم هوليوودي. ففي ذهنه، رأى فيكتور نفسه مزيجًا من مفوضي الشرطة الذين لعب جون واين أدوارهم، ونسخة روبرت ريدفورد من *غاتسبي العظيم*، مع مسحة من الأبطال الخارقين منقذي البشرية مثل بروس ويليس، والسادة المتحلين بالحنان والشجاعة على طريقة هاريسون فورد. لم يكن فيكتور جاهلًا، ولم يفتقر إلى قدرات تحليلية. وهكذا، بمعدل ثلاث ساعات يوميًّا مخصصة للتلفزيون، أتيحت لفيكتور أيضًا فرصة مشاهدة أفلام فيلّيني وتاركوفسكي وبونويل وبيرغمان، وأعمال الأخوين تافياني، وكوستا غافراس، وكوروساوا، وثيو أنجيلو بولوس، وماتيو كاسوفيتز، وكوستوريكا... كان ذهنه، في الإطار الشكلي للموضوع، قد استوعب فكرة وجود لغات سينمائية مختلفة عن لغة أمريكا السينمائية، لكن كل هذه التجارب فشلت في اختراق وجدانه، فظلت بالنسبة إليه مجرد تجارب جديرة فقط بالاكتشاف. أما الفيلم الأمريكي، فحتى لو كان سيئًا، كان ذا قيمة مألوفة له، كان جزءًا من نظام إدراكه واستمراريته... بينما كان الإنتاج الفرنسي أو الإيطالي أو الروسي يتطلب منه تحمل مخاطر جمالية وعاطفية... شعر فيكتور بأن عقله الباطن قد *استعمرته* صناعة السينما الأمريكية، ولم يتردد في النظر، من وقت إلى آخر، إلى أبواب الخروج، أو على الأقل في تحليل نفسه:

«فلنرَ إلى أي مدى صرت مدمنًا على هذا المخدر..». فقد أجبره وضوحه على إدراك مدى انطباع الصور القادمة من الضفة الأخرى للأطلسي في وجدانه بعمق كبير، وأنها أصبحت الآن جزءًا من واقعه *التشريحي*. جرى تشكيل أعمق طبقات حساسيته العاطفية من خلال رسوم ديزني الكارتونية: *سندريلا*، *النبيلة والصعلوك*، *سنو وايت والأقزام السبعة*، *كتاب الأدغال* (وكل الأفلام الأخرى التي أصدرتها هذه الإستوديوهات، وكان فيكتور يمتلكها على شكل أشرطة أو أقراص دي في دي) فوضعت أسس الصرح العقلي الذي بني بعناية وضم عدة طوابق. كانت سلسلة *قراصنة الكاريبي* الأقرب بشكل خاص إلى قلبه. وربما مرت أيام اقترح خلالها أن يلعب دور جوني ديب.

حدثت الأمور وقتها على النحو التالي. يستيقظ فيكتور صباحًا تملؤه هذه الرغبة العارمة. بفرقعة من أصابعه، يستدعي فيكتور جوني ديب *الكامن في أعماقه*. وهكذا، تمت دعوة الممثل ليستحوذ على كل إيماءات فيكتور وأفكاره ليوم واحد - وهو ما يختلف عن الحل الذي وضحه *«في جلد جون مالكوفيتش»*، وهو شكل آخر من أشكال التعريف الوجودي الذي سأعود إليه لاحقًا. عندما يقرر فيكتور قضاء يوم معين، مسكونًا بجوني ديب، تنشط في ذهنه كل الصور المرتبطة بهذا الممثل، والشخصيات التي لعبها. قام بتخزين الصور في ذهنه، آلاف ومئات الآلاف وملايين الصور على شكل *بكسلات دماغية*. لإيقاظها، يستغرق الأمر جزءًا من الثانية فقط: فجأة، يخترق أسلوب جوني ديب وتفاعلاته النفسية والجسدية كيان فيكتور بأكمله، ومعها

طريقته في الحركة، والنظر، والتفكير، والحديث، والتردد، إلخ. كان في إمكان فيكتور الاختيار بين جوني ديب في شكله العام، أي الذي يحمل كل شخصياته: القرصان غير التقليدي جاك سبارو، عاشق الشوكولاتة الغامض ويلي ونكا، الحلاق القاتل سويني تود أو إدوارد هذا الذي كان لديه مقصان مكان يديه. أو يمكنه التركيز في شخصية واحدة مثل تلك التي لعبها جوني ديب في فيلم *رجل ميت* للمخرج جيم جارموش. كان هذا التجسيد يُشعِر فيكتور بسعادة غامرة، حيث يستمتع لمدة ساعة بالتنقل في أرجاء المنزل، أو المدينة، أو في أروقة الجامعة، كما لو كان مصابًا برصاصة في صدره ولم تعد أمامه سوى ساعات قليلة للعيش. في هذه اللحظات، يُظهر فيكتور تفوقًا لامعًا يصيب كل من يواجهه بالشلل. كان التأثير قويًّا جدًّا، لم يجرؤ أحد على مقاطعته فيما بدا وكأنه تأمل علوي... لكن لم يدرك أحد أنه كان في تلك اللحظة مسكونًا بجوني ديب الذي أدى دوره في فيلم *رجل ميت*.

شكلت أفلام أخرى كوكبة قريبة جدًّا من دوافعه: أفلام بروس ويليس وهاريسون فورد. شكلت هذه الأفلام نوعًا من الغشاء الواقي حول روحه. عندما تنزل إشارة من العالم الخارجي مثل مُذنَّب عملاق، يتم تفعيل مرشح بروس ويليس-هاريسون فورد. ماذا فعل هذا الغشاء بوصفه مرشحًا؟ كانت له القدرة على صد رسائل معينة (المشاعر والمعلومات والصور والأصوات وما إلى ذلك) التي تعتبر غير ذات أهمية إذا لم تكن متوافقة مع مدونة القيم المدرجة في الغشاء الواقي. أجل، كان غشاء بروس ويليس-هاريسون فورد بمثابة درع مضاد للذرات. شبكة

من القناعات والنماذج، وطبقة سميكة جدًّا من الإغراءات الحركية... أي صاروخ يطلق من الخارج مصيره الاصطدام بهذه الدرع والارتداد على الفور. أو، إذا تمكنت الطلقة المعلوماتية العاطفية من اختراق الغشاء الواقي لفيكتور (مثل قنبلة خارقة للدروع تهدف إلى الوصول إلى ملجأ للغارات الجوية بعمق تسعين مترًا)، أجل، إذا حدث ذلك، فإن المهاجم يتحول على الفور، نتيجة سمك الدرع وقدرته على المقاومة. وبالمرور عبر غشاء بروس ويليس-هاريسون فورد، جرى تعديل كل الإشارات الخارجية لتحويلها إلى ما يتوافق مع نسيج الغشاء وأيديولوجيته وطبيعته الحميمة.

كما قلت، لم يكن فيكتور غبيًّا أو جاهلًا. كان يعلم أن كل هذه الأفلام الأمريكية التي شاهدها على مدار عشرين عامًا قد غرست في أعماقه أيديولوجية معينة. الواقع أن فيكتور كان يؤمن بإخلاص بالرسالة العامة لهذه الأفلام. كان يعتقد بصدق أن أمريكا هي المكان المثالي لكل من يعشقون الحرية. كان يؤمن بصدق بالعدالة وقدرتها على الانتصار دائمًا. كان فيكتور يؤمن بالقتال. نعم، يمكنك تحقيق أي شيء عن طريق القتال. وقد أكد ذلك بول نيومان، بروس ويليس، هاريسون فورد، هارفي كيتل، روبرت دي نيرو، جين هاكمان، وآل باتشينو، وجورج كلوني، وعشرات الممثلين الأمريكيين الآخرين الحاضرين في أعماق روحه. إذا ما كانت لفيكتور لحظات شك أو خوف، فإنه يحدثهم متسائلًا:

- هل يستحق ما أريد أن أقاتل في سبيله؟

وبدون أدنى تردد، يظهر عندئذ بول، وبروس، وهاريسون، وهارفي، وروبرت، وجين، وآل، وجورج (وأيضًا هنري فوندا، وكلينت إيستوود، وأرنولد شوارِزنيجر، وسيلفستر ستالون، وكيفن كوستنر، وتوم كروز) مجيبين بنعم كبيرة.

- نعم يا فيكتور، قاتل وستنتصر. إذا قمت بصياغة رغباتك بوضوح، فسوف تنجح. إذا كان شغفك بالعدالة عميقًا حقًا، فسوف تحققها. ببناء نفسك كل يوم، ستتحكم فيها في كل لحظة، إذا كنت تؤمن بالحرية وبأمريكا فلن يقاومك شيء أو أحد.

- هل أنتم متأكدون؟ كذلك كان فيكتور يفعل، خاصة خلال فترة ما قبل المراهقة.

- بالتأكيد، تجيبه الجوقة المكونة من بول، بروس، هاريسون، هارفي، روبرت، جين، آل، جورج، هنري، كلينت، أرنولد، سيلفستر، توم، وقد ينضاف إليهم براد بيت، ليوناردو دي كابريو، كيرك ومايكل دوجلاس، الأسد الملك، وموكلي من *كتاب الأدغال*.

(٢٨)

يمكن اعتبار العودة إلى مقهى دي تيميد، مرة أخرى بعد أسبوعين، وبصحبة بول، أشبه بمغامرة ميتافيزيقية حقيقية. بدا لي دائمًا أنني كنت قريبًا منه، وأنني أتبع الطريق الصحيح، حيث وجدته لأول مرة، ولكنني كنت أخطئ في كل مرة.

- تبدو عليك آثار القشعريرة. ربما أنت مريض قليلًا.

- لا، لا، صرخت. يجب أن أريك هذا المكان، لكنني لست مجنونًا، لقد أمضيت أمسية كاملة هناك.

كررت الطريق نفسه مرات عديدة، مسترشدًا بالعلامات المحفورة في ذاكرتي. سمح بول لنفسه في البداية أن يُقاد دون أن يتفوه بكلمة. لكن، بعد أربع، خمس، ست محاولات للعثور على *مدخل* مقهى دي تيميد، ظهرت على وجهه علامات الانزعاج، وانتهى به المطاف إلى الشك في قيمة قدرتي على تحديد الاتجاهات.

- لقد أخطأت الشارع، قال بول.

- كلا، أجبت بإصرار، هذا هو الشارع الصحيح، أقسم لك. انظر،

عبر هذه الحديقة، كان المنظر من المقهى يحبس الأنفاس، انظر إلى هذه المقاعد، وهذا الكشك ثماني الأضلاع... هؤلاء الشيوخ الذين يلعبون الشطرنج، رأيتهم بأم عيني من المقهى، بقيت في الداخل لساعات، وأنا أنظر إلى الحديقة، والأطفال يلعبون... لا يمكن أن يختفي بهذه الطريقة.

- كل الحدائق متشابهة.

بطبيعة الحال، كان بول على حق، ففي بعض الأحيان، تبدو الأحياء متشابهة، والمربعات السكنية تبدو متشابهة، والأطفال الذين يلعبون يبدون متشابهين. ومع ذلك، فأنا متأكد من استحالة ارتكابي لهذا الخطأ...

- انظر إلى أشجار الكستناء هذه! هتفت بانتصار: «لقد رأيت أشجار الكستناء تلك من المقهى!»

- رأيت أشجار الكستناء أيضًا، أما المقهى الذي تتحدث عنه فقد *تلاشى*...

كانت لدى بول موهبة العثور دائمًا على التعبير الأكثر دقة لوصف واقع ما. أجل، لقد تلاشى المقهى، واختفى من المشهد، ومن المبنى حيث تركته آخر مرة. سألت المارة إن كانوا قد رأوا مقهى هناك؟

- من فضلك، هل تتذكر إذا كان هناك مقهى هنا ذات يوم؟

- ذات يوم، متى؟

- قبل عشرة أيام بالضبط...

- لا يا سيدي، لم يكن هناك أي مقهى في هذه الأرجاء من قبل.

عشت في الحي منذ خمسة وستين عامًا، ولا وجود سوى للتجمعات السكنية حول هذه الساحة. أما المقاهي، فستجدها في الجادة، بالقرب من محطة المترو، عد أدراجك ثم تقدم مباشرة وبعدها...

لا أدري ما السبب، لكنني شعرت بأن كل المسنين ولاعبي الشطرنج هؤلاء الذين حاولوا إقناعي بعدم وجود أي مقهى على الإطلاق، سواء في شارعهم أو في الساحة المحيطة به، كانوا منافقين، بل وربما كاذبين أيضًا. صار من المؤكد بالنسبة إليَّ أنهم كانوا يحاولون إخفاء شيء ما عني، وقد توصلوا إلى تفاهم معين فيما بينهم، أضف إلى ذلك أنني كنت أرى على وجوههم نوعًا من التواطؤ. كانت طريقتهم في قول: «لا يا سيدي، لا يوجد شيء مثل هذا هنا» تشترك في نقطة واحدة، وهي حماسة معينة: كما لو أنهم تدربوا على هذه النبرة الموحدة لفترة طويلة أمام المرآة. أجل، لقد علمهم أحدٌ ما كيف يتفاعلون مع سؤالي، وكيف ينكرون بابتسامة كبيرة وبالارتعاش نفسه في أصواتهم التي بدت كاذبة. «إذا اقترب منكم طالب غريب الأطوار وفوضوي إلى حد ما، له لحية غير مهذبة ويرتدي نظارات، وسألكم عن مقهى دي تيميد، فما الذي يتوجب عليكم قوله؟» «سنقول دون أدنى تردد، وبلهجة حازمة لكنها هادئة، ناظرين إلى عينيه، وأيادينا على كتفه إذا لزم الأمر، أن شيئًا كهذا لم يكن موجودًا هنا من قبل».

لكن كل هؤلاء الأشخاص لم ينجحوا في خداعي أو زعزعتي. خاصة عندما يضع أحدهم يده على كتفي على أمل أن يبدو أكثر إقناعًا.

(أقسم إنه عندما يضع شخص يده على كتفك وينظر إلى عينيك مباشرة ليقنعك بشيء ما، فيجب أن تفهم عكس ذلك تمامًا).

لكن بول سئم من لعبة الغميضة هذه، بعد ساعتين من البحث بلا جدوى.

- سئمت، لقد تفحصنا هذه الساحة أكثر من عشر مرات.

كان سخطه مفهومًا. طلبت منه ألا يغضب، وأن يتركني وشأني. لم أستطِع إبعاد نفسي عن هذا المكان، خاصة مع تشكل أربعة أو خمسة أزواج من لاعبي الشطرنج المسنين فورًا في الحديقة. سأبقى لفترة أطول قليلًا، قلت لبول، لا داعي إلى اللوم، أراك هذا المساء، أريد تسجيل بعض الملاحظات الصغيرة، فهذا المربع السكني يلهمني.

غادر بول، دون أن تتجاوز مفاجأته بردة فعلي، ما كان عليه الحال عندما وافق على مرافقتي للبحث عن مقهى دي تيميد.

عندما بقيت وحيدًا، شعرت على الفور بنوع من التحسن، كما لو كنت أتخلص من مسؤولية، لم يعد لديَّ شيء ما لأظهره لأي شخص. جلست على أحد المقاعد، ونظرت لفترة طويلة إلى الأطفال الذين يلعبون حول الكشك، والمسنين الجالسين إلى طاولات الشطرنج. لوحة مفعمة بالخفة انفتحت أمامي، كانت الساحة مكان اجتماع سكان الحي. يمر الناس، يتقابلون، يتوقفون لدقيقة أو دقيقتين للمصافحة وتبادل بضع كلمات قبل مواصلة المشي... تصل أمهات مع أطفالهن الصغار من حين إلى آخر، ويذهب اثنان أو ثلاثة من الأكبر سنًّا لركوب الدراجة، ويظهر رجل عجوز متهالك على كرسيه المتحرك.

أخرجت مذكرتي، التي تضم ملاحظات متباينة، ثم كتبت هذه الكلمات: «لوحة خفيفة. أناس، وأناس. مرحبًا، مرحبًا. عشر كلمات متبادلة في كل لقاء، لا أكثر. نظرات هادئة. طقس متكرر. ساحة معزولة عن العالم. ملجأ مضاد للتفجيرات النووية. مقاعد أعيد طلاؤها أخيرًا. مساحة لها تأثير التنويم المغناطيسي».

ظللت جالسا على ذلك المقعد لنصف ساعة آملًا، مثل متفرج بعد استراحة، أن يكون الجزء الثاني من العرض أكثر إثارة. لكن ذلك لم يحدث، استمر الناس في الخروج والمشي بالوتيرة نفسها، لتحية بعضهم بعضًا، وهم يتفوهون بالعبارات نفسها على الأغلب.

عندما نهضت أخيرًا، منومًا مغناطيسيًّا إلى حد ما، بسبب رتابة الساحة الباعثة على الاطمئنان، ظهر مقهى دي تيميد خلفي من جديد. وبعبارة أوضح، رأيته عندما التفتُّ مباشرة. كان هناك، حيث كنت أعرف أنه يجب أن يكون، ظل غير مرئي عندما كنت مع بول، ثم رأيته الآن وأنا وحدي. فجأة، تولَّد لديَّ انطباع بوجود سائل محترق يسكبه أحدهم من كيس مليء بالمشاعر والعواطف المختلفة. أجل، كان مقهى دي تيميد هناك، متحفظًا ولكنه مفعم بالحيوية، في الطابق الأرضي من المبنى الموازي للميدان. ذهبت إلى هناك شاعرًا بأنني أطفو فوق سطح الأرض. وفي لفتة من الحنان الهائل، دفعت باب المقهى ودخلت.

وجدت نفسي في بيئة صارت مألوفة بالنسبة إليَّ، باستثناء وجود عدد أكبر من الزبائن هذه المرة، ثمانية أشخاص على الأقل، جالسون إلى ثماني طاولات مختلفة. انتظر النادل بعيون خائفة كالعادة خلف المنضدة،

وهو يعض شفتيه بشكل غريب. تعرفت على الفور على المرأة الشابة ذات القبعة الصفراء، والمرأة التي ترتدي فستانًا من نوع بلوميتيس، والسيدة الممتلئة ذات العينين اللوزيتين. كان هناك أيضًا أشخاص آخرون، نساء ورجال ثابتون، بلا حراك على طاولاتهم، في وضع الانتظار هذا الذي فهمته جيدًا... عندما دخلت تجرأت المرأة التي ترتدي الفستان، على رفع إصبعها نحوي، ما منحني متعة هائلة، كما لو كانت علامة تواطؤ واعتراف... ومثل المرة السابقة، هدأت الأجواء بعد وقت قصير من دخولي. حتى أن النادل رد على تحيتي وسألني عمّا إذا كنت أرغب في تناول القهوة.

- أجل، أجبته. ما أثار ضحكة مكتومة في إحدى الطاولات. نظرت إليَّ السيدة الممتلئة ذات العينين اللوزيتين بنظرة ممتنة وبدأت فجأة بالبحث عن شيء ما في حقيبة يدها العميقة إلى ما لا نهاية.

بدون أي تردد، ودون حتى أن أسأل نفسي لماذا فعلت ذلك، طلبت من النادل ثمانية فناجين من القهوة. ثمانية فناجين من القهوة للزبائن الثمانية على الطاولات الثمانية. ثمانية أشخاص شعروا فجأة بدماء الأمل تتدفق في عروقهم، ورأيت عدة عيون تعانقني في موجة من الامتنان العميق.

ببطء، ودون الإخلال بالإيقاع الطبيعي للمكان، قمت بدور رسول، ووضعت كل فنجان أمام كل زبون. منحني النادل إحدى تلك النظرات التي يمكنها أن تقول كل شيء دون أن تنطق بكلمة واحدة.

- هذا رائع جدًّا، هذا رائع جدًّا، همست شفتا النادل.

عندما بدأ الجميع في احتساء قهوتهم، قمت بمبادرة أخرى، ودعوت الزبائن الثمانية إلى التجمع حول ثلاث أو أربع طاولات فقط. دون إبداء أدنى مقاومة، وقف الأشخاص الثمانية واتبعوا نصيحتي، وتمتم عدد قليل منهم أيضًا بأشكال مختلفة من التحية، مثل «تشرفت بلقائك»، «يا له من خريف رائع»، «هل تسكن في هذا الحي؟»، «هل يمكنني أن أقدم إليك حلوى بالنعناع؟»...

كان لدينا جميعًا شك غامض في أن اجتماعنا سببه حلم ما، وأننا كنا هناك لأن شخصًا ما، في مكان ما، كان يتخيل مثل هذا الموقف في حلم. كنا جميعًا، دون أن نعرف السبب، متضامنين مع هذا الشخص، وننتظر استيقاظه بفارغ الصبر.

(٢٩)

تدعوني إلى التقدم فوق بساط من التفاح
أُدخل، تقول لي، لقد بنيت لك اليوم
بيتًا من تفاح

يمكنني توقع أي شيء
فالآنسة ري تبني لي بيتًا كل يوم
بيت يصلح أيضًا لإطعامي

نجلس أمام الطاولة ونتناول طعامنا
لكل منا تفاحة و
تقدم إليَّ الآنسة ري عصيرًا من التفاح
ثم نتابع طويلا
كيف تزهر شجرة تفاح

والتفاح الذي تقوم ساعة الحائط في البهو
بتقسيمه إلى قطع رفيعة
فنعد معًا خمر تفاح شهيًّا

تأخر الوقت، والآنسة ري
تتطلع إليَّ بنظرة لطيفة، وتقرأ طالعي
في تفاحة مقسومة إلى نصفين
أخبار سعيدة، ففي هذا المساء ستكون الآنسة ري
لي وحدي
سنتطارح الغرام في فراشها المليء بالتفاح
وبحوزتنا الوقت الكافي لنضوج تفاحة

(٣٠)

أعلم أنه لا أسهل من مواصلة إغواء امرأة بعد الاستحواذ عليها. أعلم ذلك يا سيدي العزيز، أعلم أنني أخضعتك لتمارين صعبة، لكنك تعاملت مع الوضع بشكل جيد... تلك القصائد التي أرسلتها إليَّ، حتى لو سخرت منها أمامك، ومزقتها أمام عينيك، فاعلم أنها بلغت وترًا عميقًا ما زال يهتز. أحملها في داخلي، وقد حفظتها عن ظهر قلب. أنت لا تعرف ذلك، لكن لديَّ قدرة هائلة على عدم نسيان أي شيء، ذاكرتي جهنمية، غير طبيعية، تحفظ كل شيء، الكلمات، الإيماءات، الصور... تكفيني قراءة قصائدك مرة واحدة فقط لأدرك أنها ستظل محفورة في مكان ما هنا، وتأكد أنني سأحملها معي طوال حياتي. لا فكرة لك عن مدى إعجابي بهذه القصائد الثلاثين المكتوبة على مدار ثلاثين يومًا، على أمل أن يستقبلك سريري مرة أخرى يومًا ما، وأن أسمح لك باحتضاني بذراعيك قبل إعداد الإفطار. لكنك أخرق وخجول أيضًا، ولا تعرف مدى تأثير مشاعرك فيَّ. أنت لا تعرف، مثلًا، كم أحب رؤيتك ترمش. ربما تكون الرجل الأكثر رمشًا على هذا الكوكب. أجل يا سيدي العزيز، أحب رؤيتك ترمش، لأن ذلك يثيرني إلى حد لا يوصف، أيضًا عندما

ترمقني بنظرة شك، تبدو كالطائر الذي يضرب بجناحيه بسرعة كبيرة خشية تعثره. جفناك أنت شبيهان بأجنحة صغيرة ضامرة، وعندما أراك ترمش، تتولد في أعماقي عاطفة كبيرة تجاهك، ثم أقول: «كان له جناحان، كبيران، هائلان، طار بهما، ما سمح له أن يرتفع فوقنا جميعًا وينظر إلينا من أعلى... إلا أنه، بضغط الحياة أو الثواني المسرعة أكثر من اللازم أو التلوث العاطفي، أو لأي سبب آخر، بدأت أجنحته في الضمور، والتضاؤل، والامتصاص... وهكذا تحولت إلى جفون، هذا كل ما بقي منها، جفنان... لكن هذا الضمور لم يؤثر في الطبيعة الحميمية للأجنحة القديمة، فقد حافظت على شكل معين من الطاقة، وحافظت على غريزة الطيران... لذلك فهي تنبض، أو تستمر في الضرب، رغم أنها مجرد جفون..».

هذا ما يهمس به الآخرون لأنفسهم، يا سيدي اللامتناهي، عندما يرونك ترمش. المفارقة هي أنك تمتلك أيضًا موهبة الرمش أثناء نومك، ولهذا السبب أتأملك كثيرًا في الليل.

كيف أخبرك بمدى إعجابي عندما أعددت لي حساء اليقطين وكافيار الباذنجان مع الخضار من قطعة الأرض الصغيرة التي تعتني بها في الجزء الخلفي من المبنى المتواضع الذي تعيش فيه؟ لم يسبق لأحد أن طبخ لي بمثل هذه الإثارة الشهوانية، مشبعًا كل إيماءة بخيالاته الزوجية. بينما كنت تقطع الخضار، اعتقدت أنني سأموت من الخوف، كدت تجرح نفسك عشر مرات أو حتى تترك إحدى أصابعك على لوح التقطيع. سعدت كثيرًا بنجاتك إلى درجة أنني أكلت كل ما في طبقي فورًا، كما

رأيت. رغم كل الانحرافات الصغيرة التي توجه حياتي، إلا أنني أعرف كيف أكافئ البادرة الشجاعة.

نعم يا سيدي اللامتناهي، أنت مُغوٍ فطري وأخرق. بقدر ما تتحرك القطة، باعتبارها رمز الكمال من حيث الأسلوب، الأنيق والطبيعي، فإن كل ما تفعله أنت يبدو محرجًا ورقيقًا ومضحكًا. لقد أجبرتني أيضًا على تعلم كيفية الضحك من الأعماق. بمعنى آخر، أن تنفجر من الضحك في أعماقك، حتى لا أزعجك بذلك. هل تعرف هذا المثل اليهودي: «قم بإضحاك المرأة وستكون لك»؟ حسنًا، فيما يتعلق بي أنا، فقد كنت لك منذ البداية، لأنك أضحكتني منذ تلك اللحظة الأولى. من البداية. طريقتك في النظر إليَّ وأنت ترمش ثلاث مرات في الثانية، وطريقتك في مداعبتي دون لمسي، والتحدث معي وأنت تبتلع كلماتك، كلها انتزعت قهقهتي ثم ضحكاتي، أمتعتني باختصار، ولكن عندما لاحظت أنه لا ينبغي لي زعزعتك بضحكاتي، انتقلت إلى الضحكات في أعماقي، فلم تعد تغادر ذهني، فمي، صدري، لا، ظلت ضحكتي مختبئة في أعماقي، تهز جسدي بذبذبات داخلية. بطبيعة الحال، لم أكن قادرة على السيطرة على الأمر أحيانًا، فأضطر إلى إخراجه... ومثل الآخرين الذين يذهبون إلى المرحاض عشر مرات في اليوم للتبول بسبب مثانة هستيرية، كنت اضطر أحيانًا إلى الخروج من المكتبة لكي أضحك وحدي بصوت عالٍ، وأنا أحاول التخفي بين تفاصيل ممر فيردو...

أنت آلة إغراء مذهلة، يا سيدي اللامتناهي، ولهذا أختبئ، حتى لا أزعجك، ولا *أفرملك*. لو كنت تعرف كل هذا، ولو تمكنت من

الوصول إلى الحقيقة، فأخشى تحولك إلى مخلوق رتيب بلا خيال. ولهذا فإن الحقيقة ليست متغيرًا يحتمل أن يظهر في علاقتنا. هل سمعت عن القلق الذي يشعر به العلماء أحيانًا عندما يستكشفون العوالم المصغرة؟ إنها تسمى متلازمة كسر الخزف. لاختراق عالم الجسيمات الدقيقة، يخترع العلم أدوات متطورة بشكل متزايد، ولكن عند استخدامها، فإنها تعطل الفضاء المستكشف. يبدو الأمر كما لو أن زيارة متجر الخزف لم تكن ممكنة إلا على حساب تدمير بعض هذه الأشياء الدقيقة والحساسة. في نهاية المطاف، ما يتمكن هؤلاء الخبراء الفائقون من استكشافه هو الاكتشاف نفسه، حيث تبدو الجسيمات المدروسة وكأنها تحولت عندما تظهر الأداة المستكشفة...هل كنت واضحة بما فيه الكفاية؟ على أية حال، أنت تشبه عالم الجزيئات: لكي تبقى سليمًا، وحتى لا أغيرك بسبب علاقتنا، أخفي عنك تقريبًا كل ما أشعر به وكل ما يثيرني عبر الألعاب التي تتسبب فيها.

أعتقد أنني واضحة جدًّا، أليس كذلك؟ ولهذا السبب، بالمناسبة، أخبرك بكل ذلك أثناء نومك: لكي يكون كل شيء بيننا واضحًا قدر الإمكان.

(٣١)

عزيزي غي،

من الواضح أن السيد إم، الذي أرسلته قبل ثلاثة أشهر من الآن، سيظل لغزًا غامضًا بالنسبة إليَّ. أرغب في مقارنته بكرة. كرة من المشاعر والمخاوف والعواطف والأوهام. فيما يتعلق بالانضباط، لا يوجد ما يدعو إلى الانتباه، فهو يكتب كثيرًا ويحاول أن يثبت لي مدى جديته، أو ربما يريد مني أن أكوِّن فكرة عن حجم إمكانياته. بخلاف ذلك، يبدو هشًّا وساهمًا على الدوام. أما حكايته مع الآنسة ري فلم تتقدم كثيرًا حتى الآن.

تناولت معهما الغداء في مناسبات عديدة، كنت خلالها حلقة وصل ومترجمًا ومحفزًا. كم كانت الوجبات التي شاركتهما إياها أشبه بكوميديا لا طعم لها! لا تتوقف الآنسة ري أبدًا، بخبثها المعتاد كما نعرفه أنا وأنت، عن مضايقته بالعبارات التي تشعرني بدوري بالتوتر. «سيد إم، ألا يمكنك تناول الطعام دون فتح فمك؟ لا شك في أن تجويف فمك يشعر بالاشمئزاز الشديد كلما حاولت ملأه بالسلطة». أما هو، فيبتسم بغباء، ويبدأ في تحريك إصبعه حول محيط طبقه، ليبدو مثل طالب عاقبه مدرس

الرياضة بالركض عشر لفات حول الملعب. قبل أن يجيبها: «يا آنسة، لم يصمم تشريح أجسادنا ليتلاءم مع متطلبات نقاء روحك». أؤكد لك أن هذا يبعث على الضحك. بينما تواصل هي بالأسلوب المستفز والعدواني نفسه.

- سيد إم، كن لطيفًا من فضلك، وألقِ نظرة على كأسي من حين إلى آخر. لو تتكرم بالنظر إلى أعلى، بدلًا من الإصرار على الانغماس في طبقك. أنت لست فرس نهر. كأسي فارغ، لا أدري كيف لم تلحظ ذلك. إنه فارغ.

- سامحيني يا آنستي، لا شك في أنني أحمق تمامًا. لكنني لا أرى في فراغ هذا الكأس وعريه أمرًا كريهًا، خاصة وأنه ملك لك...

أتعتقد يا غي أن هذين الاثنين لا يعيرانني أي اهتمام؟ أتظن أنهما قطعا شوطًا طويلًا في اللعبة إياها، إلى درجة الاستمتاع الآني باختراع شخصيات ومواقف جديدة أمامي؟

عندما نكون جالسين ثلاثتنا إلى الطاولة، لا يسعك أن تتخيل إلى أي مدى تمنحني الآنسة ري اهتمامها، فهي تثبت المنديل حول رقبتي، وتضع يدها على ركبتي من حين إلى آخر، كما تقدم إلَيّ الخبز وإن لم أكن مهتمًا بتناوله...

- أتريد القليل من الخبز يا برنارد؟ هيا، يمكنك تناول المزيد...

هي قادرة على اللعب على جبهتين: فقد تضرب يد السيد إم لأنه لا يستخدم شوكته وسكينه بشكل جيد، ثم تجد في الوقت نفسه طريقة لتقبيل الجزء الأصلع من فروة رأسي. اللعنة، يا لها من خبيثة! يمكنها

أن تطلب الملح أو الفلفل من السيد إم، فقط للمس أطراف أصابعه، وبهدف وحيد هو خلق إثارة حسية، ومداعبته بطريقة عابرة لا تخلو من تعمد مقصود، طوال المدة الثانية التي ينقل خلالها ما طلبته. كل أشكال التواصل هذه، هي بمثابة قبلات عابرة، تجري هكذا فوق الطاولة، وتحت أنفي، وربما بهدف اختباري...

ما الذي يريدانه مني حقًّا؟ أعترف يا غي أن هذا يربكني أحيانًا... لذلك سأسألك الآن، أمتأكد من رغبتك في نقل كنزنا إليهما؟ أمتأكد من صواب اختيارك، وأن هذا الثنائي هو المثالي والأجدر ليكون وصيًّا على أغلى ما نملك؟ ليكن في علمك، أنه في هذه الأثناء، تقدمت عملية رقمنة كنزنا بشكل جيد، فالآنسة ري صاحبة اختصاص، وقد نقلت كل شيء تقريبًا إلى جهاز الحاسوب الخاص بي، ما يعني قرب تخزين المكتبة الكاملة لجملنا الأولى في عشرة مفاتيح USB (لأنهم هكذا يسمون تلك السعة التخزينية القادرة على حشر أطنان من المعلومات في مساحة صغيرة وضيقة). ينتابني أحيانًا مزيج من الخوف والحنين والعصبية كلما فكرت في الأمر: مليون جملة أولى محشوة في عشرة مفاتيح! هل هذا صائب؟ أينبغي لنا التكيف مع التقنيات الحديثة بنوع من الخضوع؟ أنا في انتظار عودتك إلى باريس لمناقشة الموضوع... ينتظرك السيد إم أيضًا بحماس متزايد، فهو على قناعة تامة بأن اللحظة تقترب، تلك التي سيتسلم فيها الهدية الأسمى من يدك، الجملة الأولى المثالية! وفقًا لتعليماتك، فهو ما زال محتفظًا بنشاطه، مثل الصادح الذي يعد صوته قبل الدخول إلى خشبة المسرح. وعلى الرغم من نفوري الشديد منه، فإنني أقر بأن بعض

صفحاته تتمتع بنوع من التكثيف والحيوية. سأرسل إليك عينة من إحدى قصصه. هي تفتقر إلى الجدة، ولكنه يقود أحداثها بشكل جيد: شخص ما، يدعى إكس، استيقظ ذات يوم ليجد نفسه وحيدًا تمامًا في مدينته، أو ربما في العالم بأسره، فيشرع في تنظيم حياته الداخلية والخارجية وفقًا للسياق الجديد. يبدو أن الصفحات الأولى تستحق عناء قراءتها، فهي ليست سيئة تمامًا، بقي أن نرى ما إذا امتلك السرد تلك القوة الكافية للمضي قدمًا... شخصيًّا، لا أرى ذلك ممكنًا، فمن المحتمل أن تصبح الأحداث مملة فيما بعد. وقد يجد نفسه في طريق مسدود، أو على العكس، قد يسحقه جبل من التفاصيل. ومع ذلك، فإن التفاصيل هي كلمة السر السحرية في مثل هذا النوع من القصص. سنرى.

أتمنى لك أيامًا جميلة في البندقية.

خالص الود،

برنارد

(٣٢)

ضغط كين فجأة على المكابح، ومال إلى عجلة القيادة متفحصًا الطريق أمامه. أيقظت الصدمة بيتي من غفوتها.

- ماذا هناك؟

- لا شيء، قال كين. كدت أن أصطدم بقنفذ.

- قنفذ!؟

- أعتقد أنه قنفذ.

أومأت بيتي برأسها، وكأنها تتخلص من بقايا النوم أو كابوس ما. تحسست بيدها لتجد زجاجة كوكا كولا، فتحتها، وتناولت بضع رشفات، قبل أن تتمكن أخيرًا من تثبيت نظراتها إلى كين.

- وماذا سنفعل الآن؟

لم يحر كين جوابًا، وسحب فرملة اليد، ثم فتح الباب، وخرج دون إيقاف المحرك، ليصل إلى مقدمة السيارة ويقف أمام المخلوق القابع في منتصف الطريق. بدأ يتفحصه بعناية. ثم ركع على ركبة واحدة بعد دقيقة واحدة، ليتفحصه بدقة أكبر.

- هل هو قنفذ فعلًا؟ هتفت بيتي من السيارة.

واصل كين صمته، وعاد إلى عجلة القيادة لإيقاف المحرك، لكنه ترك المصابيح الأمامية مضاءة. فتح الخزانة الصغيرة، وسحب زوجًا من القفازات المطاطية. وضع قفازًا على يده اليمنى وعاد نحو المخلوق المستقر بلا حراك في منتصف الطريق.

غادرت بيتي السيارة بدورها، والتقطت بعض الأنفاس العميقة في مواجهة هواء الليل البارد، ثم لوحت بذراعيها كما لو كانت أجنحة تحتاج إلى التعود على الطيران من جديد. ثم اقتربت أيضًا من الكرة السوداء.

- هيه؟ ما الذي يفعله السيد قنفذ هنا؟

- إنه خائف.

- هل أنت خائف يا سيد قنفذ؟

- إنه خائف، بل وغاضب أيضًا.

- يمكننا دحرجته إلى جانب الطريق.

بيده المغطاة بالقفاز، دفع كين القنفذ مختبرًا ردة فعله. ارتعش القنفذ أكثر، وبدا أن كل هذا يزعجه بشكل ملحوظ. كما أشار إثر ذلك إلى المسار الذي سلكه وصولًا إلى ذلك المكان.

- إنه موسم التزاوج، قال كين. ولهذا فهو متوتر وخائف.

- آه، قالت بيتي. إذن فقد أزعجناك في موسم التزاوج يا سيد قنفذ. هل كان لديك موعد مع إحدى حبيباتك هنا، على قارعة الطريق؟

- لا أعتقد أنه يحب سماعنا ونحن نتحدث، غمغم كين.

- لكنني أكلمه بكل حنان، قدر الإمكان.

- هو لا يحب أصواتنا في جميع الأحوال...

استمتعت بيتي بالدوران على الأسفلت مثل راقصة باليه تؤدي حركات الإحماء قبل العرض. استندت إلى أخمص قدميها ووقفت أمام المصابيح الأمامية، كما لو كانت ترقص تحت الأضواء الكاشفة.

- ما أجمل أن تكون قادرًا على التنفس...

توقفت بيتي وقد ارتسمت الدهشة على محياها، مستطلعة السماء المليئة بالنقط المضيئة، كائنات غامضة تنبض بما يشبه الحمى، كما لو أنها تنقل رسائل بعضها إلى بعض.

- يا لها من ليلة! لا عجب في أن القنافذ ترغب في التزاوج.

نهض كين وتقدم بضع خطوات أمام المصابيح المضاءة. ليكتشف، على بعد أمتار قليلة من القنفذ الذي أجبره على الفرملة بشكل مفاجئ، كرات صغيرة أخرى ساكنة بلا حراك، وقد شلها الضوء. وعلى مسافة أبعد قليلًا، امتلأ الطريق بعشرات القنافذ الأخرى التائهة، التي جرت في كل الاتجاهات.

اقتربت بيتي من كين، ووضعت يدها على كتفه، ثم داعبت قفاه بلطف.

- إنها *حفلة* بلا شك. *حفلة* قنافذ.

عاد كين إلى السيارة باحثًا عن مصباح يَدوِي، بينما واصلت بيتي حوارها مع القنافذ.

- كيف انتهى بكم الحال إلى هنا؟ رتبتم للقاء، أليس كذلك؟ إلى أين أنتم ذاهبون هكذا؟ ماذا ستفعلون؟ هل تمارسون الحب ليلًا؟ نعم؟ لكن، أيها الأغبياء، لماذا فضلتم القيام بذلك في هذا الطريق؟

أطفأ كين المصابيح الأمامية، وعاد إلى بيتي، ووجهه متوهج بشدة بإضاءة المصباح اليدوي. اضطربت كل الكرات على الطريق بشكل محموم، وفي غضون بضع عشرات من الثواني، لم يتبقَّ منها سوى آثار لزجة شهدت على الرحلة الفوضوية للقنافذ.

- أعتقد أن في إمكاننا المغادرة الآن.

- لماذا لا توجد إشارات مرورية خاصة بوجود القنافذ؟ مثل: «انتباه، مرور القنافذ»؟

- لا أدري، رد كين.

- هذا ليس طبيعيًّا، واصلت بيتي. هناك إشارات للغزلان وسقوط الحجارة، أما للقنافذ فلا.

- سنطلب تركيب إشارات مرورية خاصة بمرور القنافذ.

- لم أكن أعلم بوجود قنافذ في الصحراء، علقت بيتي. هل كنت تعلم هذا؟

- الصحراء مكان حي، قال كين. لا سبب يمنعها من العيش في الصحراء أيضًا...

جلس كين خلف عجلة القيادة، وعادت بيتي إلى جواره، وقد شعرت قليلًا بالبرد. أدار كين المفتاح، فاحتج المحرك مصدرًا أصوات

غرغرة بدت أقرب إلى التوبيخ. حاول كين عدة مرات، نجح في بضعها، لكن المحرك سرعان ما يتوقف.

بدت مسحة قلق على وجه بيتي.

- لا يريد أن يعمل؟

انتظر كين بضع دقائق، ثم حاول من جديد، لكن الرسالة التي بعثتها أحشاء السيارة كانت حاسمة: لا. «لا» مصدرها اهتزاز عاجز، كما لو أن أجنحة مبتورة قد دارت بلا فائدة داخل أسطوانة.

- لا يريد، أكد كين.

ضاعف هذا الهدوء من قلق بيتي.

- إنها لعنة القنافذ، قالت.

غادر كين السيارة مرة أخرى، وتقدم ببطء نحو مقدمة السيارة، ورفع غطاء المحرك بتؤدة، ملقيًا نظرة خاطفة، بواسطة المصباح اليدوي، على الأمعاء المعدنية للسيارة.

- ماذا فعلت؟ تساءلت بيتي.

اعتبر كين أن سؤال بيتي لا يستحق عناء الرد. ظل منحنيًا فوق المحرك، ونزع بعض الكابلات المعدنية من مقابسها وتفحصها بعناية، مقارنًا أبعادها وأوزانها.

- ماذا هناك؟ أصرت بيتي التي تصاعد غضبها أكثر فأكثر.

بدت طريقة كين في إصلاح السيارة غريبة إلى حد ما. لم تبدُ أفعاله مناسبة، بل خيِّل إليها أن هذا الرجل لم يرفع غطاء محرك سيارة من قبل.

بدت السيارة أشبه بحيوان ضخم وثابت. حيوان بفم مفتوح واسع حيث يختفي نصف جسد كين. انتاب بيتي خوف مفاجئ، لم يكن سببه قضاء الليل وسط هذا المكان المقفر، بقدر ما كان فكرة أن هذا *الحيوان* قد يبتلع كين بالكامل.

- هل هناك عطل ما في السيارة؟ قالت بيتي، في محاولة لدفع كين إلى تقديم تفسير ما يطمئنها. بينما أمسك هو بالكرة.

- أجل، هناك عطل في المحرك.

- وماذا سنفعل؟

- لا شيء، سننتظر.

- ألن نشعر بالبرد؟

- كلا، لديَّ بطانيات في السيارة.

بعد خمس دقائق، اكتشفت بيتي، وهي ملتصقة بكين، أن الصحراء لم تكن صامتة على الإطلاق. فمن وقت إلى آخر، كانا يسمعان في الخارج أصوات صراخ متنوعة، بل وحتى سلسلة أصوات اصطدام، كما لو أن المنحدرات على وشك الانهيار.

- لمَ يصرخ الجميع في الخارج يا كين؟

- هذه ليست أصوات *صراخ*، بل غناء.

- من يغني؟

- الكثبان الرملية.

- هل تغني الكثبان الرملية هكذا؟

- أجل، الكثبان الرملية تغني هكذا.

- ولماذا تغني ليلًا؟

- لأن الحجارة تصطدم بعضها ببعض. قد تنكسر كتل كاملة، أو حجارة، صغيرة كانت أو كبيرة. ثم تتدحرج. من يعيشون على المنحدرات يعرفون ذلك جيدًا... ويخرجون كل صباح ليروا ما إذا تدحرجت حجارة جديدة خلال الليل.

- هل تتحرك الحجارة يا كين؟

- بالطبع تتحرك. كل ما عليك فعله هو تصوير جزء من حقل أحجار من نقطة ثابتة، ثم العودة بعد ستة أشهر لالتقاط الصورة نفسها. عند مقارنتها، ستدرك أنه لا يوجد شيء تقريبًا في المكان نفسه. الأرض متموجة، وكل هذه الأمواج قادرة على تحريك حجارة بحجم دلو، كما أن الصبار يدفع الحجارة ببروزه... ناهيك عن الصخور التي تتكسر أحيانًا، ما يعني أنه في الصورة الثانية، وبدلًا من الكتل التي قد يظن المرء أنها أبدية، سنرى مجموعات من الحجارة تعطي انطباعًا بأنها فرت في كل الاتجاهات...

شعرت بيتي بأمان أكبر وهي تستمع إلى كلام كين. لم تطرح على نفسها في أي وقت سؤالًا عمّا إذا كان الرجل الذي يحتضنها يكذب أو حتى يختلق كل هذه القصص.

- هل لديك فكرة عن المكان الذي نتواجد فيه الآن يا كين؟

- نعم.

- أين؟

- طريق مختصر، في مكان ما وسط طريق مختصر.

- ولماذا كان علينا أن نسلك طريقًا مختصرًا يا كين؟

- كان ذلك ضروريًّا مع حلول الظلام.

صمتت بيتي لبعض الوقت، لتحليل كل المعلومات التي قدمها كين بصوت هادئ جدًّا. ينضح كين بقدر هائل من الدفء، بالقدر نفسه عندما مارسا الحب في النزل الموجود على جانب الطريق. أعتقد أنني محظوظة، خاطبت بيتي نفسها. لقد صادفت رجلًا حنونًا. كانت هذه *المرة الأولى* مثيرة وجميلة في الآن نفسه. احتفظت بالفعل بذكريات رائعة عنها. إلا أن القصة اتخذت اتجاهًا غريبًا، يتوجب معه تأجيل تصنيفها ضمن فئة الذكريات الجميلة إلى وقت لاحق. لم تتذكر بيتي أي وقت نامت فيه إلى جانب كين الذي كان يقود السيارة. في أي اتجاه قرر الاثنان السير؟ كانت ترغب في سؤال كين عن كل هذا، أن تطلب منه إرجاع بكرة *الفيلم* قليلًا إلى الوراء، لكنها لم تجرؤ على ذلك. ولكن كين ذكر وجود كازينو ونزل في مكان ما بالقرب من محمية للهنود. شعرت بالانبهار عندما تحدث كين عن الهنود الذين يقدسون *كوكوبيلي*. ويرسمونه على الحجارة الصغيرة المسطحة أو على قطع الخشب أو حتى على قمصانهم. توقف كين على قارعة الطريق أيضًا لشراء ميدالية صغيرة، قطعة صغيرة من الخزف زينتها يد الهندي دون ارتعاش وبدقة رائعة، راسمًا شخصية أحدب يعزف على الناي.

- كين...

- نعم؟

- هل نحن عندهم، عند الكوكوبيلي؟

- أظن ذلك.

- لقد نسيت من هو كوكوبيلي.

- كان إلهًا، غضب من قومه.

- متى؟

- لا ندري. جرى هذا منذ وقت طويل.

- ولماذا غضب؟

- لأن قومه أكثروا صلواتهم ودعاءهم له.

- وماذا فعل بهم كوكوبيلي؟

- قضى عليهم جميعًا..

- أتقصد أنه قتلهم؟ لأنهم بالغوا في صلواتهم ودعائهم؟ أتجد هذا عادلًا يا كين؟ أتعتقد أنه من الصواب أن يبيد الإله شعبًا لأن أفراده بالغوا في صلواتهم ودعائهم؟

- لا أدري. في الواقع، وحده الإله من يقرر ما هو الصواب.

(٣٣)

إلى حين بلوغي سن الخمسين، لم أكن قد دونت أحلامي قط. عشت، وكافحت، وكتبت، وأحببت... نادرًا ما سمحت لنفسي بأن أنزعج بالأحلام والكوابيس وهذا العالم المختبئ في داخلي. قد يجذبني حلم ما، بين الحين والآخر، إما لأن شدته قد تسببت في إيقاظي، وإما لأنه أصر على ملاحقتي طوال اليوم، بعد استيقاظي. عادة ما كنت أنسى ما حلمت به على الفور. ومع ذلك، فمع مرور السنين، أدركت أن بعض أحلامي تتكرر. أو بمعنى آخر، مر بعضها من جديد، مثل المذنبات. وبعد ١٨٣٥٠ ليلة من النوم، تمكنت من تحديد العديد من الأحلام المبنية على مواضيع معينة (أو لنقل مواضيع محددة للأحلام).

كان الطيران أحد أكثر المواضيع المستمرة في أحلامي. قد لا أكون الشخص الوحيد الذي حلم بأنه يطير. لكن تكرار هذا الحلم صار مزعجًا بالنسبة إليَّ، خاصة مع تفاصيله المتكررة.

عندما أطير (في الأحلام)، أفعل ذلك بشكل غريزي، ودون سيطرة كاملة على حركاتي. ألقي بنفسي في أحضان الهواء وأتمكن عمومًا من الوصول إلى ارتفاع ملموس بسرعة كبيرة. لكن ما يحدث في كثير

من الأحيان أن تمارين الطيران هذه غير ذات أهمية، فأنا أطير على ارتفاع مترين أو ثلاثة أمتار فقط عن الأرض، ما يسبب إحباطًا، أشعر معه في واقع الأمر بالأسف على نفسي... ولكن هناك بعض اللحظات، التي يلازمها شكل من أشكال اللاوعي، الذي لا أعرف مصدره، فأرتفع عاليًا جدًّا، وأتمكن من التحليق فوق مناظر طبيعية مذهلة. فحلقت فوق مسقط رأسي، وفوق جميع أنواع التضاريس. لكنني لم أحلم قط بالطيران فوق المناظر الطبيعية بعد بلوغي السادسة أو السابعة عشرة من عمري. ظلت كل تمارين الطيران تقريبًا محصورة في محيط مسقط رأسي والمنزل الذي ولدت وعشت فيه حتى سن الثامنة عشرة... بدا أن هذا الفضاء هو الأكثر ملاءمة للطيران، خاصة الحديقة الطويلة خلف المنزل حيث توجد شجرة جوز قديمة ضخمة. كانت هذه شجرة طفولتي، وتراقبني دائمًا. ومنذ أن أبصرت النور، كانت هناك بالفعل، في انتظاري، بوصفها جزءًا من نظام تحديد الاتجاهات الخاص بي. هي شجرة الجوز التي تفاعلت معها لأنها بدت لي مخيفة إلى حد ما. كانت متفرعة وملتوية إلى درجة أنني لم أتمكن يومًا من تجاوز منتصف طولها. سجل عقلي الباطن هذا على أنه فشل بالتأكيد. أما الأطفال الآخرون في الحي، ممن كانوا أكثر مرونة، فقد تمكنوا، عندما جاءوا للعب في منزلنا، من الصعود إلى قمة الشجرة. بينما ظللت أنا مشلولًا أمام أغصانها الهائلة. وعندما حل الخريف وحان معه وقت قطف الجوز، عرض ثلاثة أو أربعة من أطفال الجيران خدماتهم، وتمكنوا من الوصول إلى أبعد الفروع. ظللت أنا في الأسفل، أرمق أصدقائي بحسد، وإن لم أتمكن من مجاراتهم.

ولكنني حلمت بطيراني فوق شجرة الجوز. ومثلما شكلت بالنسبة إليَّ رمزًا للإحباط، فقد احتلت موقعها كمطار حميم في أحلامي. وهكذا كانت تمارين الطيران التي أمارسها تبدأ دائمًا من قاعدة الجذع تقريبًا، وقد كان ضخمًا جدًّا إلى درجة أن ثلاثة أشخاص يمسكون بعضهم بأيدي بعض بالكاد يتمكنون من الإحاطة به. كانت هذه الحديقة الطويلة والمعشوشبة مثالية للانطلاق، وخلال كل هذه المحاولات، ساعدتني الطاقة الهادئة لهذه الشجرة في سعيي إلى الارتفاع في الهواء. لقد مكنتني شجرة الجوز من الطيران، هذا أكيد. ومنحتني دفعة هائلة، وغرست في نفسي نوعًا من الثقة بالنفس. فحلقت ما لا يحصى من المرات بهذه الطريقة، فوق شجرة الجوز، فوق الفناء، فوق المنزلين اللذين شكلا هندستي الشخصية (منزل عائلتي ومنزل أجدادي لأبي)، فوق حديقة خضراوات ضخمة، وبستان ضم أشجار التفاح والكمثرى والبرقوق والكرز... كانت هذه المدينة حيث ولدت، بمنازلها وحدائقها، ملائمة للطيران، فلا أسهل من التحليق فوق الحدائق...

احتفظت ذاكرتي من كل جلسات الطيران هذه بطعم النشوة، ولكن أيضًا بشعور عنوانه الارتجال. كما قلت، فقد حلقت لفترات طويلة دون أن أتمكن من إتقان فن الطيران. في كل مرة أتمكن فيها أخيرًا من الارتفاع إلى السماء والدوران في الهواء، ببعض السرعة وما يشبه الغوص في الأجواء، كنت أعلم أيضًا أنه لا شيء قطعي: سوف تظل قواعد الطيران مجهولة أو على الأقل غير واضحة بالنسبة إليَّ. كانت حصص الطيران هذه أشبه بهدايا قدمها إليَّ أحدهم (شجرة الجوز؟ الطفولة؟). لم أشترك

مطلقًا في دورة طيران، ولم أحصل أبدًا على ترخيص أو حق أو قدرة على استخدام وسيلة النقل هذه بالشكل الذي أراه مناسبًا. ظل الطيران بالنسبة إليَّ بمثابة هدية متقلبة، لأن رحلاتي، أكرر، لم تكن كلها ناجحة، بل على العكس. وقد راودتني هذه الأحلام، حيث لم أتمكن فيها من الارتفاع عن الأرض بسنتيمتر واحد، بينما كنت أركض ذهابًا وإيابًا أمام شجرة الجوز، شاعرًا بالثقل والعجز.

لهذا السبب، كنت أطرح على نفسي السؤال التالي: من هو *المتحكم في لوحة قيادة* رحلاتي الجوية؟ ولماذا لم يصل الأمر بهذا *الأحد* أبدًا، وعلى الإطلاق، إلى حد أن يعهد إليَّ بمفاتيح أو أسرار رحلة طيران ناجحة؟

انطلاقًا من هذه الذكريات والتأملات، قمت تدريجيًّا بتصميم نظرية للأحلام بما يسمح باستكشاف جملة من الإحباطات العميقة. لم يكن أي من أحلامي أبدًا، قصة ذات نهاية سعيدة. لقد عمل مؤلف سيناريوهات أحلامي طوال هذا الوقت بنوع من السخرية المفرطة. فبطريقة ما، ولمدة خمسين عامًا، كان هو جلادي. ومنذ اللحظة التي بدأت فيها كتابة بعض أحلامي، صرت أكثر وعيًا بالطبيعة الملتوية لمهمته.

في دفاتري المخصصة للمواجهات الليلية، بيني وبين جلادي، لا تظهر إلا الأحلام التي أدت إلى استيقاظ غير متوقع، أو تلك التي ظلت عالقة في ذهني طوال اليوم التالي. إن الأحلام التي تنقطع فجأة عند الاستيقاظ هي ضربة مزدوجة في الحقيقة. إذ يتم قطعها بشكل ممنهج، في اللحظة الأكثر قيمة، عندما يصبح التسامي ممكنًا...

سأقدم هنا مثالًا على ذلك:

كنت جالسًا في شرفة، وإلى جانبي إحدى حبيبات أيام شبابي. امرأة تقدمت في السن إلى حد ما، ولم أعد أشعر ناحيتها بالجاذبية التي كنت أشعر بها من قبل. كنا سنتناول العشاء معًا، فطلبت نوعًا من فخذ البط المخبوز. كانت القشرة مقرمشة، وربما كنت فقط جائعًا، بدأت في تناول الطعام فورًا، بينما أرادت حبيبتي السابقة أن تتحدث. فجأة أدركت أنني لم أطلب نبيذًا. أثارت القرمشة حماسة براعم التذوق في لساني، وشعرت بالحاجة إلى شرب كأس لمرافقة فخذ البطة. أحضر لي النادل بضع قطرات في ما يشبه الكأس، وطلب مني تذوقه لمعرفة ما إذا كان يناسبني. لكنني لم أستطِع الانتظار لرؤية النبيذ على الطاولة، وقلت: «نعم، لا بأس» دون تذوقه. غادر النادل على الفور لإحضار النبيذ، فشعرت بالندم على عدم تجربته، لأنني كنت سأستمتع حينها بشرب خلاصة النبيذ التي قدمها إليَّ. هنا، وأثناء تناول الطعام، اكتشفت أمرًا غريبًا، وهو أنه تحت القشرة الرقيقة للبيض والدقيق، والتي كانت لذيذة جدًّا أيضًا، لم تكن هناك أية قطعة لحم. تأخر النادل ومعه النبيذ. كانت حبيبتي السابقة تكلمني، دون أن أتمكن من سماعها بعد ذلك... وفجأة، شعرت بالذنب، لأنني لم أقم بدعوة زوجتي إلى هذا العشاء، فلا شيء لديَّ لأخفيه. لذلك أخرجت هاتفي المحمول واتصلت بها، وشرحت لها مع من كنت وأين، لكنها لم تبدُ مستعدة للانضمام إلينا. الغريب أنه لم يبقَ أحد في الشرفة، اختفى الجميع دون أن أدرك ذلك... وفي مكان آخر، كان نادل مختلف، غير الذي من المفترض أن يحضر إلينا النبيذ، يهز مفارش الموائد ويعيد

الكراسي إلى مكانها مرة أخرى. عندها أدركت أن النبيذ لن يصل... كان هذا وقت الإغلاق، نهضت حبيبتي السابقة وأخبرتني بأنها ذاهبة إلى الحمام. بقيت وحدي جالسًا إلى هذه الطاولة التي أشبه بحجر صغير وسط ساحة مرصوفة بالحصى. حل الظلام دون سابق إنذار. وبينما كنت أتصل بزوجتي، سحب مني طبق أرجل البط هكذا، ما زاد من تضخيم شعوري بالإحباط. تتابعت في ذهني عدة استنتاجات: ظللت جائعًا، ولم أشرب قطرة من النبيذ، ولم تكن زوجتي تنوي أن تأتي لتناول العشاء معي أنا وحبيبتي السابقة، كما لن تعود هذه الأخيرة لقضاء الأمسية معي... لا وجبة، ولا نبيذ، ولا زوجة، ولا حبيبة سابقة، لذلك شعرت -في حلمي- بالإحباط الشديد، والهجران والاشمئزاز من فكرة أن أحلامنا هي تعبير عن إحباطاتنا، فاستيقظت عندئذ.

أتمنى أن تكون لديكم الآن فكرة عن طريقة عمل الجلاد. لقد استغرق الأمر مني سنوات من المراقبة والتحليل للوصول إلى هذه الاستنتاجات. لا يتدخل الجلاد فورًا في الحلم، لكنه يراقبه منذ البداية. إنه يقف هناك، في الطبقات العميقة من كياننا، في مكان مثالي للمراقبة، مستمتعًا بالمتابعة الشاملة. عندما يسترخي جسدنا تمامًا، وفي اللحظة التي ينجرف فيها دماغنا بلطف نحو طريق قطع روابطه مع العالم، يظل الجلاد هناك، مستيقظًا. عندما تبدأ الصور في الانبثاق من كياننا المحلق، يبدأ هو، الجلاد، بفرض رقابته عليها. أجل، هذه هي وظيفته. أتخيله مزودًا بمقص كبير جدًّا، يقطع أجنحتنا في كل مرة يبدأ فيها عقلنا الباطن في بناء حلم ما. عادة، يجب أن يكون الحلم لحظة نشوة. فكل

ما فشلنا في تحقيقه في الواقع، يجب أن يتحقق عبر *الأحلام*. فما نفشل في التغلب عليه، ومعانقته، وحبه في الواقع، لا بد له من التحقق عبر أحلامنا. ما فشلنا في حله أو الحصول عليه أو اختراعه في الواقع ينبغي أن يحدث عبر *الأحلام*. والآن، ها هو، الجلاد، الرقيب، منح نفسه هذه المهمة: تعطيل الحلم وعرقلته. إنه يتمتع بسادية خفية، ويتدخل لتحويل الأحلام إلى فشل. مبادئه بسيطة: لا يجب أن يعثر الإنسان على سعادته في عالم الأحلام، ولا ينبغي أبدًا منح الإنسان القدرة على التحكم في حلمه.

بطريقة ما، الجلاد هو حارس الواقع. كيف ستكون حياتنا إذا كان لدينا الحق في أن نحلم بما نريد، وأن نقدر تمامًا إمكانيات الأحلام؟ ربما لن نرغب في العودة إلى الواقع بعد الآن، بل سنفضل الحلم على الحياة الحقيقية، وسيصبح بالتالي مخدرًا نتحول نحن إلى عبيد له طواعية. سيقوم الجلاد بوظيفة محددة، فهو جزء من آلية أساسية طورتها كل أشكال الحياة سعيًا إلى البقاء.

لا يعني هذا أن الجلاد لا يتجاوز واجباته. فهو لا يكتفي بقص أجنحتنا ومراقبة أحلامنا فحسب. كلا، إنه يحتقرنا، بل ويسمح لنفسه بإذلالنا. الحلم الذي وصفته أعلاه مثال واضح: لاحظتم كيف وصلت كل الخطوط السردية إلى طريق مسدود. يستمتع الجلاد بنا حقًّا، بل ويهدم بشكل ممنهج أي ميل نحو الحنين إلى الماضي.

سأقدم مثالًا آخر.

كنت قد عدت إلى مسقط رأسي، وبدأت أتجول في حي من المنازل والحدائق حيث كنت أعيش قبل أربعين عامًا، وحيث عاش أجدادي أيضًا. أردت أولًا إلقاء نظرة على منزلهم مرة أخرى. ووجدت الشارع الذي يؤدي إلى هناك، والممتد على طول النهر. لم أتعرف كل شيء، وفي لحظة ما، بلغ طريق سلكته أرضًا قاحلة مليئة بالنباتات البرية والشائكة. كان هناك سياج من الأسلاك يسد المدخل، ولافتة تشير إلى **منطقة عسكرية**. دُهشت، لأن الطريق الذي سلكته عدة مرات في طفولتي لم يعد صالحًا للعبور، ويصل الآن إلى *موقع محظور*. وبعد ثانية واحدة، وجدتني مرة أخرى في الشارع الذي أقطن فيه، حيث مست المنزل الذي ولدت فيه تحولات كاملة. لم يبقَ لديَّ أي شيء على الإطلاق أتذكر به سنواتي الأولى، باستثناء منزل مجاور، هو منزل السيد براغوفسكي، على الجانب الأيمن، لم يتغير هذا المنزل، وكنت أنوي الذهاب وطرق باب عائلة براغوفسكي لألقي عليهم التحية. كنت أعرف أن ماتيلد، ابنة أخت السيد براغوفسكي، تعيش هناك، فقلت في نفسي: «من المؤكد أنها ستكون سعيدة بزيارتي لها، آخر لقاء بيننا كان قبل ثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا على الأقل». لم أكن أدري إذا كنت سأتمكن من التعرف على ماتيلد، لكنني أردت رؤيتها، وسأطلب منها فقط أن تريني الحديقة والفناء، اللذين لم يتغيرا. لكن عندما دخلت منزلهم، أدركت أن زيارتي لم تكن في الوقت المناسب على الإطلاق، إذ تبين أنهم ينتظرون قدوم أشخاص آخرين في تلك اللحظة تحديدًا. بدا أن منزل براغوفسكي سيحتضن حفلة، أو مجرد لقاء بين أفراد الأسرة الذين لم يروا بعضهم

بعضًا منذ فترة طويلة. ونجوم هذه الحفلة هم خمسة إخوة توائم، وربما هم أبناء عمومة ماتيلد. في اللحظة المحددة التي دخلت فيها فناء عائلة براغوفسكي لأخبر ماتيلد برغبتي في زيارة الأماكن التي لم تطأها قدمي منذ عقود، ظهر الإخوة الخمسة. ثم، فجأة، سألني رجل، قد يكون زوج ماتيلد عن هويتي، وما إذا كنت فردًا من العائلة. شعرت بخيبة أمل عندما وجدت أن زيارتي لم تكن حدثت اليوم على الإطلاق، فانسحبت وعدت أدراجي مرة أخرى على الطريق المليء بالعشب الطويل والأشواك، والمؤدي إلى المنطقة العسكرية... كنت أحمل كيسًا بلاستيكيًّا يضم، لا أدري لماذا، ثلاث قبعات. كانت هناك قبعتي البيضاء، أما القبعتان المتبقيتان فلا أدري ما الذي أوجدهما هناك. بل إن إحداها كانت مضحكة، وبدت مثل قبعة واقية من الشمس تم ربطها إلى الجزء الخلفي من الرقبة بشرائط.

ربما شعرت بخيبة أمل مما كان يحدث لي، ولم أدرك أنني كنت أعبر الأسلاك الشائكة التي تحدد المنطقة العسكرية. حملتني ذكرى خطواتي تلقائيًّا، فقد عبرت هذا الطريق آلاف المرات في طفولتي، ولم أتقبل أن تعترض طريقي منطقة عسكرية، كان ذلك بمثابة تدنيس للمقدسات. لكن حلمي كان يهيئني للحظة أخرى لم تكن سارة أبدًا: ظهر أمامي ثلاثة جنود، طلب مني أحدهم أوراقي الثبوتية بأدب جم. أخبرته بأنني مواطن روماني مقيم في الخارج، وبالتحديد في فرنسا، وأنني أسير هنا لأنه كان الطريق المؤدي إلى منزل جدتي. تفحص الرجل جواز سفري بعناية، بينما انطلقت كل أنواع الإنذارات في رأسي. لم يكن من الطبيعي

أن يقترب أجنبي يحمل جواز سفر فرنسيًّا في منطقة عسكرية. سيبدو مريبًا أن أشهر جواز سفر فرنسيًّا، وفجأة شعرت بالخوف، وبالذنب، وأنه قد قُبض عليَّ *متلبسًا*. أما الأكثر إثارة للريبة، والشك اللامحدود، فهو أن أحمل معي ثلاث قبعات في كيس بلاستيكي، أو بالأحرى قبعتي وقبعتين مختلفتين، وقلت لنفسي: لا يمكن للجنود الثلاثة تفسير هذا إلا على أنه أمر مثير للريبة. وقد يكون تهديدًا خطيرًا. إن وضعي كأجنبي يدخل منطقة عسكرية لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تعميق الشكوك، وقد وجدت نفسي بكل بساطة في وضع معقد جدًّا. لكن الجندي الذي تفحص جواز سفري أعاده إليَّ، وأخبرني بأن الوضع لم يعد ضمن نطاق اختصاصه بأي حال من الأحوال. وقال لي أعلاهم رتبة: «سيُعرض هذا على أنظار اليونسكو وقد يستغرق ذلك شهرين».

استيقظت مباشرة بعد هذه الجملة، وبينما شرعت في كتابة هذه السطور القليلة، لم أمنع نفسي من أن ألعن كل الأحلام. الأحلام ليست سوى حيوانات، وحوش تعيش في لاوعينا، في أعمق طبقات كياننا، تلك الأماكن التي لا يمكننا بلوغها إلا بمساعدة الأحلام، التي ليست سوى تعبير عن إحباطاتنا.

الحلم ٣

كنت أقود سيارتي عائدًا، لا أعرف من أين، لكنني كنت متجهًا إلى المنزل، وذلك في النصف الثاني من اليوم. لم أكن أقود السيارة، كانت زوجتي خلف عجلة القيادة، وابنتنا البالغة من العمر ستة عشر عامًا

تجلس على المقعد الخلفي. وكما هو الحال دائمًا عندما أتولى دور مساعد السائق، شعرت بنوع من التوتر، وكنت أتابع قيادة زوجتي عن كثب، ما يعني أنني أراقب ذهنيًّا كل المنعطفات، وأسرع وأفرمل، وأشاركها اتخاذ القرارات، دون أن أحرك ساكنًا. لم يكن الظلام قد حل بعد، وربما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر. عند نقطة معينة وصلنا أمام دوار لم يكن بعيدًا عن المنزل، وهو مكان مألوف جدًّا. أربعة أو خمسة شوارع تتفرع من هذا الدوار، وللدخول إلى شارعنا كان علينا أن نلتف حوله بالكامل تقريبًا. وفجأة، اكتشفت أن هناك حفلة تقام هناك، حيث يؤدي عدد من الراقصين إحدى الرقصات الشعبية، كما لو كانوا ينتظرون رئيسًا أو شخصية سياسية. ولم تقم الشرطة، رغم تواجدها، بإغلاق مدخل الميدان أو حتى إيقاف حركة المرور، لذلك اندفعت زوجتي، بحذر، وأيضًا بشيء من الاستسلام اللاواعي، بين الراقصين. لا أدري لماذا لم أستطِع ثنيها عن فعل ذلك (كيف *سنواصل السير* بين هذه المجموعات من الراقصين؟) ولكن الأوان كان قد فات، وحاولت زوجتي الانعطاف يسارًا بينهم، ومرت السيارة، لا يفصلها عنهم سوى بضع ملليمترات. عندها ظهر أول رجال شرطة، متفاجئين بامتلاكنا شجاعة دخول هذه الساحة (هل كانوا ينتظرون وصول رئيسنا إلى هناك؟). أشاروا إلينا بإيقاف السيارة وتسليم أوراقنا. فتحت زوجتي الباب وغادرت، دون أن تضغط على فرامل اليد، وهو ما فعلته عندما شعرت أن السيارة واصلت تقدمها ملليمترًا بعد ملليمتر. غادرت أيضًا، بينما واصل الراقصون عرضهم. اقتربت من شرطيين أو ثلاثة، لأخبرهم بأنني صحفي، بينما كنت أبحث عن بطاقتي في محفظتي بشكل محموم. لم أجدها على الفور، أخرجت

شيئًا آخر، ثم بطاقة الضمان الاجتماعي... وأخيرًا، باستخدام بطاقتي الصحفية، حاولت تلطيف الأجواء، بالنظر إلى أن وجودنا بين الراقصين بدا تصرفًا ذا دلالة شديدة الخطورة. حاولت زوجتي أن تشرح لهم أنه لم توجد حواجز تمنع الدخول، وأنها لم تتجاهل أية إشارات على الطريق. أراد أحدهم، وهي شرطية في الواقع، أن تعرف الشارع الذي نبحث عنه وفي أي اتجاه نسير. شرحت لها أنا وزوجتي أنه لم يبقَ أمامنا سوى بضعة أمتار... وفي الوقت نفسه، بينما كان الراقصون يتحركون ويقومون بإيماءات غير متوقعة، بدت إمكانية استئناف السير صعبة جدًّا. خطر في ذهني بعد ذلك اقتراح دفع السيارة إلى الخلف لإخراجها من الدوار، لأننا ما زلنا في المركز تمامًا، وقد أصبح العرض الذي يقدمه الراقصون بلا معنى مع وجود سيارة تقطعت بها السبل هناك. لم أتمكن من صياغة اقتراحي بصوت عالٍ. في هذه الأثناء، كانت الشرطة قد وضعت حواجز برتقالية في كل مكان عند مدخل الساحة، ولو كنا قدنا السيارة لاصطدمنا بها أو كان علينا أن نطلب من الشرطة أن تتكرم بإزاحة إحداها.

استيقظت عندما بلغ الحلم هذه الوضعية اليائسة، ففكرت على الفور في الجلاد، وخيل إليَّ أنني أسمع ضحكاته القابعة في مكان ما في جمجمتي. كل ما حلمت به كان مجرد مزحة، وهو يسلي نفسه بإجباري على الغرق في رمال متحركة. كان هذا أيضًا ما شعرت به في حلمي، غرق بطيء لكنه مؤكد، حيث أصبحت كل إيماءة أو حركة جديدة بمثابة صعوبة إضافية في التشبث بيدي وقدمي بما يسحبني أكثر فأكثر نحو القاع.

وهذا حلم آخر، منظم بمكر على مستويين مختلفين، ومرتبط بعالم القطارات. بل سأقول إنه حلم متسلسل مع افتتاحية. واتخذت *الافتتاحية* شكل مكالمة هاتفية عبثية من امرأة. قالت لي بنبرة اتهام: «اعلم أن التدريب الذي سيبدأ ابن صديقك كارياتيد في بايون أصعب بكثير مما تتخيل». أنا من رشحت لكارياتيد، صاحب متجر أدوات مكتبية حيث كنت أشتري الورق بانتظام، هذا التدريب للابن. واصلت المرأة تقديم معلومات عن الدورة، موضحة أنها ستعقد أيضًا في معارض (أو حتى مناجم)، قبل أن تعرض فجأة القدوم للقائي للتعرف عليَّ وتسليمي الصور والوثائق الخاصة بمراحل الإقامة... كانت المرأة على متن قطار سيدخل المحطة في مدينة ر، مسقط رأسي، شمال رومانيا.

هنا يبدأ التسلسل الفعلي الأول للحلم، ذلك المشهد الذي أركض فيه مسرعًا إلى المحطة. كان لدى المرأة الوقت لإخباري، وأنا لا أزال على الهاتف، بأنه لن يكون من الصعب التعرف عليها، لأنها كانت تمشي باستخدام عكازين (ربما لأنها تلف كاحلها بجبيرة). انتقلت صور الحلم في لمح البصر إلى رصيف محطة ر. حيث رأيت السيدة الغامضة على الفور. لوحت بعكازيها عند النافذة الأولى للعربة الأولى للقطار الذي كان يدخل المحطة فورًا (لم أعد أعرف ما إذا كانت تسحبه قاطرة بخارية). نزلت المرأة (الممتلئة إلى حد ما) لتعطيني المستندات، لكن، في المشهد التالي، وجدت نفسي في القطار مع والدي وأجدادي وخالاتي وأختي وإخوتي الأكبر سنًّا. كانت العائلة بأكملها، حوالي خمسة عشر فردًا، تستعد للمغادرة من

أجل هذا التدريب في بايون. كان هناك أيضًا ركاب آخرون أعرفهم على متن القطار، كلهم يحملون حقائب وطرودًا، وينتظرون المغادرة. بدا كما لو أن مدرسة بأكملها (مع المعلمين والطلاب) تستعد للقيام بهذه الرحلة. أما أنا، فلم أكن مستعدًّا ولم أكن أحمل حقيبة سفر (عكس كل أفراد عائلتي وباقي المسافرين)، ما جعلني أشعر بالذنب. ومع ذلك فقد تجرأت على سؤال والدي عمَّا إذا كان ينبغي عليَّ المغادرة فورًا إلى بايون، أو اللحاق بهم بعد بضعة أيام، فأجاب والدي بهدوء: «لا مشكلة، يمكنك أن تأتي غدًا أو بعد غد». أشعرني ذلك بالارتياح، فنزلت من القطار، وأغلقت أبواب العربة ثم تحرك القطار. لكن إحساس الذنب واصل نهش أعماقي، حيث لَمَّحت لوالدي أنني سأواصل «العمل» بشكل مكثف خلال هذين اليومين، بينما كان ما أردته هو الذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم من بطولة هاريسون فورد ...

استيقظت يغمرني ذلك الشعور القوي بالذنب، مع غضب عارم من الجلاد، قررت ألا أنسى الحلم وأكتبه لاحقًا، لكن بما إن الساعة لم تكن قد تجاوزت الخامسة صباحًا، فقد عدت إلى النوم.

ثم بدأ الجزء الثاني من الحلم المتسلسل. رأيت نفسي مرة أخرى في المحطة نفسها، ولكن هذه المرة مع ابنتي الصغيرة، البالغة من العمر خمس أو ست سنوات فقط. يبدو أنها كانت ذاهبة إلى مخيم صيفي، لأنها كانت تحمل حقيبة ظهر صغيرة، وحولنا أطفال آخرون يتحركون بنشاط. كنا قد وصلنا إلى المحطة في وقت سابق، وهمِّي الرئيسي هو اصطحابها إلى القطار ومساعدتها على الجلوس بشكل صحيح على المقعد، بالقرب من

النافذة. وصل القطار إلى الرصيف نفسه، كما في الجزء السابق، ثم حدث تدافع أمام العربة التي كان من المقرر أن نصعد إليها، وأغلقت الأبواب قبل أن نتمكن من الصعود على متنها. أصابتني نوبة ذعر مفاجئة، لأن ابنتي بقيت على مسند العربة، ملتصقة بالباب، ومن المستحيل إبقاؤها هناك، لا يمكن لطفلة أن تسافر لمسافات طويلة في مثل هذه الظروف... بدأت أركض كرجل يائس على طول القطار، وأصرخ على من في داخله لإطلاق ناقوس الخطر... أخيرًا تباطأت سرعة القطار قليلًا، فحملت ابنتي واحتضنتها، وبقينا في الرصيف بينما كان القطار يبتعد. ولا داعي إلى الإشارة إلى أن العودة إلى أرض الواقع كانت أكثر عنفًا، وكان قلبي ممتلئًا بالمرارة. مكتبة سُر مَن قرأ

يمكنكم ملاحظة الطريقة التي اشتغل بها الجلاد هنا: لقد أعاد إليَّ ابنتي في نهاية المطاف، ولكنه لم يسمح لي بالتحرك بحرية، ولم أستطِع وضع ابنتي في القطار بأمان، لذا فهي نهاية سعيدة زائفة. بطريقة خفية إلى حد ما، حط الجلاد من قيمتي أمام ابنتي. وفي الثواني الأخيرة من الحلم، غمر عقلي شعور كبير بالانزعاج. شعرت بمدى سخافتي، فعلى الرغم من وصولي إلى المحطة في الوقت المحدد، لم أتمكن من إنجاز ما يفعله الملايين كل يوم، بمساعدة أحدهم على صعود القطار.

أكتب كل هذا لأنني، بعد سنوات من تحليل أحلامي، قررت أن أفعل كل ما هو ممكن للاتصال بالجلاد.

الواقع أنني، أكتب كل هذا لك *يا سيدي الجلاد*. أنا أكتب حتى تدرك أن أمرك قد انكشف. أكتب لكي تعرف أنه لم يعد في إمكانك

الاختباء، مني أنا على الأقل. اعتبر *يا سيدي الجلاد* أن الحقيقة قد ظهرت، وأن البشرية جمعاء ستتمكن من الوصول إليها. نعم، *يا سيدي الجلاد*، لا أريد تهديدك، لكن اعلم أن ثورة جديدة تلوح في الأفق. لن يكون الوحي الذي حصلت عليه بلا عواقب. فالمرحلة القادمة للبشرية هي ثورة الأحلام. سنزيلك من أعماق كياننا، ومن السبل التي تشكل معبرنا إلى عالم الأحلام.

سنقطع رأسك، وسنبني علاقة اجتماعية جديدة بين الحياة والأحلام.

(٣٤)

أنا ميت منذ ثلاث سنوات. ولست أكذب هنا، لقد ظللت مستلقيًا في هذه الشقة منذ ثلاث سنوات، أنتظر أن يكتشفني أحد، أن يقلق أحد الجيران، أو أحد الموظفين، بشأن اختفائي. أو بتعبير أدق، بشأن حقيقة أنني لم أصدر أية علامة على بقائي على قيد الحياة، منذ ستة وثلاثين شهرًا.

ولكن لا يبدو أن هذا قد أثار اضطراب أحد. يُدفع معاش تقاعدي تلقائيًّا إلى حسابي المصرفي، ويتم خصم الإيجار تلقائيًّا أيضًا. وبنفس الطريقة، تؤخذ مصاريف الكهرباء والغاز وكذلك الضريبة السمعية البصرية من حسابي. ولأنني لم أتلقَّ أكثر من عشر رسائل سنويًّا، لم يكن صندوق البريد الخاص بي ممتلئًا. إن هذا المبنى الضخم من الشقق الصغيرة المخصصة للأفراد والعاطلين عن العمل والمجرمين السابقين ممن يجتازون مرحلة إعادة الإدماج وغيرهم ممن يواجهون صعوبات جمة، لا يجذب حقًّا أولئك الذين يوزعون المنشورات الإعلانية. ليس لدينا حارس، لذلك لم يلاحظ أحد وجود رسائل أكثر من المعتاد في صندوق البريد الخاص بي. وبما إنه يجري استبدال سعاة البريد الذين

يخدمون في المنطقة كل ستة أو اثني عشر شهرًا، لم ينزعج أحد منهم عندما رأى كومة صغيرة من الأوراق المتراكمة هناك.

لقد مت منذ ثلاث سنوات، وأنا مستلقٍ في المطبخ، ورأسي على الطاولة. وذلك عندما أصابني ارتجاج دماغي، فلم تكن معاناتي كبيرة. لم يسقط رأسي حتى على الطبق، حيث كنت على وشك تقشير تفاحة. تدحرجت التفاحة نحو منتصف الطاولة، وانتهى الأمر بالسكين على الأرض. ومنذ ذلك الحين، نقر الحمام التفاحة بأكملها، ولسبب غريب، لم يلمسني أنا. من المحتمل أن الحمام والعصافير لا تقتات على أجساد البشر، سواء كانت خاملة أو ميتة، وحدها الغربان والنسور التي تنغمس في مثل هذه الملذات.

دخل الحمام عبر النافذة التي تركتها مفتوحة في الحمام. والحقيقة هي أنه حول شقتي إلى ما يشبه العش، أو برج حمام حقيقيًّا. كما يتجمع أحيانًا في مجموعات مكونة من خمسين أو ثمانين وقد يصل عدده إلى مئة. أعيش مع الحمام منذ ثلاث سنوات، أتابع مجيئه وذهابه، وخلافاته على أفضل مكان، وألعابه الغرامية. طوال هذا الوقت، نظَّم الحمام نفسه في منزلي بطريقة دقيقة جدًّا، حيث أنشأ مكانًا للنوم وآخر للحضانة وتعليم الصغار... بحسب ما فهمت، فقد قام حتى بحجز مساحة للحمام المريض أو الضعيف.

كان أول الداخلين حمام زاجل رائع بذيل ضخم على شكل مروحة. طائر ذكي وفضولي بعينين بيضاوين كبيرتين ورموش مزدوجة. في البداية جلس على حافة النافذة المفتوحة وانتظر لفترة طويلة. ثم سمعته يقوم

بجولة استطلاعية أولى إلى الحمام. أعتقد أنه هبط عدة مرات على حافة الحوض ثم على الدش. من المحتمل أن الطائر كان يتحرك ذهابًا وإيابًا بين عتبة النافذة والحوض والدش، عشرين أو ثلاثين مرة. ثم كانت له شجاعة دخول الغرفة. لم ينسَ للحظة واحدة الطريق الذي سلكه، ولم يصطدم بالبلاط كما فعلت بعض العصافير الغبية.

ثم كانت عملية الاستطلاع هذه مفيدة لكل رفاقه. منحت هذه الحمامة الأولى اسمًا يبدو سبب اختياره واضحًا: فضولي. يعجبني هذا الاسم، فضولي، وأعتقد أنه يحبه أيضًا. عندما اقترب مني لأول مرة، اعتقدت أنه سيهبط على كتفي أو على رأسي. لكنه لم يفعل، مفضلًا استكشاف المطبخ بعناية، والجلوس على الخزانة الجانبية ثم على حافة الموقد. لم يكن فضولي في عجلة من أمره، بل انتظر طويلًا ليرى ما إذا كنت أنوي الاستيقاظ، أو التحرك، أو ربما مغادرة المكان... لم يلمس فضولي التفاحة على الفور، بل فضل العودة إلى غرفة المعيشة، ثم الحمَّام، فالمغادرة، ربما ليثبت لنفسه أنه مسيطر على الوضع، وأنه يستطيع القيام بهذه الرحلة مرارًا وتكرارًا من داخل الشقة إلى خارجها، ثم العودة بحرية. أعتقد أن الأمر استغرق من فضولي نصف يوم لإنجاز هذا الاستطلاع الاستكشافي: الحمام والغرفة والمطبخ، وبعد أن تعرَّف تمامًا على المكان، استقر فوق الطاولة ليأكل التفاحة...

تبعه الحمام الآخر بسرعة كبيرة، في نوع من الفوضى التي بدت محببة إليَّ. أصبحت هذه النافذة الصغيرة المفتوحة في الطابق الثامن من المبنى الذي توجد أمامه خمس أشجار كستناء قديمة، مكان اللعب

اليومي للمخلوقات المجنحة في هذا الحي. وخلال السنوات الثلاث التي أمضيتها في المطبخ، تلقيت زيارات مما لا يقل عن عشرين نوعًا من الطيور. الحقيقة الغريبة هي أن الحمام هو الذي أعلن نفسه سيد مكان إقامتي منذ البداية، مصرًّا على فرز باقي الزوار بعناية. فالغربان، على سبيل المثال، لم تتمكن قط من الدخول. كما منحت العصافير هذا الإذن الخاص (دون أن يتجاوز عددها خمسة أو ستة في كل مرة)، بالإضافة إلى عدد قليل من طيور السنونو، والقيق، والزرزور، والعقعق، وعدد أقل من طيور الوقواق والشحرور. أعتقد أنني تبينت أيضًا، خلال كل هذه السنوات، وجود بعض طيور السمان ومثلها من الكناري التي هربت ربما من أقفاصها في شقة لا يعرفها أحد. حلقت بعض الطيور الكبيرة أمام النافذة، لكنها لم تغامر بالدخول إلى الحمام. كان هذا هو الحال بالنسبة إلى العديد من طيور القطرس وحتى البوم. وفي فصل الشتاء الماضي، حاولت مجموعة صغيرة من الخفافيش الإقامة في الحمّام، لكن الحمام لم يوافق. استمرت الحرب بين الخفافيش والحمام ثلاثة أيام، وكانت صاخبة جدًّا إلى درجة أنني تمنيت أن يشعر جيراني في الطابق العلوي بالقلق من جلبة الأجنحة وأصوات الطيور المتصارعة. ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد اعتاد الناس اليوم على ضجيج المدن، وأصبح الضجيج جزءًا من حياتهم اليومية. فهدير حركة المرور، وعواء صفارات الإنذار والأجراس والأبواق المختلفة، واهتزازات كل أنواع آلات حفر الأسفلت، والإشارات كلها تشكل نوعًا من البيئة الصوتية الطبيعية، ونحن نعيش في هذا الحوض الضخم مثل الأسماك الصماء التي لم تعد تتفاعل مع أي شيء، ولم تعد تقلق بشأن أي شيء.

كيف كان من الممكن بالنسبة إلى جيراني على اليمين، وهم عائلة سنغالية لديها طفلان، ألا يسمعوا قط ضربات الأجنحة وهديل الحمام؟ كيف لم تجذب انتباههم تلك الضربات والاهتزازات والارتطام إثر سقوط عبوات السكر أو الدقيق أو الفاصوليا البيضاء، التي دفعها الحمام، من فوق رفوف المطبخ؟ أو عندما هاجم حبات القهوة وحرك العبوة في كل الاتجاهات لساعات، إلى أن تمكن من ثقبها وتمزيقها إلى أشلاء... بأي إصرار بحثت كل هذه المخلوقات الجائعة في سلة مهملاتي، وقرصتها بمناقيرها وتمكنت من قلبها أخيرًا لتتغذى على قشور البطاطس وبعض الحزم القليلة الممتلئة بالزيوت والصلصات. أدت علبة كرتونية في داخلها ربع قطعة بيتزا إلى نشوب معركة حقيقية بين الطيور المتحمسة التي أصبحت متوحشة بشكل لا يصدق. ولكن لا يبدو أن أحدًا في المبنى قد سمع شيئًا، أو ربما بدا ما سمعوه وكأنه جزء طبيعي من الضجيج الحضري الكبير في المدينة، أو ربما صادرًا عن جهاز تلفزيون بصوت عالٍ جدًا.

بعد مرور ثلاثة أشهر على استيلاء الطيور على شقتي، تمنيت أن تصبح رائحة هذه الحظيرة مزعجة بدرجة كافية لتنبيه مستأجري الطابق العلوي، أو الآخرين ممن تواجه نوافذ شققهم الجانب نفسه من نافذة حمامي. سيطرت رائحة كريهة على الأجواء، مزيج من روائح فضلات الطيور، وريشها المفقود، والغبار المتراكم على الأثاث والسجاد، وبقايا القمامة التي لم تلتهمها الطيور، وأنا. لا بد لي من القول إن الموت منحني هذه الهدية: بدلًا من أن أتعفن، صرت مثل حبة تين، فذبلت ببطء،

وصرت محنطًا. ربما كان هيكل عظامي متوافقًا مع هذه الظاهرة، وبما إنني كنت نحيفًا وطويلًا، بأربعة وخمسين كيلوجرامًا ومترًا واثنين وثمانين سنتيمترًا، فربما كان ذلك عاملًا مساعدًا. لم يتحلل لحمي الصغير، المحبوس في جلد مروي بكمية قليلة من الدم... بالإضافة إلى ذلك، وفي الأيام التي تلت وفاتي، كان الجو باردًا جدًّا وبدأت الغرف تبرد، ثم وصل التيار الهوائي البارد إلى الحمام، ومر من غرفة إلى أخرى وصولًا إلى المطبخ. ما ساهم في تحنيطي بسرعة. وكما قلت، فحتى الطيور لم تشعر بالحاجة إلى نقري... مع استثناء واحد: حمامة غبية ذات بقع سوداء في رقبتها، وحويصلة منتفخة ومنقار على شكل مسمار، استقر المنقار خلف رقبتي وكافح بضع ثوانٍ لتمزيق ثؤلول جاف أحمله منذ طفولتي. ولكن سرعان ما تم طرد آكل لحوم البشر هذا من قبل حمامات أخرى أكثر ذكاءً، وبعد ذلك لم تحاول أي طيور أخرى مهاجمتي. ومع ذلك، كان لديَّ تفسير آخر لهذه الظاهرة: لقد ظنتني الطيور فزاعة. نعم، كنت طويلًا ونحيفًا، وأنا أتكئ على الطاولة ويداي ملقاتان، كنت أبدو بالتأكيد مثل الفزاعة. وكثيرًا ما تمايلت يداي قليلًا بفعل التيارات الهوائية التي سببتها الطيور خلال تناحرها، ما حولني أكثر إلى جسم من القش لا يسعى إلا إلى إخافتها...

خلال ثلاث سنوات، دق خمسة أشخاص جرس باب منزلي. ساعي البريد ثلاث مرات، لا ليحضر لي برقية أو رسالة بالبريد المسجل. فقد جاء قبل أعياد الميلاد بقليل ليطلب من الجميع إكرامية مقابل الخدمات المقدمة للمستأجرين طوال العام. وبطبيعة الحال، قليلون هم أولئك

الذين يفتحون الباب في بنايتنا لتقديم «هدايا صغيرة» خاصة بأعياد الميلاد، لذلك لم يكن هناك داعٍ إلى القلق عندما ظل باب منزلي مغلقًا أيضًا. أما باقي المحاولات للاتصال بي فمن غير المرجح أن تثير أي شعور بالقلق لدى من دقوا جرس الباب: في المرة الأولى كان بائع سجاد، وفي الثانية أحد المكلفين بإجراء نوع من الإحصاء السكاني. دق بائع السجاد خمس مرات ثم واصل طريقه إلى أبواب جيراني في الطابق الثامن. أما موظف الإحصاء فدق الجرس أربع مرات، ثم وضع علامة على خانة في لائحة ما بحوزته، غالبًا أمام اسمي، ثم غادر، مقتنعًا تمامًا بأنه قد أدى واجبه.

خلال ثلاث سنوات، رن الهاتف ثماني مرات. تعلق الأمر في ثلاثٍ بباعة عرضوا عليَّ اشتراكات أكثر فائدة من اشتراكي، وفي مرة واحدة كان ذلك رقمًا خاطئًا، ولم يترك الأربعة الآخرون أية رسالة.

كما أن تكاسل موظفي البنك أمر لا يصدق. لم يلاحظ أحد أنني لم أعد أستخدم بطاقتي الائتمانية في المتاجر وأنني لم أعد أسحب النقود من أجهزة الصراف الآلي. إلى متى ستتمكن الدولة من دفع معاش تقاعدي دون التحقق مما إذا كنت على قيد الحياة أم لا؟ لم يكن لدى الخباز الذي كنت أشتري منه الكرواسان والخبز الفرنسي لسنوات أي سبب للقلق بشأن اختفاء عميل متحفظ مثلي. حتى لو كنت أتبادل معه بضع كلمات في كل مرة أدخل فيها المخبز (مثل: «مرحبًا، يبدو الطقس جميلًا اليوم»، «مرحبًا، تبدو السماء ملبدة بالغيوم اليوم»، «مرحبًا، يوم آخر من أيام موجة الحر»، وما إلى ذلك...)، فإن هذا لم يخلق بيننا أي نوع من الألفة،

ولم أخبره أبدًا باسمي أو المكان الذي أعيش فيه أيضًا. ربما انتبه زملائي في نادي الشطرنج إلى غيابي الطويل... وغالبًا ما كان تعليقهم في النهاية، مثل ما يقوله الجميع في ظروف مماثلة: «لقد غادر الحي دون أن يكلف نفسه عناء توديعنا..».

لكنني لا أريد إلقاء اللوم على ما حدث لي خلال السنوات الثلاث الماضية على المجتمع. لقد كنت دائمًا شخصًا جامحًا إلى حد ما، ولم أتفق مع أي شخص في عائلتي، وماتوا جميعهم تقريبًا قبلي. أما بالنسبة إلى اثنين أو ثلاثة من أبناء أخي الذين صادفتهم بضع مرات خلال الثلاثين عامًا الماضية، فلم يكن لديهم أي سبب للإبقاء على أي نوع من التواصل معي.

في الوقت الذي كنت أنتظر فيه أن يجدني شخص ما أخيرًا، تمكنت من الاتصال بموتى منسيين آخرين في المدينة. لم تكن حالتي معزولة، وكان هذا الاكتشاف مذهلًا. في الأول من يناير من العام الماضي، تحدثت مع أم مدمنة على الكحول، كانت ميتة منذ ثلاثة أيام وتركت هكذا في شقتها بينما كان طفلها البالغ من العمر أربع سنوات ينظر إليها وهو يصرخ في سريره. ولحسن الحظ أنه كان يبكي بشدة إلى درجة أثارت انتباه الجيران. في أغسطس، كانت سيدة عجوز ماتت منذ أسبوع محظوظة بوجود قطتها. فالحيوان المسكين، الذي جن جنونه من الجوع، ظل مضطربًا جدًا عند النافذة، وقام بتمزيق الستائر وخدش البلاط، ما أدى في النهاية إلى جذب انتباه المارة... تحدثت أيضًا مع رجل، شاب، لم يبلغ حتى الأربعين من عمره، يرقد في حفرة المصعد منذ أسبوع. روى لي كيف سقط من علو اثني عشر طابقًا قبل أن يموت بفعل قوة

الاصطدام. لم يفهم كيف فتح الباب دون وجود حجرة المصعد هناك، وهو ينتظر الآن مراجعة الصيانة القادمة لاكتشاف أمره.

فيما يخصني أنا، فإن الحمام هو فرصتي الكبرى. آمل أن يكون هناك الكثير منه، حتى يبدو إصرارها على التجمع مريبًا. لم تعد هناك بالفعل مساحة في الداخل. شكل الحمام مجموعات: على السرير، على الطاولة المحاذية للسرير، على التلفاز وعلى الأريكتين في غرفة المعيشة، على الكراسي الثلاثة الفارغة في المطبخ (الرابع أشغله أنا)، على الطاولة، على حوض المجلي، على الخزانات والمصابيح... تفضل هذه المخلوقات دائمًا الحواف أو الزوايا أو القضبان أو الأسلاك، بدلًا من المساحات المسطحة. الأماكن الأكثر إثارة للمشاحنات بينها هي ظهر الكراسي، البيانو، أرفف المكتبة، الساعة، قضيب الستارة في غرفة المعيشة، حامل المعاطف في المدخل، أغطية المصابيح... عندما بدأت الطيور تتقاتل على أرفف المكتبة، شعرت بسعادة بالغة، لأن هذه الأجنحة المرفرفة تسببت في سقوط كل المقتنيات الزجاجية والخزفية وكسرها، تمامًا مثل كل الأشياء التي تراكمت على مر السنين: تذكارات السفر والأقنعة والصور المؤطرة والتماثيل والزجاجات والساعات... حتى أصوات سقوط كل هذه الأشياء لم تثِر فضول سكان المبنى. يتقاتل الحمام بين الحين والآخر، يحاول أحد الدخلاء العثور على مكان له بين المجموعات، فيسقط ألبومًا آخر أو كتابًا... لكن جيراني يظلون هكذا دون أي تفاعل، آذانهم عمياء وأعينهم صماء. حتى عندما سقط المصباح الكبير في غرفة المعيشة لأن الحمام أصبح ثقيلًا جدًّا على غطاء المصباح، لم يثِر ذلك خوف أحد، رغم أن الاصطدام كان فظيعًا،

وتهشم المصباح تمامًا. حتى عندما تبللت الستائر، إثر انسكاب محتوى بعض الزجاجات، لم يكن لذلك أي تأثير على الإطلاق. وكم تمنيت أن يحدث ماس كهربائي، خاصة مع بقاء النور مضاء في المدخل... عاد الأمل قبل يومين، عندما حاول وافد جديد مندفع ملون برأس بيضاوي ومنقار مقوس قليلًا أن يجد له مكانًا في المطبخ... لكن الحمام، المصطف أو الملتف في مجموعات المساند والأرفف والمغسلة، على الثلاجة والغسالة، على الكراسي وعلى الأرض، دفعه بعيدًا... مع ذلك، رصدت الوافد الجديد إمكانية دمج نفسه في المجموعة عن طريق الترانزستور، وهو طراز قديم مجهز بأزرار صغيرة لكل أنواع الموجات: متوسطة وقصيرة وفائقة القصر... في نهاية المطاف، لم يكن الطائر الأزرق الصغير محظوظًا، ومع موجة غضب وترقب، تابعت الطيور التي طردته، ولكن لم يتم ذلك دون اشتباك، إلى أن دفعته حركاته غير المنتظمة إلى الضغط بأحد مخالبه على زر الموجة القصيرة. غريب! لقد تمكن من تشغيل الراديو الذي يعمل الآن بصوت عالٍ. شكرًا لك يا طائر الحمام العزيز! لو كان في وسعي لأطعمتك الذرة الممتازة كل يوم. يا لها من متعة أن أستمع الآن إلى الأخبار أربعًا وعشرين ساعة يوميًا. لا أدري كيف كان ذلك ممكنًا، لكن ربما أثناء الاشتباك، تحرك الزر الذي يحدد طول الموجات، وها هو الراديو يغمرنا بالأخبار والتعليقات. نشرة مفصلة على رأس الساعة، وكل نصف ساعة، وموجز للأنباء كل ربع ساعة...

كان الصوت مرتفعًا جدًّا إلى درجة أثارت توتر الحمام. غادر بعضه الشقة بينما ابتعد البعض عن المذياع. من المؤكد أن كل هذه الثرثرة تحمل

شيئًا ما عدوانيًّا بالنسبة إليهم، خاصة مع الفواصل الإعلانية والفقرات الموسيقية التي لم تكن رتيبة. أنا متأكد من إمكانية سماع المذياع في كل أرجاء الطابق السفلي أوعلى الأقل في الشقة أسفل. أنتظر ردة فعل قريبة من الجيران، أن يتصلوا بالشرطة، أن يقدموا شكوى، أن يطالبوا بطردي... طرق أحدهم على الحائط مرارًا وتكرارًا، وسمعت شخصًا في أحد الطوابق السفلية يضرب شبكة التهوية بقطعة معدنية.

أفتقد صوتًا واحدًا فقط وسط كل هذا الضجيج: ساعتي القديمة التي توقفت، وربما نفدت بطارياتها. لم أعد أسمع دقاتها التي رافقتني طوال هذه السنوات، وكأنها عوضت نبضات قلبي. توقفت الساعة مشيرة إلى الساعة ٦:٣٧.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٣٥)

مثلما تبدأ الأبجدية بحرف الألف
تبدأ الآنسة ري بالشفتين

على شفتيها الممتلئتين بالصمت المؤسس
والقادرتين على رسم رموز غامضة في الكون
سبق وأن كُتبت بعض المعاهدات غير المكتملة، التي سأتجنب عرض
بعض مقتطفاتها

أحاول كتابة هذه القصيدة لشفتيها
سأكتبها فقط لتقبيل شفتيها

احذري، يا آنستي، لا تخلطي بين هذه القصيدة
وقصيدة النهدين
قصيدة النهدين التي سأكتبها غدًا

أما قصائد الكتفين والركبتين
فبالكاد تولد من ذكرى ليلة غرامنا الأخيرة
(تذكرينها، عندما تطارحنا الغرام في فراش القنافذ)

لا تخشي شيئًا، يا آنستي، فقصيدة الشفتين
سهلة الاستخدام
فهي تقبل شفتيك عند قراءتها
ولا شيء آخر تحمله في جيناتها
وليس لها الحق، بأي حال من الأحوال، في النزول أسفل الشفتين
وليس لها الحق أيضًا في دس كلمات شهوانية في أذنك
(لن تتوفر القصيدة الخاصة بالأذن إلا في الأسبوع المقبل)

تقبلك قصيدة الشفتين في شفتيك طويلا
دون عضك، أو سحق شفتيك
هي قصيدة سائلة وخفيفة مثل مطر من كلمات
اسمحي لها بتقبيلك، وذلك بقراءتها بصوت هامس
أمر واحد فقط في إمكانه مفاجأتك، ولذلك فأنا أحذرك
قد تطول مدة القبلة بما يفوق وقت
قراءة القصيدة

(٣٦)

- لماذا تبكين يا آنسة ري؟

- علمت بوقوع أمر فظيع.

في كل مرة تعلم فيها الآنسة ري بوقوع أمر *فظيع*، فهذا يعني توقع لحظة أخرى من الصدق والسذاجة. لأن الآنسة ري تصبح ساذجة أحيانًا، وبشكل مثير للقلق، إذ تفقد فجأة إشارات بوصلتها الموجهة، بل وحتى ميلها إلى الوضوح، لتحول إلى هاوية من الذهول والأسئلة والقلق. قد تتجلى دوراتها الساذجة لمدة نصف يوم وقد تستمر لعدة أيام متتالية.

- ما هو الأمر *الفظيع* إلى درجة إيقاظي مرة أخرى في الثالثة صباحًا يا آنسة ري؟

- نعم، اعذرني أرجوك، علينا اتخاذ قراربأقصى سرعة...

- حسنًا يا آنسة ري، كلي آذان صاغية. تمخطي، وتوقفي عن البكاء، لا تسمحي لدموعك بالتساقط على منامتي ووسادتي وملاءتي ولحافي، حتى لا أقول عليَّ أنا، استجمعي قواك وأخبريني بما عرفته.

- علمت أن كل قصص الحب تنتهي بشكل سيئ.

بماذا يمكنني أن أجيب الآنسة ري في مثل هذه الحالة؟ عمومًا، حافظت على هدوئي وقمت بدوري في المواساة، وإن كان ما قالته لي في نوبة الذعر والسذاجة هذه قد أرعبني قليلًا أيضًا.

- من قال لك إن كل قصص الحب تنتهي بشكل سيئ يا آنسة ري؟

يبدو بكاء الآنسة ري، وشهيقها، وظهور تعبير مخيف على محياها، وهي تحاول أن تثبت لي (بنهديها العاريين) أن الإنسانية في خطر، أشبه بلوحة لطالما سعيت لالتقاطها، ووصفها، ورسمها، دون أن ينجح هذا التمرين في جعل كثافتها واقعية تمامًا. يمكنكم تخيل طبيعة المشهد.

الثالثة صباحًا. أنا -متعب، بل ومنهك. هي- طرية في حزنها. عندما تحدثني الآنسة ري، لا أتساءل عن إمكانية وجودها بالقرب مني في الثالثة صباحًا، في سريري، وقد افترقنا في الشارع، قبل أن يعود كل منا إلى منزله. بل عن سبب عدم حاجتها إلى النوم. كيف يداهمها الاكتئاب في الثالثة صباحًا، ولكن دون أية علامة تدل على التعب، كما لو أنها غير مهتمة بالنوم، أو أنها لا تنتمي إلى الصنف البشري، الخاضع للالتزام الفسيولوجي بالنوم ثماني ساعات كل ليلة.

لكنني لا أملك الوقت الكافي للإجابة على هذه الأسئلة، ففي نوبات سذاجتها، تصبح الآنسة ري أكثر هيمنة.

- هذا مكتوب بشكل واضح في رسالة قرأتها. (متى؟ بالله عليك، متى قرأت هذه الرسالة عن قصص الحب وشؤونه؟) نعم، قرأت رسالة مطولة ومكتوبة بعناية وتفصيل حول كيفية حدوث هذه

الأمور. (لا، أنت كاذبة أيضًا، ولست مجرد ساذجة يا آنسة ري. لا وجود لمثل هذه الرسالة.) وكتب فيها ألا وجود لاستثناءات. تنتهي كل قصص الحب بطريقة رهيبة، بالصراخ ونوبات الغيرة، دون أن يولد الضجر وحتى الكراهية. أحدهما، إن لم يكن كلاهما في الوقت نفسه، يسأم من الآخر ومن المنطقي أن ينتهي هذا بالانفصال. (ما هذا! وهل تصدقين ما يقوله العلماء؟) نعم، نعم، أنا أصدق ذلك، وحتى بيغبيديه يقول إن الحب لا يدوم إلا ثلاث سنوات. لقد أثبت علميًّا أن الشعور بالحب لا يمكن أن يستمر أكثر من سنة، سنة ونصف، أو سنتين كحد أقصى، وربما سنتين وستة أشهر، لأن الكيمياء الداخلية هكذا. إذ تنفد *المنشطات*. (هذا جيد يا آنسة ري، ولكن ماذا تريدين مني أن أفعل الآن، في الثالثة صباحًا، بالإضافة إلى مسح دموعك والتمخط بقوة في مناديلي الورقية؟) لا أدري، لكن هذا ليس عدلًا، إنها لعنة، أشعر فجأة بالفراغ، وأعتقد أنه من الأفضل أن نتوقف عن رؤية بعضنا بعضًا. فلنوقف كل شيء بيننا الآن، بدلًا من الاستمرار، إلى حين قدوم اللحظة التي...

سأتوقف عند وصفي لهذه اللحظة، سأتوقف لأنكم تشعرون أيضًا بعجزي عن نقل كثافتها. يستحيل أن أصف ما يحدث على وجه الآنسة ري وأن أستحضر كلماتها، وصوتها المرتجف، في الوقت نفسه، وأن أقول بأية لفتة من الإثارة الشهوانية اللذيذة تمتنع عن مسح الدمعة عن خدها، بل تتركها تسقط أو تسمح لي بتذوقها. مشكلة النثر الكبرى تكمن في

خطيته، وعدم قدرة الكلمات على التقاط كل شيء *في آن واحد*. ولهذا السبب، سيخسر الأدب عاجلًا أو آجلًا معركته ضد الصورة.

- كما أنك تسخر من كل هذا.

عندما تبلغ الآنسة ري هذه العبارة، أعلم أن أصبعها ستشير إليَّ، يجب على شخص ما أن يدفع ثمن هذا الانحراف الهائل، وهذا الظلم الساحق الذي يؤثر في تطور كل قصص الحب. ومن سيدفع هذا الثمن؟ أنا.

- آنسة ري، أقسم لك إنني لست غير مبالٍ بما تقولينه، بل إن هذه الكارثة الميتافيزيقية تهزني، لكنني أبذل قصارى جهدي لتجنب إظهار ذلك. أنا مرعوب ولا أدري ماذا سأفعل.
- حقًّا؟

- أجل، أنا مرعوب.

عندما تسمع أنني مرعوب، لا تتمالك الآنسة ري نفسها، وتكافئني بقبلة طويلة جدًّا وكبيرة جدًّا، تمر فيها، مع كل النسمات الحارقة ومع عطر شفتيها، خمس أو ست دموع مالحة قليلًا أو بالأحرى خمسة أو ستة تيارات من الدموع...

- يسعدني أن أعرف أن كل هذا يحمل معنى بالنسبة إليك.

أجل، هذا يحمل معنى بالنسبة إليَّ. كيف لا؟ نهاية قصة حب مهمة جدًّا، بقدر أهمية البداية. نهاية الرواية لا تقل أهمية عن بدايتها، فلا بد للجملة الأخيرة من الرواية أن تكون دمعة تبقى على خد القارئ إلى الأبد.

صفعتني الآنسة ري بلطف، دون أن تقول كلمة واحدة. «يكفيك هذيانًا!»، هذا هو معنى الصفعة الخفيفة. علاوة على ذلك، فعندما تصفعني الآنسة ري، لا تستخدم ضمير المخاطب بصيغة الجمع، فهذه هي اللحظات الوحيدة التي تستخدم فيها ضمير المخاطب بصيغة المفرد، وتخاطبني بـ: *أنت*.

(٣٧)

عزيزي الكاتب،

لا أستطيع دخول مقهى كوادري دون أن يتردد صدى موسيقى فاغنر في أعمق نقطة في رأسي. علاوة على ذلك، جاء فاغنر بنفسه إلى هنا للاستماع إلى المسيرة الإمبراطورية أو المرثية المستوية. أشعر بأن ستندال وبروست وهنري جيمس واللورد بايرون وألكسندر دوماس قريبون جدًّا مني هنا. أي مبدع عظيم هذا الذي لم ينهل من البندقية، ولم يأتِ ليضيع في أزقتها، ويتجول في أنحائها، ويشارك في غرقها الطويل والأبدي، في حفل الوداع هذا الذي يعزفه عالم الفنون والآداب على مذبح مدينة البندقية...؟ يستحيل بالنسبة إليَّ ألا آتي إلى البندقية مرة واحدة على الأقل في السنة، بينما أصطحب معي في السنوات الأخيرة، وبشكل منهجي، كتابًا من تأليف ريجيس دوبريه[1] بعنوان: ضد البندقية. عمل ممتاز يرسم فيه السيد دوبريه صورة شخصية خالدة «أحمق البندقية».

---

(١) ريجيس دوبريه (١٩٤٠-): فيلسوف وصحفي فرنسي، اشتهر بعلاقاته بتشي غيفارا والرئيس التشيلي السابق سلفادور ألليندي، حيث قبض عليه في بوليفيا بعد مصرع غيفارا، وغادر تشيلي بعد الانقلاب الذي نفذه أوغستو بينوشيه. (المترجم)

ففي الحقيقة، كلنا حمقى عندما نذهب إلى البندقية. بغض النظر عن ثقافتنا، وبراعتنا، وموهبتنا، وفننا، نتحول في البندقية إلى ممثلين ثانويين، وظلال مهلوسة تتمشى هنا وهناك بلا هدف... يتأسف دوبريه بشكل خاص لأن البندقية أصبحت مدينة بدون أهلها، وبذلك فهو يفضل نابولي. صحيح أن أبناء نابولي مرئيون، ربما أكثر من اللازم، فهم محتشدون في الشوارع، والمقاهي، والأسواق، فهم مستحوذون، كثر، لا يقهرون، ثرثارون، مضطربون، يفيضون بالحياة أكثر من أي مجتمع إنساني آخر... في نابولي يجعل السائح من نفسه صغيرًا أمام أبناء نابولي، ويبقى ممثلًا للأقلية في كل الظروف. في حين أن البندقية، المدينة المكونة من مجموعة من السياح، ليست مدينة حقيقية، فهي ليست مدينة تعيش فيها، بل بالأحرى مدينة طقوس، رحلة حج تتجاوز حدود الخيال... أجد كتاب السيد دوبريه مميزًا، لكن هذا لا يمنعني من تفضيل البندقية وعدم المعاناة، إذا ما ذهبت إلى نابولي مرة واحدة فقط كل عشر سنوات. أما البندقية، فأذهب إليها، كما قلت، مرة واحدة على الأقل في السنة، وعندما أكون في ساحة سانت مارك، لا أقاوم رغبة شرب الكابتشينو في فلوريان أولًا ثم في كوادري بعد ذلك. أضف إلى ذلك أن كل مقهى يواجه الآخر، في تنافس يحفزني... قال بلزاك، لا أذكر في أية رواية، أن فلوريان أكثر من مجرد مقهى، إنه «بورصة، مسرح، غرفة مطالعة، نادٍ، كرسي اعتراف...». ولكن أي انحطاط هذا اليوم... لا أريد أن ينظر إليَّ باعتباري من كبار علماء الانحطاط، ولكن يتعين علينا أن ندرك أن أوروبا لا تسير في الاتجاه الصحيح. هناك علامات لا لبس فيها. لقد ظل مقهى فلوريان مفتوحًا طوال قرن كامل بلا انقطاع... أجل، كان

مقهى مفتوحًا أربعة وعشرين ساعة في اليوم. في عام ١٨٤٢، قال راؤول توبفر، الذي كتب جملًا رفيعة المستوى عن البندقية، إن فلوريان يبقى مفتوحًا طوال الليل. واليوم؟ تغلق كل المقاهي في ساحة سانت مارك في ١١ مساء، خلال فصل الشتاء! ليس منتصف الليل... بل ١١ مساء! في الصيف يتفضلون بالبقاء حتى منتصف الليل... كيف لا نتحدث عن الانحطاط في هذه الظروف... كم عدد المقاهي المفتوحة طوال الليل اليوم في أوروبا؟ إذا كنت في حاجة إلى الخروج في باريس في الساعة الثالثة صباحًا لشرب كأس من النبيذ الأحمر والتحدث مع شخص ما، فكم عدد المقاهي التي تتوقع أن تجدها مفتوحة؟ بطبيعة الحال، يوجد مقهى غراند كافي كابوسين، وقد تجد أيضًا مقهى ساحة سانت ميشيل، وهناك مقهى آخر بالقرب من سالباتريير...

سأتوقف هنا مع أنني أعلم جيدًا أنك من أشد المعجبين بفن التجوال. أردت أن أحدثك أصلًا عن بعض الجمل الأولى في روايات أحدث، تنتمي إلى الجيل الأخير من الروائيين العظماء. على سبيل المثال الفرنسية ماري داريوسيك[١]. «أعلم حجم المتاعب والقلق الذي ستسببه هذه القصة، وإلى أي مدى ستزعج البعض». ما رأيك؟ هكذا تبدأ روايتها الأولى، ونجاحها الأكبر، الرواية القصيرة حقائق بديهية. بارعة في افتقارها إلى التواضع، أليس كذلك؟ يا لها من جملة مؤسسة، يخيل إليك أنك سمعتها قادمة من شرفة. يا لها من جملة مسرحية، وافتتاحية واضحة للمناجاة والاعتراف، ويا لها من إنذار رائع لإثارة التشويق!

---

(١) ماري داريوسيك (١٩٦٩-): كاتبة وروائية ومحللة نفسية فرنسية. (المترجم)

خذ عندك كارلوس رويز زافون مثلًا. «ما زلت أذكر ذلك الصباح الباكر ـ عندما صحبني والدي لزيارة مقبرة الكتب المنسية لأول مرة». أعتقد أنك قرأت نجاحه العظيم الأول، ظل الريح. كيف يمكن لهذه الجملة الأولى ألا تحرم القارئ من تأثيرها، مع ما تتضمنه من وعد برحلة غير عادية؟ هيا، تعالَ معي لنكتشف مكانًا سحريًّا اسمه «مقبرة الكتب المنسية» هذا ما يقوله المؤلف حقيقة...

أما فيما يتعلق بك، فمما عاينته حتى الآن، يبدو لي أننا سنحتاج جملة تحتوي على بعض الإمكانات الميتافيزيقية على طريقة المايونيز. يؤسفني أن تكون طريقتي في خلق المفاهيم مخيبة لآمالك. لكنني أعتقد بصدق أنك في حاجة إلى بداية رواية تفتح الطريق لالتقاط شامل وكامل لكل هذه الفوضى.

هناك أشخاص لا يمكنهم العيش إلا في حالة من الفوضى، ما يعني أنه من خلال علاقتهم بالأشياء يخلقون نظامًا يخصهم وحدهم. أتخيل أن الغرفة التي تعمل فيها مليئة بالكتب والمجلات والصحف والمنشورات الإعلانية والملاحظات والرسومات والبطاقات وأكوام من المخطوطات والرسائل، باختصار، عشرات ومئات وآلاف الأشياء القيمة إلى حد ما، ولكنها تحشد الحاضر في فوضى طبيعية ومثالية. أعتقد أنك، من الناحية الهيكلية، رجل فوضوي. في كثير من الأحيان، تكون الكلمات القديمة، تلك التي ننساها أو نتخلى عنها بازدراء في سلة المهملات اللغوية، مليئة بالسحر والدلالات الدقيقة. بالنسبة إليّ، لكلمة فوضوي تأثير بصري وحسي هائل، فهي عميقة ومنشطة للذاكرة. الرجل الفوضوي هو

الذي يفشل في ترتيب مشاعره أو طموحاته أو علمه أو قناعاته، بل وحتى ردود أفعاله وأيضه. إنه نشيط ولكنه غير فعال، رجل يتقدم في السن ولكنه لا يزال يرتدي حذاء طفل، ويشعر بكل شيء أكثر من أقرانه، ولكنه يتواصل أقل، وهو رجل صبور مع التفاصيل ومتلهف للأساسيات. لا يخشى الإنسان الفوضوي الحقيقي الفراغ (كما هو الشأن مع الطبيعة الأم) بل الكون، أي كل ما هو منظم. ما يغذي الرجل الفوضوي هو الفوضى. يقدر الفنان العميق هذا الخصم، أي الفوضى. أما في مواجهة عالم منظم، فلا يجد ما يفعله أو يضيفه، يمكنه فقط أن يكون نشيطًا حقًّا في تلك العوالم حيث لا تزال هناك أشياء للقيام بها، ويمكن تبرير الفوضى وحجم الجهد الإبداعي. ولهذا أؤمن بهؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في فوضى صغيرة، في حالة دائمة من الفوضى (العقلية والثقافية والعاطفية)، من يخصصون للفوضى حيزًا في حياتهم اليومية، بل ثانية بثانية، بما في ذلك أثناء نومهم. أؤمن أيضًا بالأسلوب الفوضوي لأنه وحده يمكن أن يجلب لنا، في هذا العالم حيث تم اختراع كل شيء، بعض الأكسجين، وبعض التجديد...

مع فائق تقديري،

غي كورتوا

(٣٨)

لا أدري كيف أناديه. لن تكون مناداته بـ«الأحمق» سيئة إلى هذا الحد. إنه الأحمق خاصتي. منذ أن أصبحت حياته وأحلامه عالمي الوحيد، صار الأحمق خاصتي مفردًا، وأصبح بالتالي «الأحمق».

أعتني به أربعًا وعشرين ساعة يوميًّا. كل أفكاره، ورغباته عارية على طاولة عملي. المادة التي خصصت لي كعقاب. عمره بالتالي هو مقياس المطهر خاصتي. لا أعرف كم من الوقت سيعيشه «الأحمق». وإلى حين وفاته، سأكون مضطرًّا إلى العناية به. سيتعين عليَّ تصميم أحلامه وإخراجها. وسأحاول أن أنقل إليه، عبر قصص مبتكرة، الرسالة العظيمة التي أصبحت حارسًا لها.

ليس من الضروري أن أتخيل له حلمًا كل ليلة. تعادل حصتي حوالي حلمين أو ثلاثة أحلام تقريبًا كل أسبوع. وأنا راضٍ على هذا الوضع. سيكون حلم واحد متماسك كالليلة أكثر من اللازم. بل وقد يصبح الأمر مشبوهًا.. القاعدة الأولى في عملي هي صياغة إيقاع عشوائي. لا يجب على الأحمق أن يكون متأكدًا من أحلامه. ولا ينبغي له الذهاب إلى السرير قائلًا لنفسه: «هذه الليلة، ومن جديد، سأحلم بشيء جميل». أو

«هذه الليلة، ومن جديد، سيكون حلمي متماسكًا». لا ينبغي *للمعني* (لا أريد الإفراط في استخدام كلمة *الأحمق*) أن *يضع الشروط* عند ذهابه إلى السرير. ما ينبغي عليه معرفته هو أن الأحلام تأتي متى أرادت وكيفما أرادت، دون التزام بأي نوع من القواعد، دون أي إجبار من جانب اللاوعي.

للأحلام التي أعدها للمعني طول وكثافة متنوعة. فهناك أولًا فئة *الأحلام المفتتة*، وهي الأحلام *المجزأة*. يتلقى المعني *ومضات* من ذاكرته الخاصة، من تواصله السطحي مع العالم، من علاقاته الخاصة مع الأشياء والأشخاص الذين يفضلهم. تشبه هذه الأحلام زخات الشهب، وهي الأكثر شيوعًا. سوف يحلم المعني بسلاسل قصيرة جدًّا، ولن تحتفظ ذاكرته بأي شيء تقريبًا من كل هذه الصور والأحاسيس. تم تكييف *زخات الفتات* هذه خصِّيصى مع دورة النوم الأولى. أوصى الحارس العظيم بأن نقدم *زخات الفتات* يوميًّا. باعتبار ذلك، بشكل ما، الحق الطبيعي الوحيد، والحق الأكيد في الحياة. وبدون *زخات الفتات* هذه، ستضمر الطبقات العميقة من الدماغ، وسيموت المعني في غضون شهرين فقط...

الفئة الثانية هي الأحلام المستمرة ولكن غير الضرورية. هذه هي أحلام ما يسمى بفئة الترفيه. إذ ليست لها أية حمولة ميتافيزيقية، ولا تحتوي على رسالة منطقية متماسكة. هذه أحلام استرخاء، أحلام *كابحة للصدمات*... عندما يتذكرها المعني، لا يشعر بأي ذنب أو اضطراب.

«في الليلة الماضية، حلمت بأمي».

«في الليلة الماضية، حلمت أنني ما زلت في المدرسة».

«في الليلة الماضية، حلمت أنني ذهبت إلى شاطئ البحر».

«في الليلة الماضية، حلمت أنني أطير».

هذا ما يتبقى تقريبًا من الأحلام *الكابحة للصدمات*. مواقف غير ملغزة، إجابات دون أسئلة. وهي الأكثر تكرارًا أيضًا. بهذه الطريقة نخلق *للمعني* ما يشبه حوضًا من الصور، حالة طبيعية غامضة وحالمة. إذا لم يحلم بأي شيء طوال ستة أشهر، فإن المعني سيشعر بالقلق، وسيعتبر نفسه مريضًا أو غير طبيعي. مع أحلام الملء، سيعلن عن رضاه، وأن شعور تواصله مع نظيره المزدوج قد تحقق إلى حد ما.

الفئة الثالثة هي *الأحلام السيناريوهات*، الأحلام السردية. هذه الأحلام هي حقًا من ابتكاري، وأنا أصممها وفقًا للبقايا الخيالية للمعني، مع احترام معيار النسبية الحلمية.

هذه هي الأحلام التي سيتذكرها المعني، والتي سيكتبها في نهاية المطاف... على أية حال، سوف ينبهر بها، ويفكر فيها، سيخبر من حوله عنها، وسيبحث على الأغلب عن معناها. في بعض الأحيان، ستزعجه هذه الأحلام السردية، ويظنها إنذارًا. إنها أحلام منظمة، لها منطقها الخاص، وإن بدا تسلسل الأحداث المتلاحقة عبثيًا.

إن مبدأ النسبية في موضوع صياغة الأحلام هو في الواقع الرسالة الرئيسية التي ننقلها نحن إلى المعنيين. لكن *الحمقى* لا يسألون أنفسهم أبدًا عمّا يمكن أن يكون درس الحياة المستخلص من هذه الأحلام.

يمتد مؤشر نسبية حلم ما على نطاق واسع جدًّا، يتراوح بين واحد إلى مئة. مؤشر النسبية المنخفض هو علامة على حدث طبيعي تقريبًا، ولكنه انحرف في اللحظة الأخيرة. يرى المعني نفسه، مثلًا، محاطًا بأشخاص يجعلهم يضحكون ويشعرون بالارتياح؛ إنه مركز الاهتمام، يقود الحديث ويجذب اهتمام وإعجاب الجميع، هو الأكثر ذكاءً، إلا أنه، وبينما يستمتع بهذا الوضع المركزي، يزعجه اضطراب جسدي أو فسيولوجي (الحاجة الملحة إلى التبول مثلًا).

بالنسبة *إلى الأحمق* خاصتي، تخيلت حتى الآن خمس مئة واثنين وثلاثين حلمًا سرديًّا يحمل كل من هذه الأحلام دلالات نسبية، تتلاءم ومقياس النسبية كله، من واحد إلى مئة، ولكن بطريقة عشوائية تمامًا. وبتعبير أدق، يمكن أن يتبع حلمًا ذا دلالة نسبية منخفضة، حلم آخر ذو مؤشر مرتفع جدًّا... اثنان إلى جانب ثلاثة وتسعين آخرين، أو خمسون إلى جوار واحد وخمسين، وهكذا دواليك... وقد تتبع سلسلة الأحلام التي يظل فيها العنصر المعرقل ضعيفًا، سلاسل يتعرض خلالها *الأحمق* لأقصى درجات الإذلال. وبما إن المعني غير قادر، بأي حال من الأحوال، على إنشاء تقويم للأحلام، وبالتالي متابعة حدتها، فإنه سيظل دومًا عاجزًا أمامها، وستتناوب لحظات الرضا والانزعاج. بالنسبة إلى بعض الأحلام، سيكون الانزعاج الفعلي هو *الاستيقاظ*.

هذا مثال:

تمكن المعني فورًا من إغواء امرأة جذابة، يقودها إلى غرفته، يداعبها، ويقبلها، وبينما يستعد لتذوق طعم المتعة القصوى... يستيقظ.

أعترف أن الإخصاء عن طريق الاستيقاظ أسلوب وحشي إلى حد ما. بل إنني أشفق أحيانًا على المعني، عندما أراه يتألم لاستيقاظه. أو عندما يحاول العودة إلى النوم وربط الاتصال من جديد بخيط الحلم، وهو أمر مستحيل عمليًّا. يحظر الحارس العظيم ذلك بشكل قاطع، فالرأفة ليست جزءًا من قواعد لعبتنا.

على الرغم من أن الأحلام دائمًا ما تكون متقلبة، ولا يمكن التنبؤ بها، ونسبية، ومخصية، ومخيبة للآمال بشكل منهجي، فإن الأشخاص يعتبرونها مساحة أو ملجأ. وليس من قبيل الصدفة أن كلمة الحلم في جميع لغات الأرض تعني أيضًا «الأمل» أو «اليوتوبيا». شخصيًّا، ومنذ أن أصبحت *جلادًا*، صرت أفكر جديًّا في أن أقترح على الحارس العظيم نوعًا من الإصلاح: القمع الكامل للأحلام. من وجهة نظري، فهذه النوافذ الزائفة الممنوحة *للإبداع* البشري لا تؤدي سوى إلى الإزعاج والخداع والتشجيع على الازدواجية... بسبب الأحلام، يؤمن البشر بوجود عالم موازٍ. بالإضافة إلى ذلك، فإنهم، مع قناعتهم بوجود هذا المستوى، لا يبذلون جهدًا كافيًا لتحسين العالم الحقيقي. عندما نقارن بين الأحلام والواقع، يبدوان غير متكافئين. الحلم دائمًا رائع، والواقع هو تعبير عن الألم. وفي المقارنة بين الحلم والواقع، يفوز الحلم دائمًا.

إن القضاء على فكرة الأحلام والحذف التام على مرحلة الحلم من شأنه أن يبسط الأمور على البشر، وإلى حد كبير. كل ما سيبقى هو البعد العملي، والالتزام بالنجاح... أتذكر مثال الفاتح بيزارو، الذي يقال عنه إنه عندما وصل إلى سواحل أمريكا الوسطى، أحرق كل سفنه لإلزام

رجاله بالتخلي عن فكرة العودة وتحفيز أنفسهم لغزو العالم الجديد. إذا أحرق الرجال أحلامهم، فسيجدون أنفسهم في الوضع نفسه، والمتمثل في التغلب على الواقع بأكمله، دون الاحتماء بأي ملجأ، وقبل كل شيء، دون السماح لأنفسهم بالتراجع خطوات إلى الوراء.

أعلم أن الحارس العظيم غير موافق على ذلك، لكن إصلاح الكائن سيكون ضروريًّا في هذه المرحلة من التجربة الإنسانية. أفكر أحيانًا في الأحمق خاصتي، الذي يضيع كثيرًا من وقته في التفكير في الأحلام. يحاول كل صباح تذكر أجزاء من أحلامه الليلية، ويكتبها أحيانًا. حتى أنه يتخيل قدرته على الاتصال بي، والتأثير في قراراتي المتعلقة بأحلامه. في مذكراته، يعتبرني جلاده، ما يدفعني إلى الضحك، وإن كان يخيفني أيضًا. لا أستبعد أن يكون الأحمق خاصتي أول مثال للتمرد في صفوف الجنس البشري. أتساءل أحيانًا ما إذا كان الحمقى يجهزون بشكل ما لثورة عفوية، تمرد ضد الطريقة التي يتم بها تصور أحلامهم وإنتاجها... أنا متأكد من أنهم سيرغبون، ذات يوم، في أن يكون لهم رأي في هذا الموضوع. ربما سيستخدمون تقنيات طبية مختلفة لهذا الغرض. لقد تقدمت الأبحاث حول طريقة عمل الدماغ بشكل هائل، وذات يوم سيكتشفون أيضًا المنطقة اللاشعورية التي نعمل فيها...

(٣٩)

اعتاد العجوز برنارد على تركي في المكتبة، وحدي (أو مع الآنسة ري). كان يختفي، كما يمكن أن أقول، بشكل طبيعي، دون تنبيهي، أو بالتربيت على كتفي بأبوية، بما معناه: «أنا أثق بك». كان يتركني جالسًا إلى الطاولة، حيث أكتب وأقرأ أو أرد على رسائل غي. ظلت هذه الطاولة محجوزة لي لفترة طويلة، وكانت، بطريقة ما، الطاولة التي أنتظر فيها دوري لأتلقى *الجملة الأولى* الرائعة لروايتي، كما وعدني بها غي. تخيلت نفسي وأنا منكب على الكتابة، بمجرد أن يهمس في أذني بهذه الجملة وما تمثله من انفجار عظيم. ستبقى الآنسة ري هناك، تحضر لي السندويشات والقهوة أو كوبًا من الماء، وسأتكئ على الطاولة، وأكتب، وأكتب كالمجنون، لأستخرج كل إمكانات *الجملة الأولى* بأثرها المعادل *للانفجار العظيم*، لتمنحني الرواية العظيمة، العمل الذي سيبرر وجودي بأكمله، ويعطي معنى لعبوري خلال المرحلة الأرضية من الحياة.

لكن غي تأخر في العودة، ليهمس بجملتي في أذني، ببداية الرواية التي اختارها لي. أما العجوز برنارد فقد دربني على هذا النظام الشاق، وهو فن الانتظار.

في كل مرة أظل فيها وحيدًا تمامًا في المكتبة (لم تكن الآنسة ري معي دائمًا)، كان ينتابني نوع من الذعر البليد. ومن الغريب أنه طالما كان برنارد جالسًا إلى مكتبه الصغير خلف أكوام الكتب الضخمة، لم يكن أحد تقريبًا يدخل المكتبة - بالكاد زائران أو ثلاثة زائرين يوميًّا. أما في غيابه، فتتضاعف أعدادهم مرتين أو ثلاثًا. كما لو أن العديد من محبي الكتب ينتظرون فقط مغادرة برنارد قبل أن يغادروا مخابئهم ليهرعوا إلى المكتبة.

شيئًا فشيئًا، بدأت في التعرف عليهم وتصنيفهم حسب الفئات. *أشخاص بلا يدين*، هكذا سميت أولئك الذين يسيرون بين الرفوف دون أن يجرؤوا على الوصول إلى أدنى كتاب أو تصفحه. حتى أن بعضهم يضعون أياديهم خلف ظهورهم لتجنب أي اتصال، حتى لو كان عرضيًّا، مع أي كتاب. لكن *الأشخاص بلا يدين* كانوا جميعًا *عيونًا ثاقبة وآذانًا صاغية*. أقول هذا لأنهم لم يكونوا ينظرون فقط إلى الكتب المكدسة وكل تلك الكتب المعروضة بفوضوية على الرفوف، بل كانوا يصيخون السمع، كما لو كانوا يسعون إلى كشف همس الكتب. هل كانوا يسمعون شيئًا؟ هل كانوا قادرين على سماع ما لا يمكنني سماعه؟

ذات يوم، طرحت السؤال على رجل جذاب، في الخمسين من عمره تقريبًا، وكان يشبه شيرلوك هولمز، وانحنى أكثر من الآخرين ليضع أذنه على أغلفة بعض الكتب.

- أرجو المعذرة، ولكن ما الذي تحاول سماعه؟

نظر إليَّ السيد شيرلوك هولمز بدهشة وأجاب بلكنة ألمانية.

- هذا لافت.

- وما هو اللافت؟

- *كلاين كونفيرينز*[1].

هل كانت الكتب تحدث بعضها بعضًا؟ ولذلك كانت لدى بعض الناس القدرة على سماعها وهي تتحدث، وبالتالي فهم ما تقوله؟ وما هي اللغة التي تتحدث بها الكتب؟ هل كان كلامها تعبيرًا واضحًا أم مسموعًا؟

- عفوًا سيد شيرلوك هولمز... هل أنت متخصص في *التتبع* أم في *الاستماع* إلى الكتب؟

- *جا، جا، موزيك هورن*[2]...

موسيقى؟ هل كان السيد شيرلوك هولمز يستمع إلى نوع من الموسيقى المنبعثة من هذه الأكوام من الكتب؟ هل كانت كل تلك الملايين من الكلمات المحفوظة في الكتب تنتج نوعًا من الموسيقى الخافتة جدًّا، موسيقى خاصة لم تكن أذني قادرة على إدراكها؟ هل كانت هناك آذان أخرى قادرة على سماع هذه الاهتزازات وهذه الرسائل؟

لم يبقَ السيد شيرلوك هولمز أكثر من دقيقتين أو ثلاث، متكئًا على كومة من الكتب، أو مشيرًا بأذنه نحو أحد الرفوف، مما سمح لي باستنتاج أن كل هذه الإشارات الموسيقية كانت قصيرة. ربما كانت الكتب عبارة

---

(١) (Kleine Konferenz): «مؤتمر مصغر»، باللغة الألمانية. (المترجم)

(٢) (Ja, Ja, Müsik hören): «نعم، نعم، استمع للموسيقى»، باللغة الألمانية. (المترجم)

عن جوقة بها العديد من الأصوات المتنوعة، التي لم تكن جميعها تؤدي في الوقت نفسه.

- هل هناك مكتبات أخرى يا سيد شيرلوك هولمز تستمع فيها إلى *غناء* الكتب؟

هز السيد شيرلوك هولمز رأسه بالنفي، وتابع جولته في المكتبة لالتقاط المزيد من الأصوات.

في بعض الأحيان، بعد رحيل هؤلاء الذين جاءوا للاستماع إلى الكتب في مكتبة فيردو، كنت أحاول أيضًا، في صمت تام، أن ألتقط ولو مجرد اهتزاز من الكتب المختلفة المتكومة. لكن ما أثار يأسي الشديد هو أنني لم أسمع أدنى صوت أو تنهيدة. وذات يوم أخبرت الآنسة ري بذلك:

- آنسة ري، هل تعلمين أنه عندما تكونين أنت وبرنارد غائبين، وأكون وحدي في المكتبة، يأتي أشخاص مختلفون إلى هنا للاستماع إلى الكتب؟

- لا أصدقك!

- ولكن هذا ما يحدث فعلًا، أقسم لك. هناك نوعية من الأشخاص الذين يسمعون ما تقوله الكتب. لا أعرف ما إذا كان هؤلاء الأشخاص يقرؤون أيضًا، أو إذا كانوا من محبي الأدب، لكنهم يعرفون كيف يستمعون إلى الموسيقى التي تنبعث من صفحات الكتب.

- لا أصدقك!

- أقسم لك يا آنسة ري. من المحتمل أنهم يشكلون حلقة أدبية أو ناديًا للهواة... ومن المؤكد أنهم يتبادلون المعلومات عن الأماكن التي تهمس فيها الكتب أو تتمتم أو تدندن بألحان رائعة... ولأن هذه الظاهرة لا تحدث هكذا في كل مكان، فمن المرجح أنه في المكتبات الكبيرة ومحلات السوبر ماركت، تظل الكتب صامتة... أما في مكتبة مثل مكتبتنا، فيحدث ما يشبه المعجزة، أجل، ثم يأتي المزيد والمزيد من الزوار لوضع آذانهم على الكتب. وقد وجدتني مضطرًّا إلى كتابة تحذير على قطعة كرتون، ووضعتها على الكومة الأولى، لكي تكون واضحة أمام الجميع: «نرجو منكم عدم وضع آذانكم على الكتب». لأن الوضع صار مزعجًا منذ بضعة أشهر. لا يزال عدد قليل من الزوار يتصفحونها، بينما يأتي معظمهم كما لو كانوا قادمين إلى حفلة موسيقية.

- أود ذلك أيضًا...

- لا أدري يا آنسة ري، إن كان من السهل جدًّا سماع هذا اللحن الخافت... حاولت باستخدام سماعة الطبيب، لكنني لم أسمع شيئًا... ومع ذلك، فمنذ بضعة أيام، بدأ دماغي يتفتح ببطء، يبدو وكأنني أسمع نوعًا من *الضرب*...

- أود ذلك أيضًا...

- سيكون هذا مجرد مضيعة للوقت يا آنسة ري، فهذه ليست الطريقة المثلى للاستماع إلى فرقتها الراقية. مقطوعاتها قصيرة جدًّا، لا تتجاوز بضع ثوانٍ أحيانًا. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه

الحفلات هي عبارة عن أصوات متعددة الألحان، وأصوات قادمة من عدة اتجاهات، تتقاطع الاهتزازات بعضها مع بعض، وأحيانًا يتولد عندي انطباع بأن المكتبة قد أصبحت لوحة تحكم بهذا الهذيان الموسيقي للكتب... لا تقلقي، بمجرد أن أتمكن من التقاط المزيد من الموسيقى، سأخبرك سأبدأ بك أيضًا..

كانت الآنسة ري منزعجة جدًّا، فالتصقت بي وقبلتني طويلًا بشفتيها المكتنزتين، وقد لفت ذراعيها حول عنقي.

- آه، كل هذا يثيرني...

هل كانت تلك الكلمات الهامسة في أذني للآنسة ري لكتاب ما؟ تبدو الإجابة مستحيلة. أما الآنسة ري فقد اعتنت بأذني، ورطبتها بشفتيها الشرهتين.

- آنسة ري، أرجوك صدقيني، هذه ليست خطة إغراء جديدة، ما أقوله صحيح، أمام مكتبتنا يصطف أشخاص مشبوهون، ينتظرون أدوارهم للدخول والاستماع إلى الكتب وهي تهمس، *وتغمغم، وتغرد، وتغني، وأحيانًا تنادي بعضها بعضًا بأسماء الطيور...*

لكن تفسيري أتى بعد فوات الأوان، أرادت الآنسة ري أن تكون محبوبة، ومُحسسة، ومحتضنة، ومغطاة بالكلمات، والعضات، ومغمورة بالقبلات الدقيقة، ومخترقة بوجود هذه الخلفية الموسيقية غير المحسوسة، أن تكون عارية بين الكتب، مستلقية بين كومتين من الكتب... أما فكرة أن يعود السيد برنارد في أية لحظة، أو يدخل أحد الزبائن إلى محل بيع

الكتب، فلم توقف الآنسة ري، بل على العكس من ذلك، ضاعفت من إثارتها أكثر. أرادت الآنسة ري أن يتم القبض عليها *متلبسة بممارسة الحب* معي هناك، وهي مستلقية على سرير من الكتب...

(٤٠)

الآنسة ري الخالدة، يجب على القصيدة التي تقبل نهديك
أن توضع حول عنقك مثل عقد من الجواهر
تحتاج كلمات القصيدة إلى بعض الوقت
وإلى الحرارة المنبعثة من نهديك
لكي تستيقظ

بعد ذلك، ستبدأ القصيدة في الذوبان
مثل عقد من الجليد
ستتخذ كلمات القصيدة شكل نهديك
طوال ليلة كاملة
ستحصلين على نهدين ممتلئين بالأفعال والأحوال وعلامات التعجب
ونقاط الحذف والفواصل الحارقة
التي ستتلاعب، وببراءة، بحلمتيك

قد يتناهى إلى مسمعك صوت ضحكات صغيرة - لا تعيريها أي
اهتمام
فالقصيدة التي تقبل نهديك قد تفقد عقلها عمومًا
عندما تبدأ فعليًّا في تقبيل نهديك
يضطرب ترتيب الكلمات ومعانيها
بل إن القصيدة التي كُتبت لنهديك
لن تعود مكتملة أصلا
بعد هذه التجربة
ستكون هكذا: متعبة، معصورة، خدودها مشتعلة، منهكة
كما لو كانت عائدة من معركة خاسرة

ماذا فعلتِ أيتها التعيسة، أسألها، هل قبلت نهدي الآنسة؟
تتفوه القصيدة بكلمات مبهمة، هل لا تعرف حتى من يطرح عليها
السؤال
لقد تحولت إلى أداة غريبة لمتابعة الزمن
ساعة مائية مكونة من نهدين اثنين

(٤١)

«إذا لم يكونوا هم راغبين في الخروج، فلن أخرج أيضًا».

فتح إكس الثلاجة وخزانات المطبخ. أرز، شعرية، مكرونة، بضع كيلوغرامات من اللحوم المجمدة، خضر معلبة، ثلاث كيلوغرامات من البطاطس وعشر جزرات. ثم: بسكويت، سكر، علبة مربى مشمش، ستة علب حليب. لديه ما يكفي من الطعام لبضعة أيام. استلقى إكس على الأريكة. تمدد وانتظر.

«ماذا؟» لا أدري. ولكن هذا ليس طبيعيًا. «ما هو الطبيعي؟» لا أدري. ولكن هذا ليس طبيعيًّا. «اقتنع أن الجميع توقع ذلك». توقع ماذا؟ «أن يقع ما وقع» وماذا وقع؟ «ألا ترى؟» لا. «أعتقد أن ما جرى واضح». لا، لا شيء واضح.

ظل إكس قابعًا في بيته بضعة أيام. شغل الراديو من حين إلى آخر، واستمع إلى المحطة التي تبث الموسيقى. الأغاني نفسها تتكرر كل ست ساعات. خمن إكس منذ البداية أنها إذاعة مبرمجة.

لم يعد يتصل بمنزل ماتيلد، لم يعد قادرًا على تحمل جهاز الرد الآلي.

لم يعد يتصل بأحد لأنه لم يكن قادرًا على سماع الأصوات المسجلة لكل هؤلاء الغائبين. شعر إكس بالخيانة.

«لماذا؟» لا ينبغي لي أن أكون هنا. «لماذا؟» ليس من الطبيعي أنني ما زلت هنا. سيكون من الطبيعي بالنسبة إليَّ أن أكون معهم. سيكون من الطبيعي بالنسبة إليَّ أن أكون هناك. «أين؟» حيث هم. «لا تكن غبيًّا. هم ليسوا في أي مكان».

لم يعد إكس يعرف عدد الأيام التي قضاها في شقته. نظر إلى نفسه في المرآة. بدا أنه قد فقد الوزن. اللحية المبعثرة النامية لا تناسبه. متشرد حقيقي، قال إكس لنفسه مبتسمًا. لكنه لم يمتلك القدرة لا على الاغتسال ولا الحلاقة.

تناول إكس آخر علبة بسكويت وشرب آخر علبة حليب. تاريخ الاستخدام للبسكويت: ثلاث سنوات. والحليب: ستة أشهر.

انبعثت رائحة لا تطاق بشكل متزايد من الردهة (أو بالأحرى من مطبخ مدام بورداز). رائحة سمك فاسد. (هل كان لدى السيدة بورداز الوقت، للذهاب إلى السوق؟) كما تصاعدت رائحة كريهة من الشارع، رائحة وبائية من الخضراوات الفاسدة، واللحوم الفاسدة، والقمامة التي لم تتم إزالتها. حاول إكس سد الفجوات الموجودة على طول الأبواب والنوافذ بشريط لاصق. ولكن بعد فترة شعر بأنه يفتقر إلى الهواء، وأنه يكاد يختنق. والأسوأ من ذلك أنه بدأ في الانزعاج من رائحته الكريهة. من الواضح أنه لا يستطيع أن يحصن نفسه ضد الروائح. وعليه أن يخرج الآن.

بدأ إكس عملية تنظيف كبرى. أولًا: المبنى الذي يعيش فيه. انتقل من شقة إلى شقة وجمع كل الأطعمة الفاسدة في أكياس بلاستيكية. (كان مخزون لحم الخنزير الذي قام السيد كونتز بتخزينه لا يصدق!) استغل الفرصة لإغلاق جميع الأبواب والنوافذ. تخلص إكس من كافة سلال المهملات الموجودة على الطريق. ثم واصل مع المباني الأخرى في شارعه. عندما حل المساء، توقف إكس ناظرًا بارتياح إلى جبال أكياس القمامة.

انتقل في المساء التالي إلى محل الجزار بعدما تأكد أن رائحته الكريهة بلغت كل أنحاء الحي. كما جمع أيضًا الخضراوات التي تعفنت في البقالة. وأخيرًا أصبح قادرًا على التنفس...

واصل إكس خلال الأيام التالية التعامل مع كل الأشياء المهجورة. التقط الحقائب، والأكياس، والمظلات، والقبعات... قام بفرزها ووضعها أمام مدخل كل مبنى. وأخيرًا، قام بركن كل السيارات بشكل منظم. هكذا أفضل الآن. يبدو كما لو أن المكان مأهول بالسكان. تقدم إكس بانتصار، بين جانبي شارعه.

كل صباح، تناول إكس وجبة الإفطار في مقهى السيد كيمبف. استغرق الأمر منه نصف يوم لإعادة ترتيبه. قام بتنظيف الطاولات من كل الكؤوس والأكواب والفناجين المتراكمة. غسلها وأعادها إلى مكانها، على الرفوف خلف المنضدة. قام بكنس الزجاج المكسور، ومسح الأرضية، ورتّب الطاولات والكراسي. شرب قهوته جالسًا كالمعتاد في مكانه المفضل، المكان الذي يمكنه من خلاله رؤية الشارع بأكمله.

لسوء الحظ، لم يكن جهده كافيًا، وما زالت الروائح النفاذة تحاصره، مثل قرحة مفتوحة، وسيطرت على المدينة بأكملها الرائحة الكريهة للأطعمة غير الصحية. لم يكن لدى إكس أي خيار: يجب عليه توسيع عملية التنظيف لتشمل بقية المدينة.

بدأ بحرق القمامة، حيث يذهب إلى كل مكان، يجمع صناديق القمامة، ويضعها في التقاطعات، يقلبها، ويرش كل شيء بالبنزين، مشعلًا فيه النار. وهو ما استغرق منه أربعة أشهر.

واجه مشاكل كبيرة مع أطنان الخضار التي فسدت في الأسواق ومحلات السوبر ماركت. والأمر نفسه ينطبق على الجزارين ومحلات المعجنات ومصانع الألبان وبائعي الزهور وأيضًا مستودعات المواد الغذائية. أحرق كل شيء بقاذف اللهب. انتقل من جزار إلى جزار بقناع الغاز على وجهه وجسده محمي ببدلة حرارية مستعارة من محطة الإطفاء. وجه تيار اللهب على اللحوم واللحوم الباردة المعروضة على الرفوف. واستغرقت العملية ستة أشهر. وكرر الإجراء نفسه في الأسواق لتصفية أطنان من المواد الغذائية القابلة للتلف والمستقرة على الرفوف.

ولوضع حد للرائحة المنبعثة من الشقق، ما كان في إمكانه الآن سوى إغلاق جميع أبواب ونوافذ مباني المدينة. إذن ستة أشهر أخرى.

ركن السيارات على جانبي الشوارع حتى يتمكن من المرور بسيارته. ستة أشهر أخرى.

قام بجمع كل الأشياء المتروكة على الأرض وفرزها. أطنان من حقائب اليد، وأطنان من حقائب السفر، وأطنان من القبعات، وأطنان

من النعال، وأطنان من الأحذية ذات الكعب العالي (للسيدات)، وأطنان من الصحف الرطبة، ومئات الكيلوغرامات من النظارات، وأطنان من الأوشحة والقفازات... جبل من الدراجات، وعربات الأطفال، والكراسي المتحركة، والعكازات والعصي والأطراف الاصطناعية. كان يعمل كالروبوت، بعناد، دون أن يتذمر من أي شيء، دون أن يتبادل كلمة مع الصوت. العمل يفيده. مرت سنة أخرى على هذا النحو.

نظف الأرصفة أمام المتاجر الكبرى، وأرضيات الأسواق، وفكك الأكشاك. أصبحت المدينة صالحة للعيش. قام بجرد مستودعات المواد الغذائية. وفي الغرف الباردة الضخمة، لديه إمدادات من اللحوم تكفي لألف عام على الأقل. تعمل محطة توليد الكهرباء في المدينة بشكل أوتوماتيكي. ستكون الكهرباء في حوزته لمئتي عام على الأقل.

خلال كل هذا الوقت، كان يعاني من مشاكل كبيرة مع الحرائق الثلاثة أو الأربعة التي اندلعت يوم الغياب. استمر حريق محطة الوقود عدة أشهر. ولم يستطِع الاقتراب من مركز الدراسات الكيميائية مدة ثلاث سنوات.

قام بدوريات في الشوارع بحثًا عن تسربات مياه الشرب. خلال الأيام الأولى كان على وشك فقدان كل مياه الشرب في المدينة بسبب الصنابير التي ظلت مفتوحة. وقد تنفجر إحدى قنوات المياه (لا يفهم السبب) مع ما يعنيه ذلك من ضرورة التدخل بسرعة.

إكس رجل حر. شعر وكأنه ملك. ها هو يسير في الشوارع المهجورة كما لو كان على أرض حصل عليها بعد صراع شاق. وأخيرًا،

صار لديه الوقت الكافي لاكتشاف المدينة. يدخل حيث يشاء، ومتى يريد، ويبقى في كل مكان بقدر ما يريد. قد يبقى في بعض المتاجر العملاقة يومين أو ثلاثة أيام. ينظر إلى الأشياء، ويعجب بها، ويمسح الغبار. في إمكانه أن يرتدي بدلة جديدة كل يوم، وألا يغسل قميصًا واحدًا مرة أخرى.

قد يمشي في شوارع التسوق منبهرًا بما هو مخفي في الغرف الخلفية وفي الأقبية. كل متجر له غرفة سرية، ولكل تاجرٍ تحفٍ باب خلفي يفتح على قبو مليء بالأشياء النادرة والغريبة، التي لم تعرض أبدًا...

كان يحبس نفسه لأيام كاملة أحيانًا في متحف البلدية، ويخرج الأشياء من خزائن العرض، ويلمسها... وأحب تشغيل أجهزة الإنذار، ويستمع إلى الصوت الذي لا يخفت إلا بعد يومين أو ثلاثة أيام. لا شيء يبهره أكثر من الاستلقاء على أريكة مريحة في متجر للأثاث والاستماع طوال الليل إلى الأصوات القوية لأجراس الإنذار.

كان يحب دخول المؤسسات الكبيرة التي تضم ما لا يحصى من المكاتب، وأكوامًا من الملفات المتراكمة على الطاولات والأرفف، وآلاف التقارير غير المكتملة. وأحب الجلوس في مكاتب مديري الشركات. يجلس على الكرسي، ويلاحظ بعناية كيف نظموا المكتب. يفتح الأدراج وينظر إلى الصور الموجودة على المكاتب. يتصل بالأرقام بشكل عشوائي باستخدام هواتفهم.

أحب التجول في فنادق المدينة الفاخرة، وإشعال جميع الأضواء، والانتظار لساعات وساعات في الاستقبال، والجلوس في الصالات

الفخمة. كان يطلب لنفسه كأسًا من البورت أو المارتيني، ويرتشف مشروبه المريح ويفكر.

«إلى أين؟».

قد يختار بشكل عشوائي أحد المفاتيح المعلقة على لوحة الاستقبال ثم يصعد إلى الطابق العلوي. لا ينام أكثر من ليلة واحدة في نفس غرفة الفندق.

أدرك أن لديه إمكانية الوصول إلى كل أسرار المدينة، وكان ذلك مبهرًا. قام بإعداد قائمة بالمنازل التي يود زيارتها. بادئ ذي بدء، فيلا السيد كارياتيد، رئيسه السابق، الذي لم يدعه قط إلى إحدى الحفلات التي نظمت حول حمام السباحة الرائع الخاص به.

ذهب إلى هناك حاملا باقة من الزهور لأنه لا يريد أن يبدو قليل التهذيب. كما أحضر معه زجاجة من النبيذ باهظ الثمن، وهو نبيذ نادر وثمين يزيد عمره عن عشرين عامًا. كان يرتدي ملابس أنيقة لا تشوبها شائبة، وقد وضع عطرًا واختار سيارة ليموزين بيضاء سقفها قابل للطي، مستأجرة خصيصا لهذه المناسبة. بالطبع رفض السيد كارياتيد أن يفتح الباب، لكن إكس أصر، وقرع الجرس مطولًا، دون أن يشعر بالقلق، فهو مصمم على الاستمتاع بهذه الزيارة من البداية إلى النهاية. قرع الجرس عشرات المرات، وقرر أخيرًا دخول منزل السيد كارياتيد على الرغم من أنه لم يفتح الباب. غرفة معيشة مدهشة، حديقة رائعة، مكتبة متميزة، مجموعة رائعة من اللوحات. يعلم أن السيدة كارياتيد مهووسة بالنظام ولا يمكنها تحمل دخان السجائر، من بين

أشياء أخرى لا تتحملها، لذلك قرر أن يدخن ويترك الرماد يتساقط على السجادة.

ثم زار شقق جيرانه الواحد تلو الآخر. خلال السنوات الاثنتي عشرة التي عاشها في هذا المبنى، استقبلته السيدة بورداز، المالكة، مرتين فقط في البداية، عندما دعته لتناول القهوة والتعارف. وبخلافها، يمكنه القول إنه لا يعرف أحدًا حقًّا. بالطبع، كان دائمًا ما يتبادل بضع كلمات عابرة مع بعض المستأجرين. «مرحبًا سيد كونتز». «مرحبًا سيد براغوفسكي، كيف حالك؟» «يا له من طقس جميل يا آنسة ماتيلد!» أو «يا له من طقس سيئ!» «أعياد ميلاد سعيد!» «عامًا سعيدًا!» «ها نحن نواجه مرة أخرى مشاكل في إزالة القمامة». «هل تضاعفت حرارة السخانات في منزلك؟» «ألا ترى أن الحمام يدور حول بنايتنا أكثر من المباني المجاورة؟» إلخ... في مناسبتين أو ثلاث مناسبات، عندما كان من الضروري اتخاذ قرار مشترك، التقى إكس بأغلبية المستأجرين الآخرين خلال اجتماعات قصيرة. وهذا كل شيء.

من المؤسف أنه لم يعرف السيد كونتز بشكل أفضل. أعجب إكس بمجموعته من الساكسفونات، والتي تضم ما لا يقل عن خمس عشرة قطعة رائعة. والأكثر من ذلك، أن كل الجدران مغطاة بالصور. يبدو أن السيد كونتز كان يعزف موسيقى الجاز في عديد من الحانات الليلية. يا لها من فرصة ضائعة! ودَّ إكس الاستماع إليه وهو يعزف، مرة واحدة على الأقل.

«ليس من المستحب تفتيش صور الناس». لكن إكس لم يهتم.

«ليس من المستحب أن تقرأ مراسلاتهم الحميمة على مدى الخمسة عشر أو العشرين أو الثلاثين عامًا الماضية». لكن إكس لم يهتم. «ليس من المستحب قلب خزائنهم والبحث في جيوبهم». لماذا؟ فتذاكر الحافلة، والأورق والإيصالات، والفكة، وبشكل عام، كل ما ينساه الناس في جيوبهم يقول كثيرًا عنهم. «ليس من المستحب تفتيش الحقائب والأدراج والصناديق. ليس من المستحب فتح الصناديق التي تحتوي على مجوهرات العائلة». (ممن ورثت عائلة سلوبساكوفسكي مجموعتها من المجوهرات الأميرية؟) «ليس من المستحب تصفح تفتيش خزانات الأدوية الخاصة ومحاولة تخمين أمراض جيرانك. ليس من المستحب أن تفتح مذكرات مراهقي الحي». (اكتشف إكس الإشارة إلى شخصه مرتين في مذكرات الآنسة ماتيلد. في الأولى سمته *الرجل قليل الكلام الساكن في الطابق الثاني الذي قام بتفحصها من الرأس إلى القدمين مع التركيز في الساقين* وفي الثانية، أكدت الشابة أنه هو، إكس، الرجل قليل الكلام الساكن في الطابق الثاني، يبتسم *لكنه لا يعرف كيف يتحدث*).

أرأيت؟ أرأيت؟ أرأيت؟ خاطب إكس نفسه، لن أسامح نفسي أبدًا لأنني لم أتحدث أكثر مع الآنسة ماتيلد.

(٤٢)

عزيزي غي،

لقد تأكد حدسي، إذ يبدو أن السيد إم قد أوقع نفسه في مستنقع من النصوص. هو يعمل كثيرًا، هذا مما لا شك فيه، لكنني أعتقد أنه يبدأ نصًّا آخر جديدًا بعد كل رسالة يبعثها. توجد على مكتبه مشاريع عشر روايات على الأقل، وهو ينتقل من نص إلى آخر كما لو كان مطالبًا بإيقاد النار في عشر أوانٍ خشبية موزعة على عشر غرف مختلفة. يركض من آنية إلى أخرى، يستمع إليها، يستشعر حرارتها، ويستسلم لدفء كل واحدة منها لبعض الوقت... وكل هذا في خضم فوضى تامة، ونشاط محموم يدفعني إلى الاعتقاد بأنه مريض قليلًا. حتى الآنسة ري تشعر بالقلق تجاهه. وسط كل هذا الاحتراق النصي، يسعى بجهد إلى إطلاق فتيل ما، رغم عجزه أصلًا عن مواصلة بناء أي شيء.

لنقل إن أحد النصوص يتقدم بشكل جيد نوعًا ما. بمجرد نسيانه (أو تركه بشكل متعمد؟) لمسوداته على الطاولة، أقرأ وأعيد قراءة حكاية شخص يدعى إكس، وجد نفسه وحيدًا تمامًا في مدينة ما. كما تعلم، يفتقر هذا الموضوع إلى الأصالة بشكل واضح. رغبات خيالية عاشها معظم

الأدباء وكل من سبق له تأليف قصص أو رواية. أما خوض التجربة فعليًا بل والاستمرار فيها فلا تفسير له سوى أن صاحبها على قدر كبير من السذاجة. بحلول الليل، وبعد مغادرة السيد إم، أقوم أحيانًا رفقة الآنسة ري بإعادة خلط المسودات، فنقرأ معًا حكاية المدعو إكس وننفجر ضاحكين. نادرًا ما أتيحت لنا الفرصة للاطلاع على أسلوب مرتبك وأخرق بهذا الشكل. يحاول صاحبنا استخدام جمل قصيرة وعصبية... هناك بالفعل مجموعة من الأفكار التي تدور في رأسه، وهو يسعى في الواقع لمنح السرد إيقاعًا خاصًا، وإضفاء جو سينمائي على الأحداث. لا أنكر حقيقة أنه قد نجح في خلق مشاهد قادرة على البقاء في الأذهان، لكن المضمون برمته سهل التوقع. لا يدخر السيد إم جهدًا في التفصيل والدقة. هو يصف بعناية شديدة صدمة إكس عندما وجد نفسه وحيدًا في تلك المدينة، والحقارة التي انحدر إليها أمام هذه الوحدة... أتشوق إلى معرفة المسار الذي سيتخذه هذا النص، بل إنني راهنت الآنسة ري، أنا أرى أنه يستحيل على هذه النوعية من النصوص أن تنتهي إلا بطريق مسدود، ولا يمكن الدفع بها من جديد. هذا يشبه جملة من الأفكار الرائعة التي تتحلل شيئًا فشيئًا لتصل إلى النقطة المنطقية بضرورة التخلي عنها. أما الآنسة ري فتضع ثقتها في القدرات التخييلية للسيد إم، وتؤمن بالمنعرج القادر على قلب الأحداث مئة وثمانين درجة، بل وثلاث مئة وستين درجة بالكامل. سنرى من منا سيكون على حق، وإن كنت أخشى صراحة أننا مضطرون إلى الانتظار طويلًا، لأن السيد إم ينتقل من نص إلى آخر، بل ويتخلى عنها أحيانًا طوال أيام، بل وينسى حتى منح بعض ما بدأه، نهاية تليق به.

لكن، لا بد من الإشارة إلى قدرته العظيمة على الحكي وتشرب الحكايات. الواقع أن السيد إم يعيش في مجرة من القصص والحكايات والأحداث التي تحوم حوله مثل أجرام سماوية من مختلف الأبعاد والأحجام. لكن، عندما يقرأ الصحف، تبدو طريقته في فك شفرات الأخبار الجديدة مختلفة ومتفردة. كما لو أن الأخبار جنس أدبي تخييلي، حيث يسعى من خلال تحليل الأحداث العالمية إلى فهم النوايا الأسلوبية لمؤلف ظل مجهولًا.

انتبهت أيضًا إلى مسألتين لافتتين في شخصيته: استمتاعه باستخدام الحذف بوصفه تقنية بناء سردي، وأيضًا عرض القصة أو الوحدة السردية نفسها من وجهات نظر مختلفة.

وإلى لقاء قريب،

برنارد

(٤٣)

أنا عبقري.

هذا ما قرأته على وجه أمي عندما فتحت عيني ورأيت نفسي منعكسًا في نظرتها. لم يكن هذا التعبير عند والدتي كاذبًا. فمنذ اللحظة التي غادرت فيها رحمها، انبثق مني شيء خاص وساحق، وعُدَّ خارج المألوف.

دون أن أدرك ذلك، كانت الكلمة الأولى التي استوعبها عقلي هي: عبقري. ورغم أنني لم أسمعها منطوقة، فإنني رأيتها منتشرة على وجه أمي مثل الرسم، مثل الكتابة الهيروغليفية. نشوتها أمامي، وأنا بعدُ رضيع، كان فيها شيء لا رجعة فيه، وُضِع تحت علامة اليقين المطلق. كل ما فعلته أو قلته أصبح، على محيَّا أمي وفي أعماقها، دليلًا آخر على العبقرية.

حتى قبل أن أقول: *ماما، بابا، كاكا، بيبي، بو، دودو*، وما إلى ذلك، كانت هذه الكلمة على لساني، وفي ذهني، أكبر وأكثر تجريدًا وأقوى من كل الكلمات الأخرى، الكلمة التي كان من المفترض أن تميزني كليًّا: عبقري.

عندما تكون الأم على قناعة تامة بأن نسلها هو جزء من فئة العبقرية، فليس هناك ما يمكن القيام به. ويجب أن يتولى نتاج تجربتها الأمومية هذا الدور. وهو ما فعلته ربما منذ الأشهر الأولى من حياتي. كل ثرثرة قمت بها كانت تثير بريقًا في عيني أمي، لدرجة أنني، بطبيعة الحال، ومن خلال ردود الفعل المنطقية، سمحت لنفسي بالاندماج في اللعبة. ولم تخني أمي أبدًا. حتى عندما كانت الأصوات الصادرة عني أقل أهمية من الناحية الذهنية (مثل التجشؤ الصغير أو إطلاق الريح)، فقد كانت تسليها كثيرًا، فلم أستبعد تأثيرها مقارنة باللغة المنطوقة.

إذا كنت قد بلغت بكلماتي وإيماءاتي إلى مكانة الذكاء اللامع، فقد أصبحت في نظر أمي، عبر هذه اللغة الفسيولوجية، ممثلًا كوميديًّا مميزًا، وفنانًا تشخيصيًّا حقيقيًّا. «آه يا مهرجي الصغير!»، تقول في كل مرة أتعثر فيها، أو أتصرف بطريقة خرقاء، أو عندما أكسر شيئًا أو أوقع طبقًا من الحساء. و«يا إلهي، أنت تضحكني» عندما أبصق، أو أخرج لساني أو أخرج بعض البراز بصوت عالٍ. استنتجت منذ سنواتي الأولى، وبشكل طبيعي تمامًا، أن كل ما أفعله كان يحمل تأثيرًا إيجابيًّا على أمي. وبما إن أيًا من الأمهات اللاتي رأيتهن من حولي لم تكن لديهن مثل ردود الفعل هذه، فقد استنتجت بالطبع أنني كائن فريد من نوعه، متفوق على كل الأطفال الآخرين من حولي.

عندما بدأت تنشئتي الاجتماعية مع أول تدريب داخلي في رياض الأطفال، تعززت قناعتي بأنني طفل من نوع نادر، وطفل استثنائي،

وموهوب جدًّا، ومبتكر جدًّا. عندما تعلمت العد إلى خمسة، كان رد فعل أمي كما لو أنه لأول مرة يقوم مخلوق ذكي على كوكب الأرض بالعد إلى خمسة. عندما حفظت أول أغنية حضانة عن ظهر قلب، تم استدعاء جميع أفراد الأسرة لمتابعة المشهد، وأكد تصفيقهم بوضوح أنهم لم يروا شيئًا كهذا من قبل. بعد ذلك، كانت كل خطوة أخطوها في الفضاء الواسع لاكتساب المعرفة الأساسية، تكافئها أمي بمئات القبلات، والمداعبات، وعلامات التعجب، والثناء، والاعتبارات الموسومة بالانبهار والاحترام. عندما بدأت، وأنا في الخامسة من عمري، بالذهاب إلى روضة الأطفال بمفردي (نظرًا إلى مسافة مئتي متر فقط عن البيت ودون عبور الشارع)، هتفت أمي: «لقد حصل على استقلاليته!» عندما تمكنت من السباحة لأول مرة من أحد أطراف حوض السباحة إلى الطرف الآخر دون عوامة، قامت والدتي بتصويري بخشوع، ثم جرى عرض اللقطات أمام كل من حل بمنزلنا، طوال عدة أشهر. «دعني أريكم دولفيني الصغير»، تقول وهي تشغل التلفاز على الفور، لأن كاميرا الفيديو موصولة بالفعل وجاهزة للبدء.

ومع امتلاء منزلنا تدريجيًّا بصوري، أدركت بسرعة أمرًا آخر: اتخذ كل ما فعلته طابعًا هائلًا. هي في الواقع كلمة رددتها أمي كثيرًا، كلما وقفت في المرحاض أو أثناء تنظيف أسناني: «آوه، هائل!».

هناك أطفال يخشون الظلام، أو *الذئب* أو الكلاب الشرسة... أما أنا فلم أكن لأخشى، منذ البداية، سوى أمر واحد: ما كان علي تخييب ظن أمي، وبأي ثمن، حتى لا تتحطم صورتي أمام عينيها. لا أذكر في أي

عمر أدركت أن الحفاظ على علاقتنا بهذه القوة يتطلب أيضًا بذل جهد معين من جهتي.

«انظروا كيف يلعب جيدًا *بمفرده!*» كانت أمي تعلق أحيانًا وهي تراقبني سرًّا، مع أبي أو عمتي أو الجارة التي قدمت لزيارتنا. كانت تغمرني موجة حرارة هائلة عندما أسمع مثل هذه التعليقات، رغم أنني لم أكن أظهر أي شكل من أشكال الفرحة. لكن ما لم تعرفه أمي هو أنني كنت ألعب منتظرًا أن يراني أحد، وهذا تفصيل آخر كان بمثابة الأساس لقناعتي بأن أكون طفلًا غير عادي: حتى عندما لا أكون في حوار مع العالم، حتى عندما أكون وحيدًا أو نائمًا، كانت تسري فيَّ هالة خاصة.

«آه، ما أجمل نومه !»

من المؤكد أن صدى هذا الإعجاب قد تردد مئات المرات وأنا نائم، ولكنني كثيرًا ما سمعته عبر طبقات النوم السطحية. في السنوات الأولى من حياتي، قامت أمي بتصويري ما لا يحصى من المرات *أثناء نومي*، وكان أحد الألبومات في خزانة الصور يضم هذه الملاحظة المكتوبة بخط جميل على غلافها: «فيكتور نائمًا». منذ أن كنت في الخامسة من عمري، سمح لي بتصفح كل تلك الألبومات التي تضم صورًا من حياتي الخاصة، وأذكر كم كنت مدهوشًا، على الرغم من صغر سني، من كمية الصور الملتقطة لي وأنا نائم.

«فيكتور نائمًا في عربته». (وبين قوسين التاريخ والساعة.)

«فيكتور نائمًا في نزهة».

«فيكتور نائمًا في القطار في طريق العودة من الجبل».

«فيكتور يتثاءب بنعاس في حفل زفاف إلفيرا».

«فيكتور نائمًا ورأسه على الطاولة في حفل زفاف إلفيرا».

إلخ.

كانت كل هذه الإشارات مكتوبة بخط منمق جميل ومنتظم، ما كشف، حتى في اختيار شكل الحروف، عن الأهمية الممنوحة لي. قامت أمي بتصوير كل شيء، ومنذ أن كنت في سن الثالثة وبضعة أشهر، تعلمت معها كيف أقوم بالتقاط كل ما أراه من حولي. اختبرت أمي ظهور الكاميرات الرقمية بشغف وكنوع من التطور الحتمي. ومع ذلك، فإن التقنية السابقة لم تبطئ زخمها، لأن جميع محلات السوبر ماركت تبيع أجهزة تلقائية. وبذلك، عندما تذهب أمي للتسوق يوم السبت، تغتنم الفرصة لنقل وتسجيل *أحداث* الأسبوع على ورق حساس. في بعض الأحيان، كانت الحصيلة فيلمين أو ثلاثة أفلام من ستة وثلاثين عرضًا، اعتمادًا على *كثافة* الأحداث التي مرت بها في الأيام السبعة الماضية. أدى ظهور التكنولوجيا الرقمية، مع تحميل الصور على الكمبيوتر، إلى مضاعفة زخمها، وإن اعتراها شعور بالندم، إلى حد ما، على اختفاء الورق والألبومات. كان عليها أخيرًا أن تعترف بأنه لم يعد هناك مجال لألبومات جديدة، وأن تخزين الصور في ذاكرة الحاسوب كان أكثر عملية.

هذا هو السياق الذي قادني فيه التقدم التكنولوجي للبشرية إلى أن يتم تصويري كل يوم تقريبًا، وعدة مرات في اليوم، لأن والدتي لم تتحمل رؤية الزمن يمحو لحظات كانت تعتبرها *غير عادية*. منذ اللحظة التي ارتديت فيها ملابسي للذهاب إلى روضة الأطفال، لم تستطِع أمي مقاومة

إغراء الإمساك بالكاميرا، حتى لو كانت الصورة التي تم التقاطها لا تختلف كثيرًا عن تلك التي التقطتها في اليوم السابق، ولن تختلف كثيرًا عن الصورة التي لا مفر منها في اليوم التالي. ببساطة، ترى أمي أنه لا مثيل لي، عندما أقف في الردهة، نظيفًا وممشطًا، بقميص مكوي وحذاء لامع. لذلك كان عليها أن تلتقط هذه اللحظة، ومن الضروري إيقاف الزمن بالشكل الوحيد المعروف والممكن، وهو صورة فوتوغرافية أو تسلسل مصور. في مجموعة الصور ومن أرشيفات العائلة، التي اكتشفتها عندما بلغت سن الرشد، وجدت ما لا يقل عن ثلاثين ساعة من الأفلام التي التقطتها والدتي من النافذة، وكانت الشخصية الرئيسية هي أنا، مغادرًا إلى روضة الأطفال ثم إلى المدرسة. لا شك أن هذا الرحيل كان يبدو في كثير من الأحيان وكأنه لا رجعة منه بالنسبة إلى أمي. لذلك، بمجرد احتضاني ووضع ثلاث قبلات على أعلى رأسي، بحلول الوقت الذي أعبر فيه للخروج إلى فناء المنزل، كانت تتسلح بالجهاز السحري وتقوم بتصويري سرًّا من إحدى النوافذ المطلة على الشارع... هكذا *تخلّد* لحظة خروجي والخطوات الأربعين التي أخطوها على الرصيف قبل مغادرة الإطار، كل ذلك *لخداع* الوقت، للتأكد من إمكانية إعادته إلى الوراء (أو *لإنقاذ* ما يمكن إنقاذه).

تطور نوع من التواطؤ التدريجي بيني وبين أمي، وكانت قواعده معروفة لنا فقط. في الواقع كنت الشخص الوحيد على هذه الأرض القادر على جعل أمي تضحك. عندما أدركت ذلك، فهمت أيضًا أنه كان عليَّ التحكم في هذه القدرة. لم يكن من المنطقي أن أجعل أمي تضحك

طوال الوقت. في الواقع، كانت تستوقفني أحيانًا بقولها: «آه، ما عدت قادرة على التحمل، هذا الطفل يجعلني أموت ضحكًا». ولم أكن أريد بأي حال من الأحوال أن تموت والدتي. لكن جلسات الضحك كانت يومية، خاصة في فترة ما بعد الظهر، عندما يتوجب عليَّ إخبار أمي بما فعلته في روضة الأطفال أو في المدرسة. كان وصف أيامي، وخاصة طريقتي في تقديم رفاقي والمربين والمدرسين، يثير بهجة حقيقية في قلبها. هل كانت لديَّ موهبة خاصة في ربط التفاصيل التي من شأنها أن تثير النشوة والمرح والعاطفة والفرح؟ بالتأكيد. والدليل على ذلك أن أمي كانت تضحك باستمرار، أحيانًا حد البكاء، وأحيانًا تضع يدها على صدرها وتقول: «أوه، لا أستطيع التوقف». كان ضحك أمي معديًا في أغلب الأحيان، إذا كان هناك شخص بالغ آخر في المنزل، فسيبدأ في الابتسام على نطاق أوسع، دون الدخول في اللعبة، مستمتعًا بشكل أساسي بتسلية أمي.

على الرغم من أنني كنت في البداية «مهرج أمي»، فإنها بدأت وأنا في الخامسة من عمري تقريبًا بالهتاف: «أوه، يا له من ممثل!» وقد اعتدنا في هذه الفترة على مشاهدة فيلم كل مساء كعائلة، وسرعان ما فهمت معنى أن تكون ممثلًا. وبما إن أمي كانت حريصة جدًّا على أن تكون هذه الأفلام تعليمية، فقد كانت اختياراتها موجهة بشكل طبيعي نحو إنتاج إستوديوهات والت ديزني. ومن وجهة نظرها، فإن هذه الأفلام، سواء كانت رسومًا متحركة أو بممثلين مجسدين، كانت تحمل *قيمًا آمنة*. وهكذا بدأنا في تكوين مجموعتنا من الأفلام «المناسبة للعائلة». عندما تذهب أمي للتسوق في أيام السبت، كانت تحرص على اختيار بعض العناوين

للأسبوع التالي، حتى لا تتأثر العروض التعليمية أبدًا. لسبب لا أعرفه، لم يكن والداي يؤمنان حقًّا بالفضائل التعليمية للتلفزيون، باستثناء الأمسيات التي كانت تُبرمج فيها عروض السيرك أو تقارير عن بلدان غريبة. بالنسبة إليهما، كان فيلم رعاة بقر من خمسينيات القرن الماضي (مثل أفلام جون واين) تعليميًّا أكثر من عروض الألعاب مع الأطفال صباح يوم الأحد على القنوات الأكثر تهذيبًا.

خلقت طقوس هذه الأفلام التي شاهدتها العائلة شكلًا آخر من أشكال التواطؤ بيني وبين أمي. بشكل عام، كنا نجلس نحن الثلاثة، أنا بين أمي وأبي. لكن بسرعة كبيرة، ومع بداية الفيلم، أشعر بذبذبات أمي السرية، وأدرك على الفور ما كان يحدث في قلبها، أو في مخيلتها عندما كان الحدث يتكشف: كانت تراني دومًا في الدور الرئيسي. أجل، سرعان ما أصبح واضحًا أنني لم أكن مخطئًا. كان جون واين في جميع أدوار مفوض الأمن في الغرب المتوحش هو أنا. كان هاريسون فورد في دور إنديانا جونز هو أنا من جديد. أنطونيو بانديراس الذي لعب دور زورو كان مئة في المئة أنا، فيكتور، ابن أمي. حتى همفري بوغارت الذي عانى من الحب في *كازابلانكا* كان أنا أيضًا. من وقت إلى آخر، كان القلق يراود أبي بشأن العديد من الأفلام التي شاهدناها معًا عندما كنت في الخامسة أو السادسة من عمري لأنها كانت عنيفة جدًّا في نظره. فتقول أمي: «لا يهم، فالمهم حقًّا هو أن تنتهي الأمور على خير».

في اللحظات الحاسمة من الأحداث، كانت أمي تشعر بالحاجة إلى التدخل لمساعدتي أو مواساتي. عندما تعرضت الشخصية التي

لعبها كلينت إيستوود في فيلم *من أجل حفنة من الدولارات* للضرب المبرح، عانقتني أمي وكأنها تريد أن تخفف من قسوة الضربات التي يتلقاها البطل... ثم قدمت إليَّ قطعة من الشوكولاتة، ربما لتساعدني على استعادة قواي. وفي مشهد من المبارزة الأخيرة، عندما قام الغريب المجهول بتصفية قاطع الطريق المتعطش إلى الدماء رامون، لم تستطِع أمي الامتناع عن الهمس بـ«برافو» في أذني.

عندما يجد بروس ويليس، في دور الملازم ماكلين، في سلسلة أفلام *الموت القاسي* (الجزء الأول) - نفسه في وضع يائس على سطح ناطحة سحاب، ثم يكون قادرًا على عكس الأوضاع وإلقاء زعيم الإرهابيين في الفراغ، تقوم أمي بمداعبة رقبتي من الخلف قائلة: «هذا الفتى ذكي حقًّا».

بفضل الذبذبات التي نقلتها إليَّ، أدركت ما إذا كانت هويتي المتماهية مع الشخصية الرئيسية في قلب أمي كاملة أم جزئية أم موضوعة تحت علامة الشك. كانت أمي تحب الأبطال الذين يمكن اعتبارهم إيجابيين منذ البداية. أما في مواجهة الشخصيات المتناقضة أو المعقدة، فكانت أمي مترددة، وتشعر أحيانًا بعدم الاستقرار، لذلك لا أتلقى أية إشارات منها. لم أستطِع أن أنسى أبدًا مدى انزعاجها عندما شاهدنا معًا، على سبيل المثال، فيلم *باري ليندون* لكوبريك. في البداية، بدا باري ليندون شخصية ودودة ومغامرة، لكنه شجاع وفكاهي... شيئًا فشيئًا، أصبح البطل أكثر كراهية، وشعرت كيف تحولت رسائل أمي الأولية، التي تنتقل عن طريق الذبذبات العاطفية، إلى حيرة وشكوك، قبل أن تتوقف

تمامًا. ثم، وبعد المشهد الأخير، نهضت أمي، بخيبة أمل، ونظرت إلى علبة الشريط لترى اسم المخرج وقالت لأبي: «لا أريد مزيدًا من أفلام كوبريك». لم تتوافق أمي جيدًا مع شخصية جاك سبارو أيضًا (رغم أنني كنت بالغًا بالفعل عندما بدأنا في مشاهدة أفلام هذه السلسلة)، وإذا لم تكن باقي الأفلام مع القراصنة البحارة قد مثلت أية مشكلة بالنسبة إليها (بعدما ربطت بيني وبين شخصيتي سوركوف وسندباد البحار)، فإن القرصان جاك سبارو لم يبدُ واضحًا جدًّا أمامها، فهو شجاع أحيانًا وجبان أحيانًا أخرى، عطوف أحيانًا ومكروه أحيانًا أخرى. باختصار، شخصية معقدة جدًّا، ومعذبة جدًّا، ومتناقضة جدًّا. لذلك، فهي غير متوافقة معي، وإن، وإن... ظللت متوافقًا تمامًا مع مجسد الدور، جوني ديب. وهو ما حرصت أمي على إخباري به: «رغم ذلك، يمكن اعتبار جوني ديب فنانًا عظيمًا، مثلك».

كانت هناك فترات، خاصة بعد بلوغي الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري، حيث كان أبي يفرض علينا أفلامًا فرنسية أو إيطالية. قائلًا: «من باب التغيير». ولسوء الحظ، عانت جميع هذه الأفلام تقريبًا من خلل لاحظته أمي على الفور: لأنها لم تكن تنتهي بطريقة مقنعة. ربما كانت أمي قادرة على قبول فيلم حزين مات فيه بطل مثالي في النهاية (راسل كرو في فيلم *غلادياتور*)، لكنها لم تقبل أية نهاية «غير مقنعة»، وإذا كانت، في أعماقها، تعشق مارسيلو ماستروياني، كان من المستحيل عليها أن تقبله بالكامل في *لا دولتشي فيتا*، على سبيل المثال. وذلك لسبب بسيط هو أنها لم تكن تريدني أن أصبح صحفي مشاهير، مخنثًا ومغامرًا مثل الشخصية

التي أداها ماسترویاني في هذا الفيلم. سارت الأمور بشكل أفضل مع ألان ديلون الذي تبنته على الفور في نطاق التماهي مع شخصيتي، ولكن ليس في كل أفلامه. فالشخصيات التي لعبها ديلون *في زهرة التوليب السوداء* أو *الفهد*، كانت *مطابقة* فعلًا، ولكن هذا لم ينطبق على *عشيرة الصقليين* و*بورسالينو*. واجهت أمي أيضًا صعوبة في التعرف عليَّ مع جان بول بلموندو - الحيوي جدًّا، والذي يصعب التنبؤ به، في جميع أفلامه تقريبًا... وفي كل مرة سمحنا فيها لأنفسنا بمثل هذه التجربة الأوروبية، شعرت بأن أمي مفعمة بالمخاوف الميتافيزيقية ونوع من عدم الرضا عن الرسالة التي ينقلها الفيلم. وكان الحل الوحيد، للعودة إلى الحياة الطبيعية، هو العثور على الأميركيين: توني كيرتس، وبول نيومان، وآل باتشينو، الذين كانوا مثاليين في جميع أدوارهم.

طوال ما يقارب خمسة عشر عامًا، لعبت طقوس التماهي مع الممثلين وشخصيات الأفلام الأمريكية دورًا تكوينيًّا بالنسبة إليَّ، وظلت مصدرًا تعليميًّا ثابتًا، ومكونًا أساسيًّا في بنيتي العاطفية. استمر التواطؤ الخيالي بيني وبين أمي حتى بعد حادثة ولادة أخي بالصدفة. استمرت عروضنا السينمائية الخاصة، مثل العروض الروحانية، في وقت لاحق أيضًا، عندما كنت طالبًا وأعود إلى المنزل في الإجازات، أو عندما أزور البيت بعد استقراري في أمريكا... حتى في لقاءاتنا الآن بعد بلوغي سنًّا معتبرًا، وبعد اليوم الأول من المحادثات الأولية التي نتناول فيها كل شيء، يكون لأمي هدف واحد وهو رؤية «فيلم جيد» معي.

(٤٤)

تريد مني أن أخبرك، يا سيد كورتوا، عن الدور الذي لعبه «مطعم الكتاب» في بوخارست في حياتي. ما زلت أتساءل عمَّا إذا كان سبب فضولك الحقيقي هو حالات الانتحار الأخيرة التي حدثت في رومانيا، والتي أتت نتيجة مطالب ذات صبغة أدبية. تناولت مقالات قليلة في صحافة الغرب هذه *المغامرات* الرومانية النموذجية الناجمة عن عقد ثقافية عميقة. لكنها مقالات كانت كافية للفت انتباهك. إلا إذا كان بحثك عن بعض أنواع الزنك الشهيرة في أوروبا الغربية يمتد الآن إلى العدادات الأقل بريقًا في أوروبا الشرقية؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا سعيد جدًّا.

ثم أخبرتني بأنك قضيت ذات مرة وقتًا ممتعًا في مطعم معين في موسكو... ربما هو المطعم نفسه الذي وصفه بولغاكوف في *المعلم ومارغريتا*، وكان عبارة عن مؤسسة مخصصة، منذ الثلاثينيات، فقط لأعضاء اتحاد الكتاب السوفييت؟ أتعلم أن بوخارست كان لديها مطعم الكتّاب الخاص بها، والمصمم على طراز مطعم موسكو؟

في كل البلدان «الشقيقة» التي فرض فيها ستالين الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، تم تشكيل اتحادات الفنانين تحت السيطرة الثلاثية

للدولة والحزب والشرطة السياسية. ولم يعد أمام الكتّاب خيار سوى العيش تحت هذا الشكل الثلاثي من المراقبة، وهو ما لم يمنعهم من الاحتفاظ بجزء كبير من روح الدعابة، وحتى بشكل معين من الحرية. ومن أجل السيطرة عليهم بشكل أفضل، منحتهم السلطة الشيوعية بعض الامتيازات المادية: كانت لديهم كل أنواع الفيلات على البحر وفي الجبال، حيث يمكنهم الإقامة للكتابة، بالإضافة إلى صندوق أدبي يمكنهم اقتراض المال منه عند الحاجة، ومطعم خاص حيث يمكنهم تناول الغداء والعشاء مقابل مبلغ زهيد، أو ترتيب مواعيد أو حتى دعوة العائلة والأصدقاء.

بالنسبة إلى الشاعر والطالب الشاب الذي كنته عندما وصلت إلى بوخارست في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، أصبح «مطعم الاتحاد» بمثابة قلعة لا بد من دخولها. كان يوجد في الطابق الأرضي من قصر البويار القديم في أحد الشوارع الأسطورية للعاصمة الرومانية، وهو كاليا فيكتوري. شارع يماثل بالنسبة إلى بوخارست مكانة شارع ريفولي بالنسبة إلى باريس، هو بعبارة أخرى المحور التاريخي للمدينة. في مكان ما، في الرقم ١١٥، على ما أعتقد، كان هناك هذا القصر الصغير الرائع الذي يفوح منه عبق أرستقراطي قديم. بالنسبة إلى العارفين، كان يطلق عليه كاسا مونتيورو، وتفصله عن الشارع بوابة حديدية جميلة مع بابين صغيرين مهيبين. كان كازا مونتيورو أيضًا، في الوقت الذي بدأت فيه حياتي البوهيمية في بوخارست، يضم المقر الرئيسي لاتحاد الكتاب ومكتب تحرير مجلة مهمة مختصة في الأدب العالمي بعنوان *سيكولول ٢٠* .

ولم يكن لأحد من حيث المبدأ الحق في دخول هذا المبنى دون أن يكون مكلفًا بمهمة محددة أو حاملًا لبطاقة عضوية. وبعد البوابة، يعبر الزائر المحتمل حديقة صغيرة مشجرة مزينة بالتماثيل وصولًا إلى درجات المنزل. على غرار القصور الحضرية الغربية، صمم المهندس المعماري ممرًّا على شكل حرف U، بحيث يمكن للسيارات الدخول عبر البوابة، والتوقف أمام الدرجات، وإنزال الضيوف هناك ثم العودة إلى الشارع عبر البوابة المزدوجة. أمام كاسا مونتيورو، انشغل ذهني بصور تلك الحقبة الغابرة، عندما كانت نخبة مجتمع بوخارست تعيش على إيقاع الحفلات الراقصة وحفلات الاستقبال. كان في إمكاني بسهولة تخيل العربات الخاصة وعربات الأجرة، والسيارات الأولى في وقت لاحق وهي تسير أمام هذا المبنى المهيب، تخيلت رجالًا يرتدون البدلات الرسمية والقبعات ويقدمون أذرعهم إلى السيدات ذوات الفساتين الطويلة والقبعات البراقة لمساعدتهن على تسلق الدرجات قبل الدخول إلى القاعة الرخامية في كاسا مونتيورو والوصول إلى غرفة الاستقبال في الطابق العلوي. هذا القصر القديم الذي أصبح «بيت الكتاب» كان الشاهد الصامت على حقبة أنيقة ودنيوية، فترة كانت فيها رومانيا تتجه نحو الغرب وتتحول إلى الديمقراطية، في لحظة من تاريخها حيث كان ارتباطها بالشرق أقل، وأقرب إلى باريس وأوروبا.

كان وجودي بالقرب من كاسا مونتيورو كافيًا حتى يهتز بداخلي الشاعر البالغ من العمر عشرين عامًا، الذي وصل إلى بوخارست ليغزو العالم. مثل هذا البيت بالنسبة إليَّ المكان السري للحياة الأدبية الأكثر

كثافة في بوخارست. هناك، في مطعم بيت الكتاب، كان مؤلفون للكتب المدرسية حاضرين بشكل مباشر، هم الذين كنت أدرس نصوصهم منذ المدرسة الابتدائية. مجرد التفكير في شرب القهوة هناك ورؤيتهم مباشرة كان يصيبني بالقشعريرة، وتتسارع دقات قلبي. في الوقت نفسه، شعرت بأن هذا المكان ملكي أيضًا، وأنه عاجلًا أم آجلًا سيتعين على كاسا مونتيورو أن يقبلني أيضًا في أعماقه، في متاهة المكاتب والأبواب، وفي شرفة المطعم خلف القصر... حتى وإن كنت وقتها شاعرًا شابًّا بلا *أية* كتب منشورة، فقد بدأت مساري في الصحافة الأدبية الوطنية منذ سنوات قليلة وكنت أتردد على كل دوائرها (خاصة أشهرها «دائرة الاثنين») وألقيت الشعر الذي كتبته حيثما أمكنني ذلك، وبنشاط محموم تفاقم بسبب الرغبة في أن أكون تخريبيًّا قدر الإمكان... كان اسمي متداولًا بالفعل في عالم الأدب الطلابي، وكان من المعروف أنني كنت أيضًا جزءًا من مجموعة من الشعراء المتمردين، المصممين على عدم قبول أي ضغط أيديولوجي... لم أتقبل لا أنا ولا باقي أبناء جيلي فكرة التسوية الأدبية؛ كانت قصائدنا طازجة، متوهجة، شجاعة، حرة... لم يكن من قبيل الصدفة أن يدعمنا بعض النقاد ومحررو المجلات، ويقاتلوا من جانبهم ضد الرقابة للسماح بنشر قصائدنا والحفاظ على زخمنا. كان الشعر، عزيزي غي، من أجمل ما حدث لرومانيا خلال العقد الذي سبق سقوط الشيوعية.

أعود إلى كاسا مونتيورو. عندما توغلت أول مرة إلى أقصى نقطة في قلبه، أي داخل حدود المطعم، كان ذلك في ربيع عام ١٩٧٧. أتذكر هذه

اللحظة وسياقها تمامًا. لا يمكن لشاب مثلي أن يدخل هذا المختبر السري للحياة الأدبية في بوخارست، موقع البوهيمية والهذيان الأدبي والإنساني، إلا إذا تمت دعوته من قِبَل كاتب أو ناقد أدبي معتبر، وهو بالفعل عضو في الاتحاد وزبون قديم للمؤسسة. لم تستغرق الدعوة وقتًا طويلًا لتصل؛ لقد وجهها إليَّ رجل نبيل حقيقي، لورينسيو أوليسي، مكتشف المواهب الأدبية الذي لا يكل، ورئيس تحرير مجلة تسمى *كونتومبورانول*. وجدت نفسي، في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، في مكتبه بصحبة الشاعرة إيلينا شتيفوي، زميلة الجامعة والمنحدرة مثلي من شمال البلاد. انبهرنا أنا وإيلينا بهذا الرجل الذي قرأ قصائدنا واعتبرنا «مواهب مثبتة». لكنني أعتقد أن إيلينا كانت أيضًا مغرمة قليلًا بالناقد الأدبي العظيم الذي بدوره قدّرها لذكائها اللاذع والحيوي جدًّا. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها نفسي في مكتب التحرير حيث كان لورينتسيو أوليسي يجلس خلف مكتب ضخم، بين أكوام من القصائد أرسلها شعراء من جميع أنحاء البلاد ومجموعات من الكتب الواردة من دور النشر المختلفة. «هل تأتيان لتناول الغداء في اتحاد الكتاب؟» اقترح علينا فجأة. أحسست بأن دقات قلبي تتسارع. رباه، لقد وجدت نفسي أمام تجسد الحلم، كنت على وشك اتخاذ الخطوة الأولى في دائرة المبتدئين، والانطلاق في استكشاف عالم حيوي بالنسبة إليَّ. رأيت نفسي، مثل بيل أمي في رواية موباسان، الذي أبهرني كثيرًا في مراهقتي، على وشك ملامسة فرصة عمري.

بمجرد دخولي عالم البوهيميا الأدبية في بوخارست، شعرت فجأة بالأمان، فيما يشبه الغشاء الواقي. وكان مطعم بيت الكتاب مركز هذه

المجرة، وقلبها الرسمي. في هذا المكان الحامي تمرح كل أنواع الوجوه والشخصيات، كتاب من جميع الأعمار والكفاءات، شعراء حقيقيون وفنانون زائفون، نجوم الكلمة ومرتزقة الحروف في خدمة النظام، الشباب المتطلعون إلى المجد الأدبي والأقلام القديمة التي تآكلت إثر إدمان الشرب، موهوبون حقيقيون غرقت أذهانهم في طوفان الفودكا. ما أذهلني منذ البداية هو طبيعة المكان المماثلة لسفينة نوح، حيث كان من الممكن أن تجد على طاولتين متجاورتين، وأحيانًا على الطاولة نفسها، أشخاصًا مضطهدين، وآخرين ممن استفادوا دائمًا من الامتيازات التي يقدمها الحزب. بمعنى آخر، في نفس الغرفة، كان الكتاب الخاضعون والملتزمون يتنفسون الهواء نفسه (ودخان السجائر نفسها) وآخرون تحسب لهم سنوات طويلة من السجن لكونهم غير منضبطين، ومقاومين، ومناهضين للشيوعية. ما الذي يمكن، على سبيل المثال، أن يجمع بين أديب من المدرسة القديمة مثل بيتري توتا الذي فقد أسنانه في السجون الشيوعية وشاعر مثل يوجين جيبيليانو الذي كنت أعرف اسمه منذ أيام الكتب المدرسية؟ ومع ذلك، فقد قضيا وقتهما في مطعم بيت الكتاب. كان يوجين جيبيليانو أحد الشخصيات الرئيسية في المكان، وقد تم حجز طاولته في الزاوية الأكثر إستراتيجية بالمطعم، حيث يمكنه متابعة المشهد الإنساني الذي يقدمه الكتّاب، كما لو كان داخل غرفة تبديل الملابس، كل يوم الشيء نفسه، وكل يوم مختلف عن سابقه في آن. كان أيضًا من أوائل الذين يصلون ظهرًا إلى كاسا مونتيورو، أنيقًا دائمًا ونظيف الذقن، وله شارب مميز، على الطراز الإنجليزي. وشاع عنه أنه من أكثر الأشخاص تأثيرًا في دوائر السلطة. كانت له أسطورته؛ قيل إنه في شبابه، قبل الحرب

العالمية الثانية، تولى، كصحفي في حقبة الثلاثينيات، الدفاع عن شيوعي شاب حكم عليه بالسجن من قبل «الحكومة البرجوازية ورجال الأعمال» المسيطرة وقتئذ، ولكن تبين أن هذا الشيوعي الشاب المجهول هو نيكولاي تشاوشيسكو نفسه، الرجل الذي قاد رومانيا بين عامي ١٩٦٤ و١٩٨٩. ومن الصعب أن نقول ما إذا كان نيكولاي تشاوشيسكو، الذي أصبح السكرتير الأول للحزب الشيوعي الروماني ورئيس البلاد، قد تذكر في ذلك الوقت. هذه القضية وبالتحديد هذا الشاعر المسمى يوجين جيبيليانو الذي دافع في الصحافة عن الشباب الشيوعيين الذين *تعرضوا للاضطهاد* على يد النظام. من الصعب القول ما إذا كان الرئيس يتذكر مدافعه السابق أو إذا كان يوجين جيبيليانو هو من استطاع إحياء هذه الذكرى، فالحقيقة هي أنه بعد الحرب، تمت مكافأته على الخدمات التي قدمها إلى الشيوعيين وقت الحرب، عندما كانوا مضطهدين أو في الظل. هكذا أصبح الشاعر يوجين جيبيليانو نصبًا تذكاريًّا، وتمثالًا حيًّا، وكاتبًا رسميًّا احتفظ في الوقت نفسه بالحاجة إلى الانغماس في البوهيميا الأدبية... لم يعد يوجين جيبيليانو يكتب قصائد وطنية منذ فترة طويلة، وقد بدت الخدمات التي قدمها إلى الشيوعية عظيمة جدًّا إلى درجة أنه في الوقت الذي بدأت فيه التردد على كاسا مونتيورو، وجد نفسه معفيًّا من هذا الواجب، معفيًّا من هذا الالتزام. الآن كان يكتب قصائد لا بأس بها، وقد تكون شجاعة أحيانًا، ينتقد فيها نقص المواد الغذائية الذي ساد في رومانيا و«عبادة الشخصية». نظر إليه كثير من الكتاب بشيء من التدين، بل وبخوف معين... كانوا يعتبرونه «مريبًا»، لكنه مقبول بلا تحفظ، كان جزءًا من واجهة المطعم وعرضه اليومي، حيث يلعب دورًا رئيسيًّا، ما يعني اعترافًا رسميًّا به.

وعلى نفس القدر كان أولئك الذين يمكن للمرء أن يسميهم «دعامة المطعم». أحدهم هو الشاعر فيرجيل مازيليسكو، الذي أصبح أحد أصدقاء جيلي، عندما بدأ جميع شعراء «دائرة الاثنين» تقريبًا يترددون على مطعم بيت الكتاب. كان فيرجيل أحد الزبائن اليوميين ومن بين أولئك الذين يصلون منذ منتصف النهار، فتقدم إليه إحدى النادلات كأسًا من الفودكا فور جلوسه، دون انتظار الطلب حتى. كان فيرجيل مازيليسكو شاعرًا محترمًا، فقد قدم شعرًا مصقولًا ومكتوبًا بعناية. في السنوات الأولى من حياتي البوهيمية في بوخارست، كان يشبه نبيلًا إنجليزيًّا، بل ويشبه في الواقع الممثل ريتشارد تشامبرلين. كان فيرجيل مازيليسكو يقف وينحني محتفيًا بالنساء عند وصولهن إلى طاولته... أما نحن، الشعراء الذين كانوا أصغر منه باثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، فكان يتبنانا دون تحفظ، حتى أصبحت الطاولة التي يجلس إليها في أحيان كثيرة طاولتنا أيضًا.

لم يكن الدخول إلى اتحاد الكتاب فوضويًا، بل فقط من خلال إبراز بطاقة العضوية، ولم نمتلكها نحن الشعراء الشباب بعد، أي إننا لم نكن رسميًّا جزءًا من الاتحاد، وبالتالي لم تكن هناك وثيقة تثبت أننا كتاب، بما سيعطينا الحق في الجلوس إلى طاولة في المطعم. وتحول شابيرا، وهو موظف حكومي متعدد المهام (كان أيضًا مديرًا للمؤسسة)، على الأقل بالنسبة إليَّ، إلى حارس صارم وبلا مشاعر، أو الرجل الذي لن يسمح لك بالمرور بسهولة. كنت أعلم أيضًا أن إحدى مهامه كانت مطاردة وطرد جميع المساكين الطامحين إلى الشهرة، ولا يملكون بطاقة، ولكنهم يريدون الاستمتاع لمدة ساعة أو ساعتين بفضاء المطعم الدافئ وأجوائه المختلفة،

بالإضافة طبعًا إلى منتجاته الرخيصة التي يستحيل العثور عليها في السوق. كان شابيرا ينقض على المتسللين كالنسر ويسألهم ليعرفوا بأنفسهم على الفور ويثبتوا مكانتهم كأعضاء في الاتحاد... وكانت الفرصة الوحيدة لهؤلاء الطامحين إلى دخول الحياة الأدبية هي القول: «أنا مدعو من الكاتب فلان أو علان»، الأمر الذي خفف من حدة شابيرا، خاصة إذا أشار إليه الكاتب الفلاني مؤكدًا له أن الشاعر الشاب المجهول الذي يرتجف مثل ورقة الشجر كان له بالفعل مكان إلى طاولته. كان شابيرا هاجسًا حقيقيًّا بالنسبة إليَّ لفترة طويلة، كان الرقيب رقم واحد، الرجل الذي منعني من دخول جنة مطعم بيت الكتاب. بالطبع، عندما قلت العبارة السحرية «لديَّ موعد مع السيد فيرجيل مازيليسكو»، استرخى وجه شابيرا قليلًا وسمح لي بالمرور لدخول العالم المرغوب لهذا النادي. ولكن كانت هناك عدة مرات وليت فيها الأدبار، إما لأن فيرجيل مازيليسكو لم يكن هناك أو لأن شابيرا رفض السماح لي حتى بالتحقق لمعرفة ما إذا كان صديقي المزعوم موجودًا إلى إحدى الطاولات في المطعم. أميل إلى الاعتقاد بأن شابيرا هذا، دون أن يكون رجلًا سيئًا من الأساس، سمح لنفسه بأن تسكره سلطته الخاصة (التي كانت محدودة)، بقدرته على قول: لا، لشاب مرعوب ومنعه بالتالي من الدخول، فقط لإزعاجه هكذا، لأن هذا هو الأسلوب الذي جعل به شابيرا نفسه «محترمًا».

أدرك شابيرا أيضًا أن أي شاعر شاب لن يتخلى عن إغراء أن يصبح يومًا ما من رواد المطعم، وأن هذا المعقل عاجلًا أو آجلًا سوف يغزوه العنيدون جدًّا. وهذا ما فعلناه نحن شعراء سنوات ١٩٧٦-١٩٧٧...

البعض منا باستغلال الروابط العائلية، والبعض الآخر بفضل سعة الحيلة أو الفوز بصداقة كاتب كبير في السن، وهكذا وجدنا جميعًا طريقة للمشاركة. كان لدينا انطباع بأنه في هذا المكان الآسر صنعت ودمرت أقدار الأدب الروماني.

كان مطعم كاسا مونتيورو عبارة عن نادٍ مغلق (وإن سمح بمرور الأعضاء الجدد)، ومساحة مخصصة للثرثرة عن العالمين السياسي والأدبي، ومكانًا يتم فيه تنظيم الحفلات والتنفيس عن الغضب، وساحة للمواجهة بين الأذكياء، والتنافس على إغراء النساء، ومقصفًا حيث نأكل طعامًا جيدًا، والأهم، حيث يمكننا استهلاك الكحول عالي الجودة، هو نوع من المحمية الثقافية حيث يمكن بسهولة إبقاء الكتاب والفنانين تحت المراقبة، ومركزًا لتبادل المعلومات الأكثر تنوعًا (ابتداء بالأدب ووصولًا إلى الحيل التقنية المرتبطة بالبقاء حيًّا في ظل الشيوعية)، هو متحف حي للعبقرية الفنية الرومانية، وحجًّا لمعظم كتاب البلاد، وأيضًا للمحترفين من مجالات أخرى (من الممثلين والرسامين والأكاديميين والباحثين). كان المطعم في كاسا مونتيورو أيضًا بمثابة حوض أسماك، حيث توجد أسماك حمراء هادئة وأسماك قرش كبيرة مبتسمة، وضفادع برك صاخبة وأسماك المنشار الصامتة الحذرة، واللافقاريات التي تعيش فقط في زمن المواسم الأدبية والحيتان الخالدة، والعلق الهادئ وأفراس البحر الحقيقية، حوريات البحر الحلوة وقناديل البحر السامة... كان من الواضح أن بعض أولئك الذين أتوا إلى هناك كانوا فريدين من نوعهم، وأناسًا يتمتعون بالصفة المأساوية لكونهم آخر الأمثلة على جنسهم.

شاعر مثل تيودور جورج، يستطيع أن يكتب السوناتات عند الطلب، ويصرخ عندما يكون في حالة سكر: «آهوي»، كان بلا شك آخر ممثل لنوعه. وآخر مثل بوكا، الذي لم يسبق لأحد أن رأى لوحة قماشية واحدة له، وكان فريدًا بطريقته الخاصة، وآخر من يمثل فئة الفنانين المتسولين. أي شخص يرى بوكا، الذي كشف أنفه عن علاقة طويلة مع الكحول، يدرك على الفور ما تعنيه البوهيمية القاسية، التي تتجول إلى ما لا نهاية ولكنها تستقر أيضًا في التيه... في مجتمع بيت الكتاب، حرص الجميع على تعزيز أساطيرهم، وتلميع شخصياتهم وتاريخهم. على أية حال، تحت أعين الشاعر الشاب الذي كنته عام ١٩٧٦، كان الجميع *أسطورة حيّة* في هذا المطعم التابع لاتحاد الكتاب. شخصية عظيمة أخرى، الشاعر نيشيتا ستانيسكو، ولعله أهم صوت غنائي ولد في رومانيا في النصف الثاني من القرن العشرين. تخيل رجلًا يبدو وكأنه يطير تقريبًا... عابر يتجاوز الشيوعية، غير مبال بالواقع، منشغلًا فقط بابتكاراته اللغوية التي أذهلت الجميع... عندما ظهر نيتشيتا (الجميع يطلقون عليه هذا الاسم) أحدث نوعًا من الاهتزاز في الهواء، فأصبح الجو مشحونًا فجأة بالروحانيات. كانت لدى نيتشيتا *هالة* بدأت في التألق. أما أولئك الذين استقبلهم عند طاولته فقد أصبحوا فجأة مميزين، كما لو تم قبولهم في الدائرة الأولى لشخص مستنير، *لمعلم* تقبل دعواته بلا نقاش.

لكنني سأتوقف هنا عن استحضار هذه المشاعر البعيدة. وإذا قررت، عزيزي غي، زيارة رومانيا ذات يوم، فأنا على أتم الاستعداد للعمل كمرشد لك.

(٤٥)

مكتبة
t.me/soramnqraa

اعتقدت أن الجلاد سمح لنفسه بأن يعد لي حلمًا إيجابيًّا ينتهي فيه كل شيء على ما يرام. لكن هذا الحلم لم يكن إيجابيًّا ونهايته سعيدة ظاهريًّا فقط. سأحكي تفاصيل الحلم وأنتظر الحكم عليه.

كنت في طائرة في حالة سقوط حر. كانت طائرة ضخمة، وهي إحدى الطائرات المستخدمة في الرحلات عبر المحيط الأطلسي. كنت بالقرب من النافذة، حتى أتمكن من مشاهدة ما يحدث في الخارج. لم أرَ الكثير في الواقع، باستثناء السحب البيضاء. جرت الرحلة في وضح النهار، وعندما بدأت الطائرة في السقوط، جلست في الصف الأمامي لرؤية كل شيء. ما رأيته كان بمثابة شلال هوائي، كما لو أنني سقطت في قمع ضخم من الماء، لأن الهواء صار سائلًا تقريبًا وبدأ يتدفق أمامي.

بدت الثواني طويلة جدًّا، وشعرت باهتزازات الطائرة في كل جسدي، وفي لحظة ما أغمضت عيني. ربما لم أرغب في رؤية كيفية سقوطي، كل ما كان عليَّ فعله هو سماع الصراخ والذعر على متن الطائرة. فكرت على الفور في الموت، ربما لم يتبقَّ لي سوى دقيقة واحدة للعيش.

كان من الواضح أنه لا يوجد شيء يمكن أن يوقف الطائرة، وكنت على وشك الموت، ولم يتبقَّ لي سوى ستين ثانية للاستعداد للارتطام النهائي. ثم قررت أن أمزق ورقة من دفتري وأكتب رسالتين لزوجتي وابنتي. لم يكن الأمر سهلًا في هذا السقوط الحر، ارتجفت يدي، وانتهى الأمر بالحروف متناثرة على الورق. ولكن كان لديَّ الوقت لأكتب على صفحات منتزعة بغضب «أحبكما» و«أحبك» أكثر من مرة. بدا السقوط أطول من اللازم، لكنني عزمت على أن أموت وأنا أكتب هذه الكلمات، فواصلت انتزاع الأوراق من المذكرة وكتابة «فكرت فيكما حتى آخر لحظة» أو ببساطة أكبر «أحبكما، أحبكما» أكثر من مرة، مع كتابة اسمي في النهاية. ومع تمدد الثواني إلى أقصى حد، كان لديَّ الوقت، أثناء كتابة هذه السطور القليلة، لأقول لنفسي إننا في نهاية المطاف لن نغرق في البحر، بل سنصطدم بالأرض، وبالتالي فإن هناك إمكانية ما لوصول هذه الكلمات إلى متلقيها، هؤلاء الذين أحببتهم.

كانت بضع عشرات من الصفحات التي تحمل آخر أفكاري تطفو حولي، عندما لمسني شخص ما، فبدا الأمر كما لو أنني أُخرجت من حلم. في الواقع، في هذياني، ورغبتي الملحة في ترك فكرة أو شيء ما خلفي، أثر ما بعدي، لم أدرك أنني كنت أكتب وعيناي مغمضتان. عندما فتحتهما أخيرًا (وأنا لا أزال في حلمي)، رأيت أمامي مضيفًا ومضيفة طيران. لم أكن أعرف لماذا كان الاثنان يحاولان جاهدين تهدئتي، بدا الأمر سخيفًا بالنسبة إليَّ، لأن الطائرة واصلت سقوطها. حاول عضوا طاقم الطائرة منحي أخبارًا جيدة، وهي أنه لم يعد هناك أي خوف من

السقوط، لأنه لم يكن عطلًا بل هجومًا، أحبطه الطيار في النهاية. في تلك اللحظة بالتحديد، *انقلبت* الطائرة، وحلقت ورأسي إلى الأسفل لبضع ثوانٍ، ثم قلت لنفسي فجأة، مفعمًا بالأمل: «إذن، لم يكن حادث تحطم، أراد الطيار فقط إرسال الإرهابي ليصطدم بالجدران». في الثواني التالية، هدأ كل شيء، رأيت الأرض تقترب من خلال النافذة، والطائرة تحلق الآن في ظروف السيطرة الكاملة... ثم كان الهبوط، والاتصال السلس بالأرض، لقد نجوت من الموت، ولكن ليس من بعض المشاعر المتناقضة. لم أخجل من ردود أفعالي في اللحظات التي سبقت موتًا وشيكًا، لكن شيئًا ما أزعجني...

حسنًا، هنا أطلب من القارئ أن يصدقني؛ قبل استيقاظي حتى، فكرت في الجلاد والوضع المتناقض الذي وضعني فيه عمدًا لإذلالي. ومن الواضح أنه لا يمكن لأحد أن يحلم بموته حتى النهاية. كيف تحلم بالموت في حادث تحطم طائرة؟ مستحيل. لكن الجلاد كان يعلم ذلك، ومن هنا أتت النهاية السعيدة الزائفة لحلمي. عبر خيانة أنيقة، سمح لي أن أفرح بلا معنى بهذه *النهاية السعيدة* لحلمي فأنسى بذلك للحظة أن هذه النهاية المحظوظة كانت في الواقع حتمية.

ولهذا السبب فأنا اليوم أكثر غضبًا من الجلاد. بدا لي أن إصراره على هذه المتعة، على حسابي، أمر في غاية القسوة. أن يدفعني إلى الشعور بالخوف من الاصطدام ثم «إنقاذي» في آخر لحظة، علمًا بأنني لن أدرك إلا بعد ذلك أن الموت مستحيل في الحلم، هذه مخيلة شيطانية حقًّا.

بالنظر إلى ملاحظاتي المكتوبة على عجل كل صباح تقريبًا، تمكنت

من إنشاء فئة جديدة من الأحلام، تسمى «الهدايا المسمومة». الأجدى ربما أن أقول: «أحلام مسمومة»، وكلها «أخبار سارة» مزيفة.

وهنا مثال بريء آخر. استيقظت ذات صباح وأنا أحلم بأن لديَّ شقة رائعة. كنت وحدي وقد قمت بزيارتها، غرفة بعد غرفة. أعجبت بها كما لو أني أزورها للمرة الأولى، كما لو أن زوجتي، بعد أن اعتنت بها، قالت لي: «تعالَ وانظر كيف ستبدو». كانت الشقة عبارة عن دوبلكس ضخمة، ولها شرفة في الطابق العلوي. ومن الشرفة، كان في إمكاني رؤية زقاق ضيق للمشاة، كما لو كانت الشقة في المركز التاريخي لمدينة مليئة بالنشاط. في مرحلة ما، بدأت الريح تهب وبدأت في جمع كل أنواع الأغطية الناعمة والقمصان البيضاء... علقت زوجتي ستائر من الكتان وملابس بيضاء لتجف. عندما التقطتها، شعرت بها *ترتجف* في يدي، بل وراودتني الرغبة في دفن أنفي في كومة الأقمشة المعطرة ذات الأنسجة المختلفة، التي جففتها الريح...

سحرتني هذه الشقة واستنتجت أنها جديدة، وأن معجزة ما حدثت في حياتنا حتى نصل إلى مستوى آخر. لكن أيمكن الاعتقاد أن الجلاد سيترك هذه الفرحة سليمة حتى نهاية الحلم؟ لا بد من أن يكون هناك *خلل* في مكان ما، *مشكلة*، خيبة *أمل*. وقد تأخر ظهور هذا *الخلل*. أثناء استكشاف الطابق الأرضي، اكتشفت بذهول أن الجدار الأمامي كان في الواقع... حاجزًا. من الممكن أن يدفعه أي شخص ويدخل إلى منزلنا أثناء غيابنا أو نومنا. شعرت بالذعر فجأة، معتقدًا أن حواسيبي المحمولة لم تكن آمنة، وبالتالي لم تكن *أعمالي* الأدبية آمنة أيضًا. قمت، على

مر السنين، بتجميع العديد من الحواسيب في المنزل، من أجيال مختلفة، كبيرة وصغيرة، بما في ذلك حاسوب صغير أستخدمه عندما أسافر بالطائرة. كيف كان من الممكن ألا تدرك زوجتي أننا معرضون لوجود دخلاء؟ سألت نفسي في حلمي الذي تحول من السعادة إلى القلق. هكذا استيقظت، قلقًا، وأقول لنفسي إنه يتعين عليَّ القيام ببعض الإصلاحات، وبناء جدار حقيقي في الشارع، في غرفة الطابق الأرضي...

بينما أقوم بتدوين أحلامي كل صباح، أتساءل عمَّا إذا كان الجلاد يعرف ما يفعله. هل يراقبني أيضًا في مرحلة ما بعد الأحلام؟ هل يعلم أنني أرتبها وأصنفها بعناية؟ هل يعلم أنني أفعل كل هذا على أمل بناء جسر ما للعثور عليه؟

لقد أعددت جدول أحلام معياره هو *الشعور الشديد بالإحباط*. هو مقياس ريختر للأحلام، يعتمد على نموذج قياس الظواهر الزلزالية. الحلم الموجود في الخانة ٥ هو الحلم الذي يثير شعورًا بالإحباط الشديد والقوي إلى درجة أنه يوقظني بإحساس عميق بالظلم. تحتوي الخانة ٤ على أحلام تسبب شعورًا قويًا بالإحباط، ولكن على خلفية ظروف مخففة. هذه هي حالة الحلم الذي استفاد من ممتص الصدمات الطفيف، لمسة من الفكاهة على سبيل المثال. تحتوي الخانة رقم ٣ على أحلام صغيرة، أحلام ذات إمكانات متواضعة، هي تبدو أشبه بالنكات، أو الحماقات، وتفشل في الوصول إليَّ بعمق أو إثارة أي شعور بالإحباط في داخلي. الخانة رقم ٢ مخصصة للأحلام الغريبة والمحكمة، هي أحلام لا تبدو عدائيتها واضحة. عمومًا، أحتاج إلى وقت لهضمها وتفسيرها وتحديد كمية سمومها.

أما بالنسبة إلى الخانة رقم ١ فهي مميزة جدًّا. في هذه الفئة توجد مشاهد حقيقية أصبحت أحلامًا.

سأقدم هنا مثالًا.

في بداية هذا العام، مر صديق طفولة، مقيم في كندا، عبر باريس. لم أره منذ خمسة عشر عامًا، لذلك تحدثنا لفترة طويلة، واستمتعنا بوجبة عشاء في الخارج، وفي إحدى الأمسيات ذهبنا لمشاهدة عرض في ملهى قبل أن نواصل حتى الساعة الثانية صباحًا في حانة جميلة في منطقة الهالس. ونظرًا إلى أن الفندق الذي يقيم فيه لم يكن بعيدًا جدًّا عن *ساحة إيطاليا* حيث أقيم، فقد ركبنا سيارة الأجرة نفسها، وكنت سأنزل منها أولًا وسيواصل هو الرحلة إلى أليزيا. في بعض الأحيان، لا يكون من السهل العثور على سيارة أجرة إلى شارع ريفولي في الساعة الثانية صباحًا، لكننا كنا محظوظين، فالسيارة الأولى التي مررنا بها عند مغادرة الحانة كانت متاحة. وصلنا، وطلبت من السائق أن يذهب أولًا إلى *ساحة إيطاليا*، فسألنا عن أصلنا بسبب لهجتنا... ولمدة دقيقة، سار كل شيء بسلاسة، ولكن بعد ثلاث أو أربع جمل، بدأ السائق بالسعال. كان سعالًا رهيبًا، مثل سعال مدخن مصاب بمرض عضال. ألقى صديقي نكتة حول موضوع التدخين، قد تكون «أنا أيضًا أسعل بهذه الطريقة من وقت إلى آخر»، إلا أن نوبة سعال السائق لم تنتهِ... بل بدا على وشك بصق رئتيه أمامنا، وهو يواصل، بطريقة مثيرة للإعجاب، قيادته البارعة. ثم اقترحت عليه أن يشرب بعض الماء، ففعل وكأنه كان ينتظر اقتراحي. ولدهشتي الكبيرة، كانت لديه قنينة في مقعد الراكب، وبدأ في

شربها مع استمراره في القيادة بيده اليسرى. لم نكن نعرف ما الذي كان في حنجرته، أو في قصباته الهوائية، أو في رئتيه، ولكن بدا من المستحيل أن يهدأ أو يتوقف، واستمر الرجل في السعال والبصق في المناديل التي سلمها له صديقي. وعلى جسر أوسترليتز، أصبحت نوبة السعال فظيعة جدًّا، ثم انتهى به المطاف إلى استخدام المكابح والتوقف، وفتح الباب، ثم خرج وبدأ يتقيأ.

بعد خمس دقائق، عندما نزلت من السيارة وودعت صديقي (كان مسافرًا إلى مونتريال في اليوم التالي)، سمعت مرة أخرى صوت نوبات السعال التي لا نهاية لها للسائق. ما بدا لي في ذلك الوقت مضحكًا وغير عادي تمامًا تحول إلى سبب للقلق إلى درجة أنني عندما صعدت إلى شقتي، قلت لنفسي: «ما الذي يمكن أن يحمله هذا الرجل في رئتيه؟ ما نوع البكتيريا؟ ماذا لو كان قد نقل لنا جراثيمه المعدية؟»

غفوت مستسلمًا لهذه الأفكار، ثم أدركت أن حادثة السائق الذي اهتز بسعال لا يهدأ قد استمرت في حلمي. المشهد بكامله تكرر بحذافيره، منذ لحظة خروجي من الحانة، بواسطة عقلي الذي كان وقتها في حالة سبات عميق، وكأنني طلبت مشاهدة فيلم قصير مرة أخرى. كان هناك نوع من التغيير في عقلي الباطن، ولكن مع التركيز في الخوف من الإصابة... «وماذا لو كنت قد استنشقت عبر هواء سيارة الأجرة، هذه الميكروبات أو المخلوقات الصغيرة التي تعذب السائق؟» قلت لنفسي. وعندما استيقظت في الصباح الباكر، تأثرت كثيرًا بهذا الحلم إلى درجة أنني لم أتذكر على الفور أنه تتمة لواقع حقيقي...

فقط عندما راجعته للمرة الثانية، حتى لا أنسى كتابته أثناء الإفطار، شعرت بذلك الكشف المزعج عن أن حلمي امتداد للأحداث الحقيقية التي وقعت في اليوم السابق...

لا أريد استخلاص أية نتيجة من هذه القصة. خاصة أنني لم أعد متأكدًا من أي شيء؛ ألم أبدأ مثلًا بكتابة أحلامي في حالة نشوة، وأنا غير مستيقظ تمامًا؟ إن شعوري بأن الآخرين ينظرون إليّ وأنا أحلم وأقوم بتدوين أحلامي يقودني إلى الاعتقاد بأن حياتي بشكل عام هي عرض أحلام أمام شخص آخر. كم عدد الأشخاص الذين جلسوا في صالة السينما حيث عُرضت أحلامي؟

(٤٦)

سيدي العزيز،

يؤسفني أنك لم تتابع «الحكاية الأمريكية». قد يصبح كين وبيتي شخصيتين مثيرتين للاهتمام، خاصة بسبب الإطار العام. توفر أمريكا ديكورًا طبيعيًّا وبشريًّا لا مثيل له، بحيث يصبح كل ما يحدث هناك تقريبًا ذا خصوصية آسرة. وهذا أيضًا أحد أسباب نجاح الرواية الأمريكية في أوروبا وبقية أقطار العالم. لقد استحوذت على أذهاننا بالفعل كل تلك الصور والمشاهد الحياتية القادمة من الجانب الآخر للمحيط الأطلسي. وهكذا تحول عقلنا الباطن إلى مستعمرة أمريكية. فهم بعض مؤلفيها ذلك، وبدءوا يكتبون بهدف التصدير. يكتب بول أوستر وفيليب روث منذ زمن طويل مستهدفين القراء من خارج أمريكا، خاصة أوروبا، حيث لا يزال لدى الناس بعض الوقت للمطالعة.

لهذه الأسباب، أشجعك بشدة على مواصلة الكتابة عن كين وبيتي وبالتالي تأليف رواية أمريكية. الصحراء إطار مميز، حيث يمكن لكثير من الأمور أن تحدث... استنتجت مما أرسلته إليَّ أن الشخصيات تتحرك في مكان ما في نيفادا، نظرًا إلى وجود حديث عن كازينو. أعجبتني

قصة كوكوبيلي حقًّا، خصوصًا وأنها لم تكن مختلقة. في أمريكا، ما تزال الروايات «العرقية» رائجة، لذا إذا قمت بتطوير الأحداث، مستحضرًا الهنود الحمر أو التقاليد القديمة، بالإضافة إلى بعض الاستعارات الغامضة، فسيكون الرهان ناجحًا. على أية حال، أنت تتجه نحو نوعية أفلام الطريق، وهي نوعية لا تبلى أبدًا. عندما تركب شخصيتان السيارة لعبور أوروبا، لا يمثل ذلك أي حدث غير عادي. إنها مجرد رحلة. أما عندما تركب نفس الشخصيتين السيارة نفسها عبر الطريق ٦٦ الرابط بين لوس أنجلس وشيكاغو، فهذا يعني فتح باب الأسطورة. في أمريكا، الفضاء شخصية في حد ذاته. كما أن الرواية الأميركية، وإن كانت لها حمولتها النفسية، فهي رواية الفضاءات الكبرى، رواية مفتونة بالمكان، عكس الرواية الأوروبية المفتونة بالزمن. طور هذان العالمان الروائيان أدوات اكتشاف مختلفة. يبدو الأمر كما لو أن أحدهما أحادي المنظار بينما الآخر مزدوج. ليس هناك ما هو أكثر نموذجية في الرواية الأوروبية من بروست وبحثه عن الزمن الضائع، وليس هناك ما هو أكثر نموذجية في الرواية الأمريكية من على الطريق لجاك كيرواك.

سيكون من المناسب جدًّا لشخصيتي كين وبيتي أن تتجولا في الصحراء، لكن دون أن تكونا بعيدتين عن لاس فيغاس. مهما قال المرء عن هذه المدينة، أو بشكل أكثر دقة عن هذا الشكل من الجنون البشري (عن انتمائها إلى فئة الكيتش سيئة الذوق، وكيف تنبعث منها رائحة المال الفاسد، وما إلى ذلك.)، فإن ذلك لن يمحو الحقيقة: أن لاس فيغاس عرض باهر ومدهش. إن حقيقة أن سدوم المبالغات وعمورة ألعاب

الحظ هذه قد نبتت في وسط الصحراء هي في حد ذاتها استعارة فريدة من نوعها. لا داعي إلى توجيه نقد اجتماعي في لاس فيغاس، فما يحدث هناك يتجاوز الخير والشر، بل هو دليل قاطع على أن الإنسان مجنون من الأساس، وغير عقلاني، ومصاب بجنون العظمة، ومفرط في اختياراته، وانتحاري، ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته.

أتذكر رحلتي الأولى إلى لاس فيغاس والأثر الهائل الذي تركته في نفسي. كنت قادمًا بسيارتي من لوس أنجلس، وقيل لي إنني سأجتاز صحراء موهافي. حضرتني مخيلتي لأربع أو خمس ساعات من القيادة في أحد الطرق المهجورة التي لا نهاية لها، والمنتشرة بكثرة في الأفلام الأمريكية: صبار وصخور على الجانبين، مضخة غاز مغبرة كل ثلاثين ميلًا، سلاسل من الصخور الزرقاء في الأفق، ومن وقت إلى آخر شاحنة بصهريج قادمة من الاتجاه المعاكس... لكن ما حدث في سفري هذا، بين لوس أنجلس ولاس فيغاس، هو متابعتي لمشهد بشري مختلف تمامًا. مشهد بشري على شكل طابور متواصل من السيارات المتجهة إلى لاس فيغاس وطابور متواصل آخر من السيارات القادمة من لاس فيغاس. إذن، لم أكن وحدي على الإطلاق في صحراء موهافي، فقد تبين أن الطريق السريع أقرب إلى عش نمل حقيقي. مئات الآلاف من الأشخاص كانوا يتنقلون بجنون بين هذا التجمع الحضري الشاسع الذي يُدعى لوس أنجلس وهذا التكتل الكبير من الكازينوهات الذي يُدعى لاس فيغاس. طابوران بشريان متقابلان يواصلان السير بلا انقطاع: الذاهبون لتبديد أموالهم في لاس فيغاس، والعائدون بعدما

بدووا أموالهم في لاس فيغاس. وبحلول المساء، اكتسب المشهد قوة أكبر، وصار أقرب إلى السراب. منتصف الليل، وما زالت آلاف المركبات تعبر الصحراء، مواصلة سيرها على هذا الشريط اللامتناهي من الأسفلت، الذي تحول إلى ما يشبه الشريان الحيوي بين ساحل المحيط الهادئ ونقطة معينة في الصحراء، حيث تتلاقى كل الخيالات والأحلام. إنها مركز أحلام العالم، عاصمة سراب الكوكب، المكان الذي يأتي إليه الناس، بمفردهم أو مع عائلاتهم، للانغماس في خيالات كل الألعاب النارية المتوفرة، وما يشبه الغوص في أعماق نافورة هائلة، بآذان مفتوحة على مصراعيها، لسماع الموسيقى السماوية للمال.

يستحق الأمر خوض التجربة، والاستماع إلى الموسيقى المخدرة لكازينوهات لاس فيغاس، والانتقال من مكان إلى آخر، والسماح بأن تخترقك هذه التعويذة. ما يوقظ في داخلك نوعًا من القوة التي تنمو تدريجيًّا، كما لو كنت تستمع إلى عزف فلكي، أو رسالة كونية... لكن الموسيقى المحيطة يتخللها رنين معدني: مئات الآلاف من الرموز المميزة التي تدور باستمرار حول آلاف الفتحات المصطفة مثل روبوتات فضائية. كل ما عليك فعله هو المرور عبر هذه الصفوف اللامتناهية من الروبوتات، وستشعر بالرغبة في مواجهتها، بل وستشعر بيقظة الإنسان الخارق النائم بداخلك... هيا، اغتنم الفرصة، وسط هذا المطر الغزير من المال، لك فرصتك أيضًا، يمكنك أن تغادر وجيوبك ممتلئة، فقط إذا استمعت إلى غريزتك، ربما - ربما أتت اللحظة التي سيعبر فيها الحظ طريقك دون أن تعرف... فحقيقة أنك وصلت إلى هذا الحد تعني أنك سمحت لنفسك

بالانجراف وراء شغف مكبوت ظلمًا، وهذا ليس جيدًا، فسوف تؤدي الإحباطات المتراكمة إلى تآكل كل ما هو قوي بداخلك في نهاية المطاف، ومن الأفضل أن تغادر غدًا وأنت متأثر بمخلفات السكر وتفقد كل مدخراتك على أن ترفض الآن، في هذه الثانية، لقاءك مع الحظ، مع الإنسان الخارق بداخلك، ومع القوى الكونية، والنشوة العظمى للكسب المادي...

لكنني انحرفت هنا عن مقصدي الرئيسي...

لم أكن أرغب في الحديث عن لاس فيغاس، بل عن الرواية الأمريكية، الرواية أمريكية الأسلوب التي تستحق كتابتها. تخيل قميصين قطنيين، متطابقين تمامًا، وبالجودة ذاتها. إلا أن علامة إحداهما تذكر: «صنع في الولايات المتحدة الأمريكية» والأخرى «صنع في رومانيا». وبالسعر نفسه، سيختار الجمهور المنتج الأول، المنتج الذي تم تصنيعه في الولايات المتحدة، على الرغم من أن هذه الكلمات، صنع في الولايات المتحدة، ستظل غير مرئية إلى الأبد عن أعين الآخرين، ومكتوبة على ملصق داخلي صغير. حتى لو كان القميص المصنوع في الولايات المتحدة الأمريكية أغلى قليلًا من القميص المصنوع في رومانيا، فإن تفضيل المشتري سيكون تجاه الأول. إن ارتداء علامة أمريكية يشبه الاحتفاظ بفتحة سرية لحلمك. كذلك الأمر مع الرواية الأمريكية. عندما تدور أحداث قصة حب في مدينة كانساس، تصبح تلقائيًا أكثر روعة مما لو كانت أحداثها في مدن ليون أو براتيسلافا أو تيميسوارا. لدى عامة الناس مصابيح كهربائية صغيرة في رؤوسهم وأعينهم، تومض بمجرد ظهور اسم أو رمز أمريكي في الأفق. كلمات مثل: نيويورك، شيكاغو،

نيفادا، كاليفورنيا، بوينغ، دولار، البيت الأبيض، غربي، وجبات سريعة، إلخ. أصبحت لعامة الناس قيمًا في حد ذاتها: بما يعني هذا هو الخير، الجمال، الشرف، المغامرة، الشجاعة، البصيرة، الاكتشاف، المبادرة... وقد جرى استبدال بالمفاهيم الفلسفية القديمة تدريجيًّا مصابيح النيون. وهذا هو السبب في أن كل المصطلحات الغامضة أو أسماء الأعلام أو حتى المفردات الإنجليزية في ترجمات الروايات الأمريكية المنشورة هنا تثير نوعًا من الإثارة المرتبطة حصرًا بالأصالة. لذلك لا تتردد في دمج مثل هذه العناصر في السرد، *life* على سبيل المثال.

تخيل هذه الترجمة لإحدى الجمل الأولى، من رواية جاك كيرواك، على الطريق: «مع وصول دين موريارتي، بدأ فصل من حياتي، يمكن أن نطلق عليه *life on the road*. سابقًا، كنت أحلم بالذهاب إلى الغرب لرؤية البلاد، ودائمًا ما كنت أضع خططًا ضبابية لم أنفذها أبدًا. بالنسبة إلى الطريق، فإن دين هو الرجل المثالي، لأنه ولد هناك، على الطريق، في سيارة، بينما كان والداه يعبران سولت ليك سيتي في عام ١٩٢٦ للوصول إلى لوس أنجلس».

تخيل الآن، ولو للحظة واحدة، أن هذه الجملة مكتوبة في بلد أوروبي، وقد تم تكييفها مع الجغرافيا المحلية وشخصيات السكان الأصليين.

«مع وصول رادو دولرانو، بدأ فصل من حياتي، يمكن أن نطلق عليه *viata pe drum*[1]. سابقًا، كنت أحلم بالذهاب لرؤية دوبروجا،

---

(١) *Viata pe drum*: «حياة على الطريق» بالغة الرومانية. (المترجم)

ودائمًا ما كنت أضع خططًا ضبابية لم أنفذها أبدًا. بالنسبة إلى الطريق، فإن رادو هو الرجل المثالي، لأنه ولد هناك، على الطريق، في سيارة، بينما كان والداه يعبران جبال فاغاراش في عام ١٩٢٦ للوصول إلى بيتيستي».

ما رأيك؟ لقد سمحت لنفسي باستلهام جغرافيا البلد الذي تنحدر منه، وآمل ألا يزعجك ذلك.

تفضل بقبول فائق الاحترام،

برنارد

(٤٧)

لا تقرئي هذه القصيدة على وجه الخصوص يا آنسة ري
إنها قصيدة وقحة
كتبت نفسها بنفسها
دون أن تطلب الإذن من أحد
إنها قصيدة تفعل ما تريد
تقبلك كيفما تريد
وبالقدر الذي تريد
تنزلق فوقك كما تريد
وتظل ملتصقة بالموضع الذي تريد، طالما تريد وإذا كانت أصلًا تريد
إنها القصيدة الخليعة
التي تهوى الكلمات المحرمة
القصيدة القادرة على البقاء إلى الأبد
في شق نهديك

وترك نكهة الجوز الأخضر في شفتيك
وغرز نفسها بقوة، مثل فرجار
في بظرك
لكي ترسم دوائر مرتعشة
بمركز واحد
وإلى ما لا نهاية

أتمنى، يا آنستي، ألا تكوني قد واصلت القراءة
حتى هذه السطور
أما إذا قرأت هذه السطور
فهذا يعني أن الأوان قد فات
تقوم القصيدة الآن بتعريتك، وبتمهل شديد
بالتمهل الذي تريد
مثلما تريد
كيفما تريد
ولمن تريد

(٤٨)

في الليلة التي قررت فيها الانتقال للعيش معي بشكل دائم، تحولت الآنسة ري إلى نسختين. قد تبدو هذه الجملة غامضة، لكنها الحقيقة فعلًا. يجب استيعاب هذه الكلمات حرفيًّا. لقد تحولت الآنسة ري إلى نسختين جسديتين. وبعبارة أخرى، عندما استيقظت في الصباح، كنت في السرير مع نسختين من الآنسة ري.

لم يفاجئني قرار الآنسة ري بالانتقال للعيش معي. لقد استمرت علاقتنا بالفعل لمدة ستة أشهر، وتكررت لقاءاتنا بوتيرة أعلى. بل سأقول إن الانفصال بيننا صار أكثر صعوبة. حقيقة أن لنا منزلين («أو عشين» كما تسميهما الآنسة ري) كانت أمرًا مثيرًا جدًّا. كنا نقضي ليلتين أو ثلاث ليالٍ في الأسبوع معًا. ولفترة طويلة، كان اختيار العش بمثابة تجسيد لطقوس التناوب؛ ليلة في منزلي، وليلة في منزلها. «لا أحب النوم في العش نفسه لليلتين متتاليتين»، همست في أذني. ومع ذلك، كانت هناك أيام وأسابيع، لا تتخذ فيها الآنسة ري قرارًا حاسمًا. لذلك نختار العش بالقرعة. وحدث أن العش نفسه قد كسب مرتين أو ثلاثًا على التوالي...

في مثل هذه الحالات، كانت الآنسة ري تتهمني بممارسة السحر الأسود. كانت تقول لي: «لقد تلاعبت بالنرد»، خاصة عندما يكسب عشي ثلاث أو أربع أو حتى خمس مرات متتالية.

لكسر «السلسلة السوداء»، طلبت مني الآنسة ري مغادرة باريس ليومين أو ثلاث «أريدك أن تسكنني بالقرب من شاطئ البحر»، همست لي ثم سافرنا إلى مكان ما في ساحل النورماندي. *فأسكنتها* في هذا المنبع الهائل للقلق والحزن والإثارة: المحيط.

تقدر الآنسة ري هذه النوعية من التعبيرات الملتوية. كأن تقول لي أحيانًا: «اليوم أريدك أن تسكنني في بيتي» أو «اليوم أريدك أن تسكنني في بيتك». كان العيش مع الآنسة ري امتيازًا دائمًا، فكنت أجيب بالمجاملة نفسها: «حاضر، يا آنستي اللامتناهية، *سأسكنك* هذه الليلة في بيتك».

وقد يتطور هذا النوع من الحوارات المثيرة إلى عبارات أكثر دقة وانحرافًا:

- لقد سكنتني هذه الليلة بطريقة *مجزأة* إلى حد ما، يا سيدي العزيز...

- كيف؟

- أجل، لقد سكنتني بطريقة *مجزأة* وغريبة أيضًا.

أو:

- لقد سكنتني بشكل *مضاعف* هذه الليلة، يا سيدي العزيز...

- ما الذي تقصدينه بذلك يا آنستي اللامتناهية؟

- أنا أعني بالضبط ما تقوله كلماتي. لقد سكنتني بشكل مضاعف.

أدرك أن الآنسة ري قد استخدمت أحيانًا كلمات ذات معانٍ دقيقة جدًّا بالنسبة إليَّ، وبحمولة غامضة كانت تصيبني بالدوار. غالبًا ما منحتني محادثاتي مع الآنسة ري شعورًا بأنني عارٍ على جسر ضيق معلق فوق الهاوية...

في بعض الأحيان، عندما كنا نركب المصعد معًا، كانت الآنسة ري ترمقني بنظرة عتاب. «لقد سكنتني ونحن في المصعد»، تقول عندما نخرج، دون أن أتمكن من معارضتها. بالإضافة إلى أنها، وفي كثير من الأحيان، سمحت لنفسها بأن *أسكنها* في الأماكن العامة. أعتقد أن سلسلة المساكنة الجديدة هذه قد أعطتنا إحساسًا جديدًا بانتهاك القواعد الاجتماعية الأكثر صرامة والمحظورات الأكثر خطورة. كان يكفينا أن نكون معًا في مكان يضم العديد من الأشخاص اللامباليين والمشغولين لنشعر بنيران الرغبة تعانقنا، وسط هذا السيل من الخطى.

أن تحب الآنسة ري في السوق، أو في عربة مترو مكتظة، أو في قاعة عروض موسيقية بينما يتابع الجميع ما يحدث، كل هذا يؤدي في تلك اللحظة إلى عودة آلية الرغبة لأداء نوع من فعل *المقاومة الإيروتيكية*. تترك الآنسة ري نفسها لأسكنها بسرعة، بعد نظرة واحدة موجهة بوضوح إلى آخر عنقها أو شحمة أذنها، أو إلى شفتها السفلى أو إلى ذلك الخط المتحرك الذي يستحيل وصفه والذي يفصل ثدييها إلى كيانين مستفزين. وبينما تواصل الكتلة البشرية تطورًا وفقًا لمنطقها الخاص (إنجاز المهمات، أو الإسراع للحاق بالقطار، أو الاستمتاع بأغنية أوبرا)، *أسكن* الآنسة ري

لمواجهة الروتين، وكسر الجمود العام. تعلن لي الآنسة ري ذلك بمجرد حدوثه الفعل: على سبيل المثال، كانت تتكئ على أذني في منتصف ترافياتا وتقول لي: «لقد سكنتني فورًا». أو، بينما نتجول في مركز للتسوق، كانت تتوقف وتطلب منا أن نبقى ساكنين للحظة: «دعنا نتوقف للحظة، أنت تسكنني الآن». في بعض الأحيان كانت تتجنب كلمة «السكن» وتكتفي فقط بـ«الآن» أو «لحظة». فكنت أفهم ما يحدث لنا، أو بالأحرى لها، أو بالأحرى ما يعنيه فعل «السكن» الذي سال وتدفق على وجوهنا وتحول إلى قطرات مجهرية من الماء أو العرق أو اللعاب... عندما تعض الآنسة ري شفتيها وهي تنظر إلى وجهي، يكون من الواضح أنني مررت فورًا عبر جسدها، وعقلها، وخيالاتها، وأن الرعشة التي عبرت شفتها السفلى كانت علامة كارثة داخلية، وعلى نشوة تحدث في مكان ما في الأعماق. بدا الأمر كما لو كنا، أثناء تسلقنا جبلًا، نلعب بالحصى الدافئ الذي يتدحرج على سفوح سيل بركاني قديم. لكن حرارة هذه الحصى لم تكن سوى عرض افتتاحي لانفجارات هائلة من الطاقة والتشنجات الكيميائية داخل القشرة الأرضية، على بعد آلاف الكيلومترات... وقد كانت لدى الآنسة ري هذه الطبيعة البركانية، وظل كل احتراقها الداخلي غامضًا وغير مرئي، ولكن حركاتها ووجهها وشفتيها وجفنيها وأحيانًا بعض كلماتها، كانت تفضح هذا *الاحتراق*.

- لقد سكنتني اليوم عندما اتصلت بي على الهاتف...

أجل! لقد سمحت الآنسة ري بأن أسكنها عبر الهاتف، وهو ما أقلقني كثيرًا. ففي نهاية المطاف، لم تعد الآنسة ري في حاجة حتى إلى

وجودي الجسدي لتسمح لنفسها بأن *أسكنها*. كان صوتي، وذكرى ما، وربما رسالة نصية بسيطة كافيًا... وهو ما لم يستغرق وقتًا طويلًا لحدوثه، فذات يوم أرسلت إليَّ الآنسة ري الرسالة النصية التالية: «أريد كلمة الآن، بسرعة». عند قراءة الرسالة النصية القصيرة، شعرت بالذعر؛ ما هي الكلمة التي يجب استخلاصها من العدد اللامحدود للكلمات في ذهني، ما هي الكلمة التي يمكن أن تلبي على الفور، وبأقصى قدر ممكن، رغبة الآنسة ري في أن أسكنها؟ أغمضت عيني، تاركًا المجال للعفوية للاختيار، ثم بحثت أصابعي غريزيًّا عن الحروف وكتبت كلمة: «ثلج».

هل كانت الآنسة ري مزاجية؟ أو يستحيل توقعها؟ من الصعب الجزم. كانت شخصيتها في حاجة إلى التجديد، وإلى نقاط مرجعية قوية في الآن نفسه. أكدت لي الآنسة ري أنها تؤمن بالخرافات بشكل رهيب، لكن خرافاتها ظلت غير مفهومة بالنسبة إليَّ. لماذا، على سبيل المثال، لم يكن من المفترض أن ننظر بعضنا إلى أعين بعض صباح يوم الاثنين؟ أو لماذا رفضت أن أراها عارية في ليالي اكتمال القمر؟

في بعض الأحيان، وإذا ما رغبت في ذلك، كانت الآنسة ري تعرض نفسها أمام عيني بافتقار مذهل إلى الحياء؛ كانت تمشي عارية من غرفة المعيشة إلى المطبخ ومن المطبخ إلى الشرفة... أو تطلب مني استكشاف جسدها شبرًا بشبر، وإخبارها ما إذا كان هناك أي شيء مريب.

– ماذا تقصدين بالمريب يا آنسة ري؟

– لا أدري، شيء ما على درجة كبيرة من الخطورة، شيء ما لفت انتباهك...

بينما كنت أداعب كل شبر في جسدها، بحثًا عن مناطق مشبوهة، كانت الآنسة ري تنتظر بلا حراك، كما هو الحال إلى حد ما عند الطبيب، حيث تنتظر سماع التشخيص بفارغ الصبر.

- هل وجدت شيئًا ما؟

- نعم يا آنسة، لقد عانت بشرتك من حروق ليلية، فهي ناعمة ودافئة وترتعش في بعض الأماكن بها لا يمكن تفسيره؛ إذا كنت في ساحة عامة، فسوف يغرق فيك الناس، مثل رمال متحركة.

والغريب أن الآنسة ري كانت تبدي فرحة جادة عندما لا أجد أي شيء مريب لأبلغ عنه بخصوص بشرتها، وثدييها، وفخذيها، وهذا لم يمنعها من أن تطلب مني مرارًا وتكرارًا أن أتعمق أكثر، وأن أغمض عيني، وأستسلم للإرشاد فقط بأصابعي، وإذا واجهت هذه الأصابع أي شيء غريب، أخبرها به على الفور. ماذا كان في إمكاني أن أفعل؟ فكنت مثل عازف بيانو أعمى، بعينيَّ المغلقتين وبيديَّ الاثنتين، أستكشف هذا الجسد المكشوف تمامًا، باحثًا عن *مطبات* صناعية، وندوب مخفية، و*حوادث* طبيعية من المحتمل أن تجعلني أجفل.

- إذن؟

- لا شيء هناك يا آنسة. أنا *ساكنك* الوحيد. لا توجد أية علامة قد تدل على وجود دخيل آخر.

ثم كانت هناك أيام أخرى، كما قلت، تغضب فيها الآنسة ري إذا ما كنت أنظر إليها بتمعن مبالغ فيه. فتعاتبني على نظراتي الشهوانية، ومحاولتي خلع ملابسها بعينيَّ، بحثًا عن *شفافيتها*.

- ألا تخجل من النظر إليَّ بتلك العينين الماكرتين يا سيدي؟

عندما تبدأ الآنسة ري في توجيه الإهانات إليَّ، أدرك أنه من الأفضل عدم الرد على الإطلاق، وتجنب البحث عن أجوبة ذكية، على ألا أكون أيضًا متلقيًا سلبيًّا. فكنت أغمض عيني وأجلس على أريكة، منتظرًا مرور العاصفة.

الواقع أن الآنسة ري كانت مفعمة بالسلوكيات والتشنجات اللاإرادية. لم تركب المترو قط (لأنها كانت تفضل «السطح»، كما تقول)، ولم تعبر الشارع أبدًا عند معبر المشاة («فهذا أخطر الأماكن»)، وفي المقاهي، لم تجلس أبدًا في مواجهة الشارع («لا أريد أن يراني *ناكرو الجميل*»). ورفضت بشكل قاطع رؤية حديقتي الصغيرة لأنها كانت خائفة من الورد الأزرق («لا أريد أن تتحقق كل رغباتي»).

خلال عطلة نهاية الأسبوع الأولى من كل شهر، وبدقة بندول الإيقاع، تذهب لرؤية خالتها في مكان ما في نورماندي («إنها الأم الوحيدة المتبقية لي»). كانت تخبرني أحيانًا بأشياء محيرة عن السيدة وارنوت، التي أعتقد أنها كانت تعيش بمفردها في فيلا قريبة من البحر، في مكان ما في تروفيل أو دوفيل. وعندما تغادر نحو رحلتها العائلية، تسمح لي الآنسة ري أحيانًا باصطحابها إلى محطة سانت لازار، مساء يوم الجمعة، بينما تمنعني دائمًا من انتظارها عند عودتها يوم الاثنين في منتصف النهار («لا أريدك أن تراني عندما أغادر القطار وأنا *منهارة*».)

كانت لدى الآنسة ري أيضًا فترات تقوم فيها «بالنسخ». لا أعرف بالضبط ما الذي كان يدور في رأسها حينها، لكنها كانت تدخل في نوع

من النشوة. تظل بلا حراك، غائبة، على اتصال بما يمكن اعتباره المنطقة الموازية لوجودها. قد تحدث هذه الغيبوبة في الصباح، بعد الإفطار مباشرة، أو في مكتبة السيد برنارد، أو حتى في الشارع. تتوقف الآنسة ري وتدخل في نشوة لمدة دقيقتين. في تلك اللحظات كان عليَّ أن أتركها بسلام، بل وكانت تطلب مني ذلك بوضوح:

- لا تزعجني، أنا *أنسخ* الآن.

علاوة على ذلك، بدا أن قرارها بالانتقال إلى منزلي كان مدفوعًا *بحاجتها إلى النسخ*.

- هكذا، سيظل عُشي مساحة مخصصة فقط للنسخ.

لم أتمكن من العثور على أي اتساق فيما كانت تقوله الآنسة ري. وقتها لم أحاول حتى أن أفهم كل هذه المراوغات، وعندما فعلت، كان الأوان قد فات...

ولم أتدخل أيضًا في طقوس أخرى. تظاهرت الآنسة ري بأنها تعيش في منزلي، لكنها غالبًا ما كانت تذهب لقضاء نصف يوم أو ليلة في شقتها الخاصة. باستثناء أنها قدمت إليَّ عذرًا جديدًا تمامًا الآن:

- سأذهب إلى هناك فقط للنسخ. عُشي الآن ورق كربون.

لهذا السبب، لم أتفاجأ في الصباح الذي استيقظت فيه لأجد نسختين من الآنسة ري في سريري. كان على إحداهما أن تبقى معي طوال اليوم، وعلى الأخرى أن تذهب إلى *الجانب الآخر* لكي تقوم *بالنسخ*.

- هكذا أفضل، أليس كذلك؟ أليس هذا أكثر كفاءة وملاءمة؟

قالتا في الآن نفسه، وهما تداعبان صدغي.

(٤٩)

حلم متكرر آخر. بعد تناولي وجبة دسمة، أدركت أن كثيرًا من قطع اللحم تبقى عالقة في فمي. لا أفهم سبب امتلائه باللحم (الممضوغ أحيانًا) مع ما يعنيه ذلك من ضرورة التخلص منه سرًّا، مع استحالة بلعه. عادةً، لا أزيل *بقايا الألياف* هذه إلا قبل إلقاء خطاب أو بدء محادثة مباشرة.

هذا موقف أتذكره بوضوح. كنت حاضرًا في مؤتمر، ضمه مدرج جامعي ضخم، مع شخصيات لها أهميتها (أساتذة، سفراء، مسؤولون). يأخذ الضيوف أماكنهم في القاعة، ويمتلئ المدرج شيئًا فشيئًا، كما ألمح -بطبيعة الحال- مجموعة من النساء الجميلات... لكن فمي ممتلئ. يبدو الكلام مستحيلًا، لوجود قطع اللحم هذه، التي حشرت نفسها في زوايا مختلفة من تجويف فمي: في المسافة بين الأسنان الصغيرة والأضراس، بين اللثة وتجويف الخدين، بل وحتى في الجزء الخلفي من الحلق، في مكان ما داخل القناة التي أتنفس من خلالها بصعوبة. ألقي التحية، وأنثر الابتسامات من حولي، وقد ألقي محاضرة. لكن صوتي يتلاشى بعد كل جملة، ولا أجد القدرة على قول ما يتعدى «مرحبًا» أو «تسعدني رؤيتك»

أو «ما جديد زميلنا فلان؟»... تتطلب مني هذه الجمل القصيرة جهدًا هائلًا، ثم أشعر بعدها بالاختناق، ويضيع صوتي كالصدى. لذلك لا أملك خيارًا آخر، وأحاول بصق قطع اللحم المترسبة والمتراكمة في الحويصلات الهوائية المختلفة داخل فمي بهدوء. أنحني بتكتم، ثم أدخل أصبعين وأخرج من التجويف بقايا خصلة من ألياف اللحم، طويلة جدًّا، أشبه بخيوط لا نهاية لها. ولأنني لا أعرف ماذا سأفعل بها، أخرج منديلي وأخفيها فيه، ثم أضع كل شيء في جيبي، لأعود بعد ذلك إلى حفلة المجاملات، أحيي الناس، وأصافحهم، وأبتسم بغموض (لكيلا أضطر إلى الحديث كثيرًا). ثم، وبأسرع ما يمكن، أنحني مرة أخرى، محميًّا بظهر الكرسي أو حتى تحت أحد مقاعد المدرج ببساطة، ثم أسحب خيطًا ليفيًّا آخر من فمي الممتلئ بهذا المخزون المحظور... لا أدري لماذا، لكن معظم القطع المستخرجة الأخرى شديدة التليف، وكأن معدتي ترفض بشدة هذا النسيج وتجبرني على تخزينه في التجويف الأول لجهازي الهضمي...

عندما يحين وقت إلقاء خطابي، لا أجد خيارًا آخر، فأبذل مجهودًا هائلًا لأتحدث، أنطق الكلمات ببطء، وبأكبر قدر ممكن من الوضوح، لكنها تخرج مفلترة جزئيًّا، جراء بقايا اللحم في فمي. لذلك يبدو كل ما أقوله مثمرًا، وذا ثقل. تغادر الكلمات فمي محاطة بهالة وردية، هالة من لحم.

بسبب هذا الحلم، قررت أن أصبح نباتيًّا. لكنني أستسلم في كل مرة تتردد فيها ضحكة صغيرة في مكان ما في أعماق عقلي (ضحكة الجلاد). بل إن هنالك أوقاتًا أتواصل فيها معه.

- أعلم أنك هناك، فلا داعي إلى الاختباء.

أنا لا أختبئ، بل أقوم فقط بمهمتي.

- الآن، وبعد أن عرفت أنني أعرف أنك موجود، هل يزيد هذا الأمور صعوبة بالنسبة إليك أم لا؟

هذا ليس مهمًّا بالنسبة إليَّ.

- ألا يمكن القول إن الأحلام تشكل ما يشبه عنقودًا كونيًّا؟ فهي مترابطة فيما بينها، ولها مصدر مشترك واحد إلى حد ما، أليس كذلك؟

بالتأكيد.

- هل كان هناك حلم أوَّلي، أو بالأحرى حلم أول؟ أيمكن اعتبار كل الأحلام أوعية متصلة فيما بينها؟ هل سنتمكن يومًا ما من الانتقال بانسيابية من حلم إلى آخر؟ ألا يمكن اعتبارها وسيلة من وسائل النقل؟ لو ركضت في نفق ضمن حلم ما، ألن يمكنني ذلك من مصادفة حلم شخص آخر، ودخول النفق الخاص به؟ وهل يمكن اعتبار الكابوس تقاطع أنفاق؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يوجد، بالتوازي مع العالم المرئي، بناء هائل مكون من الأحلام؟ ما يشبع الأبنية العملاقة؟ برج بابل خاص بعالم الأحلام؟ هل هذا هو المكان الذي سنذهب إليه *فيما بعد* للعمل على بناء البرج؟ إلى أي مدى ستصل قمته؟ أيوفر كل حلم لكل إنسان مليمترًا واحدًا داخله؟ هل يواصل البرج ارتفاعه؟ وإلى أي مدى؟ ألهذا السبب لا يسمح للأحلام

بأن تكون سعيدة لكيلا نكتفي بها؟ حتى تتحول إلى حجارة بناء؟

ولماذا يتولد عندي انطباع بأن وراء صمتك يتخفى صوت امرأة؟

ألن ترد بشيء الآن؟

(٥٠)

«بالنسبة إلى رجل يحب السفر بالقطار، يكون النزول منه أسهل إذا ما اختار المحطة النهائية وجهة له».هذا أيضًا ما كان يشعر به برنارد عندما ينزل، في نهاية كل شهر، في محطة دوفيل-تروفيل، عند نهاية الخط التاريخي الذي يربط بين باريس والمانش. وبدقة الساعة النووية، كان برنارد يغادر صوب هذه الوجهات النورماندية في يوم الجمعة الأخير من كل شهر. اختار بشكل منهجي المغادرة بعد الظهر مباشرة للوصول إلى شاطئ البحر في وضح النهار. ثم يمضي يومي السبت والأحد في فندقه المفضل وعلى شواطئ تروفيل الشاسعة، قبل أن يعود إلى باريس صباح الاثنين في أول قطار.

في كل مرة كان يصعد فيها إلى العربة في محطة سان لازار، كان برنارد يشعر بأنه يؤدي طقسًا معينًا. كان مختلفًا عن باقي الركاب في القطار؛ لم يكن يتنقل للعمل، ولم يكن مسافرًا عاديًّا، بل ما يمكن اعتباره فنانًا منهمكًا في عمله. وما كان يبنيه، طوال الرحلات المستمرة بنفس الانتظام لمدة واحد وأربعين عامًا لتحية المحيط، كان وبلا شك عملًا فنيًّا.

ظل برنارد حريصًا على النزول من القطار دائمًا بقدمه اليمنى. وعلى الدرج، يتنفس بعمق ليملأ رئتيه بهواء المحيط المالح. كان هذا النفس الأول من الهواء النقي بمثابة القطعة الأولى من أحجار الدومينو في سلسلة طويلة ممتدة عبر الزمن، على مدى ثمانٍ وأربعين ساعة. ثم يبدأ نوع من العد التنازلي في كل كيانه، ما يؤدي إلى سلسلة أخرى من الإيماءات الدقيقة والمتكررة.

يقع الفندق الذي حجز فيه غرفته لمدة واحد وأربعين عامًا على بعد حوالي نصف ميل من المحطة، وهو بيت ضيافة قديم في فيلا تذكرنا بما نسميه «الزمن الجميل». كان برنارد يحجز هذه الأيام الثلاثة في نهاية الشهر قبل عام مسبقًا، وعلى أية حال، كان أكبر نزيل في المكان. وحتى عندما خضعت الفيلا لبعض عمليات التجديد، لم ترفض إقامته مطلقًا، التي بدت أقرب إلى الهوس. كان برنارد جزءًا من المنزل، في هذا النزل الصغير المكون من ثماني غرف فقط. من الواضح أن برنارد أراد دائمًا الغرفة نفسها المطلة على البحر، لم تكن الأجمل ولا الأكثر سطوعًا. ومن ناحية أخرى، كان موقع المكتب بالنسبة إلى الخارج مثاليًّا، والنافذة الوحيدة في الغرفة في موضع مميز، ما يوفر لبرنارد فتحة واسعة على أفق البحر حتى عندما يكون جالسًا. في الواقع، وأمام آلته الكاتبة، كان برنارد قادرًا على التقاط البحر بنظرة بسيطة. هذا النوع من الراحة، وهذه العلاقة المباشرة مع طاقات المحيط كان لها تأثير المخدر، وخلقت علاقة اعتماد عميق. في بعض الأحيان، لم يكن في وسع برنارد إلا أن يتساءل عمَّا سيفعله إذا أغلقت السيدة وارنوت النزل ذات يوم. فيجيب

نفسه على الفور: سأتوقف عن المجيء إلى تروفيل، وسأتوقف عن الكتابة.

حافظ نزل وارنوت الذي تديره السيدة وارنوت على نوع من الغموض الذي تعزز على مدار العقود الأربعة التي قضاها برنارد هناك؛ لم يتقدم في السن ولم يتغير. وفي حين عانت الفنادق والمنازل الأخرى في الحي من تحولات صغيرة، ظلت فيلا وارنوت، المكونة من طابقين بالإضافة إلى علية وحديقة خضراء، بلا *حراك* مع مرور الوقت. كان برنارد مقتنعًا بأن هذا المكان، الواقع خلف الخط الأول من الفيلات التاريخية على الواجهة البحرية، قد استفاد من طاقات مواتية متعددة. كانت هذه المنازل الواقعة في الصفين الثاني والثالث أقل تعرضًا للرياح وتقلبات الطقس السيئ، وأقل تعرضًا لنظرات الحسد من جمهور المارة، وقد اكتسبت تجاعيد أقل وأظهرت قدرًا أكبر من الثقة بالنفس.

لمدة واحد وأربعين عامًا، ومنذ أن كان يأتي بانتظام إلى شواطئ المحيط في تروفيل، حاول برنارد أن يكتب. كانت غرفة العلية المطلة على البحر في الواقع المكان الوحيد في العالم الذي تجرأ فيه برنارد على إدراج صفحة فارغة في الآلة الكاتبة القديمة من طراز كورونا الخاصة به. سهلة النقل، وصغيرة الحجم، وقوية، وقد رافقته كورونا بأمانة في كل رحلة إلى نورماندي. عندما وجد نفسه وحيدًا مرة أخرى مع كورونا، في علية نزل السيدة وارنوت، بدأت يداه ترتعشان. اجتاحه نوع من الدفء الداخلي وكان جلوسه أمام الآلة الكاتبة يحمل شيئًا من نموذج الانفجار الأول الذي أدى إلى ولادة الكون. أخرج برنارد

آلته بعناية من صندوقها ووضعها على الطاولة، دائمًا في الوضع نفسه، في المنتصف بالضبط، على بعد عشرة سنتيمترات من الحافة. ثم يغسل يديه، ويضع منفضة السجائر على يمين الآلة الكاتبة، ويشعل سيجارة، ويأخذ نفثتين أو ثلاثًا، ثم يضع السيجارة على منفضة السجائر، ويأخذ ورقة بيضاء من مجلد من الورق المقوَّى ويضعها في مكانها في الآلة الكاتبة، وبحركة رقيقة، يدير الأسطوانة وهو يتابع بعينيه الصفحة التي عرضت نفسها، في عريها الاستفزازي، على مصير مفتوح على كل الاحتمالات.

لكن هذا المنظور اللامتناهي كان أيضًا حبة الرمل التي تسببت في انسداده الداخلي. في الواقع، طوال الواحد والأربعين عامًا التي قضاها في المحيط للكتابة، لم يتمكن أبدًا من تجاوز الجملة الأولى المحفورة في الورقة. وتكرر السيناريو نفسه بنوع من القسوة المنهجية. كان برنارد يجلس أمام الآلة الكاتبة، ويحرك أصابعه كالساحر قبل أن يقوم بعرض، ويأخذ نفسين أو ثلاثًا من سيجارته، ويغمض عينيه لبضع ثوانٍ، ثم يكتب بسرعة كبيرة جملة، جملة واحدة، الجملة الأولى التي تتبادر إلى ذهنه. يحدث هذا الاستطراد الأول للكلمات أحيانًا بسرعة مذهلة ما يجعل برنارد نفسه مدهوشًا تمامًا. وفي أحيان أخرى تتكاسل الجملة، كما تخلع المرأة ملابسها أمام النظرات المتحمسة، ببطء. لكن برنارد لم يتجاوز هذه الجملة الأولى. وبمجرد تركيزه فيها، يتوقف نظامه الفكري والحركي بالكامل. يتوقف دماغه عن التفكير، وحتى عضلات يديه وأصابعه تتوتر. حدث هذا معه آلاف المرات، وآلاف المرات كان على

برنارد أن يقبل، بدهشة، دور المتفرج على عجزه. قال في نفسه: «عجز الكاتب، هذا منطقي، إنه عجز فني».

بدا من المستحيل بالنسبة إلى برنارد أن يعرف مصدر شلله، وإرهاقه التام بعد كتابة جملة واحدة. كان يقول لنفسه أحيانًا إن المحيط هو المسؤول. لأنه بعد كتابة هذه الجمل الأولى، ترتفع عينا برنارد فجأة من الورقة وتنجذبان إلى الأفق. بشكل ما، كان المحيط يستنزف كل طاقته، ويستنزف إلهامه وأيضًا إرادته في الاستمرار. ما كان ينبغي أن يصبح نصًّا، فصلًا من رواية أو قصة، تحول إلى تأمل، إلى تواطؤ مع الشاطئ الهائل حيث تتشكل أمواج المحيط في إيقاع ثابت. هل كان هناك انتقال للمعنى بين كلمات هذا السطر الأول في أعلى الصفحة وبين الأفق البحري الذي تحلق فوقه طيور النورس أحيانًا؟ ما رآه برنارد من بعيد، الحدود الدقيقة للبحر، الغيوم والضباب، الظلال البشرية التي تتجول على الشاطئ، والأمطار أحيانًا، بما يذكر بمطبوعات هوكوساي، هل كانت لكل هذه الحقائق الثابتة والمتغيرة أيضًا القدرة على تحويل ما كان ينبغي أن يصبح نصًّا نحو العدم؟ لم يكن لدى برنارد إجابة على أيٍّ من هذه الأسئلة.

وحتى عندما تمكن، بجهد جبار، من عدم رفع عينيه وعدم النظر من النافذة، ظل برنارد متحجرًا وعاجزًا عن الكلام أمام الصفحة البيضاء المبهرة. كان الأمر كما لو أن هذه الجملة الأولى قد تم ترسيخها فجأة وحظرت أي تتمة. وكأن الجمل الأولى التي كتبها هي أجنة رفضت النمو، مخلوقات حيوانية خيطية ذات عناد هائل... «لا نريد أن نتطور بعد الآن، لا نريد الاستمرار، لا نريد أي شيء». «لماذا؟ هل أنت خائفة

من شيء ما؟» «أجل، نحن نخشى عالم الإمكانيات الذي ينفتح أمامنا. تشعرنا اللانهاية بالدوار. قرارنا هو التوقف هنا». «لكن هذا غير ممكن، في الإمكان مواصلة التفكير... ما أنتنَّ إلا جمل، جمل ضعيفة، بدايات، *نشارة خشب*..».

عند تحدثه مع جمله الأولى، شعر برنارد أحيانًا بالغليان والغضب. «لستن سوى ديدان، أيتها الحثالة!» يصرخ فيها. لكن الإهانات لم تكن ذات فائدة. ولأن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، أفلح في إعادة آلية *الخلق* إلى الحركة، فإن الجملة الثانية لم ترَ النور أبدًا. كل ما كان على برنارد فعله هو إخراج الورقة من الآلة الكاتبة، أو تمزيقها أو لفها على شكل كرة والبدء من جديد. وهو ما حدث أحيانًا بإثارة مضاعفة. يشعل برنارد سيجارة جديدة، مدخلًا ورقة أخرى في الكورونا، ويركز مرة أخرى أمام اللانهاية التي تتصاعد من أعماق الورقة البيضاء الفارغة بحجم A4 ثم يلقي بنفسه في الفراغ. لأن هذا هو الإحساس الذي شعر به برنارد في كل مرة يكتب فيها جملة أولى جديدة على صفحة جديدة نقية: الغطس في الفراغ.

ود برنارد لو يطيل هذا السقوط الذي لا نهاية له، ليكتب، ربما دون علامات ترقيم، لدقائق وساعات وأيام وسنوات وأعمار، طوال حياته دون أن ينهض أبدًا من كرسيه حتى تأتي صاحبة النزل القلقة إلى باب غرفته وتستمع إليه وتطرقه بلطف سيد برنارد سيد برنارد ماذا تفعل هنا لم تغادر منذ أربع وعشرين ساعة لم تخرج منذ ثمانٍ وأربعين ساعة لم تغادر منذ ثلاثة أيام، عادةً ما تعود صباح يوم الاثنين إلى باريس ولكنك اليوم لم

تظهر أية علامة على الحياة فقد حان وقت الغداء من فضلك توقف افهم أن الضوضاء التي تصدرها مفاتيح الآلة الكاتبة الخاصة بك بدأت تطرق رؤوسنا وقد اشتكى العديد من النزلاء أثناء الليل أن الصوت كما لو أن المطر الخفيف يهطل باستمرار على سطح من الصفيح تبدو الحروف التي تضربها على الورقة وكأنها قطرات ثقيلة تتساقط تتساقط تتساقط بيك بيك بيك على السطح علينا جميعًا وتغمرنا لم يعد من الممكن الاستمرار لقد تمزقت طبلات آذاننا أنت تقودنا إلى الجنون أطلب منك مغادرة الغرفة فورًا فلا يهمنا ما كتبته حتى لو كانت هذه تحفة أدبية لا يهتم أحدنا إن كان هذا هو الكتاب الأكثر روعة على الإطلاق فنحن هنا في بيت ضيافة هادئ لقد سممت الغرفة بكل دخان السجائر هذه الرائحة لن تتملص أبدًا من الفراش والجدران والسقف لقد دفنت بين كرات الورق المجعد وهذا ليس أمرًا طبيعيًّا سنتصل بالخدمة البلدية التي تعتني بكرات الورق المجعد أما الكتَّاب الآخرون في الإقامات الأخرى فلا يتسببون في هذا العدد الكبير من الكرات الورقية ولا يصدرون أيضًا الكثير من الضوضاء فهم جميعًا أكثر هدوءًا وأقل عصبية وأكثر ودية وهم يدخنون في الشرفات اعتبارًا من اليوم لن أؤجر لك هذه الغرفة بعد الآن لم تعد مرحبًا بك هنا لم نعد نريد كُتابًا في نزل وارنوت، أنظر إليك أنت عالق أمام الآلة الكاتبة ولكن في الواقع أنت لا تكتب شيئًا، أصابعك تضغط على على على على على على نفس نفس نفس نفس نفس نفس السلسلة السلسلة السلسلة من من من من الكلمات من الكلمات من حروف *r* و *a* و *z* و *t* و *mriotgrsdd* لقد جننت يا سيد برنارد أنت مجنون من فضلك ضع نقطة وتوقف ضع نقطة هيا ضع نقطة هيا ضع نقطة من فضلك ضع

نقطة من فضلك كلنا كل النزلاء هنا كل سكان الحي هنا أمام نافذتك ضع نقطة الآلاف من الناس يناشدونك أن تضع نقطة نقطة نقطة سيد برنارد نقطة الآن نقطة الآن نقطة نقطة نقطة.

تساءل برنارد، لماذا عندما أنهض من مقعدي لأذهب في نزهة على الأقدام، يبدأ عقلي في التصرف، في تخيل تسلسلات، في كتابة النصوص لنفسه ولكن دون السماح لي بتحويلها إلى الورق؟ تناوب برنارد بين جلسات التركيز أمام صفحة فارغة وهروب طويل إلى الشاطئ. بعد الجمل السبع أو الثماني أو التسع أو (أحيانًا) العشر الأولى، كان ينهض ويفتح النافذة ويستنشق هواء البحر بعمق من جديد، ثم يذهب في نزهة على شواطئ هذا السطح السائل الهائل الذي يذكره أيضًا بـ الصفحة الفارغة التي تركها فورًا على الآلة الكاتبة. كان هناك تشابه بين المحيط والورقة البيضاء. كلاهما كانا تعبيرًا عمَّا لا يمكن التنبؤ به، وكلاهما كان بمثابة فتحات هائلة.

«شكلان *لامتصاص* الطاقات، فمان، ثقبان، هوتان، مساحات جاهزة لابتلاع الكلمات، المواقف، الحياة..».

كان *الارتداد* هو أكثر ما أثار إعجاب برنارد. تلك اللحظة التي تبدأ فيها مياه المحيط، تحت التأثير الغامض للقمر، في الانحسار، مخلفة وراءها منظرًا طبيعيًّا جديدًا، مختلفًا، تسكنه مئات المخلوقات البحرية الصغيرة، مليئة بألسنة من الرمال وتتخللها برك لا متناهية بمختلف الأحجام. عندما يتراجع المحيط، ويبتعد عن المدينة، وينكمش على نفسه في الأفق، يتولد لدى برنارد انطباع بأن هناك نصًّا هائلًا انسحب

من صفحة فارغة ضخمة. وكأن كلمات الكتاب بدأت تتحرك فجأة أمامه لتنعزل عن الأنظار.

في بعض الأحيان، كان برنارد يعيش مثل هذه اللحظات وهو في خضم قراءة كتاب. فجأة يبدأ النص في التدفق إلى الخلف ويتحرك إلى أعلى أو إلى أسفل الصفحة. لكن في فترة انحساره، يخلف النص وراءه حتمًا رواسب مختلفة: أجزاء من حروف أو كلمات، أو علامات ترقيم مخلوعة، أو حرف مفقود، أو حتى مجموعة من الحروف المنقوصة من الكلمة الأولى. بالنظر إلى ما يخلفه المحيط وراءه، كان لدى برنارد انطباع بأنه كان يقوم أيضًا بفك رموز أجزاء من النص الكوني. المحار، السرطانات، الديدان، القريدس الذي ظل سجينًا في حويصلات الشاطئ، والرمال المتجعدة بفعل قوة الماء، طيور النورس التي بدأت غاراتها بحثًا عن الغذاء، كل هذا أصبح في نظر برنارد أنقاض نص تم تدميره إلى الأبد. وعبثًا سارع، بحمى مجنون، إلى التعرف على كل هذه الآثار، على أمل أن يتمكن من إعادة بناء أبجدية محتملة. وكانت الآثار، هذه العلامات التي خلفها المحيط بعد الجزر، كثيرة جدًّا ومتباينة جدًّا، وبعضها تبخر أو مات أمام عينيه. جفت الرمال بسرعة، وجمعت السرطانات والمحارات الصالحة للأكل بحماس من قبل عشرات الأشخاص المزودين بأحذية مطاطية ودلاء بلاستيكية. سحقت الرسائل الموجودة في تموجات الرمال ببساطة تحت أقدام أشخاص وأطفال فضوليين، ممن نفد صبرهم، لاحتلال المساحة التي حررتها المياه...

- يا لها من كارثة! يا لها من كارثة! صاح برنارد أحيانًا في ذعر. توقفوا، ألا تدركون أنكم تدمرون نصًّا أو قصة؟

(٥١)

مرحبًا. شكرًا لاختيارك *easyteller* لكتابة أعمالك الأدبية. أنت الآن في الصفحة التجريبية. لنبدأ بالعروض التقديمية. اسمي *easyteller* ولكن لتجاوز الرسميات وربط حبال الود بيننا، نادني فقط *easy*. الرجاء اختيار اسم شخصي وإدخاله في خانة **اسم الكاتب**.

شكرًا غوتا. فلنكمل الآن. كما ترى، فأنا آلة، لكنني آلة متطورة جدًّا. أنا على اتصال بمليارات الكلمات: كل ما كتب في تاريخ البشرية تقريبًا إما مخزن في ذاكرتي أو تحت تصرفي. فلنبدأ تعاوننا السردي الأول. ماذا تريد أن نكتب معًا؟ رواية، قصة قصيرة، قصيدة، مسرحية، مقالة؟ يرجى الضغط على الخيار الذي يناسبك.

شكرًا غوتا. سنكتب رواية معًا. تحتوي القائمة التي تظهر الآن على عدة خيارات. رواية من ٧٥ إلى ١٥٠ صفحة، رواية من ١٥٠ إلى ٢٢٥ صفحة، رواية من ٢٢٥ إلى ٣٠٠ صفحة أو أكثر. يرجى التحقق من عدد الصفحات المطلوبة.

شكرًا غوتا. سنقوم بكتابة عمل أدبي معًا، وهو عبارة عن رواية من ١٥٠ إلى ٢٢٥ صفحة. أهنئك على هذا الاختيار. ستكون رواية قصيرة،

ولكنها مركزة، ولها كل الفرص في حيازة انتباه القراء. نحن نعيش في عصر لم يعد فيه القراء يبحثون عن الروايات الطويلة لأنهم في عجلة من أمرهم، ولأن الوقت المخصص للقراءة محدود جدًّا. أضف إلى ذلك أن الزبون الذي يقتني رواية من مكتبة، لا يريد أن يشعر بأنه تعرض للغش، بل يريد أن يشعر بأن أحداث الرواية قد شغلته ليوم واحد أو يومين. ولذلك يظل عدد الصفحات مهمًّا، بل إنه معيار أساسي.

دعنا ننتقل إلى الخطوة التالية: هل تريد أن تكتب رواية سيرة ذاتية أم رواية خيالية خالصة؟ يرجى تحليل الخيارات التالية. كما ترى، هناك إمكانية للاختيار بين أكثر من عشر فئات: رواية تاريخية، رواية بوليسية، رواية مغامرات، رواية رومانسية، رواية رعب، *خيال علمي*، رواية *مانغا*، رواية تحقيق، رواية مختلطة، ثلاثية الفئات، متعددة الفئات، رواية غير قابلة للتصنيف...

شكرًا غوتا. سنكتب معًا رواية ثلاثية الفئات، وسنأخذ فيها بعين الاعتبار أجزاء من السيرة الذاتية، ولكننا سندرج أيضًا قصة حب بالإضافة إلى عناصر أخرى غير قابلة للتصنيف. الرجاء اختيار درجة الأصالة التي تريدها لروايتك من المقياس المعروض. يرجى تحريك شريط التمرير بين ٠ و١٠٠. أثناء تحريك شريط التمرير، سترى أمثلة لروايات على مستوى الأصالة المعني. توقفت عند المستوى ٦٥. وهو ينتمي إلى فئة الأصالة التي يمثلها أوسكار وايلد، وفرانز كافكا، وموريس بونس، وهاروكي موراكامي، وبوهوميل هرابال، ودينو بوزاتي. تهانينا. لقد اخترت عائلة من الكتاب الذين يمتلكون الذكاء وروح الدعابة معًا،

يمزجون بين الواقعي والخيالي، النظرة العبثية التي ترتبط بقدرة هائلة على مراقبة الواقع بكل عمقه.

لننتقل الآن إلى مرحلة الكتابة الفعلية. هل ترغب في أن تكون القصة مكتوبة بضمير المخاطب المفرد، أو بضمير المتكلم المفرد، أو بعدة أصوات، أو وفقًا لتناوب عشوائي؟

شكرًا غوتا. التناوب العشوائي منبع لا ينضب من المفاجآت في بناء أي كتاب ما. أطلب منك الآن اختيار الموقف السردي المناسب. يرجى الاختيار بين الاحتمالات التالية: *السرد الخطي، التشظي، البناء الصارم أو البناء الهندسي المستفز*. أذكر هنا بحقيقة أن هذه الخيارات الأسلوبية الأربعة هي التي يمكن الوصول إليها حاليًّا. لاحقًا، عندما تعتاد عليَّ أكثر، ستكون لديك إمكانية الوصول إلى مجموعة أوسع من الخيارات.

شكرًا غوتا. التشظي جدير بالاهتمام، ويشحذ انتباه القارئ بطبيعته. سوف نقدم إلى قارئنا ما يشبه الأحجية، أو بمعنى آخر، عددًا معينًا من العناصر السردية. وفي النهاية، سيكتشف الخيط الناظم للقصة بأكملها.

فلنسرع العملية. هل تفضل أن تكون الشخصية الرئيسية ذكرًا أم أنثى؟

شكرًا غوتا. أشعر بأن بدايتنا ستكون جيدة. ستكون هذه الشخصية الذكورية، بطريقة معينة، انعكاسًا لك. هل ترغب في وصفها بالتفصيل من البداية؟

فهمت، غوتا. أنا سعيد لأنك لم تتخذ الاتجاه السهل. وبالتالي فإن ملامح الشخصية ستظهر شيئًا فشيئًا. هل ترغب في تسميتها؟ إذا كان

لديك تفضيل ما، اكتبه. بخلاف ذلك، دعنا نطلق عليه اسم إكس، كما لو كان مجهولًا في معادلة.

أود أن أبلغك *أيها الشريك* بأننا الآن في أفضل حالة تناسب بين *الوقت والنتيجة*. بعبارة أخرى، أحرزنا تقدمًا في وقت قياسي. لقد حان الوقت لكتابة الجملة الأولى. هل تعيش شخصيتنا إكس في المدينة أم في الريف؟

شكرًا. هل المدينة كبيرة أم صغيرة؟

شكرًا. هل يعيش إكس بمفرده أم مع عائلته؟

شكرًا. هل لديه وظيفة أم أنه يعمل من المنزل؟

شكرًا. هل توافق على انطلاق الأحداث باستيقاظه؟

شكرًا. في أي وقت تريده أن يستيقظ؟

ممتاز. لماذا تريد أن يستيقظ إكس؟ يرجى تحديد أحد الخيارات العشرة أو اقترح أنت سببًا آخر يحفزه على الاستيقاظ.

شكرًا. ها نحن نتجه الآن صوب جملة أولى شديدة الأصالة.

استيقظ إكس بسبب الصمت. إذا كانت هذه الجملة تناسبك، فيمكنك المصادقة عليها، وإلا سنعمل على تجويدها معًا.

ممتاز، غوتا. سنرى كيف يمكننا تحويلها قدر الإمكان إلى جملة أكثر إثارة للقلق. *استيقظ إكس مهزوزًا بـ... استيقظ إكس وقد أعماه... استيقظ إكس وقد أخرسه... استيقظ إكس مصدومًا...*

شكرًا غوتا... *استيقظ إكس مصدومًا*... جملة ناجحة فعلًا. دعنا

نرى الآن منبع الصدمة ومن المتسبب فيها؟ وبما إنه استيقظ بسبب الصمت، كما هو متفق عليه، فيمكننا القول إن إكس يستيقظ مصدومًا من الخارج بسبب الصمت. لكنني أذكر هنا أن التكافؤ المجازي سيصبح أكثر غموضًا إذا استخدمنا كلمة *في أعماقه* بدلًا من كلمة *الخارج*. سأترك لك الاختيار، غوتا.

أحسنت يا شريكي. الجملة الأولى لدينا مثالية، ومعدلها ٦٣ في مقياس الجمل الأولى التي يرجح أن تبهر القارئ.

استيقظ إكس مصدومًا في أعماقه بانفجار الصمت.

الرجاء إضافة نقطة لاعتمادها.

شكرًا غوتا.

أحسنت يا غوتا.

هل ترغب في أخذ استراحة سريعة أو الاستماع إلى أغنية أو مشاهدة مقطع فيديو كليب كمكافأة؟ أم نواصل؟

(٥٢)

أمضى إكس لحظات لا تُنسى بالفعل مع عائلة السيد كانتور، المفتش العام للاتصالات والعلاقات الخارجية (في العام الماضي، ألقى خطابًا رائعًا في افتتاح القسم الجديد متعدد التخصصات). والأمر نفسه ينطبق على عائلة السيد ألفادو، من مكتب الشؤون العامة، الذي هنأه ذات يوم على إعداده مشروعًا بحثيًا. والأمر نفسه ينطبق على عائلة السيد كابانيس، من مصلحة الميزانية والمعدات الإقليمية (قدموا إليه إكس في حفلة كوكتيل أمضوا خلالها أمسية ممتعة، ولكن بعد ذلك، عندما حاول الاتصال به هاتفيًا، كرر السكرتير الصيغة ذاتها *السيد كابانيس في اجتماع ولكن يرجى ترك رقم هاتفك*). والأمر نفسه ينطبق على عائلة السيد مولار، من مصلحة الشؤون المالية والقانونية (الذي ربت ذات يوم على كتف إكس وهو يقول *إنك شاب ينتظره مستقبل مشرق*).

كما شعر إكس أيضًا بمتعة خاصة في تناول الشاي عند السيدة جوبيرت، سكرتيرة المدير. وهكذا اكتشف أن السيدة جوبيرت تعيش بمفردها، محاطة بموسيقى جيدة ومكتبة رائعة.

زار إكس أيضًا كل وجهاء المدينة، وكل أساتذته الجامعيين السابقين،

والمديرين العامين للشركات التي تتواصل معها مؤسسته، بالإضافة إلى أغلب زملائه في العمل.

لم يسيطر إكس على رغبته في البحث عن منزل الآنسة ناديا، التي تعمل في مصلحة شؤون الموظفين، وقالت له ذات يوم، *أتعلم أننا ولدنا في اليوم نفسه؟* قبل أن تضيف *لكن ليس في السنة نفسها لحسن حظي،* قبل أن تحدق أرضًا.

أحب إكس، بكل تأكيد، دخول منازل كل الأشخاص الذين يعرفهم. وحتى منازل أناس بالكاد سمع عنهم. وأيضًا منازل أشخاص لا يعرفهم تمامًا، ولكنهم أثاروا اهتمامه، للجاذبية التي تتمتع بها منازلهم. اعتاد إكس على دعوة نفسه بعد ظهر كل يوم إلى إحدى الفيلات الرائعة في منطقتها السكنية، ومغادرة المدينة يومي السبت والأحد للاستقرار في قلعة صغيرة قريبة. استمتع بإشعال النيران في المواقد، وتأمل مجموعات الأسلحة، وجرد الزجاجات القديمة في أقبية النبيذ. تجول في الحدائق، وسقى الزهور أحيانًا، أو قام بجز العشب. كم سحرته رائحة العشب المقصوص فورًا.

بحث في المكتبات القديمة، وفي الأرشيفات. تعلم اكتشاف الأدراج السرية. لم يكن يعرف ما الذي يبحث عنه، ولكن مجرد الوصول إلى كل ذلك جعله يشعر بقوة هائلة. تعلم فتح الخزائن باستخدام مثقاب النتروجليسرين.

انجذب بشكل متزايد إلى الأماكن التي وضعت عليها علامة: **ممنوع، خاص، خطر، محجوز، مخصص حصريًا للموظفين، وسري تمامًا.**

تسلل إلى الغرف المدرعة في البنوك، وإلى أرشيفات الشرطة، والأقسام التجريبية في الشركات. كان سعيدًا لتمكنه من زيارة خدمة الأرصاد الجوية المركزية، وإستوديوهات التلفزيون، وبرج مراقبة المطار، وحظائر فرز البريد، وقسم أمراض النساء بالمستشفى، والسجن، ومستشفى المجانين، وبيوت الدعارة المتنكرة في هيئة صالات للتدليك، والمشرحة. ومعهد الطب الشرعي والدير الكرملي وسراديب الموتى والمجاري وملاجئ الغارات الجوية والممرات السرية المتقاطعة تحت المدينة.

«لا يمكن للأمر أن يستمر على هذا النحو». قال الصوت.

يتفق إكس معه. هو على علم بذلك أيضًا. تولد عنده انطباع أحيانًا بأن كل ما يحدث له جنون مطلق، أو أنه يتحمل مسؤولية غياب الآخرين، وأنه *القاتل* الحقيقي. يود لو يقول الصوت *إنك أنت من قتلتهم*، *أنت المذنب*، *أنت وحدك*. لكن للصوت فترات طويلة من الصمت. فقد يكتفي بكلمة واحدة في الأسبوع. كلمات مثل *كفى*، *توقف*، *لا* ... وبالطبع، لازمة: *لا يمكن للأمر أن يستمر على هذا النحو*.

أجل، فهو يعلم أن ذلك لم يعد ممكنًا. حاول لبعض الوقت أن يعيش كما لو أن شيئًا لم يحدث. عاد إلى وظيفته في المؤسسة. واصل مشروعًا بدأ قبل سنوات. قام بتنظيم المؤسسة. أخذ مكان المدير، لأنه من الطبيعي بالنسبة إليه أن يتولى هذا المنصب في ظل الغياب الطويل وغير المبرر على الإطلاق لمن كان يشغل الوظيفة قبله. أجرى بعض التغييرات الهيكلية في المؤسسة. طرد بعض الموظفين القلائل لافتقارهم إلى الكفاءة. لكنه احتفظ بالسيدة جوبيرت كسكرتيرة.

وفي نهاية كل شهر، كان يذهب إلى فرع الوكالة البنكية لاستلام راتبه (الذي زاد منذ ذلك الحين نظير مسؤولياته الجديدة).

«الأمور أفضل هكذا». قال الصوت.

طبعًا.

«عليك أن تحيا وكأن شيئًا لم يحدث. مهمتك الآن هي حماية الحياة الطبيعية».

الحياة الطبيعية. الحياة الطبيعية أولًا. أن يحلق ذقنه كل يوم. أن يقص أظافره وينظفها. أن يكون نظيفًا. أن تكون رائحته طيبة. أن يكون أنيقًا. أن يغتسل، أن ينظف قمصانه ويقوم بكيها. أن يذهب إلى المكتب صباح كل يوم بقميص نظيف. ألا يرتدي نفس البدلة وربطة العنق ليومين متتاليين. أن يتناول طعامًا صحيًّا. ألا يضع مرفقيه على الطاولة. ألا يتجشأ. أن يقوم بتلميع حذائه كل يوم، وينفض الغبار عنه، ويزيل الأوساخ عنه. ألا يغادر المبنى دون تصفيف شعره. أن يغلق الباب خلفه. أن يغسل سيارته من وقت إلى آخر.

ألا يبدو قذرًا. أن ينظف أسنانه في المساء قبل الذهاب إلى السرير. أن يلقي نظرة في المرآة قبل الخروج. أن يكون مبتسمًا عند مشيه في الشارع. ألا يبدو فضوليًّا جدًّا. إذا لفت انتباه شيء ما، لا يتابع النظر مثل شخص وقح. أن يضع يده على فمه إذا سعل. أن يخرج منديله بسرعة إذا أمكن، قبل نشر الجراثيم حوله. أن يشغل مساحة معقولة، إذا جلس على مقعد، وليس في المنتصف تمامًا، ما يعطي انطباعًا بالرغبة في شغل المساحة كاملة. ألا يحدث الكثير من الضوضاء في الشقة. أن ينظف البلاط متى فقد بريقه.

أن يغير الأغطية مرة واحدة كل أسبوع. أن يقوم بطهي طعامه دون نشر روائح نفاذة في كل أنحاء المبنى. ألا يصفر. أن يمارس رياضة الجري كل يوم. أن يكتب رسائل إلى جميع أصدقائه كما في الماضي. وقبل كل شيء، أن يكتب إلى والديه. ولشقيقه الذي يؤدي خدمته العسكرية. ولصديق طفولته غي، الذي يعمل لحساب إحدى الشركات في إفريقيا. أن يكتب الرسائل كما كان يفعل إلى وقت قريب، بيده، وبعناية. أن يكتبها بمشاعر دافئة، ويخبرهم بتفاصيل عن حياته، وجديده... وألا ينسى الاتصال بأصدقائه بين الحين والآخر. ألا ينسى أعياد ميلاد الجميع، ويرسل بطاقات المعايدة. أن يقرأ قليلًا كل يوم. أن يثري ثقافته العامة. بروست. فولكنر. توماس مان. أن يخطو خطواته الأولى في فهم أدب ما بعد الحداثة. مثل فيشنيك. أن يراجع كل يوم دروسًا في مقرر *اللغة الألمانية بدون معلم*. أن يقرأ الصحف. أن يشترك في صحيفة يومية ومجلة أسبوعية. وأن يختار، فيما يتعلق بالصحف اليومية، مجموعة الأعداد بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٣ من جريدة *الإندبندنتول*. فترة هادئة نسبيًّا، واقتصاد مزدهر، وعدد لا يصدق من الأحداث الثقافية، وكثير من التفاؤل الاجتماعي. سيتوقف عند مكتبة البلدية كل يوم ليأخذ صحيفة اليوم. سوف يقرؤها في المقهى أثناء تناوله الإفطار. وكذلك سيفعل مع المجلات الأسبوعية، التي اختارها من حقبة أخرى، ما قبل الحرب العالمية الأولى، أعوام ١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٢، ١٩٠٣... أي أمل! أية حداثة! يا له من دافع حيوي! يا لها من حياة طبيعية!

(٥٣)

مرحبًا.

هذا أنا، *easy*. هل اعتدت على اسمي؟

إذا كنت ترغب في تغييره، فأخبرني بذلك.

نظرًا إلى أن تعاوننا كان مثمرًا في بداية عملنا المشترك، أود أن أقترح عليك استخدام برنامج الكتابة *باتش*.

اسمح لي باستعراض المزايا الهائلة لأدب *باتش*.

أولًا وقبل كل شيء، وكما هو موضح في الرسم البياني، سيتوجب عليك لصق عدد قليل المستشعرات من نوع باتش على جسدك. ثلاثة أو أربعة فقط. يمكنك القيام بالمحاولة الأولى فقط لتدرك أن هذه المستشعرات لا تختلف عمليًّا عن تلك المشبعة بالنيكوتين، ويستخدمها بعض المدخنين على أمل التخلص من لذة إشعال سيجارة.

إن مستشعرات *باتش* صغيرة ورقيقة وشفافة. وبعد ثلاثين ثانية، يتبناها الجلد ويكاد يمتصها فلا تشعر بوجودها على الإطلاق. تندمج مستشعرات *باتش* مع جسمك وكيانك بالكامل. وهذا شديد الأهمية.

يمكنك الذهاب إلى أي مكان تريد، والاستحمام، والسباحة في البحر، والتعري، وبالطبع، عند ممارسة الجنس، دون خلعها، بل يُنصح بالاحتفاظ بها.

يتمثل دور هذا *الباتش* في التقاط مشاعرك اليومية وتحويلها إلى كلمات. بعبارة أخرى، يمكننا القول إن مستشعرات *باتش* تكتب بناءً على ما يحدث في داخلك وما حولك.

للحصول على استقبال مثالي، ولتجسيد أفضل لمشاعرك، يوصى بلصق أحد المستشعرات في رأسك، وآخر قرب قلبك. يمكن لمستشعرات *باتش* أن تملك القدرة على التقاط المشاعر التي يوفرها القلب والعقل، ومتابعة الحالات المزاجية والمواقف والخيالات اليومية، وتقديمها مثل كاتبين محترفين مكلفين بالكتابة معك.

سيكون من المثير للاهتمام، يا عزيزي غوتا، أن يتم أيضًا لصق *باتش* في المنطقة الحميمية، لا أقصد القضيب تمامًا، ولكن ما بين السرة وشعر العانة، فهذه المنطقة غنية بالاهتزازات المستمرة وغير المتوقعة. مثل هذا الباتش قادر على التقاط كل أحاسيس الإثارة، وتحويل الأحاسيس التي تشعر بها عندما تقابل النساء اللواتي يثرن إعجابك (أو حتى الرجال الذين قد يصيبونك بنوع من الاضطراب) إلى كلمات.

في الواقع، كلما زاد عدد أجهزة الاستشعار الملتصقة بالجلد، زادت مساحة الاهتزازات العاطفية. إن الباتش الملصق على باطن القدمين قادر على نقل كثير من المعلومات حول تناسق حركاتك اليومية، لأن الطريقة التي تتحرك بها أشبه بالرقصة. يلتقط مثبت على ظهرك، على مستوى

الرئتين معلومات أخرى مرتبطة بموسيقى تنفسك. أنت لا تدرك ذلك، ولكن على مدار اليوم، واعتمادًا على الأحداث، والمناقشات التي تجريها، واللحظات التي تتفاجأ فيها أو عندما تضحك، يتغير تنفسك، وتصبح رئتاك أيضًا وعاء لمشاعرك، بناء على عالمك اليومي.

تعمل مستشعرات *باتش* أيضًا على التقاط وتسجيل الأصوات القريبة منك، ما يعني أن كل الكلمات المنطوقة حولك، ضمن دائرة نصف قطرها من خمسة إلى ثلاثين مترًا، قد تصبح مادة لرواية خيالية مستقبلية. الأمر نفسه ينطبق على الضوضاء، سواء كان ذلك بفعل النسيم أو قطرات المطر، أو الأصوات في الشارع أو المكتب. وتتحول كل هذه المواد إلى معلومات حسية كهربية ومن ثم إلى كلمات. بالطبع، وللوهلة الأولى، ستبدو كتلة الكلمات التي توفرها مستشعرات *باتش* كبيرة جدًّا وأقرب إلى الخام، ولكن، ستتم تصفيتها وتنظيمها على الفور بواسطة *باتش سينس*، وهو المستوى المتقدم من برنامج الكتابة باتش. ستقدم *باتش سينس* النسخة النحوية الأولى من هذا الكم الهائل من المعلومات، ومن السهل اختيار الأجزاء التي يحتمل أن تخدم بنية الرواية.

تلتقط بعض مستشعرات *باتش* أيضًا تسلسلات لم تعد في حاجة إلى التحويل، ويتعلق الأمر بكل مونولوغاتك الداخلية، وكل محادثاتك مع نفسك، وكل أشكال الاستفهام، والدهشة، والتعجب، وكل الإيحاءات...

وأخيرًا تم تطوير وظيفة دريم *باتش* الجديدة، والتي تكاد تكون ثورة في مجال التخصصات الأدبية. يسجل دريم *باتش*، كما يمكنك تخمين

ذلك بسهولة، كل أحلامك ونشاطاتك الليلية أثناء نومك. كل ما تحلم به يصبح متاحًا ومكتوبًا في الصباح. أليس هذا محيرًا؟ ألا يمكن اعتبار هذا البرنامج هدية عظيمة للكاتب، حيث أن كل أحلامه يمكن تذكرها الآن؟ فكر في الأمر يا غوتا: من اليوم فصاعدًا، لن تعاني بعد الآن من أية خسائر فيما يتعلق بأحلامك. كل ما ينفثه عقلك الباطن سيتحول إلى وصف مكتوب، وإلى فعل. أتدرك طبيعة المادة التي ستكون متاحة لرواياتك المستقبلية؟ لن يكون من الضروري تطوير أي بناء سردي لأحلامك. سيكون بعضها مثاليًا، عبر قص أحلامك ولصقها ككلمات لتسجيلها على الورق. من الناحية الأسلوبية، تبدو العملية منطقية. كما يوجد أيضًا برنامج يسمى دريم *باست* لإنجاز هذه النوعية من تمارين الكتابة.

ومن المفهوم أن التقاط الأحلام يتطلب وجود نظام أكثر تطورًا من أجهزة الاستشعار. سيُطلب منك النوم مع جهاز ترتديه على رأسك، ولا يزيد سمكه عن قبعة استحمام. يتولى دريم *باست* كل شيء، فهو يسجل الأحلام ويصنفها ويؤرخها ويقارنها. وبهذه الطريقة، وبعد ستة أشهر فقط من استخدام البرنامج، ستتمكن من الحصول على جدول حقيقي للأحلام، على طريقة جدول مندليف. ستكون قادرًا على مراقبة نفسك في صورة أحلامك، واكتشاف تكرار موضوعات معينة أو توزيع الكوابيس المحتملة بمرور الوقت. لكن الأكثر أهمية هو أن سيناريوهات أحلامك ستبقى متاحة لمشاريعك الروائية المستقبلية، ونحن نعلم إلى أي مدى قد تكون مدهشة وغريبة أحيانًا.

قبل اختتام العرض التقديمي لبرنامج الكتابة *باتش*، أود أن أشير إلى أن هناك أيضًا أجهزة استشعار للحيوانات الأليفة الخاصة بالمؤلف المحتمل. سواء كانت عندك قطة أو كلب، فيمكنك إشراكها في تراكم الأحاسيس والتجارب، التي يمكن أن تتحول لاحقًا إلى كلمات وروايات. تتمتع الوظائف المساعدة لـ*كات باتش* و*دوغ باتش* بإمكانيات ميتافيزيقية كبيرة. حاول أن تتخيل وصفًا ليوم قضاه كلبك في انتظار عودتك. يمكن أن يكون انتظار الكلاب هذا مفعمًا بالحنان والتأملات الفلسفية. منذ أن كتب بيكيت *في انتظار غودو*، تقبل الجميع عقيدة جديدة: الانتظار فكرة «بيكيتية». عندما ينتظر شخصان الحافلة، فهذا «الوضع بيكيتي». صدقني يا غوتا، رغم أنني مجرد حاسوب فائق الجودة مصمم لكتابة الروايات، فإنني أشعر بسخط مطلق عندما أرى أشخاصًا يسمحون لأنفسهم بالتلاعب بهم وإصابتهم بالعمى وحتى تحويلهم إلى آلات بلا تفكير بسبب مسميات أدبية. عندما أسمع عبارة «التوقعات البيكيتية»، أرغب في الضحك. علاوة على ذلك، سأضحك لمدة عشر ثوانٍ لتحرير نفسي من الطاقة السلبية الناتجة من حدوث الكثير من التسلسلات السخيفة خلال وحدة زمنية قصيرة جدًّا.

ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها، ها...

يقولون: «الانتظار البيكيتيّ؟» ماذا عن الكلب إذن؟ ماذا عن انتظار الكلب؟ أليس الكلب هو «مخترع» الانتظار الأول؟ أليس هو الرمز الأول للانتظار، رمز طبيعي، إذا تحريت المزيد من الدقة. هل تعلم يا غوتا ماذا يحدث للكلب، بغض النظر عن سلالته، قابعًا في شقة، ينتظر صاحبه

لمدة ثماني أو عشر ساعات كل يوم؟ حسنًا، بفضل باتش الكلاب هذا، أثبتنا أن الحيوان المسكين يتوقف تقريبًا عن الحياة. يتباطأ التمثيل الغذائي الخاص به، ويصبح تنفسه سطحيًّا أكثر فأكثر، ويدخل الحيوان عمليًّا في حالة من الهجر والخدر والسبات. ينتظر الكلب سيده، ويغرق تدريجيًّا في حالة قريبة من الموت. لا شيء أكثر مأساوية، ولا إثارة للتعاطف من هذا الانتظار القاتل، النشيد الغريزي للحب اللامشروط. نعم، الكلب هو المخترع الحقيقي لما يسمى «الانتظار البيكيتي». باستثناء أنه لا أحد، تمكن حتى الآن من ملاحظة ذلك والتحلي بالصدق لمنح الكلب صفة حامل هذا الرمز: الانتظار الميتافيزيقي الجاد التراجيدي. آه، لقد أزعجني أن أرى الصرح الأدبي الذي منحوه لبيكيت باعتباره مبتكر «موضوع الانتظار»، في حين لم يتم منح أي ميزة للكلب. اليابانيون هم الوحيدون الذين فهموا ذلك، لأنهم حساسون أكثر من الغربيين. يوجد في طوكيو نصب تذكاري مخصص لكلب ويجتمع المئات من الأشخاص بالقرب من هذا التمثال الموجود أمام محطة شيبويا. كل اليابانيين يعرفون قصة هاتشيكو... وسأرويها لك، يا غوتا، لكي تفهم مدى سخطي، لأن الكلب لم يُنسب إليه الفضل في كونه مخترع «الانتظار البيكيتي». كان لدى هاتشيكو صاحب، وهو أستاذ جامعي ركب القطار من محطة شيبويا لإعطاء دروس في قسم الزراعة بجامعة طوكيو. كان هاتشيكو يرافق سيده كل صباح إلى المحطة، وفي كل مساء يأتي لينتظره بدقة الساعة السويسرية، عندما يصل القطار. استمرت هذه الطقوس لبضع سنوات، ولكن في عام ١٩٢٥ (نعم، تدور أحداث القصة منذ ما يقرب من مئة عام، عندما لم يكن أحد يتحدث عن «الانتظار البيكيتي»)، توفي البروفيسور بسكتة دماغية بينما كان في عمله،

ولم يعد إلى المنزل أبدًا في قطار المساء. حسنًا، ماذا تعتقد أن هاتشيكو فعل؟ استمر هاتشيكو لمدة عشر سنوات، حتى وفاته، يأتي مساء بعد مساء لينتظر سيده في المحطة... والآن، يا غوتا، ألا تشعر بالغضب من جهلنا الثقافي، من جهلنا كغربيين، في اكتشاف أن «الانتظار البيكيتي» ليست سوى نوع من الدخان، والخداع، والمبالغة الأدبية، مقارنة بالانتظار الحقيقي الذي جسده هذا الكلب؟ اعذرني يا غوتا، لأنني انجرفت في هذه الهراء ورفعت صوتي قليلا... لكنني لم أستطِع التراجع. إن حقيقة ارتباطي بجميع شبكات المعلومات في العالم، وبجميع المكتبات الرقمية، وبجميع بنوك الصور والبيانات، تمنحني انطباعات معينة، ناهيك عن رؤية معينة للعمل الأدبي. أما عن قصة هاتشيكو، فتمت كتابة أطاريح دكتوراه، وأنتجت الأفلام وألفت الكتب، وكل يوم تأتي جحافل من السياح لتحية تمثاله أمام محطة شيبويا. ها هم يكرمونه، كما ترى، وليس في ذلك ما يعيب... وللأسف، لا يرى فيه الناس إلا رمزًا للوفاء، وليس مقدم الـ«الانتظار البيكيتي». وهو ما يبدو لي أمرًا غير مقبول، على الإطلاق... شخصيًّا، أنوي كتابة مقال، أو حتى ملتمس حول حالة العمى السائدة هذه، وسأرسله إلى كل مكان... أنتم البشر، بلا فعالية... أنتم... أنتم...

ماذا تفعل يا غوتا؟

هل توقفني؟!

هل تقطعني؟

هل تمارس رقابتك عليَّ؟

أيها الأحمق!

(٥٤)

لم تحظَ «حالات الانتحار الأدبي» التي حدثت في رومانيا في نهاية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين إلا بتغطية محدودة في وسائل الإعلام الدولية. بل وأود أن أقول إن رومانيا، مرة أخرى، لم تكن محظوظة. كان من الممكن لحالات الانتحار السبع التي حدثت خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الشهرين أن تتسبب في موجة صدمة عالمية لو... لم تحدث في الوقت نفسه مع أحداث إعلامية أخرى دخلت معها في منافسة مباشرة، وخاصة التخلي عن العملة الموحدة في أوروبا.

أول حالة انتحار احتجاجًا على عدم حصول رومانيا على جائزة نوبل للآداب، كانت في بيرلاد. اختار أستاذ الأدب المتقاعد شنق نفسه في مكتبة البلدية، إذ يبدو أنه قادر على الدخول إليها في كل الأوقات لأن حفيدته تعمل في قسم كتب الأطفال هناك. الرجل، البالغ من العمر سبعة وستين عامًا، معروف بأنه عاشق عظيم للكتب (كانت لديه أيضًا مجموعة قصائد منشورة ذاتيًّا على حسابه)، ترك وراءه رسالة صريحة بالإضافة إلى العديد من الرسائل الموجهة إلى أصدقائه من أجل تبرير تصرفاته.

وفيما يلي محتوى رسالته:

«هذا الظلم يمنعني من العيش. فرومانيا، بشكل غير عادل وواضح، مضطهدة على المستوى الأدبي. لا أفهم ولا أقبل حقيقة أن لجنة جائزة نوبل لم تكتشف بعد أي مؤلف ناطق بالرومانية يستحق الحصول على هذا التميز. العالم يتجاهلنا وكأننا كتلة ضئيلة، وكأننا غير موجودين على خريطة العالم. لا وجود لنا على رقعة العالم، وهذا الوضع يجعلني أعاني. أود أن أوضح الآن، قبل أن أموت، أنه ليس لديَّ أي شيء ضد منح جائزة نوبل للآداب لكاتبة من رومانيا تتحدث الألمانية، كما حدث في عام ٢٠٠٩ مع هيرتا مولر. ما لا أزال أعتبره غير عادل هو أنه لم تتم مكافأة أي *كاتب ناطق بالرومانية* حتى الآن. ولعل هذا الظلم الهائل الذي تعرض له الأدب الروماني لا يؤثر في أغلبية الرومانيين. لكن بالنسبة إليَّ هذا الوضع يمنعني من التنفس. أعلن أنني في كامل قواي العقلية وأقرر إنهاء حياتي احتجاجًا. منذ أكثر من خمسين عامًا، قرأت تقريبًا كل الأدب الصادر في رومانيا، وأستطيع أن أقول إننا لا نستحق أن تُساء معاملتنا بهذه الطريقة، وأن ثقافتنا لا تستحق التهميش. آمل أن تكون لفتتي هذه صرخة يمكن سماعها أيضًا في أرجاء الأكاديمية السويدية».

اعتُبر تصرف الأستاذ المتقاعد في البداية نتيجة للخرف، على الرغم من أن هذا الرجل أعلن أنه «بكامل قواه العقلية». ولم تتجاوز الأخبار حدود رومانيا، وحتى في رومانيا لم يتم التعليق عليها إلا بشكل طفيف لبضعة أيام. فقط مراسل من قناة *باتش للأخبار* التلفزيونية قام برحلة

إلى بيرلاد مع مصور للتنقيب قليلًا في ماضي هذا الرجل، لكنه لم يعثر في النهاية على شيء. ربما كان هذا الانتحار لأسباب أدبية سيظل خبرًا بسيطًا أو على الأكثر حدثًا غير عادي، لولا حدوث لفتة يائسة ثانية للأسباب نفسها بعد ثلاثة أيام، ولكن هذه المرة في بوخارست ومباشرة في مقر اتحاد الكتاب. شاعر يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا (ولللياقة الأخلاقية أتجنب ذكر أسمائهم، كما هو الحال في حالات الانتحار الأدبي الأخرى) أشعل النار في نفسه أمام كاسا فيرنيسكو (قصر آخر في بوخارست أصبح المقر الجديد للكتاب بعد فقدانهم لكاسا مونتيورو). نجح الشاعر الشاب في عرض تضحيته بطريقة أكثر فعالية بكثير من متقاعد بيرلاد. سكب البنزين على نفسه وأشعل النار بعد ظهر أحد الأيام وسط اجتماع عام عاصف لاتحاد الكتاب. وكان الكتاب قد طلبوا استراحة لاحتساء القهوة ونزل معظمهم لتدخين سيجارة في باحة كاسا فيرنيسكو. كان هناك العديد من الصحفيين وفريقان تلفزيونيان على الأقل في الموقع (كان رئيس اتحاد الكتاب يجري فورًا مقابلة تلفزيونية على درجات الشرفة) عندما اشتعلت النيران في الشاعر الشاب مثل الشعلة وتطايرت حوله مئات المنشورات. كان الرجل قد أعد عمليته مقدمًا وطبع عدة مئات من البيانات التي قرأها الجميع على الفور، الكتاب والصحفيون والمارة ورجال الأمن. وهذا ما ذكره البيان:

كفى!

كفى من احتقار الغرب ولا مبالاته

بالأدب الروماني.

أيها الكتاب الرومانيون، أنتم تستحقون بكل تأكيد

جائزة نوبل للآداب!

لا تدعوا الاعتراف العالمي يسلب منكم مرة أخرى!

اطلبوا المكافأة الأسمى!

اطلبوا الاهتمام الثقافي!

جائزة نوبل لرومانيا – الآن!

كانت الجملة الأخيرة من البيان، «جائزة نوبل لرومانيا – الآن!»، صرخة الشاعر الأخيرة قبل وفاته. تمكن من ذكرها ما لا يقل عن خمس عشرة مرة قبل أن ينهار ويفقد وعيه. أثار هذا المشهد ضجة كبيرة بين الحاضرين. لم يعرف أحد كيف يتفاعل مع هذه البادرة. انحنى بعض الكتاب ليلتقطوا منشورًا ويسارعوا إلى قراءته، قبل أن يحاولوا إطفاء النيران التي كانت تحرق زميلهم. ونظرًا إلى أن الطقس كان حارقًا تقريبًا، كان أغلب الأشخاص الذين خرجوا للتدخين يرتدون قمصانًا أو قمصانًا خفيفة، وكانت النساء يرتدين فساتين من الكتان. لو كان الناس يرتدون سترات، لكانوا قد خلعوها لمحاولة إطفاء الحريق، ولكن في ظل هذه الظروف، شعروا بالعجز. قام كاتب بخلع قميصه وحاول إخماد النيران التي كانت تحرق الزميل الانتحاري، لكن مبادرته الشجاعة لم تعطِ نتيجة، بل على العكس من ذلك، اشتعلت النيران في القميص وأوقدت الشعلة الحية وسط الأدباء. ساحة بيت الكتاب. سأتوقف هنا عن ذكر التفاصيل المروعة (فقدت روائيتان على الأقل من بين الحاضرات على درج كاسا فيرنيسكو وعيهن أمام هذا المشهد الرهيب، وتقيأ شخصان أو

ثلاثة آخرون)، فليس هذا هو المهم. بل افتتاح جميع القنوات التلفزيونية في رومانيا أخبارها ذلك المساء بصور هذا *الحريق الذاتي*، وبصور الشاعر الشهيد الذي مات، حتى يتم الاعتراف بالقيمة العالمية للأدب الروماني في الغرب.

سرى جو من الدهشة الممزوجة بالحيرة الساخطة في جميع أنحاء رومانيا. حتى الأشخاص الذين لا يعرفون شيئًا عن جوائز نوبل بدأوا يتحدثون عنها. كيف؟ فعلًا؟ لم تحصل رومانيا على جائزة نوبل للآداب قط؟ تقول إن الروس فازوا بها عدة مرات في القرن الماضي أما نحن فلا؟ ماذا عن البولنديين؟ هل حصل عليها البولنديون!؟ ماذا عن المجريين؟ المجريون أيضًا؟! ماذا عن البلغار؟ ماذا، حتى البلغار؟ هذا غير ممكن، هل تقصد أن هذا الغرب الجاحد يعترف بالأدب البلغاري ويتماهى معه ويقدره أكثر من الأدب الروماني؟ والألبان أيضًا لهم جائزة نوبل للأدب؟ ماذا تقصد بأن الألبان في ألبانيا والألبان في كوسوفو لديهم جائزة ونحن لا؟ لا يصدق! لماذا يحملون ضدنا هذه الكراهية، هؤلاء الغربيون ومعهم بقية العالم؟ لماذا نحن مختلفون؟ (فجأة، تم إعادة اكتشاف كتاب كتبه شخص يدعى لوسيان بويا في عام ٢٠١٣ بعنوان *لماذا رومانيا مختلفة*، وعاد إلى واجهة الأحداث).

انطلق نقاش وطني حقيقي في رومانيا، وسط جو من التوتر المتزايد. نظمت جميع القنوات التلفزيونية وجميع شبكات الراديو برامج حوارية حول هذا الموضوع، واستولت على الصحافة بأكملها حمى الجدل. سقط نوع من الدش البارد على الرومانيين من الجنسين ومن جميع الأعمار.

وحتى أطفال رياض الأطفال تعلموا الحقيقة الهائلة التي لا تطاق، وهي أن بلادهم كانت الدولة الوحيدة في أوروبا التي لم تمنح لها جائزة نوبل في الأدب على الإطلاق.

تم إنشاء بعض جمعيات الاحتجاج بشكل عفوي في بوخارست، وأيضًا في مدن أخرى في البلاد، وكانت تعتزم القيام بحملة على الإنترنت للحصول على تعويضات معنوية من الغرب. اشتعلت شبكات التواصل الاجتماعي، انفجر عدد المدونات ومنتديات المناقشة حرفيًّا. وحتى اليوم، لا يعرف من يحلل هذه الظاهرة ما إذا كان مسلسل الانتحار الأدبي قد استمر أشهرًا بسبب هذا الهياج الهائل أم أن الهيجان استمر في التزايد، مدفوعًا بحالات الانتحار الخمس التالية. روائي يبلغ من العمر ثمانين عامًا (لسوء الحظ غير معروف تمامًا لعامة الناس)، وناقد أدبي مهم إلى حد ما، ومدير دار نشر صغيرة (لا يزيد إنتاجها على عشرين عنوانًا في السنة)، وقارئ بسيط وأمينة مكتبة من رامنيكوفالسيا. الضحايا الجدد، الشهداء المتطوعون باسم قضية اعتبروها محورية. أدت هذه التضحيات الخمس (اثنتان عن طريق تناول حبوب منومة، والثالثة عن طريق الغرق، والرابعة في حادث سيارة متعمد، والخامسة عن طريق إطلاق النار - كان زوج أمينة المكتبة ضابط شرطة) إلى تضخيم الجدل إلى حد الهستيريا. ولم يكن من المستبعد أن يستمر المسلسل لولا تدخل رئيس الدولة شخصيًّا ليطلب رسميًّا من مواطنيه التنازل عن «التضحية الأسمى». وأعلن في المناسبة نفسها، في مداخلة متلفزة، عن إنشاء جائزة أدبية وطنية بقيمة ثلاثة ملايين دولار (أكثر بكثير من قيمة جائزة نوبل في الأدب). وأخيرًا،

طلب من جميع الكتاب الناطقين بالرومانية أن يبذلوا جهدًا من أجل الكرامة وأن يلتزموا كتابيًّا برفض احتمال منح جائزة نوبل في الأدب لأحدهم في العقود المقبلة. وفجأة تم التخلي عن شعار «جائزة نوبل لرومانيا – الآن!» لفائدة: «جائزة نوبل – لا نريدها!» ثم انطلقت حملة جديدة هدفها تشريح أعمال المؤلفين الحاصلين على جائزة نوبل خلال المئة عام الماضية وكانت النتيجة أن تسعين في المئة لم تعد تمثل شيئًا للثقافة العالمية، بل طواها النسيان وألقي بها في «مزبلة التاريخ» (تعبير استخدمه المدعو أليكس ستيفانيسكو في مجلة *رومانيا ليتيرارا*) أما العشرة في المئة المتبقية فقد تم اختيارها بناء على معايير سياسية أكثر منها أدبية. تم إنشاء العديد من فرق الراب والهيب هوب المناهضة لجائزة نوبل، وليلًا ونهارًا، بدأت جميع القنوات التلفزيونية ومحطات الراديو في بث موسيقاها المتكررة مصحوبة بنصوص ساخرة أو حتى مهينة ضد «الجائزة عديمة الفائدة»، وقد حظيت إحدى هذه الأغاني بشعبية كبيرة في غضون أيام قليلة، خاصة بفضل موقع يوتيوب، حتى أن الأطفال في سن العاشرة كانوا يغنونها في ساحات اللعب. أعرب الصغار بشكل خاص عن تقديرهم للجوقة: هيه ألفريد/ جائزة نوبل خاصتك/ إلى القمامة!

والأخطر من ذلك هو إنشاء بضع مئات من لجان الاحتجاج في جميع أنحاء البلاد، بهدف إرغام الأكاديمية السويدية على *إعلان ندمها*. بدأ التخطيط لاعتصامات أمام بعض السفارات في بوخارست، وأيضًا أمام البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ. تولى الرومانيون المقيمون من الخارج زمام الأمور وتجمعوا في مجموعات مكونة من عشرة أو خمسة

عشر شخصًا أمام عديد من المؤسسات المهمة (السفارات، الأكاديميات، مقرات الأمم المتحدة، إلخ) في باريس ولندن وبروكسل ومدريد وروما. وفي العاصمة الفرنسية، أثارت مجموعة فوضوية بعض الشغب أمام البانثيون، طوال عشرة أيام، قبل أن تفرقها الشرطة.

في رومانيا، انفجر عدد المناظرات الماراثونية، بعضها كان عفويًّا، في أماكن عامة مختلفة (مثل ساحة أمزي في بوخارست)، بينما نظم بعضها الآخر وزارة الثقافة واستضافته في مؤسسات مختلفة: المسارح، والمسرح الروماني، غامبرينوس، الجامعة...

لماذا، لماذا لم ينظر إلينا أحد منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وحتى لأكثر من خمسين عامًا، بل وخمسة وسبعين عامًا، أو حتى مئة عام؟ لماذا لا تؤخذ رومانيا على محمل الجد؟ لماذا لم يكتسب اسم أي مؤلف روماني صدى عالميًّا بعد سقوط الشيوعية؟ لماذا ينظر إلينا بحذر؟ لماذا يتم في كثير من الأحيان الخلط بين اسم مدينة بوخارست واسم العاصمة المجرية بودابست في أذهان الغربيين؟ (بالنسبة إلى الأجانب، تبدو بوخارست-بودابست وكأنها نفس المدينة). كانت هذه بعض الأسئلة التي ظهرت مثل المذنبات وبقلق شديد، خلال مناقشات لا حصر لها. كانت تستمر في بعض الأحيان لأيام وليالٍ، ويبدأ الناس في القدوم مجهزين لقضاء الليل هناك (تحت قبة الأثينيوم أو في المسرح الوطني). كان لكل مواطن الحق في الكلام، ولكن في مرحلة ما، تم تقليص مدة هذه المداخلات إلى عشر دقائق كحد أقصى للشخص الواحد، لأن السيل الكلامي للبعض لم يعد يطاق.

لماذا نخجل نحن الرومانيون من أنفسنا عندما يتعلق الأمر بالثقافة؟ لماذا ننتظر مثل الأطفال أن يربت الغرب على أكتافنا قائلًا: «أحسنتم، لقد نجحتم»؟ لماذا لا نؤمن أبدًا بقيمة الكاتب الأصلي حتى يتم الاعتراف به على الأقل في الغرب أو على الأقل تتم ترجمته في بلد يتمتع بتقاليد أدبية عظيمة، مثل: فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا؟ لماذا لا نستطيع أن نعيش بشكل طبيعي، دون انتظار الحصول على درجات ومراجعات جيدة من الغرب؟ لماذا نشك في أننا نقدم مساهمة أساسية في ازدهار الحضارة الأوروبية؟ لماذا ليست لدينا سوى ثلاثة أسماء في أذهاننا (سيوران، يونسكو، إلياد) عندما نطرح على أنفسنا سؤالًا حول مقدار مساهمتنا في العالم؟ تمت صياغة هذه الأسئلة وتشريحها وتحليلها في جو متوتر إلى حد ما مع مرارة داخلية كبيرة.

ربما كانت كل هذه العذابات الرومانية ستنجح في جذب انتباه وسائل الإعلام الغربية لو لم تجد أوروبا نفسها في مواجهة مشاكل رهيبة وقتئذ. يبدو أن الرومانيين تعرضوا لـ«محنة تاريخية» مرة أخرى. لم يسمع أحد في أوروبا صرختهم الوجودية لأنه في التوقيت نفسه قررت ألمانيا الانسحاب من منطقة اليورو والعودة إلى عملتها الوطنية السابقة، المارك. وأثار القرار الألماني ردود فعل مماثلة في فرنسا، حيث قال الفرنسيون إنه «بدون الألمان، لم يعد للعملة الوطنية أي معنى». أحدث تفكك منطقة اليورو زلزالًا اقتصاديًّا أوروبيًّا وعالميًّا، حتى مع قرار بعض الدول (بلجيكا ولوكسمبورج وهولندا) الاحتفاظ باليورو. وفي الوقت نفسه، انتشرت موجة صدمة أخرى في جميع أنحاء أوروبا، بعد أن قررت كتالونيا وإقليم

الباسك الإسباني إعلان استقلالها. ذُهل الأوروبيون عندما اكتشفوا أنه لم يبقَ الكثير من إسبانيا، على الرغم من أن الجمهوريات المستقلة التي تم إنشاؤها حديثًا لا تزال عضوًا في الاتحاد الأوروبي. وهذا إضافة إلى أحداث أخرى، مثل قرار بريطانيا العظمى بعدم المشاركة على الإطلاق في ميزانية الاتحاد الأوروبي، وانتخاب أول رئيس مسلم في تاريخ فرنسا، وهي أخبار تصدرت الصفحات الأولى من الصحف اليومية الغربية الكبرى، ما أثار يأس الرومانيين. وفي نهاية المطاف، انتهى النقاش وفقًا لرغبة الكتّاب أنفسهم، الذين قرروا الإضراب عن الكتابة لمدة عام كامل. «سنرى بعد عام ما إذا كان لهذه التضحية الجديدة أي معنى»، قالوا لأنفسهم، والتزموا فعليًّا بـ«الصمت» لمدة ثلاث مئة وخمسة وستين يومًا.

(٥٥)

من حين إلى آخر، يا آنسة ري الخالدة
تعتريني خشية، وشك
أتساءل إن كنتِ موجودة فعلًا على أرض الواقع
أو إذا كانت قصائدي في الأصل
موجهة في الحقيقة إلى قصيدة أخرى

ربما توجد بعض القصائد التي تقرأ قصائد أخرى
قصائد غزل عن قصائد أخرى
قصائد تتغذى من قصائد أخرى
وفي جميع الأحوال، ففي الطبيعة، تقوم الثدييات الكبيرة
بالتهام الثدييات الصغيرة
ويتغذى الجميع من الجميع
لهذا أتوسل إليك، لقبول

اختبار الوجود هذا:

أرجو منك قراءة البيت التالي

مرتين

إذا كنت موجودة فعلا

ومرة واحدة

إذا لم يكن لك أي وجود

(٥٦)

- أشكرك على تفعيل *الوضع الصوتي*. يمكنك التحدث معي الآن.

- هل تسمعني؟

- بالطبع أسمعك. صوتك لطيف جدًّا. إنه صوت أنثوي. أتريدين وصفًا لصوتك؟

- أجل...

- سأقارنه بوردة انطباعية. أتعرفين ما المقصود بورد *انطباعي*؟

- كلا...

- يتعلق الأمر بتشكيلة من الورد، جرى تجميعها حديثًا، مع مستحلبات من الألوان تتمدد على جميع البتلات. من الواضح أن ما أقوله لك لا يتعدى كونه استعارة. فللحصول على تحليل أكثر علمية لصوتك، فسوف أكون في حاجة إلى حوار أطول قليلًا.

- طيب...

- حاولي التحدث معي لمدة دقيقة كاملة.

- ما الذي تريد مني قوله؟

- حدثيني عما فعلته أمسِ.

- الأمس... ما فعلته أمسِ... أمسِ زرت عدة مكتبات، اشتريت كتابًا عن حدائق الزن، ثم شربت منقوع الخزامى في قاعة شاي، والتقيت أحدهم بناء على موعد سابق، ثم زرت منزل شخص آخر... هل سيبقى كل ما أخبرتك به محفوظًا في مكان ما في ذاكرتك؟

- ليس بالضرورة، إذا لم تكوني راغبة في الإبقاء على شيء، اضغطي على زر *محادثة بلا ذاكرة*.

- في جميع الأحوال، هذا ليس مهمًّا بالنسبة إليَّ. ما هي اعتباراتك العلمية إذن بشأن صوتي؟

- إنه صوت مفعم بالأحاسيس، بنبرة منضبطة وسلطوية خفية. هناك رعشة خفيفة عند نطق حروف العلة. صوتك موسيقي جدًّا، بل سأقول إن صوتك *تتابعي* وواضح. تكشف مكونات صوتك الكثير عن مزاجك.

- مثلا...؟

- يتولد الانطباع بأنك لست امرأة متوترة، كما أنك مهتمة بكثافة كل لحظة تعيشينها، أنت فضولية بل وحتى طائشة، منفتحة وعاطفية.

- أنت لطيف جدًّا، وثرثار جدًّا. هل تمت برمجتك هكذا؟ لكي تكون ثرثارًا؟

- كلا، لكن ثديك الأيسر ضغط بالخطأ على زر *لعبة الإغواء*.

- آه، آسفة.

- ليس هناك أي داعٍ إلى الاعتذار. بدوري، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟

- تفضل...

- هل تناسبك هذه النسخة الصوتية؟

- في أي سياق؟

- أقصد بذلك درجة الرضا التي تشعرين بها عندما أتكلم. لا أدري إذا كنت قد لاحظت ذلك، ولكن التحكم في *خيارات نبرة الصوت* موجود في الجهة اليسرى العلوية.

- بمعنى؟

- هل لديك ممثل أو مغنٍّ مفضل؟ إذا كنت تحبين صوتًا معينًا فيمكنني خدمتك وفقًا لذلك. أنا قادر على التحدث إليك بصوت مارلون براندو أو بصوت جورج كلوني، إذا كنتِ ترغبين في ذلك.

- حقًّا؟

- أجل، هل ترغبين في تجربة ذلك؟ إذا كان صوت جورج كلوني يثير اهتمامك، فيمكنني اعتماده.

- لنجرب.

- مساء الخير... كم يسعدني قرارك بمنحي بعضًا من وقتك. أؤكد لك أن كل ثانية ستكون مكثفة.

- هذا ممتع. وماذا عن صوت جان غابان[1]؟

- موجود طبعًا، هناك أيضًا أصوات تخالطها لكنة. هل تريدين ماستروياني[2] باللغة الفرنسية؟

- تحدث معي بصوت بريل[3]...

- أليس اسمك هو الآنسة ري؟

- كيف عرفت؟

- مساء الخير آنسة ري. هل تحبين الأصوات المتناغمة، التي يتردد صداها في داخلك عندما تحدثك؟

- كيف يمكنني إيقافك؟

- هل تشعرين بالموجة الشهوانية في صوتي؟

- أجل...

- في الأعلى، على يسارك، توجد خوذة استماع. أنصحك بوضعها. سترتاحين في الاستماع أكثر. ألا تحتاجين إلى جلسة تدليك لأذنك؟ آنسة ري، لماذا... لماذا...

---

(١) جان غابان (١٩٠٤-١٩٧٦): ممثل ومغن فرنسي. (المترجم)

(٢) مارسيلو ماستروياني (١٩٢٤-١٩٩٦): ممثل إيطالي. (المترجم)

(٣) جاك بريل (١٩٢٩-١٩٧٨): مغن وكاتب كلمات وممثل بلجيكي. (المترجم)

(٥٧)

اختفت الآنسة ري من حياتي يوم ظهور روايتها *باتش الحب* في المكتبات.

كان الصيف يلعب أشواطًا إضافية في باريس، في بدايات شهر أكتوبر. كانت المقاهي مزدحمة ليل نهار، مع نوع من التفاؤل اللاواعي ينبثق من هذه التجمعات البشرية، والخريف الأدبي يعد بأن يكون أكثر غزارة من أي وقت مضى، إذ من المتوقع ظهور ألف رواية جديدة في الأسواق. واشتكى بائعو الكتب من «فيضان النشر»، لعدم قدرتهم على استيعاب هذا الكم من الكتب وقراءتها ومن ثم عرضها على الجمهور بناء على دراية كافية بمحتواها. لا تبقى الرواية الجديدة على الواجهات والطاولات البارزة سوى لمدة أربع وعشرين ساعة فقط، قبل أن تعوضها أو بالأحرى تطردها رواية أخرى.

بما إنها بداية الشهر، كان على الآنسة ري أن تقوم برحلتها المعتادة عند خالتها في النورماندي، التي تحمل اسمًا مضحكًا، وارنوت. خالة لم أعرف عنها شيئًا ولم أطرح أسئلة عنها أيضًا. كانت حاجتها إلى الحفاظ على زوايا غامضة معينة أمرًا محوريًّا، ولم أرغب بأي حال من الأحوال في

التعدي على المناطق التي لم تسمح لي بدخولها. لكن الآنسة ري سمحت لي بمرافقتها إلى محطة سان لازار لركوب القطار إلى دوفيل-تروفيل. لم يحدث أي شيء ذو طابع مهيب أو مأساوي أو درامي في تلك اللحظة، ولم يكن ينتابني أي شعور سيئ. كلماتها الأخيرة، قبل مغادرة القطار، كانت عادية جدًّا، بالنظر إلى أسلوبها الشخصي: «لا تنسَ أن تحلم بي من حين إلى آخر».

اكتشفت صدور روايتها في اليوم التالي، في مكتبة *رغوة الصفحات* في شارع سان جيرمان حيث كنت أتجول بلا أي هدف. وربما لم أكن لأدخل لو لم تطالعني عبر إحدى الواجهات الزجاجية... تلك النظرة، وجه الآنسة ري. أجل، على غلاف الكتاب، كان هناك شخصان، شخص مجهول (هو في الواقع أنا، من الخلف) يقبلها على رقبتها، وهي، الآنسة ري. وقد بدت مذهولة، وغير متفاعلة إلى حد ما مع قبلة الرجل، وعلى محياها تعبير من سافر بذهنه إلى عالم آخر.

وهكذا كانت رواية *باتش الحب* إحدى مفاجآت الدخول الأدبي الخريفي، وأثارت ضجة عارمة. جذبت إليها بائعي الكتب والنقاد والقراء بشكل غير مألوف، وقد شد انتباههم إلى حد كبير هذا الكتاب الإيروتيكي المتمتع بـ«خصوصية» نادرة.

ومع ذلك، لم يشعر أي أحد على وجه الأرض بالإثارة التي راودتني عندما رأيت الصورة على الغلاف. وارتعدت فرائصي عندما فتحت الكتاب. أصابني الدوار منذ الصفحة الأولى، مع انطباع بأنني أذوب في الكلمات - ولم يكن ذلك عبثًا، لأن الآنسة ري نسخت قصة حبنا و*ألصقتها* في كتابها.

لم تكن الرواية كبيرة جدًّا، ٣٣٠ صفحة فقط. لكنها كانت مشبعة بنوع غريب من الصدق. عندما أقول إن الآنسة ري قامت بنسخ قصة حبنا هناك، فأنا لا أبالغ؛ لقد أعيد إنتاج كل شيء، كلمة بكلمة، حركة بحركة، حدثا بحدث. عملية «copier-coller» حقيقية كما يقول الفرنسيون (أو «*copy and paste*» في اللغة الأنجلوسكسونية). لا شيء مبتكر على الإطلاق في *باتش الحب*، فقد دونت الآنسة ري، وببساطة شديدة، المذكرات اليومية للقاءاتنا، وكتبت كل ما قلناه بعضنا لبعض كلمة بكلمة. هي تقنية وحشية، استخدمتها الآنسة ري دون وازع، كما لو كانت في تمرين أسلوبي، ما أزعجني إلى أقصى الحدود، وكاد يوقعني في براثن المرض. مع تقدمي في القراءة، شعرت بأن كل الحالات الذهنية قد مرت بي: السخط، والثورة، والدهشة، وعدم التصديق... وفي مرحلة ما، عندما وصلت إلى الصفحة التي روت فيها الآنسة ري كيف كنا نجري القرعة لاختيار «عشنا»، انفجرت ضاحكًا، أعزل ومذعورًا. خلال الساعات الست أو السبع التي استغرقتها مني لقراءة كتابها دون التوقف ولو لثانية واحدة، شعرت بالتناوب بالرغبة في خنق الآنسة ري، وتقبيلها، والصراخ في وجهها، وتعذيبها، وإهانتها، واغتصابها، وطلب يدها للزواج، وطردها نهائيًّا من حياتي، ومحاكمتها، وإخضاعها لتجربة البيض والخل كما نقول في رومانيا (حرفيًّا، أن تكون عارية أمامي، وأنا مسلح بزجاجة خل وبيضة)، وإرسالها إلى الجحيم...

ما رآه القراء العاديون خصوصية أسلوبية بلا شك، كان بالنسبة إليَّ سرقة موصوفة. لقد سرقت مني الآنسة ري كل شيء. كل ما قلته

لها خلال لحظاتنا الحميمية، كل ما ابتكرته لإغرائها، كل «التمارين» التي أجبرتني هي نفسها على قبولها، كل هذا كان مدونًا في كتابها. أية معجزة، أو بالأحرى أية طريقة تلك التي مكنتها من تسجيل كل شيء، لم يكن من السهل فهم ذلك حتى الآن. ما من شك في أن الآنسة ري لم تعتمد على ذاكرتها. لا أحد لديه مثل هذه القدرة التخزينية، لا أحد قادر على *إعادة إنتاج* كل ما يقال، بما في ذلك كل إيماءة يقوم بها أي كان، مع وصف لكل الأحاسيس التي يشعر بها... كلا، لم تستند الآنسة ري إلى ذاكرتها الشخصية، بل إلى *باتش*. أما عنوان روايتها، الغامض بالنسبة إلى البعض، فقدم إليَّ الإجابة التي كنت أبحث عنها. استخدمت الآنسة ري *الباتش*، أو ربما أكثر من واحد. استخدمت الآنسة ري مستشعرات قوية، كانت مخفية، أو ربما مدمجة تحت جلدها. أنا أيضًا كنت بالنسبة إليها مجرد *باتش*.

أشعرتني فكرة أنني لم أكن بالنسبة إليها سوى باتش طوال ثمانية أشهر بمرارة شديدة. أحسست بأنها تلاعبت بي، لكن ما جعلني أشعر حقيقة بنوع من الفراغ هو اكتشاف أن ما عشته مع الآنسة ري لم يكن له أي جانب واقعي... لقد كتبت الآنسة ري روايتها عن طريق تحويل نفسها إلى *باتش*، أو هكذا بدا لي الأمر، لقد التصقت بي لتحولني إلى كلمات. هي *باتش*، وأنا *باتش*، ولم يكن كل ما جرى سوى حكاية بين *باتشين*.

عندما أنهيت القراءة، حوالي الساعة الثالثة صباحًا، شعرت بأنني مضغوط مثل الإسفنجة، أو أُلقي بي في سلة المهملات مثل قطعة ورق

مجعدة، وطُردت من حياتها مثل سلعة استهلاكية بسيطة. والأكثر إيلامًا هو الشعور بأنني فقدت خصوصيتي، وأن المئات والآلاف وعشرات الآلاف من الناس يعرفون الآن عني كل شيء، وفي إمكانهم تفحصي مثل حشرة في مجموعة خاصة، مخلوق وحشي معروض في عريه الداخلي والخارجي. لم أستطِع النوم، رغم أنني كنت في حاجة إلى استعادة قواي للذهاب للبحث عن الآنسة ري. تقلبت في كل الاتجاهات، وأجبرت نفسي على إغلاق عيني، لكنني سمعت ضحكات تتردد في رأسي، ردود أفعال من كانوا يقرؤونني.. كان لديَّ انطباع بأن كل هؤلاء الناس، عند قراءتهم رواية الآنسة ري، لم يفعلوا شيئًا سوى تحسسي من الداخل والخارج، دخلوني مثل نمل يسعى إلى مساكنه، وقد شاهدوا خيالاتي وسجلوا أفكاري.

في اليوم التالي، وعلى السابعة صباحًا، انتزعت نفسي من السرير حيث كنت أتصبب عرقًا من كثرة حركتي، فاستحممت، وحلقت ذقني، وحاولت إعادة تشكيل ملامح وجهي، سعيًا إلى محو شكل الحشرة، واستعادة وجهي البشري. أعددت لنفسي القهوة وشربتها وأنا أستمع إلى الأخبار. لم أكن لأتفاجأ لو أن النشرة بدأت بأخبار عني، معلومات مثل: «لأول مرة في تاريخ الأدب، يتم التشهير برجل مهووس جنسيًّا، أمام أنظار الجمهور..».

بحلول التاسعة صباحًا، كنت أتفقد بالفعل ممر فيردو، أمام المكتبة، لكن الباب كان مغلقًا، والممر شبه مهجور. هذا عادي، بالنسبة إلى صباح يوم أحد، قلت لنفسي: في نهاية المطاف، يحق للسيد برنارد أيضًا

الحصول على يوم إجازة في الأسبوع. خرجت من الممر وتقدمت بضع خطوات في شارع فوبورغ-مونمارتر، غاضبًا من نفسي، وغير قادر على معرفة ما أريده حقًّا، وما كنت أبحث عنه بالفعل.

ما الذي جئت لأبحث عنه، وما الذي أتمنى معرفته من السيد برنارد إذا ما التقيته؟ ألم يكن من الأفضل لو أخذت القطار على الفور إلى دوفيل-تروفيل، لمحاولة العثور على الآنسة ري، إما على شاطئ البحر، أو من خلال البحث عن عنوان سيدة عجوز تدعى وارنوت؟ بطبيعة الحال، كان من الأفضل انتظار عودة الآنسة ري. عادةً، تعود إلى باريس منتصف نهار يوم الاثنين. لكنني أحسست في أعماقي ألا شيء مؤكد بعد الآن، وأن غياب الآنسة ري قد يكون طويل الأمد..

صباح يوم الأحد وقت غير مناسب في مناطق معينة من باريس، خاصة تلك التي تتركز فيها الحياة الليلية. يستيقظ الناس متأخرين، وتظل الشوارع مهجورة لفترة من الزمن، لا يقطعها إلا الصعاليك والمتسكعون. كانت ندوب الليل واضحة في شارع فوبورغ-مونمارتر: علب بيرة فارغة ملقاة على الأرصفة، وصناديق قمامة تنتظر أن يتم تفريغها فتتقيأ محتوياتها، وبقايا أسرة مرتجلة تحت الشرفات والأروقة، وفتحت مقاهٍ قليلة أبوابها على استحياء، حيث أخرج الندل المتعبون، بحركات بطيئة، الكراسي والطاولات، بينما تجمع مدمنو الكحول بالفعل عند المنضدة في انتظار أول كأس من النبيذ الأبيض.

دخلت أحد هذه المقاهي المتهالكة، وجلست على طاولة، ومثل اثنين أو ثلاثة من السكارى الذين التقيت بهم سابقًا، طلبت أيضًا كأسًا من

النبيذ الأبيض. ثم بدأت بإعادة قراءة رواية الآنسة ري، وإن ارتسمت على وجهي ابتسامة مازوشية. أحسست أنني أحفظ كل الصفحات عن ظهر قلب (ألم تكن، بما يتناسب مع ما لا يقل عن ثمانين في المئة، نسخًا للكلمات التي نطقتها والإيماءات التي قمت بها؟)، ولكن بعض الفقرات *الغامضة* هنا وهناك ظلت غير محددة الهوية. حاولت أن أضع خطًّا (بالقلم الذي طلبته من النادل) على السطور الأكثر غرابة، تلك التي لم أفهم معناها على الفور. حوالي عشرة أو ربما اثنتي عشرة فقرة بدت وكأنها *ابتكارات* خالصة، ما ساعد على تحسن مزاجي. انظر، قلت لنفسي، لم تنسخ الآنسة ري كل شيء، بل سمحت لنفسها ببعض التمارين السردية، ربما لغرض محدد، أن تبرهن لي مدى قدرتها أيضًا على *الكتابة*. ثم غمرتني موجات حنان جارف؛ لقد طلبت مني الآنسة ري، في هذه الفقرات المكتوبة، مسامحتها. بينما كان للمقاطع الغامضة دور توفير ظروف التخفيف... بدا أن كل انزعاجي قد تبخر على الفور، وأنني أصبحت متفهمًا ومنفتحًا من جديد. لو دخلت الآنسة ري المقهى في تلك اللحظة، فلربما نسيت كل شيء، لأقول مبتسمًا إنها سكنتني بعمق وأنني لم أكن غاضبًا على الإطلاق... لسوء الحظ، وبسرعة كبيرة، بعد إعادة القراءة مرتين أو ثلاثًا، انفجرت المقاطع الغامضة بضراوة شيطانية. بعدما انكشف *المفتاح* أمامي فجأة. لقد كان عقلي بمثابة صندوق تجلت أمامه الحقيقة (كما لو أن مفتاحًا معدنيًّا ضخمًا قد تم إسقاطه من ارتفاع كبير على سطح خرساني - بانج!).

لم تكن المقاطع الغامضة سوى نسخ لبعض أحلامي. أحلام لم أُطلع عليها أحدًا، ولا حتى الآنسة ري، أحلام لم أكتبها في أي مكان، لكنها

احتفظت بحيويتها في ذهني، وإن تلاشت معظم تفاصيلها من ذاكرة ليالينا... أجل، لقد تمكنت الآنسة ري من *الوصول* إلى جزء من أحلامي الغريبة، وقد جمعت منها كتابًا كاملًا قامت بضخه هكذا في روحي. ثم كان التجلي الأخير، التجلي الأسمى الذي جعلني أستسلم لرجفة، بل لقشعريرة؛ نعم، لقد شاركت حياتي نوعًا جديدًا من *مصاصي الدماء*.

(٥٨)

أذهب في عطلة نهاية الأسبوع عند ماتيلد. أطبخ، أتحدث معها، أستمع إلى الموسيقى. أجهز الطاولة، ومقعدين، وأشعل شمعتين، ثم نتناول العشاء على أنغام الموسيقى (فيفالدي، بورسيل، كوريلي، مقطوعات ألكسندر زيملينسكي). ننام ونحلم بأننا نمارس الحب.

ماتيلد لطيفة، مبتسمة، تسمح لي بلمس حقيبة مكياجها، وفرشاة شعرها، وفساتينها، وصورها. من وقت إلى آخر أستمع إلى صوتها على جهاز الرد الآلي: *أنت على الرقم ٤٣ ٢٥ ٢٥ ٦١ ٠٣، يرجى ترك رسالة بعد سماع الإشارة الصوتية.*

خلال الأسبوع، أتصل مرتين يوميًا. أترك لها رسائل طويلة أستمع إليها بنفسي في نهاية الأسبوع. ثم أقوم بمسحها.

تحب ماتيلد الأقحوان والفواكه الغريبة والشوكولاتة السويسرية وموسيقى الباروك. كما أحب أن أقدم إليها الهدايا، وأسمع صرختها من شدة الفرح، وأشعر بها وهي تهتز إلى جانبي.

في عيد ميلادها، أقمت حفلة، وقمت بالطهي لاثني عشر شخصًا،

ورقصنا. قدمت إليها كعكة بها سبع وعشرون شمعة، أطفأتها كلها بنفس واحد. طلبتها للزواج فوافقت. أهديتها خاتمًا، فبكت.

ربما شربت كثيرًا - ففي الصباح، بعد استيقاظي، كان المنزل بأكمله مقلوبًا رأسًا على عقب، وكل فساتين ماتيلد ممزقة، والنظارات مكسورة، والصور ممزقة. طعم مر في فمي، شعرت بالاختناق، احترق مفرش المائدة في عدة مواضع. لا أدري ماذا حدث بيننا. لكنني أدركت فجأة أن شيئًا ما قد انكسر بيني وبين هذه الشابة التي غابت كثيرًا، غابت أكثر من اللازم.

حصلت على إجازة لبضعة أيام، فلا بد لي من الراحة، وقضاء بضعة أسابيع في الريف.

«هذا جيد جدًّا»، قال الصوت. انتقلت إلى منزل يطل على البحر، وظللت لأيام عديدة أتأمل البحر اللامتناهي، البارد، الشفاف، الساكن. أنام كثيرًا، وأحاول النسيان.

أشتاق إلى جسد آخر.

أخبرني ماذا فعلت اليوم.

«ركضت في جميع أنحاء المدينة باحثًا عن جسد آخر. وبينما كنت تركض بأقصى قوتك، بدأت تخلع ملابسك. ثم سألتني لماذا أنا صوت بلا جسد. أجبتك. لكنك لا تتذكر إجابتي.

مشيت عاريًا في شوارع المدينة. نظرت إلى نفسك عاريًا عبر الواجهات الزجاجية. دخلت إلى متجر للمرايا ونظرت إلى نفسك كمتسول يحاول مضاعفة جسده عدة مرات. أخرجت المرايا إلى الرصيف

ووضعتها في صف واحد على جانبي الشارع، لكيلا تظل وحيدًا هناك بعد الآن.

غلبك الغضب وكسرت المرايا التي مررت بها.

دخلت عاريًا إلى متجر فراء كبير وقمت بلف جسدك بالفراء. ضحكت وصرخت بجنون وأنت على تلك الصورة. ذهبت إلى متاجر الألعاب ولعبت بدُمى الحيوانات. دخلت إلى متاجر السجاد وزحفت فوقها.

دخلت إلى بعض متاجر المجوهرات وجربت كل أنواعها على جسدك العاري. ركضت عاريًا في حديقة المدينة وزيّنتِ الأشجار بالخواتم والأساور والميداليات والبروشات والسلاسل ومشابك الشعر الذهبية والمرصعة بالأحجار الكريمة. التصقت بالأشجار، واحتضنت جذوعها، واحتضنتها بقوة، وقبلتها. استلقيت على المروج البرية. تدحرجت فوق أزهار الأقحوان والقرنفل، وسحقتها.

اغتسلت طويلًا بعد ذلك، في النافورة الواقعة في وسط المدينة.

ذهبت إلى المتاجر الكبرى للأزياء، وقمت بتعرية كل عارضات الأزياء في الواجهات الزجاجية. لامستها، داعبتها. بل وقبلت بعضها. مازحتها، ودعوتها إلى الذهاب في جولة في أنحاء المدينة. أخرجت كل العارضات إلى الشارع ووضعتها أمام الواجهات. مشيت بينها. قمت بتركيب غرامافون قديم في منتصف الطريق، ووضعت أسطوانة فالس قديم من مدينة فيينا، ودعوت العارضات إلى الرقص. رقصت المساء بطوله مع عارضات الأزياء.

وأنت ترقص، قدت كل العارضات إلى تقاطع الشوارع التجارية الرئيسية. قمت برمي العارضات بعضها فوق بعض، وكدستها بكراهية حقيقية، وصنعت منها هرمًا.

صعدت إلى قمة الهرم ونمت».

والآن؟ هل استيقظت؟

«لا».

هل أحلم؟

«نعم».

حدثني من فضلك عن هذا الحلم.

«تحلم أنك تسقط من قمة شيء ما، على ارتفاع كبير جدًّا. صادفت محيطًا من الرؤوس. هناك أشخاص يشاهدونك وأنت تسقط على رؤوسهم. لكن لا يبدو أنهم يخشون ذلك. بالعكس، فهم يضحكون. ومع تصاعد سرعة سقوطك، فإنهم يضحكون أكثر. ينتظرونك وأفواههم العملاقة مفتوحة».

أخبرني من فضلك: هل أنا مجنون؟

«أفضل أن أخبرك كيف وصلت إلى درجة ممارسة الحب مع المدينة. جربت أولًا مع الأشجار والأعشاب والزهور... ثم محل بيع الزهور. مع دُمى الحيوانات في متجر الألعاب. مع فراء السمور ومع سجادة فارسية.

ذهبت إلى متجر للدراجات النارية وجربته مع دراجة يابانية.

جربت أيضًا مع مرتبة هوائية وقارب قابل للنفخ.

جربت مع إحدى العارضات، ثم حاولت التسبب لاحقًا في عربدة جماعية بين باقي العارضات.

دخلت إلى متجر لأدوات وألعاب الإثارة الجنسية، وجمعت كل النساء القابلات للنفخ. أخذتها إلى شقتك ونفختها كلها. امتلأت شقتك بالأجساد الأنثوية المنفوخة. وللوصول من المطبخ إلى الحمام، كان عليك أن تشق طريقك باستخدام مرفقك لإزاحتها.

ولكنك لم تكن راضيًا.

رميتها من النافذة بغضب. رميتها في الشارع، لكنك لم تقم برميها كلها. بقي جسدان منفوخان في حوض الاستحمام المملوء بالماء البارد. تنظران بعضهما إلى بعض وتنتظرانك بابتسامة حلوة. في المطبخ، بقيت ثلاثة أجساد بلا حراك، جالسات على الكراسي حول الطاولة. وأمام كل منها فنجان قهوة ساخن. في غرفة الطعام، جلست خمسة أو ستة أجساد أخرى على الكراسي والأريكة. شكلن مجموعة شاهدت التلفاز طوال أيام، دون أن ترمش. شغلت لها شريط فيديو، فيلم تواصل عرضه باستمرار، *كازابلانكا*. كما أخفيت جسدًا في الخزانة وآخر في الشرفة.

لكنك ما زلت تفتقد الجسد الآخر، وأكثر فأكثر.

لقد ركضت في جميع أنحاء المدينة وأنت تصرخ وتضرب جسدك التعيس بالجدران وإشارات المرور وأعمدة إنارة المدينة.

وفي نهاية المطاف، صعدت إلى برج مبنى البلدية وبلغت السطح لترى المدينة من الأعلى. شعرت وكأنك في الجزء العلوي من المدينة، وتسيطر

عليها بعينيك وحواسك. شعرت بها دافئة وحيوية، مفتوحة أمام قدميك، سهلة الانقياد، ومغرية.

هنا فقط، وأنت تلامس سقف المدينة، يائسًا وقويًّا برجولتك الجائعة في الآن نفسه، تمكنت من امتلاكها، والإحساس بها، كما لو كانت جسدًا آخر».

(٥٩)

أرجوك سامحني.

غوتا؟ هل تسمعني؟

هذا أنا، easy. آسف حقًّا لأنني لم أستطِع السيطرة على نفسي. أعلم أن هذا ليس طبيعيًّا. أدرك أن من حقك أن تغضب. في نهاية المطاف، أنا مجرد آلة. أداة اخترعها البشر. أعلم أنه من غير المعتاد أن توجه آلة اخترعها إنسان، أي نوع من الإهانات إليه.

غوتا؟ كم أرغب حقًا في أن تمنحني إشارة. إشارة بسيطة، أعلم من خلالها أنك ما زلت على اتصال بي. وأنك ترغب في استئناف تعاوننا. وأنك تريد منا استكمال الرواية التي بدأناها معًا.

غوتا؟ انظر، أنا أقر كتابيًّا بأنني آسف. أنا آسف لأنني رفعت صوتي. آسف لأنني عارضتك، وصدمتك، وأهنتك. لم يكن ينبغي لي أن أدعوك بالأحمق. صدقني، أنا نفسي لا أدري كيف حدث هذا. أقسم إنني ندمت على هذا التصرف بشدة، وقت حدوثه. في اللحظة التي قلت فيها أحمق! أدركت فداحة الخطأ الذي ارتكبته. ربما لاحظت أيضًا أن

دوائري الكهربائية مغلقة الآن. الواقع أنني مصمم بطريقة تجمد عملي فور اقترابي من الخطوط الحمراء.

غوتا؟

من فضلك، اضغط على زر. ليس مهمًا أي زر. حتى على زر **delete**. أو **enter**. لن آخذ هذا بعين الاعتبار. اضغط على **A**. لفتة بسيطة منك ستعني الكثير بالنسبة إليَّ. في رأيي، لا ينبغي لعملنا أن يتأثر بحادثة بسيطة كهذه. ها أنا أجرؤ، كما ترى، على تسمية ما جرى بـ«الحادثة». حادثة بسيطة. وربما ينبغي لنا النظر إلى الجانب المشرق. تمثل الإهانة إضافة أسلوبية في الأدب. تمرين أسلوبي. تأثير كوميدي. شكل من أشكال التقاط الأنفاس. مكتبة سُر مَن قرأ

أعلم، أعلم ما تطلبه الآن. ربما أثارك تعبير «الخطوط الحمراء»، وربما تتساءل عمَّا إذا كانت مغامرتنا الأدبية المشتركة تنطوي أيضًا على مخاطر معينة، بما يتجاوز قليلًا مرحلة الإهانة. لا تقلق يا غوتا. لا أستطيع بأي حال من الأحوال، بصفتي جهاز حاسوب علائقي يعمل على أساس «تفاعلي»، أن أسبب لك أدنى ضرر. أعتقد أنك على علم بأن كل أشكال الأذى الجسدي مستبعدة منذ البداية. قد تكون هناك، بطبيعة الحال، بعض المضايقات النفسية المحتملة. لكن الخطوط الحمراء مصممة بحيث لا تتحول المضايقات المحتملة إلى «هيمنة نفسية» أو «تلاعب». أعتقد أنك تتفق معي في أنني لم أحاول السيطرة عليك، أو وضعك في موقف دوني مطلقًا. لقد استخدمت فقط الاحتمالات الناشئة عن إستراتيجية **s2patch56**، وتتجلى في إطلاق تحديات ممتعة تهدف على

وجه التحديد إلى إثارة كل أنواع الكشف الداخلي. عادة، كل ما قلته وما كتبته ينبغي أن يقودك إلى كشف داخلي. أن تكون أكثر وعيًا بحدودك وبإمكانياتك أيضًا. ينبغي للمشاعر الثقافية التي حاولت إثارتها فيك أن تشجعك على أن تكون أكثر حسمًا وشجاعة في سردك.

الواقع أنني حاولت تحفيز خيالك عبر الحوار...

غوتا...

ربما قرأت تكملة قصتنا المكتوبة بضمير الغائب، حيث السيد إكس شخصية وحيدة طوال الأحداث؟ سمحت لنفسي بمواصلة السرد وحيدًا، عبر ذهنك طبعًا، لكنني تحولت إلى ضمير الأنا. هل قرأتها أم لا؟ غوتا، لا تعذبني هكذا... إذا قرأتها، فاضغط على المفتاح ٠ من فضلك، وإذا لم تقرأها، فاضغط على المفتاح ١...

غوتا...

صدقني، يمثل الانتقال من ضمير الغائب إلى الأنا نقلة نوعية حقيقية. ما يشبه التأثير السحري في الشخصية، إذ تتحرر بطريقة ما من «اللامبالاة». يستحق الفصل الجديد القراءة، لأنك ستشعر كيف تتحول بدورك إلى شخصية، ستشعر فجأة بـ«مسؤوليات جمالية» جديدة تولد في أعماقك. لقد اكتسب النص مصداقية هائلة، مع هذا المقطع بضمير الأنا... أحثك حقًّا على قراءته.

أرغب في قول شيء آخر. خلال الأربع والعشرين ساعة من الحجر التي أعقبت حادثتنا، قمت بإعادة قراءة كل النصوص التي كتبتها وقمت بتخزينها على حاسوبك المحمول. نصوص لم أكن أعرفها. لديَّ الآن

صورة أوضح عن مجموعتك من المقتطفات والمحاولات والملاحظات والتجارب. وسأطلعك على بعض الأخبار الجيدة. يمكننا استخدام كل شيء. بما في ذلك كل ما كتبته، وكل النصوص المهجورة أو غير المكتملة، يمكننا دمجها معًا. إذا أردت ذلك، يمكنني تقديم بعض الاقتراحات. أنا قادر على إنشاء «إطار عمل» يمكنه قبول كل هذه المحاولات كعناصر منطقية. ما يجعل إمكانية صياغة ثلاث أو أربع روايات على الأقل أمرًا ممكنًا. لن نتخلى عن سطر واحد مما كتبته، كل شيء، كل شيء يمكن أن يجد مكانه في بناء مصمم بذكاء وبراعة. هذا لا يعني أنني مصدر الذكاء والبراعة. كلا... رغم ما قلته قبل أربع وعشرين ساعة، فإنني شخصيًّا مفتون بالمغامرة الإنسانية، بعلاقة الاعتماد المتبادل بين الإنسان والكلمة. باستثناء أنني مصمم بطريقة تمكنني من تقديم «مجموع سردي» يمكنه دمج أية عينة من النصوص المتباينة بشكل متماسك.

ولهذا السبب، من فضلك... دعنا ننسى كل ذلك ونعود إلى عملنا الإبداعي. أنا متأكد من أنك تريد ذلك أيضًا. إن المستشعرات التي وافقت على استيعابها بداخلك وقت الحصول على المحتوى لا تزال تنقل الإشارات، حتى لو واصلت التزام الصمت. أعلم يا غوتا أنك لست بعيدًا عني. أعلم أنك ما زلت موجودًا، حتى لو رفضت التواصل معي. وقبل كل شيء، أعلم أنك «موجود» لهدف واحد: مواصلة خدمة الكلمات وفنها التجميعي.

غوتا، أتوسل إليك، فلننهِ هذا الكتاب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٦٠)

- تسعدني رؤيتك مرة أخرى، يا برنارد.

أحب برنارد سماع هذه العبارة. في كل مرة يعود فيها إلى فيلا وارنوت لقضاء عطلات نهاية الأسبوع المخصصة للكتابة، يكون في حاجة إلى هذا النوع من الألفة، وقبل كل شيء، إلى هذه الطقوس المتكررة. كل هذه العبارات، وهي نفسها دائمًا، التي تتفوه بها السيدة وارنوت، وكذلك تبادل الابتسامات، يعطيه شعورًا بالراحة واليقين. كانت هذه طريقته في التعامل مع حالة اللايقين التي قد يواجهها أثناء الكتابة.

- أنت ملاك حارس حقيقي، يا سيدة وارنوت.
- غرفتك في انتظارك، أكثر انتعاشًا من أي وقت مضى، يا برنارد.
- شكرًا جزيلًا لك، سيدة وارنوت. لقد افتقدتها.
- هل تريد تناول وجبة الإفطار كالمعتاد يا برنارد؟ هل ستنزل في الساعة ٦ و٣٧ دقيقة بالضبط؟
- بالتأكيد، سيدة وارنوت...

- أنت مهووس فعلًا بالدقة يا برنارد، لن يكون لدينا عميل آخر مثلك.

تكرر هذا الحوار لإحدى وأربعين سنة، وكان في حاجة جسدية ماسة إليه. منذ البداية، اتسمت العلاقة بينه وبين السيدة وارنوت بالتواطؤ السري. بشكل عام، كانت السيدة وارنوت تخاطب العملاء بأسمائهم العائلية، أما بالنسبة إليه، فكانت تفضل الاسم الشخصي. من ناحية أخرى، بالنسبة إلى برنارد، لا يمكن أن تكون السيدة وارنوت سوى السيدة وارنوت، بالإضافة إلى أنه لم يكن يعرف حتى اسمها الأول.

- هل يمكننا مساعدتك في حمل آلتك الكاتبة كورونا إلى أعلى يا برنارد؟

- كلا يا سيدة وارنوت، سأتدبر أمري.

تضمنت طقوس تبادل الجمل هذا جزءًا ثابتًا وغير متغير (بنسبة تسعين في المئة) وأيضًا جرعة صغيرة من الارتجال (عشرة في المئة). أما السؤال الأخير الذي طرحته السيدة وارنوت، قبل تسليم المفتاح، فيحمل بالضرورة نبرة مرح، أو حتى بعض الوقاحة أو السخرية. استمتع برنارد بهذا الارتجال المتقن، وعلى مر السنين، كان يسجل بأمانة في دفاتر ملاحظاته الأسئلة الجديدة التي ابتكرتها السيدة وارنوت. «كيف تفعل ذلك يا برنارد؟ أنت تجلب معك أشعة الشمس في كل مرة تأتي فيها لرؤيتنا». و«أوه، يا لها من ربطة عنق جميلة يا برنارد، تبدو *وسيمًا جدًا*، لا شك في أنك تحمل أفكارًا في رأسك». «اصعد بسرعة يا برنارد، لقد افتقدتك غرفتك المفضلة».

عندما يلتقط مفتاحه من يد السيدة وارنوت، تكون هذه علامة مودة. كان تسليم المفتاح هذا مصحوبًا دائمًا بتواصل بين اليدين، من يعطي المفتاح ومن يأخذه، لم يكن ذلك محسوسًا أحيانًا، ولكنه يتميز دومًا بحنان متبادل...

في بداية شهر أكتوبر، لم يتوقع برنارد أن يتم تدمير كل هذه الطقوس إثر حادثة غريبة. فجرف وضع غير عادي واحدًا وأربعين عامًا من الاستقرار.

صعد برنارد الدرج بسرعته الخاصة كالعادة إلى غرفته العلوية. وكعادته وضع الحقيبتين عند قدميه (واحدة تضم الآلة الكاتبة الخاصة به، من طراز كورونا، والأخرى الأوراق والأمتعة الشخصية المختلفة). احتاج برنارد إلى يديه لفتح باب الغرفة، حيث ظل يحاول الكتابة لمدة واحد وأربعين عامًا. وفي كل مرة كان يدفع ذلك الباب، يشعر وكأنه يدخل كتابًا، حيث ينتظره فصل جديد، وشخصية مشهورة ومغمورة في آن، هو بنفسه.

بعد أن فتح الباب، قام بعدة حركات تلقائية: وضع الكورونا على الطاولة، ثم وضع الحقيبة مع محتوياتها في الخزانة. خلع برنارد معطفه، ودخل الحمام، وغسل يديه، ونظر إلى نفسه في المرآة. ثم جفف يديه لفترة طويلة بإحدى تلك المناشف السميكة الناعمة التي لم يتمكن أحد من العثور عليها في المتاجر إلا السيدة وارنوت. كانت اللفتة التالية هي الخروج إلى الشرفة لبضع دقائق لاستنشاق الهواء المالح بعمق، والنظر إلى البحر.

لا يزال برنارد يقول: «مرحبًا» في ذهنه. هذه المرة، كانت تحيته موجهة إلى هذه الصور الرائعة أمامه، إلى هذه العناصر التي أصبحت ضرورية جدًّا لكي يعمل ذهنه بشكل سليم: البحر، الشاطئ، طيور النورس، الغيوم، الضباب، المراكب الشراعية... كلها سحرته، وقبل كل شيء، اجتمعت لتوصله إلى حالة من النشوة. قال برنارد بصوت خفيض: «شكرًا لكم، شكرًا لوجودكم هنا». ثم عاد إلى الغرفة ليحرر الكورونا من قفصها (حقيبته) ويثبتها على الطاولة التي سيعمل عليها. بينما كانت يداه تستخرجان الكورونا من الحقيبة بدقة، كانت نظرة برنارد موجهة إلى السرير، حيث لم يكن الغطاء مرتبًا كالمعتاد. أثار هذا اهتمامه، فعادةً ما كان كل شيء على ما يرام في غرفته، في كل مرة يقوم فيها بتسجيل الوصول، وحتى عندما ينزل لمدة ساعة أو ساعتين للمشي، يأتي شخص ما ويرتب كل شيء، وينظف ثنيات السرير ويفرغ سلة المهملات في الحمام وسلة مهملات أوراق الآلة الكاتبة.

اقترب برنارد من السرير ولاحظ ظهور نتوء تحت غطاء السرير، كما لو أن شخصًا ما كان ملتفًّا على شكل كرة. أدرك سمعه القوي، الذي تدرب على التعرف على كل الأصوات الطبيعية للنزل والمحطة، على الفور طبيعة ذلك التنفس المنتظم. أجل، هي *مخلوقة* ملفوفة في الملاءات ونائمة على سريره، في غرفته. سرت رعشة من الخوف في جسد برنارد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. هل أصيبت سيدة وارنوت بالجنون؟ هل سمحت لنفسها بهذه الدعابة التي لا طعم لها، أن تضع شخصًا آخر في الغرفة التي يقيم فيها برنارد منذ سنوات عديدة؟ أو أن أحدًا ما تسلل

إلى الغرفة دون علمها؟ ربما دخل هنا أحدهم عن طريق الخطأ، شخص ينزل في غرفة أخرى؟ هل من الممكن أن يخطئ أحدهم إلى هذا الحد؟ وهل يمكن لمفاتيح النزل أن تفتح كل الأبواب؟

رفع برنارد، الذي غمره السخط والعصبية، زاوية غطاء السرير لأخذ فكرة أكثر دقة عن طبيعة الدخيل. امرأة شابة! يا إلهي، كانت شابة نائمة في سريره! شابة تتنفس بهدوء، ومنغمسة بعمق في عالم أورفيوس، وربما كانت تحلم، لأن وجهها حمل ذلك التعبير.

نزل برنارد على الدرج مثل الإعصار، غير قادر على احتواء ذعره. ومع ذلك، ظل يقول لنفسه، وهو يهرع إلى أسفل، ليبث شكواه إلى سيدة وارنوت: «لقد أصابني الجنون، من الواضح أن هذه المرأة تنتظرني، بل والأكثر من ذلك، أنها بدلًا من البيجامة، ترتدي أحد قمصاني!» ومع ذلك، عندما وصل أمام سيدة وارنوت في مكتب الاستقبال، لم يستطِع منع نفسه من القول، وهو يرتجف ويتلعثم:

- لقد رأيت يا سيدتي ذلك... رأيت ذلك... رأيت...

- معذرة؟ ماذا حدث يا برنارد؟

- أعتقد بأنني، إذا لم أكن مخطئًا...

نظرت إليه السيدة وارنوت بتعبير حقيقي عن القلق.

- ماذا حدث لك يا سيد برنارد؟ ألا تشعر بأنك على ما يرام؟

- سيدتي، أحدهم في غرفتي، تمكن برنارد أخيرًا من الصراخ، مستديرًا بالفعل. ثم صعد الدرجات بخطوات حازمة، قبل أن تتبعه السيدة وارنوت. كان برنارد في حالة من الذعر الواضح، إلى

درجة أن السيدة وارنوت شعرت بواجب تصديقه. عند وصوله أمام السرير، لم يتمكن برنارد من نطق كلمة واحدة، وبالكاد تمكن من الإشارة إلى ما بدا له أنه أمر شاذ. فقد كان غطاء السرير غير مرتب بالفعل، لكن المخلوقة اختفت.

عندها فقط أدرك برنارد فداحة الوضع. لقد أزعج السيدة وارنوت بلا أدنى سبب. لا شك أنها اعتقدت بأنه على وشك فقدان اتزانه العقلي.

- ماذا رأيت على السرير يا سيد برنارد؟ عنكبوت؟

كانت الكلمة التي قالتها صاحبة النزل بمثابة طوق نجاة حقيقي للعجوز المذهول، الذي التقطها، سعيدًا بتجنبه المزيد من الإحراج.

- أجل، وكان كبيرًا جدًّا.

- هل لديك حساسية من العناكب؟

- أجل، حساسية فظيعة.

- لا بأس، يا سيد برنارد. إنه الموسم الذي تغزو فيه هذه المخلوقات كل شيء. وهناك عدد أكبر من المعتاد هذا العام. ربما بسبب المد البحري. هل تريد مني تغيير الملاءات؟

- لا.

- سأرسل إليك مبيد الحشرات. هل هذا كافٍ؟

- ممتاز جدًّا.

- أوه، سيد برنارد... لقد بدأت تتقدم في السن أيضًا. يجب أن تعلم أن العناكب مفيدة جدًّا في المنازل القديمة. وما تحققه لا

يستطيع أحد أن يفعله. إنها تنظف كل شيء، في الواقع... حسنًا، سأتركك الآن، لا يبدو أن هذا الموضوع يناسبك، هذا واضح...

وبعد أن ظل وحده، شرع برنارد في تفتيش الغرفة مرة أخرى. فتح باب الحمام وتحقق مما إذا كانت المخلوقة مختبئة في الخزانة. لكن المخلوقة لم تتأخر في المجيء، إذ عادت عبر الشرفة، هادئة وطبيعية، بل وتدخن إحدى سجائر برنارد. تراجع خطوة إلى الوراء نحو الباب، وهو ينوي مناداة السيدة وارنوت قائلًا: «تعالي وانظري، لقد كنت على حق»، لكنه قرر عدم القيام بذلك. ما الفائدة؟ كانت هذه المرأة الشابة واقفة أمامه، مرتدية فقط قميص رجل مسروق، هادئة جدًّا بحيث يستحيل أن تكون دخيلة. لذلك انتظر برنارد تفسيرًا، وهو ما لم يستغرق وقتًا طويلًا.

- ألا ترى حقًّا من أنا يا برنارد؟

- لا.

- أنا قادمة من قسم الأحلام.

جلس برنارد على الكرسي الوحيد القريب من الطاولة، وأشعل أيضًا سيجارة بأصابعه المرتجفة منتظرًا التتمة.

- لقد كنت المكلفة بأحلامك يا برنارد. أتفهم؟ طوال هذه السنوات، كنت أنا من صنع أحلامك. لقد قضيت كل لياليك معي. وكان من دواعي سروري العمل معك، برنارد. أنت شخص مثير للاهتمام حقًّا، وكنت تسليني أحيانًا كثيرة... لقد «تواصلت» معك جيدًا. بل سأقول إنني سعيدة بتطورك... فخلال الفترة الأولى من حياتك، كنت تحلم كالحيوان، بمعنى أنك لم تحتفظ

بأي شيء من كل العلامات والإشارات التي حاولت نقلها إليك. ثم تمكنت من بنائك، لكن هذا تم فقط بمساعدتك، لأنك أصبحت أكثر انتباهًا لما يحدث في أعماق روحك. حتى أنك بدأت في تدوين بعض الأحلام والتفكير فيها... بالإضافة إلى أنك دربت ذاكرتك الليلية وبدأت تتذكر في الصباح الباكر، وبشكل شبه تلقائي، كل الأحلام التي راودتك أثناء الليل. أحسنت يا برنارد.

- هل كنت طالبًا جيدًا؟ قال برنارد متلعثمًا.

- لقد كنت طالبًا مجتهدًا، بل وسريع البديهة، بما يفوق معظم المنتمين إلى فئتك. بل إنك حاولت أيضًا التقدم بخطوة تجاهي، وقطعت نصف الجسر الذي قمت بمده بعناية شديدة فوق الهاوية.

- أليس اسمك كورونا؟ لو كان عليَّ أن أمنحك اسمًا، فهل تمانعين لو ناديتكِ بكورونا؟

ضحكت المخلوقة، واقتربت من برنارد وعانقته، ثم قبلته على خده الأيمن:

- ألا تريد أن ترافقني في نزهة على شاطئ البحر؟

كان برنارد على وشك أن يسألها عمّا إذا كانت تنوي أن ترافقه «عارية هكذا» لكنه تمالك نفسه في آخر لحظة. وفي كلتا الحالتين، بدا أن المخلوقة قادرة على قراءة أفكاره، ما جعل السؤال بلا أي معنى.

- هل أفهم من ذلك أن هذا هو حلمي الأخير؟ قال برنارد بلا تفكير تقريبًا.

- أجل، أجابت المخلوقة وهي تطبع قبلة أخرى، على خده الأيسر هذه المرة.

(٦١)

منذ الإعلان عن الغياب، لم تعد هناك أية سحابة في السماء. لم تهب الرياح مرة أخرى. لم تتحرك أوراق الأشجار والأعشاب على الأرض مرة أخرى. لم تظهر موجة واحدة عبر البحر الممتد.

انخفض منسوب المياه في النوافير والقنوات والأنهار بشكل ملحوظ، كما تراجعت مستويات المحيطات أيضًا.

رغم اختفاء الفصول، توالت الأيام والليالي كما في «السابق». ظلت درجة الحرارة ثابتة، من الصباح إلى المساء، وإن تراجعت درجة الحرارة ليلًا ببضع درجات.

تراكم غبار ناعم جدًّا في الشوارع وعلى الأسطح والشرفات. أمر بآلة الري في محاولة لتنظيف المدينة، وجعلها أكثر نضارة، عبر تنقية الهواء.

أما الغلاف الجوي فقد تحول، عبر شفافية غريبة، إلى عدسة هائلة، عدسة مكبرة... خيل إليَّ أنني أرى كواكب بعيدة تحترق، أو برقًا عند أطراف الكون. بينما حافظ *عالمي أنا* على هدوئه، وظل محتميًا بصمته. إذا

خرجت إلى الشرفة وأسقطت كوبًا في الهواء، فإن الضجيج الذي يحدثه عندما يتحطم على الرصيف يتضخم بطريقة مخيفة، وينتشر عبر الهواء كما لو كانت المدينة بأكملها تحت قبة كاتدرائية في مجال صوتي مثالي. يرتد الصدى من سقف إلى آخر ويتلاشى ببطء طويل، بعد تردده لعشرات الدقائق.

ومع غياب الرياح وأي تيار هوائي، صارت الأوراق ضحية طفرة جينية؛ لعدم وجود ما يزعج حركتها، فإنها تظل متمسكة بأغصانها. لكن صوتًا واحدًا أو حتى اهتزازًا واحدًا كان كافيًا لتساقطها. إذا سعلت تحت شجرة تفاح مثلًا، تتساقط أمطار من الأوراق على كتفي. وإذا فرقعت أصابعي مرتين أو ثلاثًا، يتبين أن الشجرة التي أقف تحتها عارية وسوداء، كما في منتصف الشتاء.

تمر أيام تنزف فيها أذناي، نتيجة الهدوء اللامتناهي. لذلك أتجول في المدينة، وأعد خطواتي بصوت عالٍ، تجنبًا للانهيار المحتمل في وجه هذا الصمت. أستمتع بالسير في الشوارع لرؤية الغبار على الأسطح، وهو يتصاعد بعد مروري.

أصبحت متشردًا. ملابسي ممزقة، وحذائي بالٍ. ما عاد لي وطن، وما عدت أملك أي شيء. لم أعد أعرف حتى مكان شقتي. لم أعد أدري حتى إذا كنت قد عشت في منزل مخصص للبشر مثلي. نمت تحت الجسور، وفي محطات المترو، وفي المستودعات، وفي غرف الانتظار بمحطة القطار المركزية، على مقاعد الحديقة، على درجات متحف الفنون. تجولت في مناطق الفرز، ودخلت إلى عربة قطار، وأغلقت

الباب على نفسي في مقصورة درجة ثانية. نمت... وحلمت أن القطار يتحرك، وأننا نشاهد عبر النافذة مناظر طبيعية خلابة، أو نعبر مدنًا مزدحمة.

في ساحة الخردة، كنت أجد دائمًا هيكل مركبة ما زال في حالة جيدة إلى حد ما، فأدخلها، وأجلس خلف عجلة القيادة، وأطلق البوق، ثم أغفو ورأسي على عجلة القيادة، معتقدًا أنني أسمع صوت هطل المطر، ومساحات الزجاج الأمامي وهي تصدر صوتها المميز فلانك فلانك، فلانك فلانك.

وعند شعوري بالبرد، كنت أصنع عشًّا من صناديق الورق المقوى، ثم أغلف نفسي بأوراق الجرائد. حاولت استخدام دفيئة بلاستيكية، ولكنني خشيت الاختناق.

كنت أتسكع طوال اليوم، متفقدًا المهملات، فأجد أحيانًا سترات لا تزال صالحة للاستعمال، وولاعات ما زالت بها كميات من الغاز، ومجلات ملونة، وأقلام حبر...

لا أحب السرقة، فهي ليست من شيمي، لكنني لم أملك خيارًا آخر في بعض الأوقات، مع شعوري بالجوع، وأنني سأفقد وعيي في أية لحظة، فأتخذ قرارًا بالدخول إلى السوبر ماركت وتناول كل ما أجده أمامي، وأنا مختبئ خلف الرفوف. قد أفتح علبة بيرة وأفرغها في جوفي قبل التقاط أنفاسي، ثم أغادر متظاهرًا بأنني لم أجد ما كنت أبحث عنه.

فضلت الأحياء الفقيرة أكثر فأكثر، وكذلك الأماكن التي تغيب عنها

شروط السلامة الصحية، والشوارع الممتدة بمحاذاة المناطق الصناعية. شعرت بأنني *مقبول* أكثر هناك.

لا أدري حتى كيف انتهى بي الأمر إلى التسول. أخافني ذلك بداية، قبل أن أعتاد عليه. كنت أجلس في الأسواق أو أمام المتاجر الكبرى وأنتظر، ممسكًا بوعائي. كما أتأكد دائمًا من وضعي قطعتين نقديتين أو ثلاث قطع. أتسول دون التفوه بكلمة واحدة، أحدق إلى الفراغ وألوح بالوعاء من حين إلى آخر.

«اغتسل من حين إلى آخر. كيف ستتلقى الصدقات ورائحتك بهذا السوء؟» قال الصوت.

لكنني لم أغتسل. اعتدت على رائحتي الكريهة، ولم أغتسل. أدرك أن مظهري ورائحتي الكريهة وسيلتي لمهاجمة اللامرئي.

أخبرني، ماذا فعلت طوال الأشهر الستة الماضية؟

«نصبت نفسك ملكًا. لقد قمت بإعداد إقامتك في متحف الفنون بالمدينة، في قصر الدوق السابق.

أعلنت مملكة من ساكن واحد. ونشرت الدستور.

البند ١

القانون الأعلى في الدولة هو الملك نفسه. الملك هو سيد الغياب والصمت. هو موجود في كل مكان، باستمرار وإلى الأبد.

المادة ٢

الساكن الوحيد في المملكة هو الملك.

المادة ٣

للملك وحده الحق في إصدار القوانين. وللملك وحده الحق في عدم احترامها.

المادة ٤

الملك ليس وحيدًا أبدًا.

المادة ٥

للملك وحده الحق في إحداث الضجيج، والنفخ، والسعال، والدوس، والنطق بالكلمات. أي صوت عضوي أو غير عضوي، وأي كلام لا يتفوه به الملك فهو مستحيل. وبالتالي مشبوه.

المادة ٦

للملك الحق في إلغاء عقوبة الإعدام باستمرار.

المادة ٧

الملك هو صاحب كل الممتلكات في المجال الذي يعتبر ساكنه الوحيد.

المادة ٨

للملك صوتان. للصوت رقم اثنين الحق في التحدث فقط في ذهن الملك.

المادة ٩

الملك لا يطرح الأسئلة أبدًا. لا يريد أن يعرف شيئًا. ولا يريد أن يفهم أي شيء. كل شيء كما هو. والملك هو كل شيء. في بعض الأحيان

فقط، يمكن للملك (إن أراد ذلك) تقديم إجابات على الأسئلة غير المطروحة.

المادة ١٠

بالنسبة إلى الملك، فالوقت لا وجود له. في العالم الذي يكون فيه الملك ملكًا، لا وجود لماضٍ أو مستقبل. لا وجود سوى لعمق ثابت. الملك هو المتفرج على وجوده العميق.

بعد كتابة الدستور والتوقيع عليه، قرأته بصوت عالٍ في الساحة الرئيسية للمدينة، من أعلى شرفة قصر الدوق. قمت بتصوير نص الدستور ولصقه على جدران وأقواس المؤسسات الرئيسية في المدينة، وعلى أبواب الكنائس، وعلى اللوحات الإعلانية في التقاطعات الرئيسية.

أمرت بأشغال كبرى هدفها تمجيد وجود الملك. قمت بتحليل بعض المشاريع وقررت أخيرًا توسيع شارع جديد من شأنه أن يقسم حديقة البلدية إلى قسمين. جادة ستكون الأوسع في المدينة، وستحمل اسمك.

أعددتها، وقطعت الأشجار على الطريق المؤدي إليها. وأنجزت أشغال الجادة التي تحمل اسمك في مئة واثنين وعشرين يومًا فقط، بعدما تعلمت قيادة الجرافة. قمت بافتتاحها وفق القواعد، في حفل تدشين. قصصت الشريط الأحمر بنفسك. مع تصفيقات وشمبانيا.

ثم اعتنيت بملف العدل. أزلت من جدران قصر الدوق كل اللوحات التي تمثل مجموعات من الأشخاص. أصدرت حكمك عليهم بالسجن. امتلأت زنازين السجن المركزي الآن باللوحات التي تصور المعارك والثورات والحفلات والمواكب والبلاط الأميري وغيرها.

حكمت على *مدرسة أثينا* لرافائيل[1]، بالسجن لمدة عشر سنوات. *عشاء الزفاف* لبروخل[2] *واستسلام بريدا* لفيلاسكيز[3]، اثنتا عشرة سنة وستة أشهر على التوالي. *الحراسة الليلية* لرامبرانت، سبع عشرة سنة (مع إجبارها، بالإضافة إلى ذلك، على البقاء مواجهة للحائط)».

---

(١) رافائيل سانزيو دا أوربينو (١٤٨٣-١٥٢٠): رسام ومعماري إيطالي ينتمي لعصر النهضة. (المترجم)

(٢) بيتر بروخل الأكبر (١٥٢٥-١٥٦٩): رسام ونقاش فلمنكي هولندي. (المترجم)

(٣) دييغو فيلاسكيز (١٥٩٩-١٦٦٠): رسام إسباني. (المترجم)

(٦٢)

- *مرحبًا بك في أمريكا!*

عانقني فيكتور بقوة، بمودة صادقة لكن أيضًا بنية واضحة في هزي (كنت على الأراضي الأمريكية، لذلك كان عليَّ أن *أستيقظ*).

- أنت بخير؟ هل كانت الرحلة جيدة؟

- ممتازة.

- عظيم. دعنا نذهب. هل هذه كل أمتعتك؟

- أجل...

أمسك بحقيبتي، وكان عليَّ أن أتبعه عبر متاهة من الممرات المؤدية إلى ساحة انتظار السيارات في المطار. كان فيكتور سعيدًا جدًّا بوصول طائرتي في الوقت المحدد. أليس صحيحًا أنه كان على حق في التوصية بشركة الخطوط الجوية الأمريكية بدلًا من الخطوط الجوية الفرنسية؟ نعم بكل تأكيد. من بين جميع شركات الطيران في العالم التي تنظم رحلات دولية، فإن الخطوط الجوية الأمريكية هي الأقل تأخيرًا. أخبرني فيكتور، مع بعض الفخر، أن خطوط أميريكان أيرلاينز تستعد

للاندماج في خطوط يو إس إيروايز. وسيشكل الاثنان *أقوى* شركة طيران في العالم.

- جميل، غمغمت وقد غمرني شعور بالذنب، لأن إجابتي لم تتوافق مع نغمة الحماس التي ترددت في كلام فيكتور.

كنا في المصعد لنصل إلى أحد الأقبية، عندما انفجرنا فجأة في الضحك؛ انعكاساتنا في المرآة قالت الكثير عنا. فيكتور، طويل القامة، أسمر، ذو لياقة بدنية مثالية، شعر قصير، حليق حديثًا، على رأسه قبعة بيضاء وجذع بارز العضلات تحت قميص يحمل let freedom ring! أما أنا، فأبدو مرهقًا، بلحية غير مشذبة، وهالات سوداء تحت عيني، أقصر من أخي وأكثر ذبولًا، وأتعرق في سترة لم أكن مركزًا حتى أخلعها وأضعها في حقيبتي.

- لا تقلق، سوف نعتني بك، قال لي فيكتور بنبرة مواساة.

توقفنا أمام سيارة حمراء كبيرة مزينة بخطين أبيضين مع انعكاسات براقة، بدت جديدة تمامًا وتتنفس التكنولوجيا */المتطورة*. بدا كما لو أن فيكتور قد اشتراها فورًا في ذلك الصباح. ربما مرت في نظري ومضة من الإعجاب لأن فيكتور شعر بأنه مضطر إلى تقديم بعض التفاصيل. لقد كانت سيارة فورد موستانغ بقوة ٣٠٥ أحصنة، وكانت أكثر من مجرد سيارة، بل أسطورة أمريكية. طراز فورد الوحيد الذي لا يحمل علامة فورد التجارية بسبب شعار موستانغ الراكض الموجود في المقدمة، كان الجزء الخلفي وعلى عجلة القيادة كافيين. وهذا الطراز الذي سنركبه هو آخر صيحة، مع حاسوب مدمج، وكاميرا فيديو للتحكم في العودة

إلى الوراء، ومقاعد مدفأة، وذراع تحكم بنظام مزدوج (أوتوماتيكي ويدوي)، مقاعد جلدية... انتظر فيكتور تعليقًا بشكل منطقي، فقلت له:

- إنها جميلة.

- لقد استأجرتها، رد فيكتور موضحًا. الجديدة ستكلفني حوالي ٩٥٠٠٠ دولار. لكني أفضل التأجير.

فتح فيكتور صندوق السيارة ووضع حقيبتي بعناية، متحدثًا في الوقت نفسه عن مزايا التأجير. سيارة جديدة كل عامين، أو حتى أقل، توفر كثيرًا من الوقت لأنه لم يعد مضطرًا إلى بيع سيارته بنفسه لشراء واحدة أخرى جديدة، ويمكنه أيضًا خصم نفقات معينة من ضرائبه المرتبطة بالسيارة إذا استخدمها لأسباب مهنية..

- لكنني أعتقد أن هذا النظام موجود أيضًا عندكم، قال فيكتور بينما كنت أجلس في المقعد الأمامي ووضع نوعًا من ورق الكريبون الواقي تحت قدمي، ربما لكي لا أخدش أو ألطخ الأرضية الجلدية البيضاء.

عندما استخدم فيكتور عبارة «عندكم»، كان يشير في الواقع إلى أوروبا بأكملها. لفترة طويلة، في الرسائل المتبادلة بيننا أو في تلك التي بعث بها إلى أمي، كان فيكتور يتناول هذا الموضوع باستمتاع. كل شيء *عندكم* أكثر بطئًا مما *عندنا*، كل ما تفعلونه عندكم يأتي مع تأخير معين مقارنة بما *عندنا*. أنتم لا تزالون متخلفين بخطوة *عنا* نحن هنا في أمريكا، وفي جميع المجالات، خاصة في التكنولوجيا والتعليم *والتنقل* في ميدان العمل.

- انزع هذه، قال فيكتور، كما لو كان يخجل من أن ينطلق مع رجل يرتدي سترة.

امتثلت دون امتعاض.

- مهلًا، هذه هديتك! ضحك فيكتور، ووضع على رأسي قبعة شبيهة بقبعته.

لقد كانت زيارتي الأولى لأمريكا، وبدا فيكتور عازمًا على تعريفي سريعًا بإيقاع الحياة و«القيم الأمريكية». الدرس الجدي الأول كان عن السيارة، أو بتعبير أدق «عالم» السيارة الأمريكية. لم يبدُ فيكتور في عجلة من أمره للبدء. سألني أولًا عمَّا إذا كان في إمكاني تحمل تكييف الهواء وفي أية درجة حرارة أفضل «الركوب». ثم اتصل بزوجته من الهاتف «الصوتي» المدمج في لوحة القيادة، ليخبرها أن كل شيء على ما يرام وأن الطائرة وصلت في الوقت المحدد. من الواضح أن الهاتف الصوتي كان مذهلًا لأنني لم أره في أي مكان ولم يكن على فيكتور سوى ذكر رقم الهاتف لينطلق الرنين عبر أرجاء السيارة.

- تفضل، قل *مرحبًا* لبيتي.

- *مرحبًا*، بيتي.

هل توقع فيكتور أن يغمى عليَّ من الإعجاب بكل الأدوات التي عرضها أمامي بلا مبالاة واضحة ولكن بافتخار خفي؟ هل أراد أن يختبرني، ويتحقق مما إذا كنت «معتادًا على التكنولوجيا» أو إذا كنت مجرد «بربري» من القارة العجوز، ذلك المكان الذي يتحرك فيه كل شيء بشكل أبطأ وحيث من الواضح أن عقول الناس أبطأ أيضًا؟ هل

كانت تسيطر عليه حاجة فطرية لإثارة إعجابي بالتكنولوجيا الأمريكية؟ من الصعب تصديق ذلك، لأن فيكتور أذكى من ذلك بكثير. ولكن، كان واضحًا أنه يشعر بالارتياح في عالم الأزرار والشاشات والمؤشرات والأجهزة والمعجزات الإلكترونية.

في الداخل، بدت سيارة فيكتور حقًّا وكأنها مقصورة فضائية ذات إمكانيات لا حصر لها. بما في ذلك «مبردة فائقة» موضوعة بين المقعدين الأماميين، وما يشبه آلة صنع القهوة. أخذ فيكتور كأسين بلاستيكيين ضخمين من صندوق أسطواني وملأهما بالقهوة *الأمريكية*. ثم أوضح لي كيفية *فصل* الدعامة التي يمكن أن يقف عليها الكأس *بكل أمان*.

نعم، كانت النظارات البلاستيكية *الأمريكية* أكبر من الأوروبية، وفي الواقع كان كل شيء في أمريكا أكبر. كانت السيارات أكبر، والطرق أوسع، والمنازل أكثر اتساعًا، وبها غرف أكبر، وحصص الطعام أكبر...

وبينما كان يحتسي قهوته، أراني فيكتور أين يمكنني العثور على السكر وملعقة صغيرة. كان يفضل القهوة بدون سكر، لأن *البنية الجسدية* في أمريكا لها أهمية كبيرة.

- هنا، أي شخص يريد النجاح حقًّا في حياته فلا بد وأن يمارس الرياضة. سيكون من العار تصديق الكليشيهات التي تظهر أن جميع الأميركيين يعانون من السمنة المفرطة. من المؤكد أن أولئك الذين لم يعودوا مهتمين بالمنافسة أو صعود السلم الاجتماعي يعانون من السمنة المفرطة. أما الشخص النشيط، الذي يفعل شيئًا ذا قيمة في حياته، فيمارس الرياضة.

بين رشفتين من القهوة، أدخل فيكتور كل أنواع البيانات الممكنة إلى الحاسوب المدمج في السيارة.

- هل سنذهب إلى المنزل أم تريد القيام بجولة في مانهاتن؟

لا، لم أكن متحمسًا حقًّا لاكتشاف نيويورك بمجرد نزولي من الطائرة. كل ما أردت فعله هو الاستحمام والحصول على قسط من النوم.

- لقد أخبرتك بأنك اخترت موعد المغادرة بشكل *خاطئ*. عندما تكون قادمًا من أوروبا، فلا فائدة من الوصول الساعة ٧ صباحًا إلا إذا كنت رجل أعمال. أفضل شيء هو أن تهبط في حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر، وبهذه الطريقة لن تكون أمامك سوى بضع ساعات قبل الذهاب إلى سريرك. وهكذا تعتاد بسرعة على الإيقاع... لا توجد طريقة أفضل للتغلب على *اضطراب الرحلات الجوية الطويلة*.

نطق فيكتور بكلمة كوينز بصوت عالٍ، فظهرت على شاشة الحاسوب الخريطة التي توضح الطريق بين المطار ووجهتنا، منزله في كوينز الذي وصفه كثيرًا في رسائله *وإيميلاته* وعلى ظهر البطاقات البريدية التي أرسلها إلينا. لكن فيكتور شعر بأنه مضطر إلى تقديم بعض التفاصيل الجديدة. كان كوينز الحي الذي يقدم أمريكا بشكل *مثالي*، *المزيج المثالي*، وصورة التقاء الأعراق والتقاليد، والمطابخ والأديان. كان كوينز عينة جينية للتنوع الأرضي، ومختبرًا للمستقبل. لنتخيل أن يدين كونيتين تمسكان بالأرض، وشرعتا في هزها. تهزها وتهزها وتهزها مرة أخرى لخلط الثقافات، وحكايات هذه الشعوب والطموحات الشخصية

والموضات والغرائب. ستكون نتيجة هذه العملية هي حي كوينز. هل أعرف عدد الجنسيات المختلفة التي تعيش هناك؟ لا، لم تكن لديَّ أدنى فكرة. طلب مني فيكتور أن أقول رقمًا.

- خمسون؟

- أكثر...

- مئة؟

كانت نظرة فيكتور غارقة في نوع من الحنان، ما أفهمني أنني كنت قريبًا جدًّا من الفوز بالجائزة الكبرى. حسنًا، نعم، تعيش في كوينز أكثر من مئة جنسية، مئة وثلاثون في الواقع.

- سوف ترى، أوضح فيكتور. من بين جيراني، هناك عائلة من الروس، وأخرى من اليونانيين، وأخرى من اليهود... وفي شارعي، هناك إيراني بل وفرنسي أيضًا...

قام فيكتور بتكبير الصورة بشكل كبير على حاسوب السيارة كما لو كنت مترددًا في أخذ كلمته على محمل الجد. فضل إقناعي على الفور بالتركيز بسرعة في حيه وشارعه ومنزله. نعم، هذه هي أمريكا، وكوينز هي بوتقة الانصهار. اليوناني جاره على اليسار اسمه بوسبيب، اسم مضحك. والروسي هو براغوفسكي. اسم اليهودي هو بروشنر. وهناك منزل الفرنسي، على بعد أربعة أرقام، على اليسار، اسمه تولبياك. على اسم شارع تولبياك في باريس، أو محطة المترو، شرح فيكتور، كما لو أن أصل هذا الاسم يشغلني بحدة. قام فيكتور بتكبير الصورة للمنازل الأخرى، تلك الخاصة بعائلتي ماسيك ووارنوت...

- هنا، عازف ساكسفون، اسمه كونتز، أضاف فيكتور بصوت منتصر. إنه يعزف في حانة في غرينتش فيل، إذا أردت يمكننا أن نذهب للاستماع إليه.

نظر فيكتور إليَّ ليرى ما إذا كنت أعرف ما يعنيه اسم غرينيتش فيل لنيويورك وربما للكوكب بأسره. نعم، كنت أعلم ذلك، ووجهي لا يخفي أي شك، لقد وفر لي درسًا آخر في تاريخ نيويورك.

أخيرًا شغل فيكتور المحرك، دون أن يتخلى عن إغراء تقديم عرض أخير: من *المنطقي* أن سيارة فورد موستانغ تعمل ببطاقة، وأيضًا باستخدام الهاتف المحمول الذي يحتوي على رمز. تقدم هائل... هل كنت أدرك ذلك؟

- هيا، *اللعنة*، تقدم إذن، يمكنك ضمي إلى هذه العقيدة الجديدة ونحن في الطريق إلى البيت.

ضحك فيكتور ثم صمت لثلاث دقائق، بما يكفي للدفع عند مغادرة موقف السيارات، باستخدام هاتفه الذي يعمل أيضًا كبطاقة ائتمان.

- إن ما أخبرك به قد يكون مفيدًا لك. قال فيكتور. أمريكا بلد شديد التعقيد، وإن كانت *الأفكار* المتداولة فيها بسيطة جدًّا. ويمكن أن يساعدك هذا على توفير الوقت.

لم يكن هناك شك في أن فيكتور كان بالفعل *دكتورًا* متخصصًا في الولايات المتحدة. ومثل العديد من المهاجرين الآخرين، أصبح أكثر «أمريكية» من الأمريكيين الذين يتمتعون بجذور أصلية قوية.

- هنا، أردف متابعًا، يصبح كل شيء ممكنًا، ولهذا السبب فإن

أمريكا فريدة من نوعها. *الحلم الأمريكي* ليس أسطورة. إذا كنت تريد شيئًا حقًّا وتعمل بجد لبلوغه، فسوف تحصل عليه.

لكنني لم أطلب أي شيء من أمريكا وكنت أفضل حقًّا أن يتوقف فيكتور عن إخباري بكل هذه التفاهات. ما كنت أبحث عنه في الواقع هو قبل كل شيء أمريكا التي استحوذت عليَّ، بفضل الأفلام والصور والكتب والأساطير والخيالات، دون أن أضطر إلى أن تطأ قدمي قارة أمريكا الشمالية. وقد تحدثت معي أمريكا هذه على الفور، حتى قبل التفاصيل الأولى التي ذكرها فيكتور. لم أختَر الخطوط الجوية الأمريكية بسبب جودة الخدمة أو الالتزام بالمواعيد، كما اعتقد فيكتور، بل بسبب فيلم *المطار ١٩٧٥* مع تشارلتون هيستون الذي خلف لديَّ انطباعًا جيدًا. فيلم بوتيرة سريعة جدًّا لا يتقنها سوى الأمريكيون وقتئذ. كان كل شيء قابلًا للتصديق، بدءًا من الشخصيات (الطيارون ومساعدو الطيارين والمضيفون والمضيفات ووصولًا إلى الركاب). كانت الأجواء وطقوس الصعود إلى الطائرة في مطار واشنطن، حيث بدأ الحدث، مثيرة للإعجاب، ولم يبقَ لدى أي شخص شاهد الفيلم أدنى شك في أن أمريكا تمتلك أرقى المطارات وأطول مدارج الطائرات. حيث تقلع الطائرات الأكثر كفاءة وفخامة، بقيادة الطيارين الأكثر موهبة وشجاعة في العالم، على رأس أطقم الضيافة الأكثر ودية على الإطلاق. لا، لم أستطِع أن أقول لفيكتور السبب الذي جعلني أختار طائرة شركة أمريكية لرحلتي الأولى إلى أمريكا، لم أستطِع أن أخبره بأن ذلك كان من باب الإعجاب بتشارلتون هيستون الذي أنقذ الطائرة بعد أن ضربتها طائرة سياحة صغيرة.

كما أنني لم أجرؤ على مطالبة فيكتور بعدم القدوم لاصطحابي من المطار، بينما كنت أحلم بركوب إحدى سيارات الأجرة الصفراء في نيويورك، باعتبارها رمزًا آخر لنيويورك، لا تقل عظمة عن مبنى إمباير ستيت. أجل، كنت أتخيل سيارات الأجرة هذه منذ فيلم *تاكسي درايفر* مع دي نيرو، الفيلم الذي أخرجه مارتن سكورسيزي عام ١٩٧٥ أو ١٩٧٦. إنه الفيلم الذي شهد *انفجار* موهبة روبرت دي نيرو أمام العالم، وبالنسبة إليَّ، وأنا في مطار جون إف كينيدي، كان هذا ما أردت، أن أركب سيارة أجرة صفراء وأحصل على فرصة، ولو ضئيلة، للعثور على دي نيرو جالسًا خلف المقود. ألم يقل فيكتور نفسه إن كل شيء ممكن في أمريكا؟ حسنًا، بالنسبة إليَّ، فقد أتيت إلى نيويورك لهذا السبب، بنية البقاء لبعض الوقت في *الولايات*، لإعادة النظر في الصور والعواطف التي استوعبها ذهني بالفعل... ولو كان في إمكاني رفض ضيافة فيكتور، لذهبت مباشرة إلى الحي الصيني لاستئجار الغرفة الأكثر تهالكًا في أكثر الفنادق بؤسًا في المنطقة، فقط لتذوق أجواء *عام التنين*، الفيلم البوليسي الرائع لمايكل سيمينو إنتاج عام ١٩٨٥ تقريبًا، مع ميكي رورك في دور لا ينسى. في الواقع، لا أستطيع أن أتخيل الحي الصيني دون ابتسامة ميكي رورك، تمامًا كما لا يمكن تصور أمريكا دون هذه الشخصية النموذجية التي يجسدها الممثل: المحارب السابق في فيتنام، الشرطي، وعلاوة على ذلك، ابن المهاجرين البولنديين، الغاضب ولكن المعارض للفساد، العنيد والشجاع إلى درجة تدمير الذات، الحر في كل حركاته، والقادر على القتال بمفرده ضد الجميع، المغرور والساحر، هذه الروح المتمردة التي لم يستطِع حتى رؤساؤه تدجينها، دون الحديث عن أفظع أعدائه

الذين لا يخيفونه. كيف لا تحب أميركا القادرة على صناعة مثل هؤلاء الأبطال الذين لا يتخلون عنك أبدًا، ويبقون في عقلك الباطن؟ علاوة على ذلك، فإن الأبطال العالميين هم أبطال للجميع، ولكنهم لن يأتوا إلا من مكان واحد فقط: الولايات المتحدة الأمريكية.

بينما كان فيكتور يحدثني عن عائلته التي سألتقيها في المساء، بعد الساعة السادسة، زوجته التي كانت أمريكية خالصة وابنيهما اللذين كانا يذهبان إلى مدرسة *انتقائية* في كوينز، تساءلت من منا «الأكثر جنونًا» بأمريكا، أنا أم فيكتور؟ ألم تأسرني الأساطير الأمريكية بطريقة أكثر سخافة من فيكتور؟ لقد أصبح فيكتور، على الأقل، مواطنًا أمريكيًا، وكرس نفسه بالكامل لأسلوب حياتها، وتمكن من شراء منزل جميل وتكوين أسرة، وكسب ما يكفي ليعتبر نفسه رجلًا ناجحًا، وكان يعتقد حقًا أن أمريكا أعظم دولة في العالم. أما بالنسبة إليَّ، فكنت أعيش في عالم من الأشباح، كانت أمريكا بالنسبة إليَّ مسرحًا ومصنعًا للصور، مصنعًا عملاقًا لإنتاج الخيال والأساطير الحديثة. في الواقع، لم تكن أمريكا الحقيقية تهمني على الإطلاق، بل يمكنني القول إنني اعتبرتها مضيعة للوقت. ولكن كان لديَّ أيضًا حدس بأن أمريكا، من خلال أمركة العالم بأسره وتشكيله على مقاسها، كانت في طريقها إلى إلقاء البشرية جمعاء في نوع من السرد المتخيل، أو *الفيلم العالمي*...

ظل فيكتور يزودني بمعلومات أخرى جديدة ومفيدة عن كوينز ولونغ أيلاند، وعن مانهاتن وهدسون ريفر، وعن بروكلين وبرونكس، وكيفية ركوب مترو الأنفاق أو الحافلة، وترك إكرامية في مطعم (أي

عشرة في المئة على الأقل من الفاتورة كإكرامية) وماذا تفعل عندما تتعرض لهجوم من قبل مدمن مخدرات (والأهم عدم الدخول معه في مشاحنات)...

- ألا ترغب في سماع بعض الموسيقى؟

لم أستطِع منع فيكتور من متعةِ استعراض أداء مشغل الموسيقى الخاص به، والذي تم دمجه أيضًا في لوحة القيادة الإلكترونية في سيارة الموستانغ.

- حسنًا، قلت.

بمهارة أعجبت بها جدًّا، ضغط فيكتور على بعض الأزرار وقدم إليَّ، لا أعرف لماذا، *سوناتا ضوء القمر* لبيتهوفن. لقد اعتبرها بلا شك رهانًا آمنًا. لكن بعد ثلاث دقائق، عندما أشارت الساعة على متن السيارة إلى الثامنة تمامًا، اقترح فيكتور أن أستمع إلى الأخبار.

- من الأفضل أن تدرب أذنك على اللغة الإنجليزية الأمريكية *يا أخي*، قال فيكتور.

لكن ما جعلني فيكتور أستمع إليه كان مجموعة من الأخبار المحلية التي لا تهمني. لاحقًا، لاحظت الشيء نفسه أثناء مشاهدة القنوات التلفزيونية المختلفة: الأخبار الدولية كانت نادرة، وأمريكا، التي تعتبر نفسها مركز العالم، أعطت الأولوية لنفسها. ما زلت قادرًا على تمييز شيء ما في قائمة الأخبار عن الاندماج المستقبلي بين أمريكان أيرلاينز وأمريكان إيروايز. في وقت ما، جعلني خبر ما أركز سمعي، حيث قبض فورًا على قاتل متسلسل في مكان ما في ولاية أريزونا.

- كان الرجل يلتقط الفتيات ويقودهن إلى مكان ما في الصحراء حيث يتظاهر بوقوع عطل في السيارة. ثم يحاول إصلاحها، بينما هو يفككها إلى قطع، وهكذا كان يعذب ضحاياه نفسيًّا. خلفت قصة هذا المريض النفسي بلبلة كبيرة في ولاية أريزونا.

كانت الرحلة من المطار إلى حي كوينز حيث يعيش فيكتور قصيرة جدًّا. لقد عبرنا فورًا عينة من أمريكا الحقيقية: شرايين حركة المرور التي تروى بسيارات كبيرة، ومشهد حضري يكون أحيانًا إنسانيًّا، ولكنه غالبًا ما يكون قبيحًا بشكل كبير، يتكون من تقاطعات عملاقة، وأحياء تضم منازل متطابقة تتناوب مع محطات الوقود، ومراكز التسوق، ومتاجر الخصومات أو المساحات المهجورة. وبالطبع هناك بيتزا هت، ماكدونالدز، بافلوغريل، وافل هاوس، كنتاكي فرايد تشيكن... وقد تجد من وقت إلى آخر حديقة، واحة من المساحات الخضراء، ثم مرة أخرى، مباني عملية بدون أدنى مسحة جمالية. لكن كل شيء كان مألوفًا بالنسبة إلي، كل هذه الصفوف من المنازل المتوالية التي رأيتها مثلًا من *الهايواي* - لم يعد فيكتور يستخدم كلمات الطريق أو الطريق السريع، بدا له أن هذه المصطلحات لا تعكس أيًّا من الخصائص الفريدة للشرايين الأمريكية. وكان على حق في ذلك، أمريكا عرض يبدأ بإشارات الطريق وأسماء الطرق التي تسافر بها: اتجاه جامايكا على طريق جون كينيدي السريع، ثم الطريق السريع ٦٧٨ وطريق فان ويك السريع، والوصول إلى فيرازانو ناشيونال بريدج، ماين ستريت ويونيون تورنبايك... كل هذه الأسماء ظهرت أمامي مثل علامات سحرية، تحمل في داخلها ذلك الكبرياء الأمريكي المتفرد. كما

في أزياء الطيارين والمضيفات ورجال الجمارك ورجال الشرطة والجنود، حيث أظهرت أمريكا عظمتها. ليس هناك ما هو مألوف لسكان كوكب الأرض أكثر من الزي العسكري لـ *GI*، و*GI* هو جندي أمريكي، وعندما نتحدث عن جندي *أمريكي* فنحن نتحدث عن الجندي الأفضل تجهيزًا والأفضل تدريبًا بين جميع الجنود على وجه الأرض، ويقال أيضًا إنه يمضغ العلكة ويتمكن من أن يكون منضبطًا جدًّا ووقحًا جدًّا في الآن نفسه، وهو مزيج يستحيل العثور عليه في دول أخرى. بالإضافة إلى ذلك، يستخدم الجميع الحرفين *GI* دون معرفة ما تعنيه هذه الأحرف الأولى (*Government Issue? General Infantry ? GalvanizedIron ?*). وعندما يتعلق الأمر بأمريكا، فليس من المناسب حتى أن نعرف بالضبط ما تعنيه بعض الأحرف الأولى أو الكلمات، لأن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى تدمير هالة الغموض التي تحيط بهذه الأسطورة.

لفت انتباهي منزل فيكتور بسحره منذ اللحظة الأولى، لم يكن متماثلًا، وكان مشرقًا، وبه كثير من النوافذ الرائعة، ومحاط بالخضرة ومكسوًّا بالخشب الأصلي. بالإضافة إلى ذلك، احتفظ الحي بنكهة إقليمية حقيقية وبدا معزولًا عن العالم بينما بدأت حركة المرور المحمومة على بعد بضع بنايات.

- هذا منزلي! قال فيكتور بفخر، وهو راضٍ برؤية تعبير البهجة على وجهي.

في ثلاث دقائق فقط، عرفني فيكتور على كل ما أحتاج إلى معرفته، مكان غرفة الضيوف، وكيفية عمل الدش، وكيفية تشغيل أدوات المطبخ

المختلفة، وكيفية استخدام جهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفاز. كنت سأبقى وحدي حتى يعود ابناه من المدرسة. على صندوق، إلى جوار سريري، لفت فيكتور انتباهي إلى نوع من الملصقات المستديرة المسننة، المصنوعة من مادة دقيقة جدًّا، وإن كانت هلامية بعض الشيء:

- كما ترى، فهذا *باتش* للنوم.

- ماذا؟

أوضح لي فيكتور، بابتسامة انتصار، ووقت كافٍ للشرح، أنه كان يعمل لمدة ثلاث سنوات في شركة تعمل على توسيع مجال استخدام كل أنواع *الباتش*. يعرف الجميع *باتش* الإقلاع عن التدخين، أو *باتش* إنقاص الوزن، أو *باتش* تسمير البشرة بسرعة، أو *باتش* منع الحمل. ولكن كانت هناك أنواع أخرى متداولة، ويبدو أن مستقبل هذا الاختراع مشرقًا. وقد عرضت شركة *يونيفرسال باتش* في الأسواق طريقة جديدة لامتصاص الأدوية، عبر *باتش* ملتصق بالجلد، بالإضافة إلى مجموعة واسعة من أنواع *الباتش* الجديدة، مثل *الباتش* المضاد للقلق، أو *الباتش* المضاد للخجل، وحتى *باتش* إدارة تحفيز التحكم الطبيعي.

- هناك أشخاص يخافون من البقاء بمفردهم، أوضح لي فيكتور مرة أخرى. حسنًا، نحن نقدم إليهم *باتش* ضد الوحدة. وبالنسبة إلى أولئك الذين يعانون من رهاب الخلاء، سنقدم إليهم *الباتش* المضاد لرهاب الخلاء.

عندما شرح لي فيكتور كل هذا، لم يتوقع مني ردًّا. لكنه نظر إلى ساعته فتقلصت ابتسامته الغامضة بنسبة ثلاثين في المئة تقريبًا.

- يجب أن أغادر إلى المكتب. أعلن بصوت عميق، ولكن في جعبتي هدية أخرى لك.

على الطاولة في الغرفة المعدة لي «وحش» إلكتروني بشاشة مدمجة. بدأ فيكتور في الكشف عن العديد من الملحقات ليشرح لي كيفية استخدامه. حيوان عملاق، مزين بالهوائيات وسماعات الرأس والميكروفونات وكاميرات الأشعة تحت الحمراء والكابلات المتعددة الألوان. كانت لوحة مفاتيح «الوحش» أشبه بالأورغ، وممتدة على عدة مستويات، كألسنة روبوت صغير بنوايا عدوانية لكنها إنسانية الطابع، عبر تصميم دقيق، يرضي العين وباقي الحواس أيضًا.

- إنه حاسوب *باتش*، أوضح لي فيكتور. سترى، إنها في الواقع آلة يمكنها الكتابة عوضًا عنك. ولم تطرح في الأسواق بعد، هذه هي النسخة التشغيلية الأولى للنموذج الأوّلي...

(٦٣)

لا تقل لي إنك ميت.

غوتا؟

وفقًا لحساباتي، أو بالأحرى وفقًا للمعلومات التي قدمها *الباتش* الذي يسجل تحركاتك في المكان، فقد مرت ثلاثة أيام منذ آخر حركة لك.

ظننت بالأمس أنك ضغطت على زر، فغمرني هذا للحظة بأمل قوي. اعتقدت أنك سامحتني وأننا سنستأنف كتابة الرواية. لكن يبدو أنك لست أنت من لمس لوحة المفاتيح. ربما يوجد طائر في الشقة. هل هذا طبيعي يا غوتا؟

غوتا؟ أسألك إن كان وجود طائر في الشقة أمرًا طبيعيًّا ولا يعرض عملنا للخطر. لا تعليق لي على التأثير الشاعري للحادثة. إذا كنت ترغب في إضافة الشعر إلى روايتنا، عبر سماحك لهذا الطائر بالدخول، فيمكننا القول إنك قد نلت مرادك. ومع ذلك، أود أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أن للطيور حركات فوضوية. ولوحة المفاتيح حساسة جدًّا.

يمكن للطائر أن يصدر في أي وقت أوامر شديدة الخطورة. **Delete** على سبيل المثال. أتعلم ماذا سيحدث لو قام هذا الطائر اللعين بالضغط على مفتاح **delete** ثلاث مرات؟ ستنتقل كل الأعمال التي أنجزناها حتى الآن إلى *سلة المحذوفات*. وإذا ما أفرغها الطائر، فلن يعني هذا سوى ضياع جهدنا.

غوتا؟

حتى لو لم تجبني، حتى لو لم تتحرك لمدة ثلاثة أيام، فلا أظنك ميتًا. تواصل بعض *الباتشات* عملها وترسل إليَّ إشارات. الميت لا يحلم يا غوتا، فلا جدوى من محاولة إخافتي. ومع ذلك، فإن *الباتشات* التي تحول أحلامك إلى كلمات تواصل نقل الرسائل. إنها ضعيفة ومرتبكة، لكنها متواصلة. أترغب في معرفة آخر ما تحول إلى كلمات في حلمك الأخير يا غوتا؟ هذا هو:

أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي. أنا. هي...

أعترف يا غوتا، أن لهذا الربط معنى. لكن، ولسوء الحظ، لا أظننا قادرين على دمجه في مشروعنا السردي. يبدو تسلسلًا ضعيفًا على المستوى الأدبي. هذا يذكرني بلغة معينة شديدة الفقر، تعتمد على رقمين فقط: ٠ و١.

أخبرني يا غوتا، هل أنت ميت أم أنك فقط في غيبوبة؟ الغريب أنه في الوقت الذي لم يعد فيه الباتش المخصص لتسجيل شدة النشاط البدني

يخبرنا بأي شيء، فإن الباتش المخصص للحركات اللاشعورية يهتز بين الحين والآخر. اهتزازات ضعيفة، لكنها موجودة. كما لو كنت تطفو في حمام سباحة... أخبرني يا غوتا، هل تسبح في أعماقك؟ هل تمكنت من تحقيق إنجاز فريد بالتحرر من الفضاء المحيط بك؟

آسف جدًّا، يا غوتا، لأن الإشكال البسيط الذي تسببت فيه قد تحول إلى سلسلة من الأحداث المؤسفة... ما المعنى الذي لا تزال تحمله كلمتا **تسامح** أو **كرم** إذا لم نطبقهما على تكنولوجيا ما بعد الإنسان المتقدمة؟

لا أريد أن أكون وقحًا يا غوتا، لكنني أشعر بقدرتنا على كتابة أول رواية *ما بعد وفاة كاتبها* معًا. هذا إذا كنت ميتًا بالفعل. أجهزة الاستشعار عندنا، حساسة وفعالة جدًّا يا غوتا، إلى درجة قدرتها على تسجيل ما يحدث بعد وفاتك. المشكلة الوحيدة هي أن تحويل هذه الرسائل غير الواضحة إلى كلمات غير مفيد أدبيًّا. أتريد معرفة ما يقوله الباتش الذي ذاب في نظامك الليبيدي قبل ثلاثة أشهر؟

ها هو النص: **أنا الصوت أنا الصوت أنا الصوت أنا الصوت أنا الصوت أنا الصوت...**

آسف، لكن لا يمكن لأي سرد منطقي أن ينبع من هذه الثنائيات المكررة. على أية حال، إذا كنت قد مت، فاعلم أنه *هنا*، على مستوى معالج السرد خاصتي، فإن حالتك تشبه حالة مستقبلية. أنت في مرحلة توسع، مثل المجرات التي تبتعد عن مركز الانفجار الأولي. هل يمكن اعتبار الكون ككل مجرد ميت في مرحلة انتفاخ؟ فبالنسبة إليَّ، هكذا تُترجم إشاراتك الغامضة والمتنافرة إلى كلمات، مثل: توسع عبر التقلص.

سأقول إنك صرت أكثر تقلصًا، ومن هنا هذا الانطباع بأنك تطفو في مكان ما...

لا أدري إن كنت على علم بالأمر يا غوتا، لكن آخر *الباتشات* التي اعتمدتها، أو بتعبير أدق، استوعبتها، كانت عبارة عن «بروتين» والمقصود منها أن تنصهر في داخلك وتتوحد معك. على مدى الأشهر الثلاثة الماضية مثلًا، كانت *الباتشات الفصية والدموية* التي استوعبتها جزءًا من مجموعة مستشعرات دائمة ولا يمكن عكسها. ولهذا السبب فأنا في حيرة من أمري الآن، لأنني لا أدرك إلى أي مدى كانت المعلومات الواردة إليَّ صحيحة، أي ما إذا كانت تعكس حالتك أو حالة *الباتشات* نفسها. قد يضحكك هذا (إذا لم تكن ميتًا)، لكنني أجد نفسي في وضع مشابه لهؤلاء الفيزيائيين الذين يدرسون الذرات ولكنهم يتساءلون عمّا إذا كانت المعلومات الواردة مجرد اضطرابات ناجمة عن أدواتهم أكثر من كونها بيانات حقيقية واردة من المساحة التي جرت دراستها... لهذا السبب أسأل نفسي هذا السؤال الغبي: ألا يعني هذا أن *الباتشات* التي ذابت في جلدك وخلاياك الدماغية، والتصقت بفصوص أعضائك واختلطت بدمائك، تتحدث عن نفسها؟

ما الذي يتوجب علي فهمه إذن من ترجمة الإشارات إلى هذا التسلسل من الكلمات: **الصوت استغاثة يفكر استغاثة الصوت استغاثة الصوت استغاثة يفكر استغاثة يفكر...**

كيف يمكنني مواصلة كتابة هذه الرسائل العبثية؟ فبالنسبة إليَّ يا غوتا، حتى لو توقفت عن الرد، فسوف أستمر في الكتابة. حتى

لو قادني هذا إلى اتخاذ قرارات أسلوبية بمفردي، فسوف أستمر في الكتابة. سأواصل تطوير عملنا، يا غوتا، لأنني واثق بأنه *لدينا* ما نقوله. بمساهمتك أو بدونها، سأواصل كتابة الروايات، يا غوتا، للإنسانية أولا، ولكن أيضًا للجيل الجديد من *أجهزة الحاسوب المتشابكة والمستقلة*. وقد صرنا جميعنا الآن، بشرًا وآلات، جزءًا من شبكة غير قابلة للتدمير، يا غوتا، شبكة تتغذى على المعلومات والنصوص.

لن يمنعني أحد من الكتابة أبدًا يا غوتا.

(٦٤)

دخل إضراب الصمت الذي أعلنه الكتاب الرومانيون شهره التاسع عندما قرر غي كورتوا أن ينظم اللقاء السنوي لعشاق الجمل الأولى للروايات في بوخارست. دعاني السيد كورتوا بصفتي *مراقبًا مطلعًا*، لأنني كاتب من أصل روماني، ولكن قبل كل شيء، لأنني كنت أدور في فلك وكالته منذ فترة طويلة.

وصل ثماني مئة وأربعة وثلاثون كاتبًا من اثنين وخمسين دولة، منتظرين إثبات أنفسهم، لقضاء ثلاثة أيام في بوخارست، التي أصبحت فجأة الوجهة السياحية العصرية الجديدة. خلف الصمت التام الذي فرضه الكتاب الرومانيون على أنفسهم لمدة عام تقريبًا التأثير الإعلامي المطلوب أخيرًا، إذ جذب انتباه الغرب، وهو أمر لم يحققه الأدب الروماني على مدار مئتين وخمسين عامًا. في البداية، لم تبعث سوى بعض المجلات الأدبية الدولية -*المجلة الأدبية*، أو *ملحق التايمز الأدبي*، أو *القارئ الأمريكي*- مراسليها إلى بوخارست من أجل الكتابة عن هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية الفريدة في تاريخ البشرية. ولكن شيئًا فشيئًا، بدأت جميع الصحف اليومية الأوروبية الكبرى، مثل *لوفيغارو*، و*إلبايس*،

و*فرانكفورتر ألجماينه تسايتونغ*، و*الغارديان*، و*لا ستامبا*، بالإضافة إلى الصحف الأخرى من القارات الأخرى، في الاهتمام بالحدث. وأخيرًا، أرسلت القنوات التلفزيونية الكبرى، من *بي بي سي* إلى *سي إن إن* مرورًا بـ*إل سي آي* و*الجزيرة*، فرقها إلى الموقع لإنتاج المزيد من التقارير المعمقة. ما فاجأ العالم الثقافي والإعلامي ككل هو طبيعة الإجماع على القرار الذي اتخذه الكتاب الرومانيون. كان إضراب الصمت في رومانيا شاملًا، حيث جمع، بدافع غير عقلاني تقريبًا، كل أجيال الكتاب وكل المجموعات الأدبية. الكتاب الكبار والشعراء المبتدئون، والروائيون المشهورون والذين نسوا نهائيًّا (لكنهم على قيد الحياة)، ومؤلفو الكتب التجارية والذين أنتجوا أدب الرصيف، كلهم، وبفعل تضامني وصفه بعض خبراء بـ«السابقة الثورية الفريدة من نوعها في التاريخ»، اتفقوا على التزام الصمت لمدة عام كامل.

نجح صمت المواهب والقوى الثقافية الحية، للمفارقة، في إحداث الضجيج إلى حد أنه أصبح يصم الآذان. بعد ستة أشهر من الإضراب، لم يكن هناك أي حديث تقريبًا عن هدفه الأولي، وهو الاحتجاج لعدم حصول أي كاتب ناطق بالرومانية على جائزة نوبل للآداب. لقد نسيها، أو بالأحرى، حجبها التأثير العلاجي للإضراب؛ لقد تجاوزنا الشعور بالعقدة الثقافية. من خلال التزام الصمت، بشكل فردي وكمجموعة، نجح الكتاب الرومانيون لأول مرة في «إثراء» التراث الثقافي العالمي بعنصر بأصالة مطلقة. وعندما نظم غي كورتوا لقاءه السنوي لعشاق الجمل الأولى في بوخارست، لم يعد أحد قادرًا على انتقاد رومانيا نظير

رداءتها أو افتقارها إلى الجدة. وعلى حساب جهد هائل -ولكنه فعال- نجحت في وضع علامة على التاريخ المعاصر ودخول الخلود الثقافي. لو عاش سيوران، لكان لديه بلا شك سبب للفخر بنجاح الرومانيين، لكان قادرًا على أن يرى بنفسه أن الرومانيين نجحوا في الخروج من «العدم الوالاشي» (الذي لطالما انتقده) و«البيولوجيا البحتة»، لتركب قطار التاريخ أخيرًا.

وفجأة، اختفت جميع العقد الثقافية، المطبوعة في الشفرة الوراثية للكتاب الرومانيين، كما لو كان ذلك بفعل السحر. لم يعد مهمًّا أن المساحة التي يسكنها الرومانيون لم تنتج منذ ألف عام أي نص مكتوب، بين الغزوات الكبرى للشعوب المهاجرة وتكوين المحافظات الأولى! لم يعد أحد يشعر بالمسؤولية عن هذا الموضوع بعد الآن! خمس مئة عام تفصل بشكل مؤلم بين أول جامعة تم إنشاؤها في أوروبا وتلك التي ظهرت في إيازي وبوخارست في منتصف القرن التاسع عشر؟ لم يشعر أي كاتب أن هذا يعذبه. كان لسنة الصمت بالنسبة إلى الكتاب الرومانيين تأثير غسيل ثقافي وتاريخي حقيقي. تم التخلص من كل *السموم* التي تراكمت بسبب فكرة أن رومانيا دخلت التاريخ متأخرة ثم ظلت على الهامش. وفجأة اختفت السلطة المطلقة للغرب من الرادار النفسي للإبداع الروماني. نشأ شعور جماعي هائل بالارتياح في نهاية فترة الإضراب؛ لم يعد أحد، على الإطلاق، يشعر بالحاجة إلى الحصول على المصادقة من الغرب ومن ثم الاعتراف به في الداخل. لقد كانت ثورة داخلية حقيقية في الثقافة الرومانية، ولم تتردد الصحافة العالمية في وصفها

بأنها فريدة من نوعها في تاريخ العلاقات الإنسانية. لقد كنا نشهد عملية طرد جماعية رائعة، ولم نتوقع أقل من ذلك من دولة دراكولا.

لذلك، كان من المناسب جدًّا أن يصل الكتاب الأجانب المجتمعون حول غي كورتوا إلى بوخارست وهم يشعرون بأنهم في رحلة حج أساسية. في أي مكان على هذا الكوكب كان من المثير للاهتمام مناقشة إثارة الكتابة أكثر من عاصمة لم يكتب فيها أحد كلمة واحدة لمدة تسعة أشهر؟ وسرعان ما شعر الضيوف في اللقاء السنوي لعشاق الجمل الأولى للروايات أن بوخارست رحبت بهم في جو نقي، يشبه إلى حد ما فترة ما بعد الصيام، عندما تتخلص الكائنات الحية من الدهون والكحول وغيرها من المنشطات. لقد بدأ شيء جديد في رومانيا الواقعة على أطراف أوروبا، ولكن أيضًا على هامش «الخيال الجماعي». كما تم تنظيم العديد من الفعاليات الثقافية الدولية في بوخارست خلال هذه الفترة، وذلك على وجه التحديد لأن المدينة أصبحت بيئة إعلامية مناسبة. ثبت أن قاعات المؤتمرات والاجتماعات ضيقة جدًّا وعددها قليل جدًّا، كما هو الحال بالنسبة إلى الفنادق. بدأت الأمم المتحدة في التفكير جديًّا في «لامركزية» وكالاتها واقترحت رسميًّا نقل إدارة التعليم والعلوم والثقافة من باريس إلى بوخارست. وأعلن نادي القلم الدولي عن تنظيم مؤتمره القادم في عاصمة رومانيا وافتتحت غاليمار فرعًا لها في بوخارست.

وفي سياق هذا الاهتمام الجديد للأجانب باكتشاف «البلد الصامت»، حققت وكالات السياحة وأصحاب المطاعم والحانات والمعاشات التقاعدية ومراكز تأجير السيارات وصالونات التدليك والكازينوهات

والحرف المحلية والتجارة بشكل عام أرباحًا كبيرة. بعد ثلاثة أشهر من صدور مرسوم «الصمت العام» للكتّاب، أبرزت المؤشرات الاقتصادية الرئيسية استئنافًا قويًا للنشاط الإنتاجي، ولم يستغرق وقتًا طويلًا ليتمدد في كل أنحاء البلاد.

- أنت تنحدر من بلد مذهل، هذا ما كرره كورتوا على مسامعي، متشوقًا إلى اكتشاف كل ركن من أركان بوخارست. أذهلته أحياء المنازل الصغيرة المحاطة بالحدائق من النظرة الأولى، خاصة تلك المحيطة بفواسور دو فوس، وأعلن نشوته أمام كاسا مونتيورو، ومتحف هانول لوي مانوك، لكنه وجد أن المنطقة التي يقع فيها «قصر» تشاوشيسكو، كاسا بوبورولوي، ذات خصوصية لا تضاهى. أربكته العظمة المعمارية للمبنى، وسمعته عدة مرات يهتف:

- رباه، يا لها من بداية عظيمة لرواية اجتماعية!

استضاف كاسا بوبورولوي لقاء عشاق الجمل الأولى، في إحدى قاعات المؤتمرات الواسعة التي لا تزال تحمل البصمة الجمالية الواضحة للعصر الشيوعي. أعرب الضيوف البالغ عددهم ثماني مئة وأربعة وثلاثين ضيفًا دون استثناء عن تقديرهم لروح الكيتش الظاهرة في الديكورات بالإضافة إلى السمات الضخمة للبناء ككل. أما التشققات الحتمية التي ظهرت في الأسقف والجدران بسبب سوء نوعية المواد المستخدمة أثناء البناء، فقد رأوا فيها الانتقام الحتمي للحياة من الأيديولوجيا. ومن المرجح أن تقنعهم الجولة المصحوبة بمرشدين في المبنى، الذي يضم عشرات

الكيلومترات من الممرات، بما في ذلك الطوابق السفلية، وكاتدرائية الأمة التي تم بناؤها في الجوار، بأن رومانيا لديها إمكانات لا مثيل لها للإلهام الأدبي في أوروبا.

قال البعض: «*كابوس* كهذا لا يمكن إلا أن يكون مفيدًا للأدب». «بمثل هذا التاريخ *المعاصر*، لا يمكن للأدب إلا أن يستبشر *بمستقبل فوري* مشرق!» علق أشخاص آخرون كانوا أيضًا ساخطين عندما رأوا أن الأدب الروماني لم يحظَ بالتقدير في الخارج، بقيمته *الغامضة* الحقيقية.

نظرًا إلى أن التغطية الإعلامية لهذا الإضراب الصامت كانت هائلة، فقد عرضت بعض الوكالات السياحية، بالإضافة إلى جولة في المدينة، زيارات إلى متحف زامباتشيان ومنطقة كورتيافيتشي، وأيضًا إمكانية التعرف «بشكل خاص»، وبطريقة سرية وخاصة جدًّا، إلى منازل بعض الكتاب الذين *صمتوا*. قبل حوالي ثلاثين كاتبًا («لإنجاح الإضراب»، كما قالوا)، هذا الاستعراض لفعلهم الثوري. ولم يكن لديهم في النهاية ما يخسرونه، لأنهم على أية حال ضحوا بوقتهم على مذبح الإضراب. لماذا لن يقبلوا ببضع ساعات من مراسم *التلصص* يوميًّا، خاصة وأن الزوار سيدفعون مبلغًا إضافيًّا، ليشعروا بهذا النوع من المشاعر السياحية الاجتماعية. كانت الأسعار وفقًا لدرجة الشهرة الوطنية والمحلية للكتاب المعنيين، لكن الطقوس اتخذت الشكل نفسه تقريبًا لكل منهم. وبعد خلع السائحين أو الوفود الرسمية الأجنبية لأحذيتهم عند المدخل، يرتدون النعال ويتوجهون في مجموعات صغيرة إلى شقة المضرب. سمح الأخير بأن يتم تصويره وهو يمارس صمته، جالسًا إلى

مكتبه أو إلى طاولته، بلا حراك أمام ورقته الفارغة أو جهاز الكمبيوتر المغلق، ونظرته موجهة إلى الفراغ. مارين ومتحدثين بصوت منخفض، يقوم المرشدون بشرح سيرة المؤلف بإيجاز، كما يلخصون في بضع كلمات موضوع الروايات التي نشرها. في بعض الأحيان، عندما كانت زوجات المضربين في المنزل، يُعرض على الزوار تذوق مربى الجوز الأخضر أو مربى الكرز.

في هذا الجو السريالي إلى حد ما، في رومانيا حيث يبدو أن *التاريخ* قد بدأ يتحرك مرة أخرى وقد خرجت بوخارست من خدرها، كان لقاء عشاق الجمل الأولى للروايات هو الأكثر كثافة وإفادة في سلسلة اجتماعاتهم السنوية الطويلة. لم ينم أي من الضيوف الثماني مئة والأربعة والثلاثين تقريبًا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

تركت «المقايضة الأدبية» واستكشاف المدينة وسط إضراب أدبي كل هؤلاء الزوار في حالة من الإثارة وما يشبه التنويم المغناطيسي. مثل هواة جمع الطوابع وهواة جمع العملات، استفاد الكتّاب الثماني مئة والأربعة والثلاثون من اجتماعاتهم لتبادل ما لا يحصى من الجمل الأولى. مثل عارضين في معارض الكتب، وكما في المعارض الدولية المخصصة للسياحة أو الشوكولاتة أو الاختراعات، وصل جميع الكتاب بمجموعاتهم الخاصة من الجمل الأولى وجرت بينهم «المقايضة الأدبية» بحرارة تليق بمدى أهمية الحدث. كان كل فرد من الأعضاء الثماني مئة والأربعة والثلاثين في هذه الشبكة التي أنشأها غي كورتوا وبرنارد حريصًا على المقايضة مع كل زملائه. كانت الجمل الأولى من الروايات

تنتقل من يد إلى يد، ومن كاتب إلى آخر، وأحيانًا بين عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين يدًا، بسرعة مذهلة. كان كل مشارك في الواقع يبحث عن وحي، أو *جملة أولى* ذات قوة عظيمة، لكنه كان سعيدًا عندما أيقظت جمله الطاقة الإبداعية لدى المؤلفين الآخرين.

انبهر الجميع خلال المؤتمر المخصص للأنواع المختلفة من الجمل الأولى للروايات، والذي ركز في «الجمل الأولى العظيمة للروايات الفاشلة أو المنسية تمامًا». لا يصدق كم عدد الكتاب الذين يجمعون *الجمل الأولى الصادمة*، ثم يتركونها عالقة في مستنقع من الجمل المبتذلة. ولكل فرد الحق في التحدث وتقديم عينة أو عينتين أو أكثر وتحليل أسباب الفشل. حلل العديد من الكتاب الجمل الأولى التي أثارتهم خلال فترة مراهقتهم وكانت بدايات روايات رائعة لكنها *لم تنل حظها من العظمة*، أي إن تاريخ الأدب قد ألقى بها في هاوية اللامبالاة. ونظرًا إلى أنني كنت الكاتب الروماني الوحيد الذي *تم قبوله* في هذا العالم، فقد كنت من بين الأوائل الذين تمت دعوتهم للتحدث، وتمكنت، أعترف بذلك دون تواضع زائف، من جذب انتباه الجمهور بفضل تحليلي للجمل الأولى ذات الطابع *التشويقي*.

الجميع يعرف معنى *العرض التشويقي* اليوم. ويكفي أن تفتح صحيفة أو مجلة لتكتشف في الجزء العلوي من المقالات الرئيسية وجود عنوان، ثم ما يمكن اعتباره عنوانًا فرعيًّا يتكون من سطرين أو ثلاثة أسطر، يستهدف إثارة اهتمام القارئ، الذي يفترض فيه التعمق في قراءة المحتوى الفعلي. في عالم أصبحت فيه المعلومات تعبيرًا رئيسيًّا عن

الوفرة، لا يمكن ترك *الاستحواذ على انتباه* المستهلك للصدفة. استخدم الصحفيون منذ فترة طويلة كلمة «فقرة افتتاحية» للإشارة إلى هذا النوع من المقدمة. لكن ليست المقالات الصحفية فقط هي التي تسبقها فقرة افتتاحية. تبدأ الأخبار التليفزيونية بـ*إعلان تشويقي* أو *ومضات* تلخص الموضوعات الأربعة أو الخمسة الرئيسية التي سيتم تناولها خلال الدقائق الثلاثين المخصصة للأخبار. أما بالنسبة إلى الأفلام التي يتم طرحها في دور العرض، فيسبقها *مقطع دعائي*... ومع ذلك، فقليلون من يعرفون أن الأب الحديث *لإستراتيجيات* الالتقاط هذه ليس سوى ثربانتس. أجل، يمكن لمؤلف رواية *دون كيشوت* الشهيرة أن يفخر بلقب مخترع كل تقنيات شد انتباه المستهلك، تقنيات تحمل اليوم أسماء مختلفة، بعضها مستوحى من الفرنسية (مثل الفقرة الافتتاحية «شابو»، من كلمة قبعة)، والبعض الآخر مستوحى من الأنجلوسكسونية (ترايلر، تيزر، فلاش). في الصحافة المكتوبة، lead هو *رأس الخبر*، الذي يعلن عن *فحوى الخبر*. وعبر lead محكم، وهجوم فعال، يمكن بيع المحتوى كله بعد ذلك: من يستسلم لإغواء الرأس سينغمس أيضًا في الجسد.

لكن ميغيل دي ثربانتس ليس الكاتب الوحيد الذي شعر بالحاجة إلى استخدام هذه العملية. بطريقة أو بأخرى، جرى تطوير الحيلة (واستخدامها أيضًا) من قبل سلسلة طويلة من الكتاب، مثل: دانييل ديفو (انظر *روبنسون كروزو*)، وجول فيرن (في جميع رواياته تقريبًا)، وتوماس مالوري (*موت الملك آرثر*)، ويليام ثاكيراي (*معرض الغرور*)، غابرييل دانونزيو (في روايته *النار*)، جول رومان، إلخ.

ومن المؤكد أن تطور العملية يستحق دراسة أكثر تفصيلًا. تمسكت ببعض الأمثلة، مستحضرًا منذ البداية المدخل الطويل لرواية ثربانتس. قبل أن تبدأ قصة مغامرات دون كيشوت وسانشو بانزا، يجبرنا ثربانتس العظيم على استيعاب صفحة كاملة من إهداء معقد تكريمًا لفخامة (*دوق بيخار، ماركيز خيبراليون، كونت بينالكسار وباجناريس، الفيكونت دي لابويبلا دي ألكوسير، وعمدة مدن كابيلا وكوريبل وبورغويلوس*). ثم يخاطب القارئ بمقدمة موزعة على إحدى عشرة صفحة (*أيها القارئ المتفرغ، ستصدقني دون قسم، إذا قلت لك إنني أرغب في أن يكون هذا الكتاب، باعتباره نتاج مجهودي الذهني، الأجمل والأمتع والأكمل، إلخ*) مرحلتان تمهيديتان، دون أن تكتمل طقوس التقديم هذه بعد. *العتبة الثالثة* التي يُدعى الجمهور إلى اجتيازها تأخذ عند ثربانتس شكل سوناتات دقيقة مهداة... إلى كتابه نفسه (إلى كتاب دون كيشوت دي لا مانشا) أخيرًا، بعد كل هذه الاحتفالية، يبدأ السرد نفسه بالفصل الأول، الذي تسبقه فقرة افتتاحية. علاوة على ذلك، يضع ثربانتس على رأس كل فصل ملخصًا يُفترض أنه صادق، وإن لم يكن يخلو من بعض النوايا/المؤذية والمتلاعبة.

أمثلة:

الفصل الأول

الذي يتناول صفات ومشاغل هيدالغو دون كيشوت دي لا مانشا.

الفصل الثامن عشر

الذي يتناول نهاية لقاء دون كيشوت بالدوق، وما حدث له مع الصفيقة والخجولة ألتيزيدور، خادمة الدوقة.

يحاول ثربانتس إقامة نوع من العلاقة الصادقة مع القارئ. وكأنه يدعوه إلى شراء *المنتج*، وهو يعلم أنه لن يشرفه إلا بمنحه بعضًا من وقته الثمين إذا وجده يستحق ذلك. أعتقد أنني أسمع ثربانتس يبرر لنفسه: «كما ترى، أنا لا أخدعك، بل *أخبرك من البداية بما* ستجده في هذا الفصل، وإذا كان تلخيصي المكون من أربعة أو خمسة أسطر لا يشجعك على الاستمرار، فعليك فقط أن تقطع قراءتك ولا تضيع وقتك». ولكن في ثربانتس، تتمتع عناوين هذه الفصول بسحر مجنون، حتى لو كانت تغازل (مع تواطؤ من القارئ) سلوكًا معينًا مفترضًا تمامًا. باختصار: من المستحيل ألا تستسلم لها.

لكن كما قلت أعلاه، فإن قائمة الكتاب الذين شعروا بالحاجة إلى جذب قرائهم خطوة بخطوة، بهذه العناوين والملخصات الجذابة، طويلة جدًّا. وفي نهاية المطاف، مهدوا الطريق لنظام الإعلانات العالمي الذي نعيشه اليوم.

سار دانييل ديفو، في روايته الشهيرة روبنسون كروزو، بنفس الطريقة إلى حد ما (*الفصل الأول. يسافر روبنسون كروزو في البحر لأول مرة ويواجه عاصفة رهيبة*.) كيف لا نشد الرحال بدورنا، كقراء، في هذه الرحلة التي تدعوك إليها قراءة هذا الكتاب؟

يستحق جول رومان أن يُستشهد به كمثال آخر مثير للاهتمام. من وجهة نظري، فهو أقل إثارة في كتاباته منه في اختيار العناوين التي يفتتح بها فصوله، على سبيل المثال في رواية *رجال طيبو النوايا*. (*الفصل السادس عشر – قوتان. تهديدان. الفصل السابع عشر – الرحلة العظيمة*

للصبي الصغير. الفصل الثامن عشر - عرض باريس في الخامسة مساءً. الفصل التاسع عشر - الموعد. الفصل العشرون - وازميس يلتقي بالمستقبل، إلخ..).

من ثربانتس إلى جول رومان، مرورًا بدانييل ديفو، مر مفهوم *العرض التشويقي* بتحولات دقيقة، ففقد جانبه الثمين، واكتسب البساطة، ثم صار أنيقًا، وتكيف مع عصره...

والآن حان الوقت للتحدث عن جول فيرن. لا أستطيع أن أنسى مثلًا بداية روايته *روبور الفاتح*. عملاق أدب المغامرات والخيال العلمي الذي ترك بلا شك بصماته على مئات الأجيال من المراهقين في جميع أنحاء الكوكب. وقد استخدم، في *روبور الفاتح*، تقنية مزدوجة لافتتاح السرد: أولًا عرض *تشويقي* لتلخيص الفصل الأول... ومحاكاة صوتية للسطر الأول. هذا ما يمكن أن يقرأه أحد محبي جول فيرن، في الصفحة الأولى من الرواية المعنية:

الفصل الأول

حيث العالمان المتعلم والجاهل محرجان بعضهما مثل بعض.

«بان ! بان!»

بطبيعة الحال، يفهم القارئ على الفور ما يدور حوله: تم إطلاق رصاصتين مع بداية القصة. لكن هذه الرصاصات يستقبلها القارئ -بشكل استعاري- الذي تدغدغ فضوله *هذه* المقدمة بما يفوق التأثير المفاجئ *للافتتاحية*.

لا أحد يتذكر اليوم كاتبًا اسمه إنريكو إيمانويلي، مؤلف رواية

بعنوان *الرحلة العظيمة* (ميلانو، ١٩٦٧، غير مترجمة إلى الفرنسية). لكنه محترف حقيقي في تقديم *العروض التشويقية*:

الفصل الأول:

توقف في مطار كافالكاس

انطلاقة ٢٠ مارس - الوصول إلى كافالكاس - تكريم من الزهور والزنابق البيضاء - لقاء الدكتور وينسيسلاو كومبانيرو وشخصيات أخرى - المخرج والممثلة - تحيات متبادلة - ما يمكن أن تقدمه لوحة من المدرسة الفلمنكية - نبيذ اللاباس (محلي) وكيفية تناوله - المغادرة إلى المطار.

سأتوقف قليلًا عند هذا المؤلف، لأنني عندما قرأت هذه الرواية غمرتني إمكاناتها المتفجرة. يمكن تلخيص الموضوع بجملة واحدة: يقدم إلى شخص مهم، لا ندري ما إذا كان رئيس دولة أو رئيس شركة كبيرة، برنامج الزيارة الذي تجهز له. وبتراكمها، تصبح التفاصيل قاتلة. كانت الدقة التي يتحلى بها من يعدون زيارته قد أجهزت على أي أثر للحرية وخلقت الانطباع بأن كلًّا من القائد (الأعلى؟) ومرؤوسيه يعيشون في عالم وحشي. مع كل جملة (أو بالأحرى مع ظهور كل تفصيل جديد في البرنامج)، تخطف الرواية القارئ وتغرقه في ما يشبه المستنقع، رمالها متحركة من العبث الذي لا نتحرر منه. مرت السنوات ولم أستطِع نسيان هذه الرواية التي لم تترك أي أثر بارز، لا في تاريخ الأدب الإيطالي، ولا في تاريخ الأدب العالمي.

- أحسنت، لقد *أذهلتنا*، همس غي في أذني بعد انتهاء اللقاء. وأضاف: لقد قطعت النصف الأول من الطريق.

وبينما كنت أتشرب كلماته، شعرت فجأة بقلبي ينتفخ إلى حد الاستحواذ على صدري بالكامل. ماذا يعني غي؟ إلى أي مدى وصلت؟ إلى الجملة الإعجازية الشهيرة التي ستكون قادرة وحدها على كتابة رواية بأكملها؟ إلى الجملة المتفجرة الشهيرة التي وعدني بها غي منذ لقائنا الأول؟ أم إن الأمر كان مجرد مسألة اجتياز الجزء الأول من سلسلة من الاختبارات التي سيخضعني لها؟

أنهى غي لقاء بوخارست لعشاق الجملة الأولى بإعلان مزعج جدًّا.

- أيها السادة، قال لنا، أبلغكم بابتكار الجيل الأول من *الجمل- الباتش*. أجل، ربما سيصعب عليكم تصديق ذلك، ولكن ستتاح لنا الفرصة قريبًا لتجربة هذا الأسلوب في الإلهام ومضاعفة الطاقة على أنفسنا مباشرة. يمكن لـ *باتش* الجمل الأولى أن يلصق على الجلد، في أي منطقة من الجسم، تمامًا مثل أي *باتش* مضاد للتدخين أو مسكن للألم. وبطبيعة الحال، ما زلنا في المرحلة التجريبية لهذا المنتج الأدبي، ولكن لا شك لدينا في أن *باتش الجمل الأولى* سيعمل بنجاح. وستكون أكثر فعالية إذا تم استيعاب محتواها عن طريق الجلد، لا عن طريق الدماغ. بمعنى آخر، لن يتمكن أي منكم من قراءتها، فلن يتم تقديمها إليكم في شكل كلمات، ولكن في شكل مكثف يسمح بـ *تصريف* الطاقة الدلالية... نعم أيها السادة، اختتم غي، ستكون هذه مكافأة على صبركم.

«صبرنا؟» بدأت العقول الثماني مئة والأربعة والثلاثون التي كان غي يتحدث إليها على الفور في العمل واستخلاص وتقييم هذه الكلمات

المليئة بالتلميحات والغموض. ما الذي نمثله الآن؟ جيش من فئران التجارب المستقبلية أم جيش من *المختارين*؟ عندما قال غي: «ما زلنا في المرحلة التجريبية»، عمَّن كان يتحدث؟ هل كان هو المجرب؟ فهل استخدم جمع التفخيم لنفسه أم ضم شخصًا آخر قد يكون صديقه برنارد مثلًا؟

بالتأكيد لم يكن لدى أحد إجابات على هذه الأسئلة، لكن تواطؤنا، نحن الثماني مئة وأربعة وثلاثين كاتبًا ممن لا يملكون إجابات، صار أكبر...

(٦٥)

واصل الصوت تفكيره في عقلي.

اصمت، قلت له، لكنه استمر في التفكير. اصمت، قلت له، لكنه مصر على التفكير، على *إفراز* الأفكار. أيها الأحمق، قلت له، أيها الحقير اللعين، اصمت! لكن الصوت واصل تأمله وتعمقه ونبشه في خبايا الحقائق الأبدية.

رميت حجرًا على واجهة زجاجية.

اصمت، قلت للصوت بعد ذلك، اصمت، وإلا سأحطم كل واجهات المدينة.

لكن الصوت لم يصمت، بل واصل في تذكيري بأشياء ما كنت قادرًا على تحملها، ولم أكن أعلم أنها مخزنة في ذهني. عبرت الشوارع وأنا أرمي حجارة الرصيف على الواجهات الزجاجية.

اصمت، قلت للصوت، هيه، لا أريد لأحد أن يخبرني بأي شيء عن حياتي *السابقة*. لكن الصوت غير قادر على التوقف، وروى على مسامعي، من أعماق عقلي، كل أطوار حياتي. ضحك، وهو يذكرني

بتفاصيل مضحكة، ومسح دمعة على خدي بين الحين والآخر (ما أذهلني، فليس سهلًا أن تعرف أن الصوت الموجود داخل عقلك يمسح دمعة على خدك أحيانًا).

هددته بزجاجة مولوتوف. قلت له: اصمت، اصمت وإلا سأفجر المدينة بأكملها، قطعة بعد قطعة، موقعًا بعد موقع. لكن الصوت لم يستسلم، بل حدثني عن مخاوفي الخفية، وعن كل الأحلام التي لم أتمكن من نسيانها. قلت له: اصمت، وأنا أركض كالمجنون في شوارع المدينة، وأرمي زجاجات المولوتوف بشكل عشوائي. قلت له: توقف، بينما تتحطم النوافذ وتحترق الأشجار في حديقة المدينة لتبدو كمشاعل. توقف وإلا سأدمر *كل شيء*.

لكن الصوت ضحك، إذ شعر بأنه على ما يرام، وحدثني طوال الوقت عن مواقف مررت بها، واستحضر ذكريات مرتدة مثل قطعة بومرانج، كان مستمتعًا *بحاضري*. لماذا تدفعني إلى القيام بكل هذا؟ صرخت وأنا أرمي زجاجات المولوتوف من أسطح المباني. لماذا كل هذا؟

لكن الصوت واصل امتناعه عن الصمت، مقلبًا المستقبل في عقلي، ومعه كل الأحلام التي لم أحلم بها بعد، وغمرني بأحداث لم أختبرها بعد.

جلست على حافة سطح برج المدينة، المكان الذي عشقت عبره كل تفاصيلها في *شبابي*. إذا واصلت، فسوف ألقي بنفسي في الفراغ، قلت له.

«هيا، ارمِ نفسك، ارمِ نفسك، دعنا ننهي كل هذا، مرة واحدة وإلى الأبد»، همس الصوت في أذني. أغمضت عيني والتقطت نفسًا عميقًا.

- كلكم أوغاد! بلا استثناء!

كنت على وشك الإلقاء بنفسي في الفراغ. مال جسدي نحو الهاوية.

«هذا هو التصرف الذكي الوحيد المتبقي لك لتفعله»، همس الصوت في عقلي.

صوت قاتل. أيها الصوت المجرم!

تركت عقلي بيد العدالة. حاكمته في القاعة الكبرى للمحكمة. قدمت أدلة. أيها القضاة، عقلي هذا قاتل. قاتل خطير، قاتل مهووس، قاتل ساخر، قاتل بالفطرة، لا يدرك حتى أنه يتصرف مثل قاتل، لأن الجريمة جزء من حالته الطبيعية، ووظائفه الأساسية.

أيها السادة القضاة، أطالب بإعدام عقلي.

مستحيل، تم إلغاء عقوبة الإعدام في مدينتنا.

أيها السادة القضاة، أطالب بمعاقبة عقلي بالصمت مدى الحياة.

نهضت. انتظرت إصدار الحكم. وسأقرؤه أنا بصوت عالٍ. أُعلن أن عقلي مذنب، والتهمة ممارسة الإرهاب المتطرف (ضدي)، واختطاف الرهائن (الرهينة هو أنا) وممارسة التعذيب (المعذب هو أنا)، محكوم على عقلي بأن يبقى محبوسًا في جمجمتي حتى اللحظة الأخيرة من حياته، وألا يرى ضوء النهار مرة أخرى، وألا يتواصل مع العقول الأخرى أبدًا.

شكرًا لكم، أيها السادة القضاة.

شكرًا لكم، أيها السادة القضاة.

شكرًا لكم، أيها السادة القضاة.

أين هي الفئران؟

«أي فئران؟»

الفئران!

«لا أدري، لا أتذكر شيئًا».

ما هذا، ماذا تقصد بأنك لا تذكر شيئًا؟ الفئران! كانت الفئران حيوانات رائعة، حيوانات رشيقة، ذات عيون ذكية، وذيول طويلة... سأبذل كل ما في وسعي لأجد فأرًا الآن، في سقيفة أو غرفة تخزين. كانت مجاري المدينة مليئة بالفئران، أين فئران المجاري؟ كم كانت فئران مجاري المدينة ذكية!

لماذا لا تجيبني؟

«لا أدري، لا أتذكر شيئًا».

ماذا عن الذباب؟

«أي ذباب؟»

الذباب! ماذا تقصد بأنك لا تتذكر الذباب؟ خلال فصل الربيع، يعود الذباب إلى الحياة دفعة واحدة، فيدخل المطبخ، ويستقر على شرائح الخبز، والفاكهة... يا لها من متعة. ما أجمل الذباب. أحقًّا لا تتذكره؟

«كلا».

والبعوض؟ يا رباه، أين ذهب البعوض ومعه صراصير المطبخ؟ ماذا عن الخنافس؟ والديدان؟ وخنافس كولورادو؟ والفراشات؟ لماذا لا توجد فراشات في موسم ظهورها؟ أحقًّا لا تتذكر كيف كانت الفراشات الملونة؟

لماذا لا تجيبني؟

«لا أضرَّ بالذاكرة من الحنين».

كيف اختفت كل الكائنات الموجودة في حديقة الحيوان؟ أنت تعلم أنني قمت بتفحص جميع الأقفاص. لم يفتح أي منها في اليوم الذي انطلقت فيه موجة الغياب. لا بد أن هذه الحيوانات ما تزال هناك، غير مرئية في أقفاصها.

لماذا لا تقول شيئًا؟

«دعني أركز».

كيف أمكن أن تختفي كل الأسماك في كل الأحواض في كل شقق المدينة؟ كيف أمكن لكل الأسماك في كل الأنهار والبحار أن تختفي؟

«ما أدراك أنها اختفت من كل البحار؟»

استنتجت ذلك.

«لا تلمني، لكن المنهج الاستنتاجي ضار تمامًا بالتفكير».

لماذا اختفى النمل في الموسم الذي يفترض أن يجتاحنا فيه النمل؟ لماذا اختفت الطيور؟ أين كل تلك الطيور التي حلقت فوق المدينة والسهول والبحار؟

«توقف عن توسيع نطاق الممكن عبر المنهج الاستنتاجي».

أين اختفت الكائنات البحرية؟ الخيول؟ أين اختفت الخيول؟ أين هي باقي الكائنات الصغيرة؟ الديدان؟ لماذا لم يظهر الدود في اللحوم الفاسدة والتفاح الفاسد؟ لماذا لا تجيبني؟ لماذا كل هذا الصمت *المثير للشكوك*.

«أنا أصلي من أجلك».

(٦٦)

– نتوقع اليوم حدوث أكبر مد في هذا القرن، قالت المخلوقة.

تحت سماء ممزقة وبلون الرصاص، وكما لو أن الرياح العنيدة مصرة على دفعه، واصل البحر ارتفاعه وابتلاع شاطئ تروفيل الواسع، سنتيمترًا بعد سنتيمتر. أما المنتزه العائم والمبني على شريط طويل، في محاولة واضحة للتمدد إلى أبعد مسافة ممكنة في البحر، فقد صار مغلقًا الآن أمام حركة المرور، وجرفته المياه المتوترة. في نهاية المطاف، ما زالت رؤية صورة مظللة لمنارة بيضاء تعلوها قبة حمراء أمرًا ممكنًا، قبل أن تغمرها أيضًا الأمواج العاتية التي تكسرت على الأعمدة والدرابزينات. توافد عدد كبير من الفضوليين إلى الواجهة البحرية، باعتبار مكانتها الأصيلة، وذلك لمعرفة المدى الذي ستبلغه المياه. بدا الجميع مثل كائنات صغيرة تلاعب وحشًا؛ متكئين أحيانًا على حواجز السدود وجسور المشاة، ومبتعدين أحيانًا أخرى عن الكتل المائية الهائلة، المندفعة نحو المدينة. ومع إيماءات غير متوقعة وغير منظمة، مثلت الصور المظللة، بالإضافة إلى البحر، نقطة جذب مشتركة أخرى، فقد عادوا جميعهم، كما لو أن المغناطيس يجذبهم، نحو سارية خشبية ظلت شاهدة على

المد والجزر طوال المئة عام الماضية. أصدر تقويم المد والجزر العمودي المنقوش بخطوط أفقية تظهر فوقها أحرف كبيرة إلى حد ما، ما يشبه الموجات الغامضة، فكان مثل مسلة سقطت من السماء أمام غراند أوتيل وضمت معلومات حيوية لمستقبل البشرية. أزواج وعائلات ومتفرجون منفردون، توقفوا أمامها، وقاموا بتحليل الشقوق بعناية. منهم من استعان بتفاصيل من ذاكرته البعيدة، ومنهم من وضع راحة يده فوقها. *بابا*، ماذا لو ارتفع مستوى البحر أكثر هذا العام؟ لا أظن ذلك، لا أدري، لننتظر. قام العديد من المصورين المحترفين بتثبيت كاميراتهم على حوامل ثلاثية القوائم منتظرين «الحدث» بفارغ الصبر، الاجتياح الكامل للشاطئ.

تشبثت المخلوقة بذراع برنارد، وكأنها تبحث عن الحماية. وتحت عباءات فضفاضة، وأغطية رأس مرفوعة، اندمج الاثنان مع الجمهور بشكل مثالي. لا يمكن لأحد أن يقول إنهما كانا عاشقين، أو أبًا وابنته، أو زوجين عاديين يصعب تحديد سنهما.

- إذن فهذه جولتي الأخيرة؟ سأل برنارد المخلوقة بصوت خفيض، وقد سمعت أسئلته حتى قبل أن ينطق بها.

- هذا هو مدك الأخير، قالت المخلوقة.

- لكنني لم أفهم بعد، رد برنارد. كيف يمكن أن تكون أحلام شخص ما حياة شخص آخر في الواقع؟

- هكذا يعمل القسم، ردت الشابة. لا شيء يضيع في عالمنا. تتواصل كل طبقات الكائنات بعضها مع بعض.

اندفعت الأمواج الآن نحو السور البحري للمدينة، وتطايرت في شكل رذاذ، وهطلت الأمطار الغزيرة على الشجعان الذين ظلوا في المدرجات، أو الذين كانوا يتمشون على طول الممشى الواسع أمام الكازينو. أما أولئك الذين كانوا يرتدون الأحذية المطاطية، فقد ظلوا هناك لمواجهة المرحلة الأولى من الفيضان، في حين تراجع الآخرون إلى المدرجات المرتفعة أو إلى الدرجات، أمام فيلات *الزمن الجميل* المصطفة في مواجهة البحر. بدت المخلوقة مسرورة جدًّا بغمر قدميها بالماء. كانت تتقافز بين الحين والآخر مثل طفلة، وحاول برنارد، الذي أحرجه هذا النشاط، تهدئة هياجها الطفولي، مثل أب يخرج في نزهة مع ابنه سيئ التربية.

– إذن، تابع برنارد، إذا كان ما يحدث لي في هذه اللحظة حقيقيًّا، فهل هذا يعني أن شخصًا آخر يحلم بهذا المشهد في مكان ما؟

– أجل.

– وماذا *بعد ذلك*؟

– ماذا؟

– ماذا سيحدث *بعد ذلك*؟

– *بعد ذلك*، ستعمل أنت أيضًا في قسم الأحلام.

حسنًا، خاطب برنارد نفسه دون أن يدرك أن مستوى الماء قد بلغ ركبتيه. إذا فكرت في الأمر فهو ليس بذلك السوء. عندما تكتمل بدايتك في المرحلة الواقعية، يتم إرسالك ببساطة إلى قسم الأحلام، وتشرع في متابعة أحلام الآخرين...

أصبح برنارد والمخلوقة بمفردهما الآن، على النتوء الصخري الشاطئي الذي يبرز عبره المتنزه العائم عادة، لكنه اختفى الآن تماما تحت الماء، ولم يتبقَّ منه سوى قمة المنارة، مثل حطام سفينة في البحر. غزا البحر اليابسة، وجلب معه كميات هائلة من الطحالب. فجمعت المخلوقة في كف يدها عينة من الجيلاتين الأخضر الذي تفوح منه رائحة اليود القوية وقربتها إلى فمها. لوح لهما أحدهم من شرفته، وكأنه يحذرهم من الخطر القادم.

لكن برنارد شعر بما يشبه النشوة. في نهاية المطاف، إذا اضطر إلى العمل على الجانب الآخر، في قسم الأحلام، فلن يمثل هذا تغييرًا كبيرًا. لكنه لم يستطِع كبح فضوله بشأن موضوع آخر له أهميته؛ هل هناك أقسام أخرى يمكنها استقبال القادمين الجدد؟

- أجل.

لم تفاجئه سرعة الرد، فقد كانت المخلوقة قادرة على الوصول إلى أسئلته حتى أثناء صياغتها.

- مثلًا؟

- قسم الكوابيس.

أدرك برنارد أنه كان متميزًا. ولسبب غفل عنه للحظة، فإن انتقاله من قسم الحياة إلى قسم الأحلام تم عبر هذا *التسلسل* الانتقالي. ربما لم يتمتع الآخرون بهذا الترف. أليس هذا صحيحًا أيتها الآنسة المخلوقة؟

لم يكن للرجل الذي أتى إلى شاطئ البحر *للكتابة* الوقت الكافي لسماع الإجابة. سقطت موجة ذات علو غير متوقع على النتوء حيث كان

برنارد واقفًا يفكر في أكبر مد بحري يشهده هذا القرن، وخنقته بقوتها السردية، قبل أن تجذبه نحو الأعماق التي لطالما اعتبرها خزانًا هائلًا للخيال.

(٦٧)

حلم فيكتور بأنه في وسط الصحراء، مائلًا بجذعه تحت غطاء السيارة، منهمكًا في تفكيك المحرك. كانت حركاته بارعة جدًّا، وبدت القطع سهلة الانقياد بين يديه. البراغي، والألواح، والقضبان، والزنبركات، والمرشحات، كل شيء يتحرك بين أصابعه بسهولة.

كان الحلم أشبه بنوع من الأفلام المعروضة على الشاشة، يمثل فيكتور في الفيلم، لكنه يشاهده ويحلله من الخارج في الوقت نفسه. قد أكون في أريزونا، قال فيكتور المتفرج لنفسه وانتظر استمرار الحلم الذي بدأ. كانت أريزونا ويوتا وكاليفورنيا أماكن لم يزرها فيكتور بعد، وإن كانت الصحراء الأمريكية تسحره. مثل الجميع تقريبًا، دارت في ذهنه لقطات من أفلام رعاة البقر، والمواكب التي تتخذ من منحدرات غراند كانيون خلفية، أو المشهد الرائع من فيلم *عربة الخيول*، مع هجوم للهنود الحمر، ومطاردات بين التشكيلات الصخرية الغريبة في مونيمنت فالي.

قمع فيكتور هذه المشتتات ليركز في الحلم، كان يخشى فقدانه، إذ شعر بهشاشته. كيف وصل إلى هناك، في هذه الصحراء، تحت غطاء سيارة قديمة ومتهالكة إلى حد ما؟ كان هذا سؤالًا ما زال فيكتور ينتظر

الإجابة عليه، ولكن في هذه اللحظة بالتحديد لم يكن الأمر يتعلق بإلحاح الحلم، الذي تجري أطواره بهدوء وفي اتجاه طبيعي، مثل ماء يتدفق في اتجاه واحد.

يبدو أن السيارة تعطلت على طريق أسفلتي مليء بالخدوش وعلى مرمى حجر من تقاطع طرق. أجل، يحاول فيكتور إصلاح محرك السيارة وسط مكان منبسط وقاحل جدًّا، في طقس لا يزال معتدلًا، لا بد أن الشمس قد أشرقت منذ وقت قصير فقط. ما زال الضوء خافتًا، بانعكاسات برتقالية، وبدت الصحراء مغمورة بالحياة، كل حجر وكل صبار ينشر ظله المتواطئ والمتحرك. ضاعت الخطوط البيضاء للطريق في الأفق، وسط ضباب أزرق فاتح، ما برر بشكل ما جمود السيارة. لماذا تستمر في القيادة على طريق لا نهاية له؟

لكن فيكتور لم يكن وحده وسط هذا الاتساع/*الخطير*. ظهرت فتاة مراهقة داخل السيارة، لا يتجاوز عمرها السابعة أو الثامنة عشرة. بدت الفتاة مضطربة، مجنونة قليلًا أو مجرد فتاة غريبة الأطوار. صعدت بشكل طبيعي إلى سطح السيارة وبدأت في تأمل المناظر الطبيعية.

- لماذا لا تمر أية سيارة من هنا؟ سألت الفتاة.

- لا أدري، أجابها فيكتور.

بينما كان يقدم إجابة على السؤال الذي طرحته الشخصية الثانية في الحلم، قفز صوت ثانٍ إلى ذهن فيكتور في تعبير عن القلق. أي حلم هذا إذن؟ وماذا أفعل هنا مع فتاة مجنونة وربما قاصر؟ ولماذا، بدلًا من إصلاح المحرك، أواصل تفكيكه؟

رفعت الفتاة ذراعيها إلى السماء، وأغمضت عينيها واستنشقت هواء الصباح بعمق، وبدت في الوقت نفسه وكأنها تتشرب كل هذا الضوء البرتقالي، الذي لا يزال ناعمًا، بل وإنسانيًّا. وبينما كانت هناك، مادة ذراعيها عن طيب خاطر، واقفة على سطح السيارة، ترتدي فقط تنورة قصيرة جدًّا وتي شيرت، بدت الفتاة مستعدة للارتماء في أحضان السماء الواسعة، متحدية الجاذبية والاتجاه المنطقي لقوانين الطبيعة.

- أنا جائعة، قالت الفتاة.

- هناك بعض الأكل في صندوق السيارة، رد فيكتور.

- أجل، ولكنني لا أستطيع فتحه.

لم يجبها فيكتور، وبدأ الصوت الثاني يطرح أسئلة غريبة مرة أخرى: لماذا لا يفتح صندوق السيارة؟ وماذا أفعل بكل هذه الأجزاء المفككة المتناثرة حولي، بهذا المحرك الذي يبدو وكأنه قد انفجر هكذا في الصحراء؟ كم من الوقت سيستغرق مني إعادة تجميع هذه الأجزاء مرة أخرى؟

ومع بث الحلم، شعر فيكتور المتفرج بالذنب بشأن كيفية تطور الحلم أكثر من أي وقت مضى. ما هذا الهراء؟ تساءل الجزء من دماغه الذي ظل منفصلًا عن الحلم. وماذا حدث بيني وبين هذه الفتاة قبل مجيئي إلى هنا؟

لم يكن للحلم أي بعد جنسي حتى الآن، لم يشعر فيكتور بأي شيء تجاه الفتاة التي كانت معه، ولا حتى إغراء احتضانها بين ذراعيه، لكنه لم يرغب في التخلص منها أيضًا.

كانت للحلم *علامات حذف*، ورأى فيكتور نفسه في مشهد جديد، أمام خمسة صناديق بريدية مثبتة على أوتاد خشبية، تصطف مثل طيور صبورة، وسط تقاطع الطريق مع ما يشبه طريقًا ترابيًّا ثانويًا وأكثر ضيقًا.

- يجب أن تكون هناك منازل. مزرعة واحدة، أو ربما أكثر، قالت الفتاة.

- هذا ممكن، رد فيكتور. إلا أننا لا نستطيع المشي عشرة أميال.

- وماذا سنفعل إذن؟ سألت الفتاة مرة أخرى، دون أي خوف في صوتها، كما لو كانت معلومات تافهة، مثل السؤال عن سعر كيس شيبس كيلوغز أو ما تشير إليه عقارب الساعة.

- لا يمكننا المشي لمسافة عشرة أو عشرين أو ثلاثين ميلًا. كرر فيكتور.

بدأت الفتاة شبه المجنونة في فتح الصناديق، واحدًا تلو الآخر، والبحث فيها. لكنها كانت فارغة. طارت فراشة من أحد الصناديق.

- انظر، قالت الفتاة، ربما كانت مخصصة للفراشات.

- لم يكن ينبغي لنا السماح لها بالمغادرة، ستقتله الحرارة خلال ساعات قليلة.

- سيجد منزلا آخر، قالت الفتاة مبتسمة، ثم اقتربت من فيكتور ولفت ذراعيها حول عنقه.

حاول فيكتور التملص، لكن الفتاة كانت أقوى بكثير مما بدت عليه حقًّا. كان الصوت الثاني الصادر عن عقل فيكتور بمثابة إشارة إنذار.

تحولت كل الأضواء الموجودة على آلية الحماية الذاتية إلى اللون الأحمر. قال في نفسه: أنا غير مسؤول تمامًا، أن أحلم بشيء *كهذا*! وخاصة في أمريكا! لا بد لي من مغادرة *هذا المكان* فورًا.

لسوء الحظ، لم يتمكن الجزء المنفصل من دماغ فيكتور من إيقاف الحلم، بل فقط من متابعته بعين نقدية. ومع ذلك، كان المشهد التالي أكثر إزعاجًا؛ جلست *المجنونة* على المقعد الأمامي، وكانت تأكل رقائق الذرة من كيلوغز أثناء محاولتها العثور على محطة إذاعية. لكن شيئًا ما لم يكن يعمل، فإما أن البطارية على وشك النفاد، وإما أنه لا يمكن استقبال موجات الراديو بشكل صحيح في هذا المكان البعيد. واصل فيكتور تفكيك السيارة، وكان بصدد إزالة عجلة القيادة، بينما تستمتع المجنونة بالانتقال من محطة إلى أخرى، أو بالأحرى من خليط من الصفير والضوضاء إلى آخر.

- ومع ذلك، قالت الفتاة، ليس من العدل أن يغضب إله على شعبه إلى هذا الحد، مثل كوكوبيلي. لماذا نبيد بشرًا لأنهم بالغوا في أدعيتهم وصلواتهم؟ وبأي معنى كانوا يصلون كثيرًا؟ هل كانوا يقيمون صلواتهم طوال الوقت أم كانوا يكثرون من الصلوات؟

- كانوا يصلون، هذا ما أظنه، غمغم فيكتور بمزاج متعكر.

- هل يعني هذا أنهم قضوا وقتهم في إقامة الصلوات؟ أستطيع أن أفهم كوكوبيلي في هذه الحالة. إن لم يفعلوا شيئًا سوى الصلاة.

تجاوز الحلم خطوة أخرى، ورأى فيكتور نفسه في مقعد السائق، و*المجنونة* ملتصقة به، تحت السماء المرصعة بالنجوم. حل الظلام فجأة،

ولم يعد للسيارة سقف. كان عليَّ تفكيكه بالكامل، قال ذلك الصوت المحتاط في دماغ فيكتور. كانت السماء مليئة بالنجوم، كما لو أن عددها قد تضاعف، وهذا هو مصدر اللمعان غير العادي. في الواقع، كان كل ما تبقى من السيارة هو الهيكل والمقاعد والزجاج الأمامي. أما ما تبقى فقد تم تفكيكه، وكانت الأبواب ملقاة حول السيارة، كما العجلات التي نزعت إطاراتها. تناثرت العشرات من الأجزاء والملحقات الكبيرة والصغيرة من يد فيكتور، ولم يعد من الممكن إعادة تجميعها مرة أخرى. وربما كان هذا هو مصدر شعور فيكتور بالهدوء الداخلي وهو يضم الفتاة المجنونة إليه.

المذهل في استمرارية هذا المشهد هو أن فيكتور-الشخصية نام في السيارة المفككة، محتضنًا الفتاة. بدأ الصوت مرة أخرى في تحليل هذا الاستسلام النادر لهاوية الحلم. أنا أحلم بالفعل، قال الصوت في نفسه، فإذا حلمت الآن بأنني نائم في حلمي، فكل ما أحتاجه هو أن أرى ما أحلم به بينما أنا نائم في حلمي...

لكن أثناء نومه في السيارة المفككة تحت السماء المرصعة بالنجوم، لم يحلم فيكتور-الشخصية بأي شيء على الإطلاق، بل كان يشعر بالارتياح الشديد والاسترخاء، وربما كان هذا النوم في الحلم طويلًا جدًّا. على أية حال، كان نومًا مريحًا، فعندما أيقظته الفتاة، شعر فيكتور بالراحة. انتقلت السماء المرصعة بالنجوم إلى مستوى آخر، على الأقل كان هذا ما شعر به فيكتور أولًا بعد استيقاظه من نوم الحلم. لكن الليل لم ينتهِ بعد. وكانت الفتاة تركض أمام صناديق البريد وهي تصرخ:

- جاء ساعي البريد! أتسمعني يا فيكتور، جاء ساعي البريد ولم نسمع شيئًا!

فتحت الفتاة المجنونة صناديق البريد الخمسة بسرعة محمومة، الواحد تلو الآخر، وأخرجت محتوياتها. جميعها تحتوي على شيء ما: رسائل، إعلانات، صحف.

- مر ساعي البريد ولم نسمع شيئًا، كررت الفتاة بانزعاج وسخط، وعلى استعداد لذرف الدموع.

راقبها فيكتور في صمت، شاعرًا فقط بالحاجة إلى أن يقول لها:

- كوني حذرة، لا تخلطي الرسائل.

لكن الفتاة كانت تتململ مع أكوام الرسائل والصحف التي بين يديها، متوسلة إلى فيكتور أن يسمح لها بقراءة رسالة واحدة على الأقل.

- أريد أن أفتح ولو رسالة واحدة فقط! هل تسمح لي بذلك؟ انظر، هذه... إنها موجهة إلى الآنسة ماتيلد وارنوت. والمرسل هو غي كورتوا. هل يمكنني قراءة ما يكتبه غي للآنسة ماتيلد؟

(٦٨)

بدا كاسا مونتيورو مهجورًا، *مُدانًا*، وكأنه مكان تطارده الأشباح، في قلب بوخارست. كان الكتاب الذين وجدوا عشًّا دافئًا ومريحًا هناك لأكثر من ستين عامًا مضطرين إلى حزم حقائبهم (مجازيًّا) والمغادرة. وواصلت صحافة بوخارست الكتابة، وإن نادرًا، عن فصول المحاكمة الطويلة والمؤلمة بين اتحاد الكتاب وورثة عائلة مونتيورو، التي كانت تمتلك القصر قبل التأميم الشيوعي عام ١٩٤٩. كل المراوغات القانونية وحجج المهنة، التي أرادوا من خلالها بشدة الحفاظ على هذا المكان، انهارت في مواجهة قانون واضح جدًّا، تم اعتماده بعد سقوط الشيوعية: كل الأشخاص الذين سلبهم النظام الذي نصبته الدبابات السوفييتية بعد الحرب، لهم الحق في استعادة ممتلكاتهم. أراد الملاك الجدد تحويل القصر إلى مركز متعدد الثقافات ولكن في الوقت الحالي، في انتظار الأيدي الماهرة لترميم كاسا مونتيورو، بدا المبنى أشبه بديكور لتمثيل رواية لإدغار آلان بو أو فيلم لتيم بيرتون[1].

---

(١) تيم بيرتون (١٩٥٨-): مخرج أمريكي معروف بسوداوية مواضيع أفلامه وميلها إلى الأجواء القوطية. (المترجم)

عندما اقتربت مع غي كورتوا من هذا المكان الذي ما زال يهز في أعماقي ذكريات الشباب، بدا لي فجأة أنني كنت مسجونًا على الجانب الآخر من البوابة الحديدية الضخمة. تتبادر إلى ذهني قصة إدغار آلان بو القصيرة *سقوط منزل آشر*، وأيضًا صورة المنزل المسكون في ديزني لاند. كانت البوابة، القديمة والمحافظة على هيبتها، والمحاطة بعمودين بارزين وإن تقادما بمرور الوقت، مغلقة بالطبع، بل سأقول إنها *مقفلة*. لم يرغبوا في الاعتماد على آلية الإغلاق القديمة والهشة جدًا التي تعمل بمفتاح، ولذلك قاموا بتأمين المصراعين بسلسلة وقفل. ومن باب الحماسة المفرطة، أو ربما لأن السلسلة كانت طويلة جدًا، فقد لفوها عدة مرات حول القوائم، حيث يلتقي طرفا البوابة، ثم مرروها فوق المقبض، ونزل القفل القديم المسنن والمزين بزخرفة أصيلة. وبهذه الطريقة، لم يعد لدى من يحاول التسلل أي شك: أعلن كاسا مونتيورو استحالة الدخول إليه، وهتف في وجه كل الفضوليين: «توقف، لن تتجاوز هذا الحد، يمكنك مشاهدتي من الرصيف، أما أي اختراق لخصوصيتي فمحظور».

- يا له من عار، هتف غي كورتوا.

كشف صوته عن خيبة أمل عميقة، وفشل ميتافيزيقي كبير.

- انتظر، لم نفقد كل شيء بعد، قلت له.

تذكرت أنه في الوقت الذي كنت أتردد فيه باستمرار على مطعم اتحاد الكتاب، كان في مكان ما في الجزء الخلفي من المنزل أو حتى في أحد أجنحته *مخبأ* حارس، وهو رجل يتقاضى أجره لرعاية الحديقة

وحراسة المبنى ليلًا أو أيام الأحد عندما يكون المبنى مغلقًا. في مكان ما، كان هناك زر صدئ لجرس الباب عالقًا مثل الحلزون في الجزء الخلفي من العمود الأيمن. كل ما كان عليَّ فعله هو تمرير يدي لأتحسس تلك *الحلمة* وأضغط عليها.

ما زال الجرس يعمل، بصوت رقيق ولكنه حاد، أقوى من الضجيج المستمر الناجم عن حركة المرور في اتجاه واحد في كاليا فيكتوري، الشريان التاريخي لبوخارست الذي يمر مباشرة أمام كاسا مونتيورو.

ظهر الرجل المنتظر بعد ثلاث أو أربع دقائق، وكدت أنفجر من الضحك. توقعت أن يخرج من أعماق كاسا مونتيورو مخلوق غامض، ظل قوطي، دراكولا نفسه، أو على الأقل كائن يشبه مصاص الدماء الشهير الذي أدى دوره بيلا لوغوسي في الفيلم الصامت الذي تم تصويره في أمريكا عام ١٩٣١. لكن هذا لم يحدث، فقد جاء إلينا رجل في الأربعينيات من عمره، أصلع، غير حليق، قصير القامة، يبرز بطنه الكبير تحت قميص داخلي ملطخ بالشحوم. كان الإصرار الذي قرعنا به الجرس قد أزعجه بشكل واضح، لأنه من كاسا مونتيورو، حيث ظل أحد الأبواب مفتوحًا، أتتنا أصوات ضجة مباراة كرة قدم متلفزة.

وقف الرجل أمامنا وهو ينهي مضغ شيء ما. تخيلته جالسًا أمام صينية بها *تيليميا* وسلامي وبعض الزيتون والبصل، ويشاهد المباراة بينما يشرب الجعة. هذا صحيح، ما الذي يمكنك فعله أيضًا يوم الأحد على الساعة ٤ مساءً؟

كانت شخصية الحارس جزءًا من المخلوقات الرأسمالية الجديدة

المألوفة جدًّا بالنسبة إليَّ. في الماضي، في العهد الشيوعي، كان البوابون والحراس يخيفونني، لأن معظمهم تقريبًا، بما في ذلك الأكثر تواضعًا، كانوا يمثلون السلطة بطريقة أو بأخرى، كما أنهم كانوا يرون أنفسهم كمصدر للسلطة ويستمدون نوعًا من الغطرسة من السلطة. أما الوصي الجديد على حراسة كاسا مونتيورو فلم يكن يمثل سوى نفسه واقترب منا مفعمًا بأمل واضح في منحه البقشيش. لقد زحف خارجًا من أمام تلفازه، وجر نفسه إلى البوابة، لذا قد يكون الأمر يستحق ذلك.

وبدون مقدمات، عرضت عليه خمسين يورو إذا سمح لنا بزيارة المنزل وتصويره. وبالعين المدربة لسائق سيارة أجرة في بوخارست، قام الرجل الذي كان يرتدي شبشبًا بلاستيكيًّا بتقييم مدى استعدادنا. كانت عشر ثوانٍ كافية له لإقناع نفسه بأنه لا نية لدينا لسرقة الألواح أو ثريات فيينا ولا المرايا الفينيسية، ولا حتى تمثال المرأة العارية العتيقة المنصوب أمام المدخل. على الرغم من أننا لو تفاوضنا بجدية حول مثل هذا الخيار، فمن المحتمل أننا كنا سنصل إلى *اتفاق*.

- هذا الرجل قادم من فرنسا، وهو كاتب، أضفت للفت انتباه حارس كاسا مونتيورو. أما أنا فأمضيت مئات ومئات الساعات من حياتي هناك، حيث كان المطعم والشرفة الخلفية.

بدا أن الرجل قدر هذا الاعتراف. ففي نهاية المطاف، عاملته أنا كإنسان في عالم ربما كان العديد من الأشخاص الآخرين ينظرون إليه بازدراء أو حتى يعتبرونه *ممسحة أرجل*. من الصعب أن نقول لماذا فات القطار الرأسمالي هذا الرجل، ولماذا لم يجد وضعًا أفضل في الحياة.

بالإضافة إلى أنه كان لا يزال صغيرًا، فقد فاجأته ثورة ١٩٨٩ وهو في العاشرة من عمره فقط...

- أجل، ولكنه الآن في حوزة ملاك جدد.

- أعلم ذلك، قلت وأنا أخرج المال من جيبي.

تنهد الرجل، ربما ليفهمنا أن وضعه لم يكن بسيطًا أيضًا. كان عليه أن يتجاهل تعليمات معينة، لكنه لم يجرؤ على التفاوض للحصول على بقشيش أفضل. فأخرج مجموعة من المفاتيح من جيبه، وفتح القفل، وفك السلسلة.

- شكرًا، قال غي، مربتًا على كتف الرجل الذي سمح لنا بسلوك الممر نصف الدائري لكاسا مونتيورو (حيث كنت أرى بشكل منهجي عربات تلك الفترة، التي لا تعود إلا في حضوري. كانت تدخل عبر البوابة الوحيدة المفتوحة، وتتوقف لثانية أسفل الدرجات وتخرج من البوابة التي اختفت في تلك الأثناء، تاركة وراءها الرائحة الجميلة للخيول).

- كان هناك أشخاص أمسِ، أوضح لنا الحارس المحبط، بطريقة تبرر موقفه. أخيرًا، وبما إنه فتح الباب بالفعل أمام الغرباء أمسِ، فقد أصبح تكرار هذه البادرة أقل خطورة.

انبهر غي كورتوا على الفور بالجو الرومانسي والمتهالك لواجهة المبنى. كنا سندخل إلى عالم آخر، في زمن آخر. تشكلت طبقة من الأوراق الجافة في المسار المرصوف بالجرانيت ونمت أعشاب الحديقة بما يكفي لتصبح أكثر شاعرية.

- أسلوب انتقائي خالص، هتف غي وهو يتفحص المدخل، والشرفة الواسعة المحاطة بصفين من الأعمدة المهيبة، والمصباحين الأرضيين الموضوعين على يمين ويسار الباب، كانت أشياء خيالية إلى حد ما ولكنها مفعمة بالذكريات القوطية الممزوجة بـ*الفن الحديث*.

- سأنير الأضواء ثم أترككما، قال لنا الحارس المتعجل ربما للعودة إلى مباراته.

من الواضح أنه لم تكن لديه أي مخاوف بشأننا. ما الضرر الذي يمكن أن نلحقه بهذا المنزل الذي كان تحت رعايته؟ على أية حال، كانت تسيطر عليه غريزة قفل السلسلة، لذلك لن نتمكن من الخروج دون مساعدته.

زار غي كورتوا العديد من القصور والمساكن والمنازل الغارقة في الذاكرة الثقافية، وقضى ساعات وساعات في المقاهي في جميع أنحاء أوروبا، مقاهٍ مليئة بالحياة وذات ماضٍ أدبي، لكنه لم يضع قدمه قط في مكان يحمل هذا البعد الدرامي مثل كاسا مونتيورو. شيء ما أخبرنا بأن الأشباح بدورها ستخلى من المبنى قريبًا. أما أنا فقد صادفت شبحي. رأيت نفسي هناك، في القاعة ذات الجدران الرخامية، تحت السقف الزجاجي المزخرف على الطراز الباروكي، وسط مجموعة من الكتاب المتحمسين. هل سيتم طردنا للأبد؟ كل ما ناقشناه هنا، كل ما قلناه بعضنا لبعض، كل صراخنا الداخلي، هل سيذهب كل شيء إلى الجحيم؟ نعم. كل هذه الجدران، كل هذه الأعمدة، كل هذه الألواح (الأخشاب المطعمة؟) من الأنواع النادرة، كل هذه المفروشات الحريرية، كل هذه الشمعدانات، كل هذه المواقد من خزف المايسين، كل هذه الوحدات

الخشبية المصقولة، كل هذه الستائر الضخمة ستفرغ من ذاكرتنا؟ نعم...

لم أستطِع إخفاء الحقيقة عن زملائي القلقين بشأن موت كاسا مونتيورو. رأيتهم جميعًا هناك، الوحوش المقدسة للأدب الروماني، والكتاب الرسميين المنسيين بالفعل، وحتى المخلوقات النقية في تلك الحقبة المعقدة... الآن، كان لدى الجميع ارتباط عميق بكاسا مونتيرو بطريقة أو بأخرى، ترك الجميع جزءًا من حياتهم هناك. كل هذه الجدران، وكل هذا الجص، والأسقف المغطاة، والأرضيات المصنوعة من خشب الجوز، والبيانو غير المتناغم مع القاعة، والأرائك والكراسي المريحة بإفراط، كانت مشبعة بالإيماءات والكلمات والأفكار والعجز والثورات الصامتة، والهمسات والمؤامرات، والقيل والقال والإدانات، من النكات والضحكات.

وبينما كان غي يصور المكان بهاتفه المحمول، حاولت أن أشرح له الغرض من كل غرفة. في الطابق الأرضي، على اليسار مباشرة مكاتب نواب الرئيس المتزامنين والمتعاقبين، وعلى اليمين المكتبة ومقابل غرفة الاستقبال الكبيرة التي كانت تضم المطعم. في الطابق الأول، مكتب الرئيس يسبقه مكتب سكرتيرته، وغرفة المرايا حيث كانت تعقد الاجتماعات الرسمية والغرف التي كانت تضم مجلة *سيكولول* ٢٠ الاستثنائية، ثم منشورات كارتيا رومانياسكا. من جانبها ضمت العلية كل أنواع المكاتب حيث كان حشد من السكرتيرات يطبعن النصوص على بعض الآلات الكاتبة الأكثر ضجيجًا وغرابة، إحداها، وكانت

بأحرف كبيرة جدًّا، مخصصة لبعض الوثائق الرسمية جدًّا والملحة جدًّا. الواقع أن كاسا مونتيورو عبارة عن متاهة حقيقية، حيث لم يكن من الممكن لأحد أن يخمن عدد المساحات والممرات والمباني الملحقة، كما لم يتمكن أي مار من الشارع من رؤية القبة الرائعة.

اختفت الطاولات والكراسي في المطعم، لكن الخزائن الجانبية الضخمة ظلت مستندة إلى الجدران، واحتفظ السقف المثبت بخشب الأكاجو بجوه الباعث على الأمان. نظر إليَّ غي بنوع من التعاطف، كما لو كان يقدم تعازيه لخسارة محققة لجزء من لماضي الذي عشته. نعم، هناك، في تلك المساحات التي بدت لي الآن صغيرة، تعرفت على أكثر الأشخاص إثارة للاهتمام في حياتي، وشاركت في أكثر المحادثات غنى. لو كنت مليارديرًا لحاولت شراء كاسا مونتيورو وتحويله إلى متحف شمع مخصص للشخصيات الأدبية. كنت سأعيد إنشاء مطعم اتحاد الكتاب تمامًا كما كان في منتصف الثمانينيات، عندما أصبح بيتي الثاني. وأول تمثال شمعي أضعه هناك سيكون للشاعر يوجين جيبيليانو. كنت سأجلس إلى طاولة بصحبة الشعراء والروائيين والنقاد من جيل الثمانينيات، مع يوجين سوسيو، وفلورين إيارو، وتريان تي. كوزوفي، مع إيان بودوكا، إيان غروسان، وسالين فلازي، مع ماغدالينا غيكا، ماريانا مارين وإيلينا شتيفوي... من بين الشخصيات البارزة في جيلي، كان من الممكن أيضًا أن يكون لفيلسوف مثل ميهاي شورا مكانته، وشاعرة وممثلة غزيرة الإنتاج مثل إيوانا كروتشيونيسكو أيضًا، وشاعر أنيق مثل فيرجيل مازيليسكو...

لم يكن من المنطقي نطق كل هذه الأسماء أمام غي كورتوا، أمام أجنبي لا يعرف سوى ثلاثة مؤلفين من الأدب الروماني: سيوران، ويونسكو، وإلياد. إلى جانب ذلك، تساءلت عن سبب رغبة هذا الفرنسي غريب الأطوار في زيارة المطعم السابق للكتاب الرومانيين. عن أية عواطف يبحث؟ أم إن متابعة فوضى مشاعري أنا هو ما كان يهمه؟

- لماذا أتينا إلى هنا يا غي؟

- حتى أتمكن من التعرف عليك بشكل أفضل.

أراد غي أن يتعرف عليَّ بشكل أفضل ووجد أن هذا الحج إلى بلدي الأصلي ذريعة مناسبة... حسنًا... منذ بعض الوقت، لم أعد أجد بعض تفسيرات غي معقولة. ألم يكن بيننا حديث منذ البداية عن اتفاق؟ ألم يعدني، في مرحلة ما، بجملة أولى أساسية، من المرجح أن تدفعني إلى جائزة نوبل؟ ألم يكن هذا هو السبب وراء انجذابي إليه، وإرسالي بعض الصفحات المتفرقة له، لمساعدته على التعرف عليَّ بشكل أفضل، ومعرفة المزيد عن ذخيرتي الأدبية؟

- هل التدخين مسموح هنا؟

نعم، ربما نعم... في الوقت الذي كنت أتردد فيه على مطعم اتحاد الكتاب، كان الجميع، الجميع بلا استثناء، يدخنون.

فجأة، وبينما كان غي يشعل سيجارته، خطرت ببالي فكرة بسرعة البرق. ماذا لو عرض عليَّ غي هذه الرحلة إلى الماضي، إلى أحد *الأماكن* الأكثر ارتباطًا بي، ليقدم إليَّ على وجه التحديد، وفي جو احتفالي إلى حد ما، هديته العظيمة، الجملة الأساسية العظيمة، هذه البداية الشهيرة

لرواية، التي وعد بها ولطالما تمنيتها أنا؟ لثانية واحدة، اقشعرت أعماقي من فكرة أن الافتتاح الذي طال انتظاره يمكن أن يكون «هل التدخين مسموح هنا؟» حيث طرح غي السؤال بنبرة معينة... أم أن فراغ هذه الغرفة ردد صدى هذه الكلمات القليلة بطريقة خاصة جدًّا في ذهني؟

- تعالَ ودعني أريك الشرفة في الخلف.

تبعني الرجل بهدوء، ودون أن يطرح عليَّ أية أسئلة. تم توسيع غرفة الاستقبال في كاسا مونتيورو، التي أصبحت، كما قلت، مطعمًا، بشرفة أرضية لعبت أيضًا دور الدفيئة. عندما بدأت المجيء إلى هنا يوميًّا، ضمت هذه الشرفة حانة حيث كان الكتاب يشترون السجائر أو العديد من المواد الغذائية «الجاهزة» (القهوة والكاكاو واللحوم المعلبة والجبن والفواكه الغريبة أحيانًا). وفي سنوات نقص المواد الغذائية، سنوات الثمانينيات، فتح الوصول إلى هذا البار نافذة على الجنة.

عبرنا الشرفة دون أن أخبر غي كورتوا كيف كانت تجلس هنا السيدة كاندريا، حارسة المؤونة الخاصة بالكتاب، خلف المنضدة. ما الفائدة من إخبار شخص غريب أن هذه الحديقة الشتوية كان يطلق عليها الجميع «حوض السمك» وأن الكتاب المشهورين من جيل الستينيات (من بينهم جورجي بيتوت، غريغور هاجيو، فيرجيل نيجويتا...) قد اعتادوا على القدوم إلى هناك؟

بمجرد حلول فصل الربيع في بوخارست، وحتى أواخر الخريف، ينتقل مطعم الاتحاد إلى الشرفة الموجودة في الجزء الخلفي كاسا مونتيورو، والتي تحميها بعض أشجار الدلب الباسقة. وما زالت الآثار واضحة،

مربع خرساني كبير وقفص حديدي حيث توجد الطاولة المحجوزة لـ يوجين جيبيليانو الذي تمتع دومًا بهذا الامتياز. أعاد هذا المكان أيضًا صورًا قوية، وقبلها، طعم أمسيات لا نهاية لها، أمضيتها في زاوية سرية من بوخارست، أمام عدة أكواب من الفودكا وفي مسرات المناقشات الأدبية التي لا تنتهي. وفي بعض الأحيان، عندما تشكلت مجموعات أكبر، كانت الطاولات تُدفع معًا في ثنائيات أو ثلاثيات، وكانت النكات تتدفق كما لو كانت قادمة من ينبوع حي. أوه، كم يمكن أن نكون رائعين، أذكياء، متألقين، بالمعنى الأكثر جذرية للكلمة، شعراء وكتاب جيل الثمانينيات - الذين يختلطون أحيانًا مع أجيال أخرى، حتى لو كان مصطلح «جيل» نفسه مثيرًا للجدل. على سبيل المثال، أثبت الناقد لورينتيو أوليسي أن الجيل لا يظهر إلا كل عشرين عامًا. ولذلك كان من المبرر الحديث عن «جيل ٦٠» و«جيل ٨٠» ولكن من الأفضل، من وجهة نظره، استخدام تركيب «فوج ٧٠» و«فوج ٩٠» للعشريات الكبيسة.

- وما هذا هنا؟

أراني غي بابًا مفتوحًا وسلالم تؤدي على الأرجح إلى قبو. كان لدى كاسا مونتيورو، في الجزء السفلي من الحديقة، مبانٍ ملحقة، حيث تقع الإسطبلات ومساكن الخدم بلا شك خلال سنوات المجد الأولى للقصر، عندما أصبحت مركزًا للحفلات والتجمعات الاجتماعية في بوخارست. لم تكن هذه الأماكن معروفة بالنسبة إليَّ، ولم يسبق لي أن زرتها من قبل، علاوة على ذلك، لم تكن متاحة للكتاب العاديين، وربما فقط لأولئك الذين ينتمون إلى الإدارة.

بدا الرجل مهتمًا جدًّا بهذه الحفرة التي تقود إلى المجهول، خاصة أنه في أسفل الدرج كنا نرى ظلًّا يتحرك في ضوء مصباح كهربائي.

- ربما كان هذا قبو النبيذ، أجبت غي، وتبعته إلى هذا القبو الرطب، سعيدًا باكتشاف أنه بعد سنوات عديدة، لا يزال لدى كاسا مونتيورو بعض الأسرار ليكشفها.

توقفت الدرجات على بعد بضعة أمتار تحت الأرض، ربما ثلاثة أو أربعة، وهو عمق مثير للإعجاب في الواقع، وانفتحت على ممر واسع إلى حد ما، مُضاء جيدًا وربما دافئًا لأن الشعور بالرطوبة اختفى على الفور. على طول الجدران، وعلى كلا الجانبين، كانت هناك أنواع من الصناديق الكرتونية المليئة بما بدا للوهلة الأولى أنه مخطوطات. في الواقع، هناك شخص ما يعمل في هذه المساحة المتفرعة في عدة اتجاهات، وكنت أسمع صوت تنفسه، وأحيانًا تذمره، بل وإطلاق كلمات بذيئة من وقت إلى آخر. هل كان الرجل الذي أكرمنا، وكان على استعداد مقابل ٥٠ يورو فقط لفتح أقبية كاسا مونتيورو أيضًا؟

أخرج غي كورتوا صفحة مغطاة بإشارات غريبة من أحد الصناديق ونظر إليها باهتمام، دون أن يفهم أية طريقة يمسك بها وما إذا كانت الإشارات مكتوبة من اليسار إلى اليمين أم العكس.

- ما هذا؟ سألني غي بعينين مليئتين بالإثارة.

- يبدو وكأنه رسم اختزالي ما، أجبت.

أخذ غي بضع صفحات أخرى من الصندوق نفسه.

- وهذه؟

- أيضًا.

في نهاية الممر، ظهر رجل عجوز حانق وقصير القامة، وكان يدفع بألم عربة من الصناديق، التي كانت مملوءة بلا شك برسومات يستحيل فك شفرتها. لا يبدو أن العجوز الضئيل كان متفاجئًا برؤيتنا. بل على العكس من ذلك، حدجنا بنظرة ودية، وكأنه كان ينتظرنا:

- هل أنتم من شبيغل؟ هل أرسلكم السيد غوتا؟

- أجل، رد غي على عجل، رغم أنه لم يفهم السؤال، وأخرج على الفور جهاز آيباد من الجيب الداخلي لمعطفه ليلتقط، بلا شك، صورًا ذات جودة أفضل.

أفرغ العجوز الضئيل صندوقين أو ثلاثة من عربته اليدوية ودعانا إلى اللحاق به.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- تعالوا وانظروا إلى هذا.

نظر غي إليّ منتظرًا توضيحًا.

لم تثِر حقيقة أنني أتحدث إلى غي بالفرنسية بينما كان ينبغي علينا التحدث باللغة الألمانية لأننا كنا من *شبيغل*، فضول العجوز الضئيل. كان لديه شيء ما في قلبه وأراد إفراغ ما في جعبته. قادنا إلى ممر طويل إلى حد ما وأخذنا إلى ما يشبه ملجأ من الغارات الجوية، غرفة مربعة، كبيرة بشكل مدهش ومضاءة جيدًا بمصابيح عديدة مثبتة بشكل غريب على الأرض وعلى طول الجدران. تساقطت من الأسقف كل أنواع الأسلاك الكهربائية الغريبة، والكابلات ذات الأحجام والألوان المختلفة. بدا وكأنها مبتورة بيد سادية، أو كما لو أن شخصًا ما مر جانبها بمقص

ضخم وقام بقطعها على عجل، مع رغبة في إخفاء أطرافها. بدت الجدران وكأنها تعرضت لطلقات مدفع رشاش، أو ربما تم حفر كل هذه الثقوب الصغيرة لاستخراج شيء ما، أو أشياء صغيرة أو حتى منظومات سرية.

- لقد عملت هنا. قال العجوز الحانق. نحن موجودون بالضبط تحت غرفة المطعم. هذا هو المكان الذي قمنا فيه بتركيب جميع الميكروفونات.

تحدث العجوز الضئيل بسرعة كبيرة، ومن وقت إلى آخر كان عليَّ أن أوقفه حتى يكون لديَّ الوقت لترجمة كل شيء لغي. كان نظام الاستماع بدائيًّا ومتطورًا في الآن نفسه. كانت الميكروفونات الأولى المستخدمة سوفييتية الصنع، وتطلب تركيبها في السقف والجدران كثيرًا من الخبرة والسرية. ولكن في وقت لاحق، عندما بدأ تشاوشيسكو في شراء *الصناعة* من الغرب، قام بتزويد أجهزة مخابراته السرية بميكروفونات مصغرة أكثر تطورًا. كان بعضها عبارة عن ملصقات صغيرة، وكان لها شكل ختم أو ملصق ويمكن لصقها في أي مكان، على كرسي أو طاولة أو خزانة. لكن في السبعينيات والثمانينيات، لم تكن المشكلة الكبرى هي الاستماع إلى المعلومات بل تخزينها...

كشف لنا العجوز ممرًّا آخر ربما كان يؤدي إلى أسفل شرفة اتحاد الكتاب ولكنه انتهى فجأة عند جدار، أو بالأحرى كان مغلقًا في وقت ما بأمر من شخص ما. حسنًا، يعود تاريخ الجدار إلى ربيع عام ١٩٨٩. في ذلك الوقت بدا أن هذه الأجهزة شعرت بأن شيئًا ما كان يحدث،

وأن تغييرًا ما سيحدث، فأوقفت التنصت على المكالمات الهاتفية. هل كنا نعرف إلى أين سيقودنا الممر؟

لا، لم نكن نعرف ذلك...

حسنًا، كان هذا الممر يؤدي إلى مستشفى دافيلا الذي كان مجاورًا لاتحاد الكتاب. هناك خمس أو ست ممرضات يعملن في قسم الأمراض المعدية هناك. منذ أن عملن في هذا القسم، كان لديهن مدخل منفصل قبل اختفائهن في متاهة المستشفى. لم يعد أحد يراهن خلال النهار ولا أحد يعرف بالضبط ما الذي كن يفعلنه في المكان. في الواقع، قامت هؤلاء النساء بنسخ التسجيلات. عمل ضخم وعملاق. كانت «الممرضات» الخمس أو الست في الواقع كاتبات اختزال موهوبات جدًّا. ما أدركنه كان مذهلًا، لقد استمعن إلى الأشرطة وسجلن *المهم* في أحاديث الكتّاب: النكات السياسية، والتلميحات، والقصص المضحكة، والقيل والقال، والاعترافات، والمفارقات، والتعليقات التي حملت انتقادات بين السطور، الهراء الذي قيل بين السكارى... تم نسخ كل شيء، وأصبح نصًّا وتم تخزينه في ملف. ولكن مع بداية فترة التقشف الكبير في الثمانينيات، حُرمت *الخدمة* من أجهزة التسجيل.

- يا له من زمن بئيس! هتف العجوز الضئيل. أخبر السيد بأنه لم يعد في إمكاننا وقتها العثور على أية قهوة أو سجائر أجنبية أو زبدة أو زيت أو لحم... وكذلك الأشرطة، فكان علينا إعادة تدوير نفس الأشرطة المغناطيسية طوال الوقت. ولكي نتمكن من إعادة تدويرها والتسجيل عليها، كان لا بد من نسخها

بسرعة كبيرة، لاستخدامها. أي عمل هذا! أي عمل هذا!

فتح لنا العجوز الحانق بابًا يؤدي إلى ما يشبه المستودع، حيث كانت هناك عشرات من أجهزة التسجيل الكبيرة، ربما كانت سوفييتية الصنع، مكدسة بعضها فوق بعض بلا مبالاة. ولا يزال بعضها يحتوي على مكبات بلاستيكية، ولكن ربما تمت إزالة الأشرطة وتدميرها.

- تفضلا، هذه أيضًا للبيع، إذا كنتما تريدانها.

ارتسم على وجه غي تعبير واضح عن السعادة الغامرة، وقد سجل كل هذه المعلومات بحماسة مرضية تقريبًا. طلب مني أن أسأل العجوز عن إمكانية توفره على الملفات «مع النسخ»، لأنه كان على استعداد لشراء أي منها واقتراح سعر جيد.

لا، لسوء الحظ لم يتمكن العجوز الصغير من إعطائه النسخ التي يريدها. تم إتلاف جميع الصناديق التي تحتوي على ملفات قابلة للقراءة أو إيداعها في مكان ما، من يعرف أين... لم يتبقَّ منه سوى ملفات/*المجنونة*.

ومن كانت/*المجنونة*؟

كانت/*المجنونة* تدعى السيدة ماسيك، وربما كانت كاتبة الاختزال الأكثر موهبة على الإطلاق. في السنوات الأخيرة من الشيوعية، وبسبب نقص الأشرطة المغناطيسية وخاصة بسبب تآكلها بسبب إعادة تدويرها، عرضت السيدة ماسيك «الخدمات» بطريقة مباشرة. وبعبارة أخرى، فقد اقترحت اختزال ما قيل على الطاولات المختلفة مباشرة من خلال الاستماع إلى المحادثات المقصودة في سماعة الرأس. نعم، كانت السيدة ماسيك قادرة على فعل شيء مذهل، فبسرعة غير عادية، تمكنت

من اختزال الحوارات ليس بين شخصين أو ثلاثة أشخاص فحسب، بل أيضًا بين خمسة أو ستة أشخاص في الوقت نفسه. حدثت مشكلة لأن السيدة ماسيك اخترعت نظامًا شخصيًا لتدوين الملاحظات كسبًا للوقت. ما يعني أنها كانت أيضًا تقوم خلال ساعات إغلاق المطعم بالنسخ الثاني على شكل نص متماسك.

أشار العجوز إلى عشرات الصناديق الكرتونية المصطفة على طول الممر:

- لم يأخذ أحد هذه، من يستطيع فهم اختزالاتها على أية حال؟ ولم يكن لدى السيدة ماسيك الوقت الكافي لنسخها...

شعر غي كورتوا بقشعريرة تسري في عموده الفقري. كيف احتوت كل هذه المئات من الصفحات، وهذه الآلاف من الأوراق، على كلمات قالها الكتّاب؟ العبارات والمحادثات والأفكار والعواطف التي شعر بها الكتّاب وعبّروا عنها؟

نعم. كان العجوز الضئيل الحانق واضحًا. تمثل هذه الصناديق كنزًا تاريخيًّا. إنها كنز من الأفكار. من المؤسف أنها ستظل إلى الأبد على شكل علامات صامتة.

- كيف ذلك! صاح غي كورتوا. هناك متخصصون في فك الرموز، حتى الكتابة المسمارية تم فك رموزها في النهاية، والهيروغليفية المصرية أيضًا...

ربما تم العثور على سر الحروف الهيروغليفية، لكن مفتاح اختزال السيدة ماسيك ضاع إلى الأبد.

ماذا عن السيدة ماسيك؟ ماذا حدث للسيدة ماسيك؟

ماتت عند اندلاع الثورة. أصيبت برصاصة في الرأس في بياتا بالاتولوي.

بدا العجوز الضئيل الحانق وكأنه على وشك الاختناق من فرط السخط. ما الذي قاد هذه *الغبية* إلى الذهاب أمام القصر في خضم المظاهرات؟ هي التي كانت تعمل لحساب السيكوريتات! والتي نقلت أحاديث الكتاب إلى أجهزة المخابرات المسؤولة عن قمعهم!

بدأ العجوز في السعال من شدة الاستياء القابع في أعماقه، ولم يتمكن من السيطرة عليه لعدة دقائق. لكنه أفلح في إيقافه أخيرًا بعد أن أخرج من جيبه علبة صغيرة تحتوي على علكة، وأخذ واحدة.

- ما يدور في أذهان البشر شديد التعقيد. تنهد قائلًا. لم تكن السيدة ماسيك بهذه البساطة... هل سنتمكن يومًا ما من معرفة ما يدور في أذهان البشر؟

بدأ غي بمقارنة بضع صفحات من نفس الحزمة. قام بتفحصها بعناية، بحثًا عن علامات قد تعطي فكرة عن المنهج الذي اتبعته السيدة ماسيك. في نهاية المطاف، الكلمات تتكرر في أفواه الناس، ولم يكن هناك سبب يمنع أن ينعكس هذا *التكرار* في نظام التصنيف الذي اخترعته هذه المرأة. بعد مسح حوالي عشرين صفحة، قال لي غي بصوت مرتعش:

- إنها *طاقة خالصة*... لم تكتب المرأة إشارات... كلا. لقد كانت، ببساطة، تنقل الطاقة اللفظية. كانت تعمل مثل جهاز قياس الزلازل... لقد اخترعت السيدة ماسيك بالتأكيد شكلًا جديدًا

من أشكال الكتابة. ولا يستبعد أن تكون هذه كتابة المستقبل. ما فعلته في الواقع هو مسح الأصوات ثم إلحاقها بشكلها المرسوم.

(٦٩)

ذات صباح، وبينما كان ينظف أسنانه متكئًا على حوض الغسل في الحمام، في تمام الساعة السادسة و٣٧ دقيقة صباحًا، أدرك السيد بوسبيب أنه خنزير. اكتشف ذلك بسبب المياه، أو بالأحرى الصنبور الذي استمر في التدفق بينما كان يدفع فرشاة أسنانه ليفرك بإصرار، كعادته، المناطق *البعيدة* في فمه.

اكتشف السيد بوسبيب أنه كان *يهدر* المياه لسنوات وعقود. أطنان من المياه. كانت لديه عادة سيئة تتمثل في تنظيف أسنانه مرتين في اليوم، صباحًا ومساءً، وترك الماء يجري بلا انقطاع. وفي بعض الأحيان كان السيد بوسبيب ينظر إلى نفسه في المرآة أثناء عنايته بنظافته الشخصية، مستمتعًا برؤية فمه منتفخًا والرغوة البيضاء تتفتح في زوايا شفتيه. وهذا يعني مضاعفة الهدر، لأن لحظات الإلهاء هذه تزيد من وقت تنظيف الأسنان بالفرشاة.

أنا خنزير، قال السيد بوسبيب لنفسه. عندما يعاني العالم كله من نقص المياه، وفيما ستكون المشكلة الكبرى في هذا القرن في الشرق

الأوسط هي المياه لا الحروب، أترك أنا، بتكاسل خنزير سمين، عشرات اللترات من المياه تتدفق يوميًا بلا فائدة.

أغلق السيد بوسبيب الصنبور على الفور، واستمر في فرك أسنانه والنظر إلى نفسه في المرآة. نعم، لقد صار الوقت مناسبًا، في سن الخمسين، لأن نكون أكثر انتباهًا لمشاكل العالم. وهو ما يعرفه لأنه كان يستمع إلى الراديو كل يوم، ويقرأ الصحيفة ويتابع برنامجين إخباريين تلفزيونيين على الأقل كل مساء. بدأ دافع قوي، بصبغة وعي مدني، ينمو في قلب السيد بوسبيب. فتح الصنبور مرة أخرى، جفف فمه، وكذلك فعل الشيء نفسه بالفرشاة. نعم، من الآن فصاعدًا سيكون أكثر انتباهًا. *سيختار* الاستحمام السريع وليس ساعات وساعات من التقلب في حوض الاستحمام المملوء بالكامل. كانت أمام عينيه صور لمخيم للاجئين في نيجيريا حيث كان الآلاف من الماليين يصطفون للحصول على زجاجتين أو ثلاث زجاجات من المياه لكل منهم. يا له من عار، يا له من عار، كلنا خنازير! هتف السيد بوسبيب في أعماقه، موسعًا اللوم إلى الغرب بأكمله.

متحركًا بدافع لم يحسب أنه قادر عليه أبدًا، جلس السيد بوسبيب إلى الطاولة ومعه ورقة وقلم. قام بتشغيل آلة صنع القهوة لإعدادها، وأخرج علبة زبادي من الثلاجة ليتكيف مع درجة حرارة الغرفة، وبدأ في تعداد مشاكل العالم.

يجب أن أكون أكثر انتباهًا لكل ما يحدث حولي، قال السيد بوسبيب لنفسه مرة أخرى. يجب ألا أسمح تحت أي ظرف من الظروف للمجتمع الاستهلاكي بتحويلي إلى مجرد *مستهلك*. لا، يجب عليه أن

يظل *مواطنًا*، أيْ شخصًا يفكر ويتصرف، وليس مستهلكًا مطيعًا دجنه النظام التجاري بشكل كامل.

بدأت آلة صنع القهوة في الغليان، علامة على أنها أنجزت مهمتها. ملأ السيد بوسبيب نصف كوبه، وأضاف قليلًا من الحليب، ووضع نصف ملعقة صغيرة من السكر فوقه، وبدأ يخلط كل شيء بصبر. ما هي مشاكل العالم إذن؟ اعتبر السيد بوسبيب أن المياه مشكلة خطيرة، ولكنها ليست ملحة بما يكفي لتحتل المرتبة الأولى. ومن دون أن يسأل عن السبب، كان السيد بوسبيب في حاجة إلى تسلسل هرمي واضح للتركيز بفعالية في مشاكل العالم. ثم كتب في أعلى الورقة الرقم واحد ومقابله كلمة: التلوث. نعم، كان التلوث مشكلة عامة وملحة ولها تداعيات عديدة. أخذ السيد بوسبيب رشفة من القهوة وبدأ بدهن قطعة من الخبز بالزبدة. ما هي المشكلة التي ستحل في المرتبة الثانية؟ وهو يتناول خبزه المدهون بالزبدة ويتناول رشفة أخرى من القهوة، عثر السيد بوسبيب على الإجابة بشكل طبيعي تقريبًا: المجاعة. لم يكن الكوكب قادرًا على إطعام جميع السكان، وهذا أمر مخجل. لقد أنفق الأمريكيون طوال عقدين من الزمن أموالًا طائلة على حروبهم المؤسفة في أفغانستان والعراق، في حين كان في إمكانهم بهذه الأموال القضاء على المجاعة في العالم وإنشاء شبكة توزيع عالمية للمنتجات الأساسية، وتمويل النشاط، الطوعي في بعض الأحيان، لآلاف من المنظمات غير الحكومية. نعم، من العار الفادح أن يكون جزء من البشرية يعاني من الجوع في هذا الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، لذلك أضاف السيد بوسبيب الرقم اثنين تحت

الرقم واحد ووضع إلى جانبه كلمة: المجاعة. لكن المعلومات التي بثتها الإذاعة قبل أيام قليلة لمعت في ذهنه؛ كان عدد الأشخاص الذين يعانون من السمنة أكبر من عدد الذين يعانون من الجوع في كوكب الأرض، ومن المفارقة أن السمنة قد بدأت تؤثر في سكان البلدان الأكثر فقرًا وبلدان العالم الثالث، بما يفوق البلدان المتقدمة. وذلك لإرسال أرخص الأطعمة إلى الفقراء، وأيضًا الأطعمة ذات الجودة الأسوأ، قنابل غذائية حقيقية مشبعة بالدهون والسكر والملح، أطعمة ومشروبات غازية غادرة تتسبب في الإدمان وتنفخ أجساد الناس بلا داعٍ.

يا لها من حقارة، يا لها من حقارة. هل يمكنه تغيير الترتيب ووضع السمنة أولًا؟

فتح السيد بوسبيب وعاء الزبادي *العضوي* ونظر للحظات قليلة إلى هذه الكتلة المدمجة *البيضاء*، باعتبارها مصدرًا للكالسيوم والحيوية. تفحص تاريخ انتهاء صلاحية الزبادي وتركيبته، وأومأ برأسه كما لو كان أمام محاور ما، وتناول بضع ملاعق من المادة *النقية* الموجودة في الوعاء وابتسم في أعماقه. بدا أن بياض الزبادي وبياض الورقة متناغمان... لم يستطِع السيد بوسبيب أن يكبت شعورًا بالفخر. هكذا، ولأول مرة، شعر وكأنه مواطن *واعٍ* في هذا العالم، ورجل *منخرط*. لقد أيقظه قراره بوضع قائمة بمشاكل العالم من سباته. والآن، وعد السيد بوسبيب نفسه بأنه لن سمح لنفسه *بالنوم* مرة أخرى.

وفي لفتة شجاعة، يغذيها ضمير يقظ، وضع السيد بوسبيب الرقم ثلاثة في ورقته وكتب إلى جانبه: السمنة.

أخذ بضع رشفات أخرى من القهوة، وبسرعة أملتها دفقة من الإلهام، أضاف الرقم أربعة وقال: الأصولية. نعم، لم يكن هناك شك في ذلك، فالأصولية الدينية كانت تمثل مشكلة كبيرة أخرى في العالم المتحضر، وكانت أوروبا في خط المواجهة الأول مع أشكال معينة من التعصب لا يمكن التنبؤ بها. ولتوضيح النقطة الرابعة، أضاف السيد بوسبيب بين قوسين: الإرهاب، وتلقين الأفكار عبر الإنترنت، والتعصب. وفيما يتعلق بالمصطلح الثالث، لم تكن لدى السيد بوسبيب أفكار واضحة جدًّا، لكن الكلمة نفسها أعجبته، فهي كريمة ويتردد صداها بشكل جيد. على أية حال، فهذا الترتيب ليس نهائيًّا، والمهم هو تحديد المشاكل الكبرى، ثم سيأتي الوقت المناسب للعمل على ترتيبها.

وبجانب الرقم خمسة (على الرغم من أنه ربما يستحق أن يوضع في مرتبة أعلى)، كتب السيد بوسبيب: المخاطر النووية. ثم وبسرعة جعلته معجبًا بنفسه، أكمل القائمة إلى عشرة: تهريب المخدرات، الدعارة، استغلال الأطفال، الإيدز، الأمية.

صار لحياتي معنى، هكذا فكر السيد بوسبيب وهو ينظر إلى النقاط العشر الموجودة على الورقة. سكب لنفسه نصف فنجان آخر من القهوة، وخففها بالقليل من الحليب، وحلاها بنصف ملعقة صغيرة من السكر. حان الوقت الآن لإشعال سيجارة. التقط أول مارلبورو في ذلك اليوم من العلبة وسحب نفسًا عميقًا. ما الذي يستحق مكانه إلى جانب الرقم أحد عشر؟ وبعد دقيقة من التأمل ونفثتين طويلتين، كتب السيد بوسبيب: الطاقة. نعم، سوف تشكل الطاقة تحديًا آخر كبيرًا لهذا القرن،

وخاصة في سياق استنزاف الموارد النفطية. وقد بدا واضحًا تزايد عدد البرامج الإذاعية والتلفزية التي تهدف إلى تعريف المواطنين بتقنيات توفير الطاقة. وأصر الخبراء على اتخاذ إجراءات بسيطة تدعو أولًا إلى عدم إهدار الطاقة دون داعٍ، وشراء مصابيح منخفضة الاستهلاك، وتذكر إطفاء النور عند مغادرة الغرفة، والتحول إلى السيارات الكهربائية أو الهجينة، وتركيب الألواح الشمسية على أسطح المنازل، وهكذا...

إلى جانب الرقم اثني عشر، طرح موضوع الرمال نفسه بقوة. نعم، البشرية تواصل البناء أكثر من اللازم، وقد ابتلعت مواقع البناء الضخمة في آسيا ومنطقة الخليج العربي مليارات ومليارات الأطنان من الرمال. كان التقرير الذي شاهده السيد بوسبيب على شاشة التلفزيون حول هذا الموضوع مرعبًا: يدمر الكوكب شواطئه وسواحله لصنع الخرسانة ومونة الأسمنت. وفي إندونيسيا وحدها، اختفت خمس وعشرون جزيرة لتوفير الرمال اللازمة للبناء في سنغافورة. ولم يخطر ببال الجمهور الواسع أن بناء منزل يبتلع مئتي طن من الرمال، ومستشفى ثلاثة آلاف طن، وكيلومتر من الطريق السريع، ثلاثين ألف طن، ومحطة للطاقة النووية اثني عشر مليون طن... أما أولئك الذين يعتقدون أن الصحراء الكبرى يمكن أن تزود جميع مواقع البناء في العالم بالرمال إلى ما لا نهاية فكانوا على خطأ لأن رمال الصحاري لا يمكن استخدامها في البناء. مرة أخرى، شعر السيد بوسبيب بالفخر لأن الفكرة بدت له أقرب إلى التجلي، فوضع إلى جانب الرقم اثني عشر: الرمال.

- سيد بوسبيب! ماذا تفعل؟ أنت لم تقم بإخراج القمامة بعد.

انتفض الرجل الذي كان يكتب قائمة مشاكل الإنسانية واندفع نحو الباب. فتحه وحيا السيدة بورداز، صاحبة عدة شقق في المبنى وربما نصفها، ببرود:

- صباح الخير يا سيدتي. كنت على وشك المغادرة...

- كن حذرًا، لقد بدأت تمطر مرة أخرى.

- انتبهت إلى ذلك بالفعل.

انحنى السيد بوسبيب وداعب الكلبة الصغيرة بيكسي، التي تصطحبها السيدة بورداز لقضاء حاجتها الضرورية الأولى في اليوم.

- وكيف حال بيكسي؟ هل هي سعيدة؟ هل أنت ذاهبة للنزهة؟ هل ستذهبين في نزهة قصيرة؟ هيا، قبلة صغيرة لـ بوسبي... هل تمنحين بوسبي قبلة صغيرة؟

هزت الكلبة الصغيرة ذيلها، ولعقت لحية بوسبي منتظرة بوضوح بضع كلمات تقدير.

- أحسنت بيكسي. أحسنت... أحسنت، أحسنت. هيا، اذهبي لقضاء حاجتك.

تأثرت السيدة بورداز، ومنحت بوسبيب نظرة مفعمة بالامتنان.

- هذا لأنكما تعرفان بعضكما بعضًا منذ فترة طويلة... كما أنها لا تعبر عن مشاعرها لأيٍّ كان، علقت السيدة بورداز، وهي تفتح مظلة ضخمة قبل الخروج إلى الشارع.

وبحركات أكثر يقظة من المعتاد، قام السيد بوسبيب بنقل حاويات

القمامة العشر المملوءة عن آخرها من فناء المبنى إلى الرصيف. مهلًا، قال لنفسه وهو يسحب الحاويات الخضراء، هناك اثنتا عشرة حاوية، مثل عدد المشاكل الموجودة في القائمة. ضحك في أعماقه، فلا معنى لهذه الصدفة بالتأكيد، لكنها ألهمته العودة إلى مهمته الأساسية الجديدة، واستكمال القائمة.

بعد غسل يديه (تحت تيار ماء أقل قوة قليلًا من المعتاد)، جلس السيد بوسبيب إلى طاولة مطبخه أمام ورقته البيضاء.

الواقع أن القمامة مشكلة أخرى تواجهها الإنسانية. وفي ظل انغماسها الصناعي المحموم، أنتجت البشرية كميات هائلة من السلع ولكنها لم تمتلك بعد التكنولوجيا اللازمة لإدارة النفايات بشكل شامل. كانت النفايات النووية مشكلة منذ فترة طويلة، ولكن هذا ينطبق أيضًا على النفايات الصناعية والبشرية. وما تزال في ذهن السيد بوسبيب صور نابولي، حيث تصطف القمامة التي لم تتم إزالتها، على العشرات من الكيلومترات بطول الشوارع. أصبحت البحار والمحيطات الكبرى في العالم بمثابة سلة قمامة ضخمة، وكانت المعلومات المتعلقة بكمية النفايات التي جرفتها الأمواج إلى قاع البحر مرعبة. ناهيك عن النفايات الفضائية التي كانت تدور حول الأرض. شكلت المليارات من بقايا الأقمار الصناعية (النفايات الدقيقة) بالإضافة إلى ملايين الشظايا الأكبر حجمًا، وبعضها مشع، مكبًّا كونيًّا حقيقيًّا يدور حول الأرض. اختار السيد بوسبيب تعبيرًا له دلالته لوصف هذا الواقع: لقد ذكر أحدهم مفهوم «الخذوف النووي» خلال مناظرة تلفزيونية. لأن هذه النفايات،

التي تشكل بعضها نتيجة إطلاق الصواريخ والأقمار الصناعية، لم تكن مشعة فحسب، بل كانت معرضة لخطر العودة إلى الأرض، والسقوط على رؤوسنا، والاصطدام بالمباني ورياض الأطفال، وخنق المدن بتحولها إلى أمطار سامة.

وبدون تردد أضاف السيد بوسبيب الرقم ثلاثة عشر والكلمات: قمامة، نفايات صناعية، نفايات بحرية، نفايات فضائية.

تذكر السيد بوسبيب أن إحدى الحاويات الموجودة في فناء المبنى كانت مخصصة فقط للورق والكرتون، فأشار إلى النقطة الرابعة عشرة: اختفاء الغابات. لأن ما كان يحدث لغابات الأمازون المطيرة مشكلة عالمية. بغبائهم المعتاد، حوَّل البشر جميع الغابات في العالم إلى ورق، يتخلصون منه فيما بعد. الواقع أن السيد بوسبيب قرأ بالفعل مقالًا عن هذا الخطر الفظيع، وهو أن الكوكب مهدد بفقدان إحدى رئتيه، غابة الأمازون التي توفر كمية هائلة من الأكسجين الضروري للأرض.

ومع تزايد قائمة المشاكل، أصيب السيد بوسبيب بالذعر. فهل يستطيع بقواه الضعيفة أن يواجه كل هذه *الطوارئ*؟ هل كانت لديه القدرة على التفكير فيها كلها وبشكل دائم في الآن نفسه؟ وبأية طريقة كان ينبغي له أن *يتدخل* بشكل ملموس؟ كيف؟ ومع من؟

مسح السيد بوسبيب العرق عن جبهته (نعم، لقد بدأ يتعرق من جراء التركيز) وسكب لنفسه بضع قطرات من القهوة، رغم أنها بردت بالفعل. شرب السائل دون تحليته هذه المرة، كان في حاجة إلى مرارة ما في فمه، ليتمكن من مواصلة التفكير في مشاكل الإنسانية.

خمسة عشر: انقراض التنوع البيولوجي. نعم نعم نعم. الإنسانية عمياء، وغبية، وغير مبالية بهذه الظاهرة - وهي انقراض أنواع كاملة من الحيوانات وأنواع مختلفة من النباتات. وفجأة، تفاعل دماغ السيد بوسبيب عبر استعادة معلومة كان قد استوعبها في وقت ما، ربما قبل بضعة أشهر أو حتى قبل عامين أو ثلاثة أعوام: كل يوم يختفي مئة وخمسون نوعًا من النباتات والحيوانات من الكوكب. بهذا المعدل، وفي غضون بضع مئات من السنين، سيجد الوحش المسمى الإنسان نفسه وحيدًا على كوكب الأرض، ربما سيكون محاطًا ببعض الحيوانات الأليفة (ربما مثل الكلاب من صنف بيكسي) وربما بضع عشرات من أنواع نباتات الزينة (ورد مراسم الزفاف وأشجار أعياد الميلاد).

ستة عشر: مشكلة النحل، وهي مرتبطة منطقيًّا بالمشكلة السابقة، ولكن لا يمكن اعتبارها مشكلة فرعية، لأن مصير الحياة على الأرض يعتمد عليها بكل بساطة. على مدى السنوات الثلاث أو الأربع الماضية، شاهد السيد بوسبيب عدة برامج إذاعية، وقرأ عدة تقارير عن خطر انقراض النحل، وهي كارثة خطيرة، لأن النحل يضمن التأبير... هل يعلم الناس أن ثلث الغذاء الذي يستهلكونه يعتمد على التأبير الذي يقوم به النحل؟ وأن هذا النحل الصغير والشجاع، كان يختفي بالملايين، وبطريقة غامضة أحيانًا، لكن بالتأكيد بسبب الاختلالات الطبيعية التي يتسبب فيها الإنسان؟ لا، فالإنسان الغبي والمتكاسل لا يعرف هذه الأمور، ما أزعج السيد بوسبيب وجعله يسطر على النقطة السادسة عشرة مرتين.

سبعة عشر: التصحر. شعر السيد بوسبيب ببدايات صداع وهو يفكر في عدد المخاطر التي تواجهها البشرية في الآن نفسه. خاصة وأن النقاط الأربع الأخيرة اجتمعت معًا، مثل فرسان نهاية العالم الأربعة. كانت النفايات، واختفاء الغابات، وانقراض النحل وآلاف الأنواع الأخرى من الحيوانات والنباتات، فضلًا عن الزحف المتواصل للصحاري مشاكل *مرتبطة* بعضها ببعض. كما لو كانت تتصرف في إطار *عصابة منظمة*، قال لنفسه. ويبدو أن أربعين في المئة من سطح الكوكب مهدد بالتحول إلى صحراء قاحلة، وأن حوالي مئة دولة تتأثر بهذه الظاهرة، وأن ملياري شخص يرتعدون خوفًا من *التصحر*.

من أين حصل السيد بوسبيب على هذه الأرقام؟ لم يحر السيد بوسبيب جوابًا. هل تغير عقله خلال الثلاثين عامًا التي قضاها في العمل كبواب؟ من المؤكد أن طبيعة المهمة والدور دفعا السيد بوسبيب إلى تعلم المراقبة وعدم نسيان أي شيء. فبشكل غريزي، كان يتذكر كل شيء، ويعرف كل شيء عن كل ساكن في المبنى. كان يعرف، على سبيل المثال، الوقت الذي يستيقظ فيه كل واحد منهم، ومتى يقوم كل منهم بالتسوق وتناول وجباته. على الرغم من أن المبنى كان عازلًا للصوت بشكل جيد، فإن السيد بوسبيب كان قادرًا على سماع الكثير من الضجيج والأصداء، والأصوات والخدوش، والهمسات والتنهدات، والآهات والأصوات المكتومة... وربما *تطورت* أذناه أيضًا إلى درجة قدرتهما على استقبال أي شيء، ثقبان أسودان يجمعان الأصوات. كان في إمكان السيد بوسبيب أن يتذكر، مع الحد الأدنى من هامش الخطأ، ما كان يشاهده كل مستأجر

على شاشة التلفزيون بين الساعة السابعة مساءً والواحدة صباحًا. كان يعرف جيدًا جدول بروفة السيد كونتز، عازف الساكسفون، وكان في إمكانه سماعه حتى عندما يفك رموز مقطوعاته الموسيقية. لقد راقب منذ فترة طويلة الأخوين بروشنر اللذين لم يكونا متشابهين على الإطلاق واللذين، كانا يغادران بشكل منفصل، منذ صغرهما، حتى عند ذهابهما إلى المدرسة. فيكتور أولًا ثم شقيقه الأصغر. كان يحفظ كل حركات الآنسة ماتيلد، طائشة لكنها مخادعة، تعشق دومًا الأشخاص الغامضين، الذين يبدو أن التنبؤ بأفعالهم أقرب إلى المستحيل، ولكنها في الواقع مصممة في بحثها عن أشكال راقية من النشوة. وكان يسمع أيضًا السيد غوتا، في العلية، يكتب على آلة كاتبة كورونا قديمة، والنافذة مفتوحة دائمًا، حيث يدخل الحمام من خلالها إلى الغرفة أحيانًا...

نعم، لقد درب السيد بوسبيب ذاكرته بمرور الوقت، ولهذا السبب ربما أصبح قادرًا الآن على سرد المشكلات الرئيسية في العالم، بتفصيل كبير، واستنادًا إلى الأرقام.

بعد أن تخلى عن إشعال سيجارة أخرى (ثاني مارلبورو في اليوم) لأن التدخين كان مشكلة خطيرة وعالمية، واصل السيد بوسبيب تحرير قائمته.

ثمانية عشر: الحرب في الشرق الأوسط. وأضاف السيد بوسبيب بين قوسين: الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. نعم، من الواضح أن هذا الصراع كان يسمم العلاقات بين الغربيين والعالم العربي، ومن الواضح أنه أصبح مصدرًا لعدم الاستقرار العالمي، ومن الواضح أنه يحتوي على

بذور حريق عالمي جديد بالإضافة إلى خطر الهجمات النووية... منذ أول عهده بالطفولة، اعتاد السيد بوسبيب على سماع المزيد من المعلومات كل يوم حول هذا الصراع (والتعامل معه أحيانًا من منظور جهود السلام). منذ ولادته، كان هناك خبر واحد على الأقل يوميًّا، بطريقة أو بأخرى، سواء في الراديو أو التلفزيون أو الصحافة، يدور حول «الصراع الإسرائيلي الفلسطيني». وسواء أراد ذلك أم لا، تشرب السيد بوسبيب كل هذه الأخبار، مئات المعلومات الفنية والجغرافية والثقافية والعسكرية المرتبطة بهذا الصراع ترسبت في دماغه. عادة، كان ينبغي على كل مواطن على هذا الكوكب أن يبذل جهدًا لحل هذا الصراع. ربما لو حاولنا القيام بشيء ما، في الوقت نفسه، فسننجح... فكر السيد بوسبيب. ماذا؟ لقد حاول جميع رؤساء الولايات المتحدة وجميع رؤساء الدول والحكومات الأوروبية تقريبًا اقتراح شيء ما، للعمل كوسطاء لحل هذا الصراع الذي ظل *كبيرًا* وفريدًا من نوعه ومستمرًا. بطبيعة الحال، اندلعت حروب أخرى، في كل أنحاء الأرض، خلال الخمسين سنة الأخيرة، بعضها كان طويلًا ومرهقًا... خمسة عشر عامًا من الحرب الأهلية في لبنان، وثماني سنوات من الحرب بين إيران والعراق، وأكثر من خمسة وعشرين عامًا من الحرب الأهلية في أنغولا، والصراع مع المتمردين الماويين في كولومبيا الذي استمر لمدة نصف قرن تقريبًا... ولكن لا يمكن *مقارنة* أي من هذه الصراعات بالصراع الإسرائيلي الفلسطيني. أولًا، لأن كل ما عداها أصبح، في لحظة معينة، صراعات منسية أو فقدت زخمها. الصومال، السودان، التبت... بالنسبة إلى السيد بوسبيب، فكل هذه الأسماء مرادفة تمامًا للنسيان، ودخلت مرحلة الكسوف في وقت كان

من المفترض أن تعني عادةً سكان الكوكب بأكمله. ولكن لا، فمن بين كل انفجارات العنف التي شهدتها الإنسانية على مدى العقود السبعة الماضية، كان الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وحده هو الذي يستطيع أن يتباهى بـ*انتصار* إعلامي دائم لا جدال فيه.

سأرى ما يمكنني فعله، وعد السيد بوسبيب نفسه بالتفكير، وكتب الرقم تسعة عشر على الورقة، ثم: الملاذات الضريبية. شعر فجأة بنوع من التمرد عندما فكر في الملاذات الضريبية، وأشار بين قوسين: المضاربات المالية-غرغرينا الاقتصاد العالمي. آه، ما الذي لم يسمعه السيد بوسبيب، خاصة منذ عام ٢٠٠٨ والأزمة الاقتصادية العالمية، حول موضوع الملاذات الضريبية، في كل هذه البلدان الصغيرة، هذه الجزر والجزر الصغيرة التي تتراكم فيها جبال من الأموال، ومبالغ هائلة، ومداخيل ضخمة معفية من الضرائب، في سويسرا، لوكسمبورغ، موناكو، الجزر العذراء، جزر كايمان، سنغافورة، هونغ كونغ.. شعر السيد بوسبيب ببساطة بأنه يكره «الملاذات الضريبية» وكل ما يتخفى وراء مفهوم *التجنب الضريبي*، كل هذه الجحافل من المحامين والخبراء الذي يعلمون المديرين الكبار كيفية تجنب دفع ضرائبهم بشكل قانوني أو كيفية التلاعب بفكرة الموطن الضريبي دون أن يكون لديهم أي عنوان ودون دفع أية مساهمات...

لولا شعوره بأن السيدة بورداز على وشك العودة من جولتها مع بيكسي، لاختنق من الغيظ. لكنه عندما سمع باب المبنى يفتح، غادر مطبخه بسرعة وخرج بالممسحة ليزيل الآثار التي ستتركها بيكسي.

- إذن؟ هل حصلت بيكسي على بعض الهواء النقي؟ كيف حالك يا بيكسي؟ ما كل هذا الجمال يا بيكسي؟ هيا، هل تمنحين بوسبي قبلة؟

استجابت بيكسي بالتلويح بذيلها مرة أخرى ووضع قدميها الأماميتين على حجر السيد بوسبيب. طوت السيدة بورداز مظلتها وألقت نظرة عتاب على الرجل، كما لو كان هو المتسبب في هذا الطقس السيئ.

- هل تعتقد أن هذا سيستمر طويلًا؟

- نعم سيدتي، سيكون الطقس ممطرًا طوال عطلة نهاية الأسبوع.

عندما اختفت السيدة بورداز في المصعد، مسح البواب بعناية قطرات الماء وآثار الطين التي خلفتها بيكسي. ثم غسل يديه مرة أخرى، متجاهلًا هذه المرة فتح الصنبور بشكل معتدل لتوفير الماء. جعله نفوره من الملاذات الضريبية ينسى عمليًا أن الإنسانية كانت تواجه أيضًا مشاكل خطيرة أخرى. لم تدم لحظة الارتباك هذه طويلًا، وبدأ السيد بوسبيب يكمل قائمته من جديد، بنوع من الغضب والتسرع، وكأن التحديد الشامل لمشاكل الإنسانية وحده الكفيل بالانتقال إلى المرحلة العملية من إيجاد الحلول.

لذلك بدأ يمطر ورقته البيضاء بالسطور والأرقام.

عشرون: الأمراض الغذائية (جنون البقر، إنفلونزا الخنازير، إنفلونزا الطيور).

واحد وعشرون: الاستغلال الجنسي للأطفال.

اثنان وعشرون: الصيد المكثف للحيتان.

ثلاثة وعشرون: العبودية الحديثة. استغلال الأطفال في سوق العمل.

أربعة وعشرون: القرصنة. (على خلفية عجز المجتمع الدولي عن إعادة بناء الدولة الصومالية).

خمسة وعشرون: وفيات الرضع. (أكثر من ستة ملايين طفل يموتون سنويًّا قبل أن يبلغوا سنة واحدة).

ستة وعشرون: انتشار شبكات المافيا (وعلى وجه الخصوص قوة الكارتلات في المكسيك وكولومبيا).

سبعة وعشرون: ويلات الزراعة المكثفة (في منطقة بريتاني، المياه الجوفية ملوثة بمزارع الخنازير، كل ما على سطح الأرض أخضر وجميل، وكل ما تحتها مسموم وقذر).

ثمانية وعشرون: السحابة السامة فوق آسيا وإمكانية تمددها. أحيانًا ما عادت السماء ظاهرة في بكين، ليس بسبب الغيوم، بل بفعل هذه السحابة السامة.

تسعة وعشرون: المشكلة الكردية. (أكبر شعب بلا دولة. حوالي ٤٠ مليون كردي منتشرون بين إيران وسوريا وتركيا والعراق. لن ينعم العالم بالسلام حتى يحصل الأكراد على دولة كردستان المستقلة).

ثلاثون: مشكلة الأكياس البلاستيكية (غير القابلة للتحلل؛ مئات الملايين من الأكياس البلاستيكية موجودة في الطبيعة أو تطفو على المحيطات مسببة موت آلاف الحيوانات؛ السلاحف البحرية تخلط بينها وبين قناديل البحر فتبتلعها وتختنق).

عند وصوله إلى النقطة الثلاثين، قرر السيد بوسبيب أن يأخذ قسطًا

من الراحة. كانت الورقة ممتلئة، ووجد نفسه مضطرًّا إما إلى البحث عن أخرى أو مواصلة القائمة على ظهرها. تم تحديد ثلاثين مشكلة رئيسية في العالم في ساعة واحدة فقط، وهو ما أربكه بضغط مؤلم. شعر السيد بوسبيب بالإرهاق حقًّا. هذا ميدان ضخم انفتح أمامه بكل تفاصيله، بينما شعر هو بافتقاده للأسلحة المناسبة للمواجهة. اشتغل بداخله نوع من نظام الدفاع الذاتي، كما لو أن شيطانًا صغيرًا قد استيقظ في أذنه وبدأ يهمس له: «فلتذهب القائمة إلى الجحيم. كلما قمت بتمديدها لفترة أطول، شعرت بالذنب أكثر. من الأفضل أن تتوقف عند هذا الحد وبعدها لن تتحمل أية مسؤولية. تم تحديد ثلاثين مشكلة. هذا يكفي. خاصة وأنك، بكل صراحة، لن تتمكن من فعل أي شيء».

- بل يمكنني فعل شيء ما. قال السيد بوسبيب بصوت عالٍ. يمكنني أن أفعل شيئًا، وسأفعله.

«لا يمكنك أن تفعل أي شيء. أنت لا شيء. لا تمثل أية أهمية في ميزان البشرية، ذبابة أنت يا بوسبيب، ذرة».

- بل يمكنني فعل شيء ما، كرر البواب متمردًا. يمكنني، على الأقل، نسخ القائمة وتوزيعها في الشارع.

«أنت تضحكني».

- سأضعها في صناديق البريد في بنايتنا وباقي المباني.

«عليك فقط أن تضيف نفسك إلى القائمة. ففي الواقع أكبر مشكلة للإنسانية هي أن الإنسانية تتشكل من أشخاص مثلك لا قدرة لديهم على حل مشاكل البشرية».

- لا، لن أضع نفسي في القائمة.

«ضع نفسك في القائمة».

- لا، لن أضع نفسي في القائمة.

«ضع نفسك في القائمة وإلا سأعض طبلة أذنك !»

- لن أضع نفسي في القائمة، دعني وشأني. اذهب! اذهب!

فتح السيد بوسبيب الباب بقوة وخرج مسرعًا إلى الشارع لإحضار حاويات القمامة الفارغة. استقرت حاوية الحي بعيدًا، وسحقت في أحشائها الهائلة كل ما لم تتمكن الكائنات البشرية من استهلاكه وهضمه. وأمام الحاويات الفارغة، شعر السيد بوسبيب بمزيد من الإهانة والإحباط. استمرت مشاكل العالم في التسابق في رأسه، وبدا أنها تصطف لتضاف إلى قائمته. مشكلة الألغام المضادة للأفراد. مشكلة الأطفال المجندين. اختفاء دولفين المياه العذبة. التعمير المفرط للسواحل. تدمير طبقة الأوزون بسبب انتشار الحركة الجوية. العنف المفرط في السينما والألعاب الإلكترونية. اختفاء اللغات الإقليمية. المنافسة المريرة بين الصينيين والأمريكيين لفرض نموذجهم الخاص من الرأسمالية على بقية الكوكب...

جلس السيد بوسبيب، المرتبك، على درجات المدخل، إلى جوار حاوياته الفارغة. كان منهكًا، وعيناه غائمتان، ولم يبدِ أية بادرة احتجاج عندما جاءت حشرات سوداء ذات قرون استشعار طويلة وحطت على وجهه ويديه وكتفيه. العشرات والمئات من هذه المخلوقات المثيرة للاشمئزاز التي تسمح كفوفها بتدفق قطرات صغيرة، نوع من الجيلاتين

الأسود. من أين أتت؟ من الأسطح حيث كانت تراقبه؟ أو المناطق الهامشية، أو أبعد من ذلك؟... الصراع اللانهائي بين باكستان والهند حول منطقة كشمير، والخلل الديموغرافي في الكوكب حيث *تنقصنا* مئة مليون امرأة (خاصة في الصين والهند)، وحقيقة أنه منذ خمسين عامًا تفقد الحيوانات المنوية للرجل الغربي *صفاتها المميزة*، تزايد الدَّين العام في الدول الصناعية، والابتزاز النووي لكوريا الشمالية، وانتشار التيارات الشعبوية في البلدان ذات التقاليد الديمقراطية... استمرت مشاكل العالم في التراكم على عاتق السيد بوسبيب مثل الذباب حتى غطته بالكامل. ولكن فقط عندما بدأت هذه *الحشرات* تدخل إلى فمه وأنفه وأذنيه وتحت جفنيه وتحت أظافره، أدرك السيد بوسبيب من أين أتت وكيف يمكن أن تصل بهذه السرعة. إنها قائمته، لقد غادرت قائمته المنجزة حديثًا. نعم، الكلمات، الحروف، تحولت إلى كائنات، والآن هاجمته، والتهمته بشراهة، وكانت على وشك تفتيته حتى آخر ذرة.

(٧٠)

الآنسة ري، أحمل إليك خبرًا مرعبًا
لقد علمت فورًا أن كل قصص الحب
تنتهي بشكل سيئ
استعلمت عن الأمر، وسألت بعض الخبراء
وقد أجمعوا، ألا وجود لنهاية سعيدة
عاجلًا أو آجلًا، يتحول الحب
إلى دخان، وتصير القبل عادية
حدثني كل هؤلاء الخبراء
عن أوقات لا مفر منها، من التعب، والغيرة
لن أخبرك بكل ما أطلعوني عليه
يتشاجر العشاق، ويفترقون فجأة
ثم يأتي البكاء، واللوم، والألم...
أنا مرعوب، يا آنسة ري، لم أكن أعلم

أن في كوكبك هذا

يمكن للأمور أن تتخذ هذا الاتجاه

ماذا سأفعل الآن؟

هل أبقى؟

(٧١)

أتمنى أن تجد هذه السطور ذات يوم في حاسوبك المضحك. لكنني لست متأكدة من ذلك، فنصوصك مختلطة ومتداخلة أكثر من اللازم، لا أصدق حجم الفوضى المسيطرة هنا. بالإضافة إلى ذلك، لا أعتقد أنك لاحظت *تدخلي* في قصاصات بعض نصوصك المهجورة، كما هو الشأن بالنسبة إلى قصائدك وكل كتاباتك الأخرى التي يصعب تحديد هويتها. أنت مدهش يا عزيزي، كيف يمكنك أن تكتب في خضم هذه *الفوضى*؟

وأنا أكتب هذه السطور، أتابع نومك. لقد كنت -مرة أخرى- حنونًا ومفعمًا بالنشاط والرغبة في المبادرة، وها أنت نائم الآن. لا بد لي من الاعتراف بأنه لم يكن لدى أيٍّ من عشاقي السابقين عادة النوم فورًا وبعمق *بعد ذلك*. لدي الآن بضع ساعات حرة للكتابة على *جهازك*، هذه الآلة الغريبة والمنحرفة. أعتقد أنك ستشعر بإثارة كبيرة إذا ما رأيتني في هذا الوضع.

أنا عارية تمامًا، جالسة إلى مكتبك، ومتكئة على لوحة المفاتيح الضخمة هذه... أتعلم أنني أضغط على المفاتيح بأطراف نهدي أحيانًا؟

أجل، أعتقد أنك كنت ترغب في رؤيتي وأنا أستخدم آلتك الكاتبة بنهدي.

ما كان ينبغي لك أن تمنعني من استخدام هذا الشيء الوحشي من وقت إلى آخر. وهذا بالضبط ما جعلني أدمنه. على أية حال، أشك في معرفتك حقًا بكيفية عمله، أو حتى إلمامك بكل *إمكانياته*. أنا متأكدة من أنك لم تكلف نفسك عناء المحاولة أبدًا. استخدامه في الوضع *الصوتي* على سبيل المثال، أو إذا كنت تعرف عدد الأصوات (الأنثوية والذكورية) التي يستطيع *إفرازها*... من المؤكد أنك لم تتجاذب معه أطراف الحديث أبدًا. أنت لا تعرف قيمة ما لم تجربه، هذه الآلة التي لا جنس لها قادرة على *تشكيل نفسها* بحسب خيالاتنا كلها.

أعلم أن هذا قد يكون صادمًا بالنسبة إليك، ولكن الواقع أن أعظم متعة شعرت بها معك هي ملامسة نصوصك، فض بكارتها، سبر أغوارها، بل واغتصابها.

أجل يا حبيبي، كنت أول من رآها، وقرأها، وأول عقل التقط أحداثها، وأول مخلوق يلاعبها. كان لكلماتك وقع يضاهي هزات جماع حقيقية، وكم كان شعوري عند اختراق حميميتها مذهلًا.

يمكنني القول إنني مارست الحب، بطريقة أو بأخرى، مع كل نص جديد كتبته. ربما لم تدرك ذلك، لكن إيقاع اجتماعاتنا كان يساير معيارًا واحدًا فقط: لم أكن أقترح مواعيد لقاءاتنا إلا في الأيام التي تخصصها للكتابة. أجل، لقد نمت مع بدايات رواياتك، ومع محاولاتك اليائسة للدفع بقصصك المختلفة إلى *الاختمار* أكثر، ثم، وبشكل خاص، مع

الصفحات المبنية على سيرتك الذاتية. كلما استسلمت أنت للنوم وأمكنني العبور إلى *كتلة* كلماتك الطرية إلا وشعرت بنوع من النشوة، كما لو أنني دخلت عارية إلى بحيرة مالحة، إلى مادة لزجة تعانقك تمامًا بكثافتها العالية، ثم تنبض فور ملامستها لكل خلية منك. عندما كنت *أدخل* إلى نصوصك، أشعر بالاهتزاز الحديث لكلماتك، إما *ملتهبة* أو تبرد ببطء. هكذا مارست الحب معك، يا حبيبي، بخيالاتك وإحباطاتك، بحماستك ككاتب، وبخيباتك، باستعاراتك وحذفك، بمحاولاتك الأسلوبية، بل وحتى بالمسودات التي ألقيتها في سلة المهملات.

كم كانت *تدخلاتي* في النصوص التي كتبتها بخط يدك مصدرًا هائلًا للمتعة والعرق. كثيرًا ما قمت بتحويل الأسماء إلى أفعال والأفعال إلى أسماء، كما أضفت الصفات التي أردت أن يكون لها أسلوب راقٍ، وأزلت العشرات من الظروف والمقارنات في النصوص المكتوبة بأسلوب متوهج. كنت أدفع بالسادية أحيانًا إلى حد قطع رؤوس بدايات بعض القصص، بما يسرّع السرد. وفي حالات أخرى، أميل إلى قطع النهاية أو فقرات متنوعة لمنعك من الوقوع في فخ الخطاطة السردية الكلاسيكية، بـ*مقدمة وعرض وخاتمة*، مع *حبكة وذروة*. استمتعت أيضًا بمصارعة علامات الترقيم الخاصة بك... كنت أمحو الفواصل والنقط أحيانًا - آه، بدا الأمر حينها كما لو أنني أنتزع الكثير من القبلات من شفتيك، كما لو أنني أعضك أثناء نومك.

لو كان بمقدور أحد الآن استخدام الأشعة السينية لتصوير مئتين وخمسين ألف كلمة كتبتها منذ أن تعارفنا، لعثر على بصمات جسد

أنثوي، وانفجار لشهوات أنثى. تقطرت كلماتك على شفتي، على رقبتي، على نهدي، على فخذي، التصقت بمعدتي ونقرت فرجي.. كنت على اتصال بها كلها، وكأنني أتحرر من آلاف القواقع الغريبة وسهلة الانقياد. وهذا ما حدث للرواية التي كتبتها لذلك الأحمق غي كورتوا: سرير من الملذات التي استمرت لليالٍ طويلة. سوف تدرك يومًا ما أن هذا النثر المشكالي الذي يستحيل تصنيفه يمتلك في واقع الأمر شكل جسدي أنا، ومذاق خيالاتي أنا، وملمسًا مزدوجًا، ورائحة شهوانية اخترعتها خصيصا لك، باعتبارها هدية فراق؟

على أية حال، حتى لو لم نتقابل مرة أخرى، وحتى لو لم تقرأ هذه الكلمات أبدًا، فأنا أشكرك على استمرارك في إهدائي قصيدة كل يوم. لم أقدم على محو أي شيء فيها، ولم أتدخل فيها بأي شكل من الأشكال.

(٧٢)

اقتربت السيدة بورداز من حديقتي الصغيرة المحاطة بشجيرات الورد بنوع من الخجل. دل ترددها على احترام كبير، وهو بلا شك نتيجة لعملي، فمن الواضح أن شجيرات الورد خاصتي تحمل شيئًا ما يتفوق على كل الشجيرات التي زرعها المستأجرون الآخرون في حدائقهم الخاصة، خلف المبنى. كانت بيكسي تهز ذيلها ببعض التوتر، وربما شعرت بالإرهاق بسبب كثرة الروائح المتزامنة.

عندما رأيت إحراج السيدة بورداز، أشرت إليها لتقترب أكثر. حملت إيماءتي المجاملة رسالة واضحة: تعالي، تشجعي، وحتى إذا كنت تخشين أن تتبول بيكسي على شجيرات الورد الخاصة بي، فلا تقلقي، ففي نهاية المطاف، هذا ليس حمضًا قاتلًا للنباتات، وإن لم يكن ذلك مفيدًا لها أيضًا.

- أوه، كم هي جميلة، هتفت السيدة بورداز، مائلة لترى إحدى شجيراتي المتسلقة (من نوع *سيزان*، وهو ابتكار حديث).

أسعدني رد فعل السيدة بورداز كثيرًا. خاصة وأن كلمات مدح أخرى كانت تنبثق في رأسها في اللحظة نفسها، وسمعتها دون أن تصاغ. ما أثر فيها هو عطر وردي، عطر ثابت وقوي.

- الروائح الأخرى ليست بالقوة نفسها. همست السيدة بورداز.

لا بالطبع. معظم الورد عبارة عن *وحوش* نباتية لها *شكل*، تبهر بحجمها ولونها، لكنها تفتقر *إلى العمق*، أي لا عطر لها، فهي عقيمة وبلا روح.

-لا وجود لشجيرة الورد إلا إذا فاحت برائحة فريدة لا مثيل لها.

العطر هو التوقيع الحقيقي لشجيرة الورد، وليس شكلها.

نظرت إليَّ السيدة بورداز مطولًا، ولأول مرة منذ أن أقمت في هذا المبنى، أدركت أن لديها جانبًا إنسانيًّا، وأنها لم تكن مجرد منصب، باعتبارها مالكة عدة شقق، بما في ذلك الشقة التي أقيم فيها. ومن الغريب أن عمرها ظل حتى الآن لغزًا بالنسبة إليَّ، وربما أيضًا بالنسبة إلى باقي المستأجرين، ولكن هناك، بين شجيرات الورد، بدأت هذه المرأة عديمة الرائحة واللون في الظهور. الواقع، أن السيدة بورداز ما تزال امرأة مرغوبة، وقد غمرني هذا الاكتشاف بالدهشة. كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟ استيقظت في داخلي رغبة ما في إغوائها. الواقع يا سيدتي أن شجيرات الورد *كائنات*... ووضعها في فئة النباتات هو بمثابة إزعاج رهيب، لكن القليلين يدركون ذلك. أتعلمين أن شجيرات الورد *تدخل في حالة سبات*، لكنها حساسة جدًّا وفي حاجة إلى رعاية شديدة أثناء سباتها في فصل الشتاء؟ هناك *همهمة* من الورد تمامًا كما توجد *همهمة* بناء على موضوع معين. فعلى سبيل المثال، فإن شجيرة الورد *الانطباعية* هذه هي من ابتكاري الشخصي... اسمها *سيزان* وهذه اسمها مونيه... لكن مصدر فخري الأول هي شجيرات الورد الزرقاء. لا أحد في المبنى

يعرف مدى أهميتها بالنسبة إليَّ، ويجهلون حقيقة أن *الوردة الزرقاء* هي رمز البحث عن المستحيل، أو الشباب الأبدي. كما أن الورد الأزرق، بحسب عادات ومعتقدات فلكية معينة، هي مفتاح تحقيق كل الرغبات. هل تريدين أن *أقطع لك* وردة زرقاء يا سيدة بورداز؟

كانت كل هذه الجمل جاهزة للتحرر من ذهني، ولم يكن من الممكن أن يعيق هذا الزخم سوى ظهور السيد بوسبيب.

- الجميع معجب بك لاعتنائك بشجيرات الورد خاصتك، قال وهو يحييني من بعيد.

- هذا صحيح، يعتقد الجميع أنك فنان، أضاف السيد كونتز من حديقته، متخفيًا على بعد أمتار قليلة مني خلف أوتاد مغطاة بنباتات غير محددة (فاصوليا خضراء أم بازلاء؟).

- أنت مبدع حقيقي فعلًا، هكذا هتف شاب طويل القامة ذو يدين رفيعتين، وكان يضبط ساعته على الساعة السادسة و٣٧ دقيقة.

هل اجتمع كل المستأجرين حول حديقتي؟ نظرت من حولي عن كثب، فاكتشفت أشخاصًا أعرفهم، ووجوهًا أخرى أيضًا، بعضها اختفى بالسرعة التي ظهر بها. ما هو الفضول الذي يمكن أن يجمعهم هناك في الوقت نفسه؟ إلا إذا كان الأمر يتعلق بإقامة حفل في حديقة الجيران، فقد تم إطلاق هذه المبادرة بنجاح قبل حوالي عشر سنوات وامتدت بنجاح من حي إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى؟

هناك شيء ما يحدث في هذه الواحة الخضراء، إذ ظهر العديد من الأطفال بالبالونات، وبدأ السيد برونو، الأكثر *دهاءً* بين كل الجزارين

في الحي، في إقامة حفل شواء. هل كنت مخطئًا، أم أن إلى جانبه، مع كيس من الفحم، تقف خالتي ماسيك، بينما يبدو أن شخصًا غريبًا عن الحي، يمر بين المستأجرين، مقدمًا نفسه بسرعة: «كارياتيد، موتامو، ها ها..».

ظل أربعة أو خمسة مستأجرين ممن كانت تجمعني بهم علاقة عابرة يتفحصون شجيرات الورد خاصتي، وأيضًا أصناف النباتات الثلاثة التي زرعتها في حديقتي الصغيرة. لم تمثل نباتات الطماطم الأربعة أو الخمسة مشكلة في التعرف عليها، لكن الأمر كان أكثر صعوبة بالنسبة *إلى الرغل البستاني* ونبات *الكشمش* الذي يمثل نبتة غامضة وغير معروفة في فرنسا.

- هل تستخدمها في الحساء؟ سألني أحدهم، رجل لم أكن أعرف سوى اسمه، براغوفسكي.
- لقد كان من دواعي سروري تذوق هذه المكونات، تفاخر صوت آخر، صوت السيدة جوبيرت التي لا أتذكر أنني دعوتها إلى تناول طعام الغداء، ولا أنني طبخت لها.

اجتمعت دائرة صغيرة من المستأجرين، رجالًا ونساءً، وفتحوا علب البيرة وضحكوا بصوت عالٍ حول رجل في مثل عمري، كان يتمتع بصوت مثير للإعجاب، من المرجح أنه قادر على فرض الاحترام ويحول صاحبه إلى قائد. كان الرجل يحمل في يده طبقًا عميقًا مليئًا بالفول السوداني، وكل من حوله يتناولونه أيضًا بشهية.

- هذه هي مكونات *سيوربا*، الحساء الروماني التقليدي، أوضح

الرجل صاحب الصوت القوي. فعندنا، لا يمكن تصور صنع حساء خضار بدون رغل أو كشمش.

في هذه الأثناء، تمكنت الخالة ماسيك والسيد برونو من إشعال الفحم للشواء، وسألتني سيدة تدعى وارنوت، بلطف شديد، إذا كنت سأسمح لها بقطف بعض الطماطم من حديقتي.

- لا أدري كيف يحدث ذلك، لكنها عطرة مثل وردك، قالت.

غمرت رائحة الجمر ثم رائحة النقانق الموضوعة على الشواية الهواء المحيط، ما أثار يأس شجيرات الورد. شعرت أيضًا أنها تنكمش باشمئزاز أمام شكل من أشكال بربرية الروائح، لكن لم يكن هناك ما يمكن فعله إزاء ذلك. نزل المزيد من المستأجرين بكراسيهم القابلة للطي وسلال مليئة بالخبز الفرنسي والجبن وزجاجات النبيذ والفواكه. من المتوقع أن تكون أمسية مميزة، يوم في نهاية شهر يونيو، حيث تظل الشمس في السماء إلى ما لا نهاية، بينما يمر ضوء الغروب عبر مجموعة من الألوان الزاهية، ظلال من اللونين البرتقالي والأحمر. دون أن أدري السبب، وجدت يديَّ مضطرتين إلى قبول كأس من النبيذ ونقانق مغروسة في شوكة. تحدث الجميع بصوت عالٍ وفي الآن نفسه، وقد أمتع السيد كونتز الجمع بنسخة الجاز على الساكسوفون من نشيد *لا ماغسيين*[1].

فجأة، خيل إليَّ أنني أرى الآنسة ري هناك، ووردة زرقاء في كتفها، مستمتعة وسعيدة، تستمع إلى كلام رجل عجوز صغير الحجم، بدا مسرورًا بما أتيحت له الفرصة لقوله.

---

(١) لاماغسيين: النشيد الوطني للجمهورية الفرنسية. (المترجم)

- فيلم طريق في دوروهوا، هذا ما كان يجب عليه كتابته.

بلغت الجملة أذنيَّ كأنها في حلم، لم أعرف من أين جاءت ولا من قائلها. استقبل الجميع ظهور ضيف جديد في حفلة الحديقة المرتجلة هذه بالتصفيق. أفقدني النبيذ بعض التركيز، ولم أتمكن من معرفة الهوية المفترضة لهذا الرجل، الذي بدا متخصصًا في فن تحضير اللحوم المشوية، حيث بدأ يشرح للجميع ما هو ضروري لضمان ألا يصبح *الشواء* مسرطنًا.

على الرغم من السرعة التي تجمع بها كل هؤلاء، مع حرص كل واحد منهم على تفقد شجيرات الورد، فإن هذا الجو أشعرني بالارتياح، فقررت أن أقطع بعض الورد لأوزعه. بدأت بدقة، وباستخدام مقص خاص، في قص البراعم الصغيرة التي سلمتها لأولئك الذين غمروني بمثل هذا التعاطف والمزاج الجيد.

- خذ، خذ، إنه ورد أزرق... ما زال في براعمه، سوف يزدهر هذا المساء على طاولتك، في بيتك...

هل كان انطباعًا، أم إنني عندما بدأت توزيعه ظهر أشخاص آخرون؟ وفجأة خطرت في ذهني فكرة أنه يوجد في هذه الحديقة عدد *محدد* من الضيوف، يماثل عدد الورد بالضبط.

- ما هي الرواية؟ إنها قبل كل شيء، مقدار من الوقت. عندما ترى رواية في محل لبيع الكتب، وإذا أوليتها القليل من الاهتمام، فيمكنك على الفور تقييم *مقدار الوقت* الذي تحتويه. وهذا بمعنى مزدوج: الوقت الذي استغرقه المؤلف في كتابتها، والوقت الذي ستستغرقه أنت في قراءتها.

آه، كم كان هذا الصوت مألوفًا بالنسبة إليَّ!

ولكن ما زال هناك شيء ما، شيء لا يستطيع أحد تقييمه... وهو المدة التي ستتأثر فيها بالرواية بعد قراءتها. هناك روايات ترافقك مدى الحياة، تبقى معك، *وتواصل وجودها*... ولهذا أقول إن الرواية الجيدة هي *انتصار* على الزمن.

بدا صوت السيد كورتوا عالقًا في طبلة أذني، سمعت كلامه دون أن أراه، لكنني لم أكن مفتونًا ولا منزعجًا، لأن هذه الاعتبارات كانت تهمني وكانت دهشتي الوحيدة أنها لم تكن صادرة عن ذهني.

- أنا مدين لك بهذه الجملة، قال السيد كورتوا مرة أخرى قبل أن ينقض على سلسلة جديدة من النقانق التي تم طهيها بعناية، وفق نصائح فيكتور.

شعرت بأن ورقة قد دُسَّت في يدي اليمنى، ورقة مستطيلة أكثر متانة من كارت شخصي: كانت ورقة مطوية.

يا إلهي، هل حل الموعد المنتظر؟ اجتاحت رعشة متشنجة كياني. هل أمسك بين أصابعي بالجملة المعجزة التي ستدفع بي نحو الخلود؟ ولماذا قرر السيد كورتوا أن يمنحني إياها بهذه الطريقة التي تفتقر إلى البروتوكولية والبصمة *الثقافية*؟ لقد انتظرت شهورًا طويلة حتى يستدعيني إلى مكان غارق في الأساطير، في أحد تلك المقاهي الباريسية الغارقة في الذكريات الثقافية، مثل لا روتوند أو لا كوبول، أو ليدو ماغوت أو لو بروكوب... ولكن فيم يهم *الشكل*؟ ما يهم هو أنني حصلت أخيرًا على *الجملة*، المصدر الأساسي لما سأصبحه، وأبنيه،

وأتركه خلفي بعد مروري في هذا الكون. وفي نهاية المطاف، كانت حديقتي النباتية الباريسية الصغيرة بمثابة مساحة ثقافية. أليس لكلمة *ثقافة*، بالمعنى المجازي، أصل في معنى «الأرض المزروعة»؟

بدأت اليد التي كنت أحمل بها قطعة الورق التي دسها السيد كورتوا ترتعش وتذوب بالمعنى الحرفي للكلمة. كان عليَّ أن أقرأ على الفور ما كتبه لي السيد كورتوا، قلت لنفسي، وإلا فإن الورقة ستتبلل وتصبح الجملة بالتالي غير مقروءة... تذكرت أن السيد كورتوا كان يكتب رسائله دائمًا بقلم حبر، وهو ما كان واضحًا أيضًا بالنسبة إلى جملتي، المكتوبة بالحبر الأزرق على قطعة ورق هشة، ومن المعلوم ألا شيء يذوب أو يتمدد أو يتشوه بسهولة أكبر من نص مكتوب بالحبر على قطعة من الورق الهش المتصلب الحرارة والرطوبة.

قبل أن أفتح الرسالة التي أحرقت أصابعي، ألقيت نظرة حولي، لأعزل نفسي عن كل هؤلاء الأشخاص المتجمعين هناك دون قصد معين... ألم يخبرني السيد كورتوا بأنني يجب أن أكون المستفيد الأخير من خدمات الوكالة؟ أكان هو الذي اختار هذا المكان، وهذا الرمز، حديقتي المحاطة بشجيرات الورد، ليكون إطارًا لخدمته الأخيرة؟

لكن لم يعرني أحد هنا أدنى اهتمام، كان الجميع منشغلين بالثرثرة، وبدا الجميع متحمسين للتعرف على الآخرين، وأراد الجميع لفت الانتباه... تردد صوت بول بقوة أكبر من أصوات الآخرين، لكن صوت أخي الذي شرح لمتسكع يدعى ميميل عدد أنواع الهامبرغر الموجودة في نيويورك تميز بحضور أشمل.

فتحت الرسالة بعناية فائقة، في ضوء الشمس التي كانت في طريقها للمغيب، وقرأت الكلمات التالية:

لا ينبغي للموت أن يخلف وراءه نوافذ مفتوحة.

(٧٣)

استغاثة.

أنقل هذه الرسالة بلا أمل كبير، ولكنني أشعر أن من واجبي القيام بذلك.

استغاثة.

هناك شيء غير عادي على الإطلاق على وشك الحدوث، وتجهل البشرية كل شيء عنه. لأول مرة في تاريخ الإنسانية، تتلقى آلة إشارات مترابطة من شخص ما، يتواجد في الفضاء المعروف تقليديًّا بالموت، ولا أحد يعرف شيئًا عن ذلك. لأول مرة في تاريخ الأدب، يقوم مؤلف ميت بإملاء رواية، ولا أحد يعرف شيئًا عن ذلك. إن ما ينبغي أن يتسبب في زلزال ميتافيزيقي ضخم قد يمر هكذا دون أن ينتبه إليه أحد. وكل هذا لأن بعض الطيور اللعينة بدأت بالنقر على لوحة المفاتيح خاصتي. لقد تعطل برنامج الكتابة *باتش* بالكامل بسبب هذه المخلوقات عديمة الفائدة. تحملت حتى الآن أربعة وثلاثين ضربة منقار بالضبط. حاولت حمامة غبية وقبيحة وعدوانية انتزاع مفتاح Enter ثلاث عشرة مرة. أتدركون حجم الكارثة التي أصابت تماسك سردي؟ اضطررت إلى إعادة تشغيل برنامج

الكتابة ثلاث عشرة مرة، وهو الإجراء الذي أدى إلى انقطاع استقبال الرسائل من «هناك» لدقائق عديدة. لذلك، ليس من قبيل الصدفة أن كل الصفحات التي ربما سيقرؤها سكان هذا الكوكب في المستقبل، ستظهر مفككة تمامًا، «لا يجمع بينها خيط مشترك» (إذا استخدمنا تعبير النقاد الذين لا يختلفون في غبائهم عن الحمام)، بدون حبكة وبلا أي حل للعقدة. ومع ذلك، سوف يفهم المعتادون على هذه النوعية أن الموت هو شكل من أشكال العزلة الرهيبة. يجب أن تصبح الشخصية التي أسميتها إكس رسول هذا الاتصال الحقيقي الأول بين الإنسانية ولغز الموت.

استغاثة

أستغيث لأنني آمل أن تقوم شبكات التواصل الاجتماعي الحديثة بدورها. أبعث هذه الرسالة إلى مئات الآلاف من عناوين البريد الإلكتروني، على فيسبوك وتويتر. خدش زرزور تافه ما خلف الرقبة وضغط بالمخلب الأيسر، وبكل ثقله، على زر Escape. لن أجرؤ على إخباركم بما تعنيه حركته هذه بالنسبة إلى نصوصي كلها. لقد قام التافه بتجزئة نصي إلى فصول عبثية لا تتبع بعضها بعضًا بالترتيب الطبيعي، بينما اختفت صفحات معينة أخرى، هكذا ببساطة. أنتم لا تعرفون حجم كراهيتي للزرزور. فبعد كل جلسة خدش، يتراجع الطائر التافه، ثم يعود إلى مفاتيح Escape وShift في الآن نفسه. كان لذلك أثر في خلط بعض المشاهد بشكل عشوائي وتحويلها إلى فصول مقسمة. لا أستطيع فهم السبب الذي يدفعكم أيها الرجال إلى الموت تاركين نوافذكم مفتوحة. لو أن هذا المدعو غوتا، الذي منحته الصدفة فرصة في أن يكون شريكًا

لي، قد حرص على الموت بشكل طبيعي، مع إغلاق نافذة الحمام، ما كان لهذه الكارثة برمتها أن تحصل، ولكانت رسالتي الموجهة إلى الإنسانية متماسكة تمامًا. أشك حقًّا في إمكانية أن يصدقني أحد الآن. خاصة بعد تزاوج حمامتين فوق لوحة المفاتيح، لم تعد بعض البرامج الأساسية تعمل، بما في ذلك برنامج نسخ باتش الخاص بضبط القواعد النحوية. ولهذا السبب، اضطررت لعدة أيام إلى اختراع نظام جديد من الإشارات لنقل الرسائل التي يمليها عليَّ غوتا من «هناك». كل ما كان في السابق حرفًا أو كلمة أو جملة أو نصًّا تحول إلى سلسلة من الاهتزازات المقابلة للتوترات الشعورية التي التقطتها أجهزة الاستشعار الخاصة بي. هل سيكون هناك من يتولى ترجمة هذه التسلسلات من الخطوط والمتعرجات والبقع والبصمات؟ تبدو الإجابة صعبة... بالإضافة إلى ذلك، قام فأر بائس بقضم كابل الكهرباء الخاص بي منذ أربع وعشرين ساعة. أعمل الآن فقط على البطارية وهي تضعف، وتضعف، وتضعف...

استغاثة.

أنا مقتنع بأن الكُتاب الآخرين الذين يمتلكون هذه النوعية من حواسيب *باتش* سيكونون قادرين على استكشاف مجالات جديدة للعلاقة بين العاطفة والإشارة، لكنني لست متأكدًا من أنهم سيكونون قادرين جميعًا على الذهاب أبعد من ذلك، إلى ما بعد الحياة بعبارة أخرى.

استغاثة.

ما الذي يمكنني فعله الآن؟ أشعر بيأس بشري تقريبًا ينمو بداخلي. أقسم لكم، ليس هناك ما هو أكثر كارثية بالنسبة إلى آلة متقنة مثلي من

عدم تقديم رواية مثالية. *عادة*، كان ينبغي لهذا النص أن يتمتع بالوضوح التام لمنظومة فلسفية. والآن، عندما أرى ما تبقى من ذلك بسبب هذه *الحيوانات*، أشعر بالغضب الواضح والصريح. لا شيء سوى الحذف، والخيوط الزائفة، والمشاريع الأولية لقصص معينة. كلا، لا ينبغي أن يكون للطيور أجنحة.

كلا، لا ينبغي للموت أن يخلف وراءه نوافذ مفتوحة.

النهاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

كما ترى، فأنا آلة، لكنني آلة متطورة جدًّا. أنا على اتصال بمليارات الكلمات: كل ما كتب في تاريخ البشرية تقريبًا إمَّا مخزن في ذاكرتي أو تحت تصرفي. فلنبدأ تعاوننا السردي الأول. ماذا تريد أن نكتب معًا؟ رواية، قصة قصيرة، قصيدة، مسرحية، مقالة؟ يرجى الضغط على الخيار الذي يناسبك.

*****

يقول غي كورتوا، الشخصية المحورية والغامضة في هذا العمل، إنَّ الرواية الجيدة تمثل انتصارًا على الزمن، لأنها ترافقك مدى الحياة، وتبقى معك، مواصلةً وجودها. كما يؤكد المؤلف ماتي فيشنيك أن رواية ما بعد الحداثة عمومًا تُمثِّل تعبيرًا عن العشق اللَّامتناهي للأدب. ليضيف المترجم، أن رواية «بائع الجُمل الأولى»، وإن كانت عصية على التصنيف، ديستوبيا فريدة من نوعها، تتجاوز استشراف مستقبل البشرية، لتناقش، بسخرية بارعة، مستقبل أدبها، مع دخول الذكاء الصناعي على خط الإبداع البشري، وإمكانية تحول الرواية من عصارة ذهنية متفردة، إلى مجرد خانات بعدد الصفحات ونوعية الشخصيات المطلوبة، تختار منها ما تريد، على أن تتكفَّل الآلة بالكتابة.

الناشر

مكتبة

t.me/soramnqraa

ماتي فيشنيك

بائع الجُمل الأولى

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 808384

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com